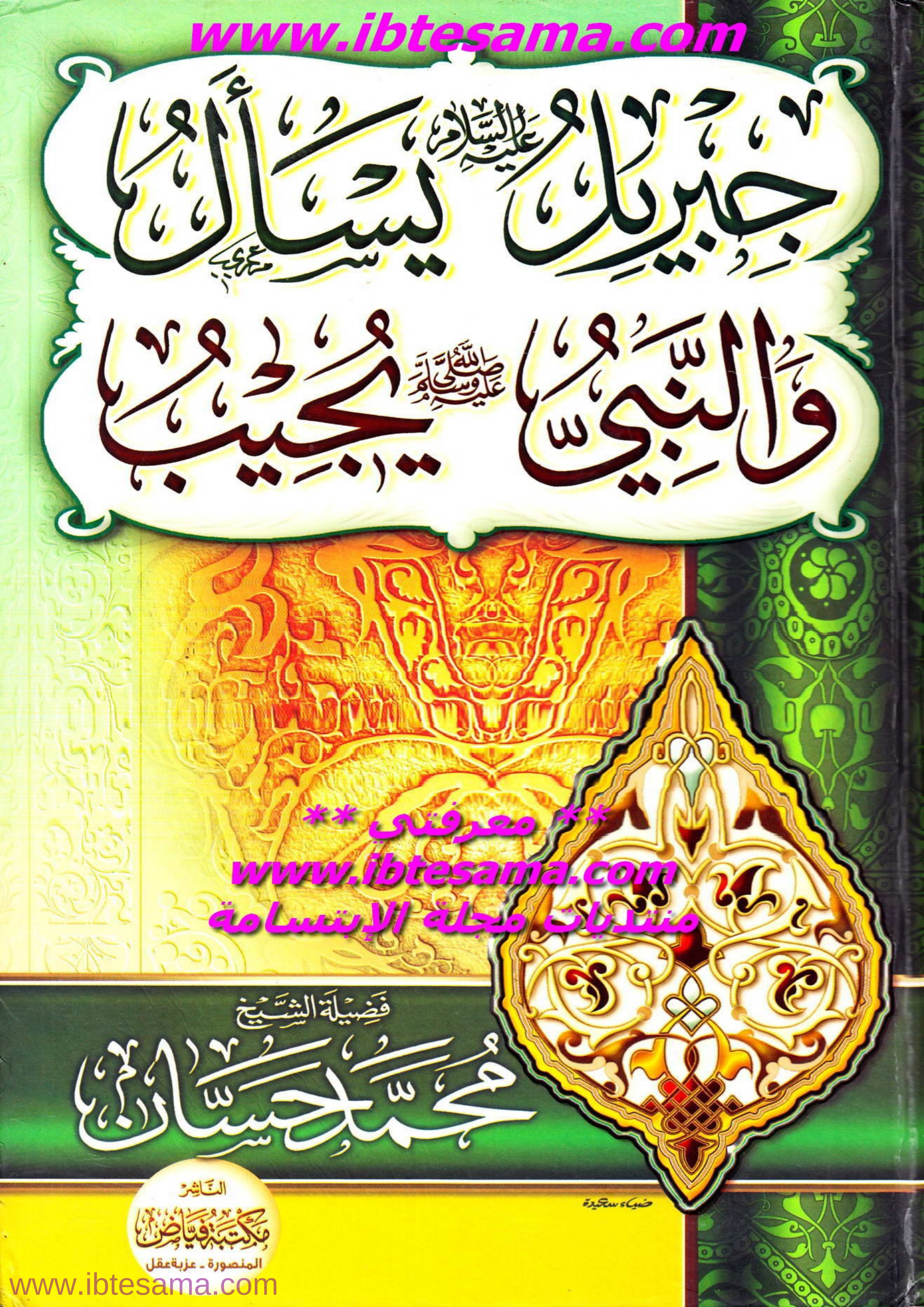
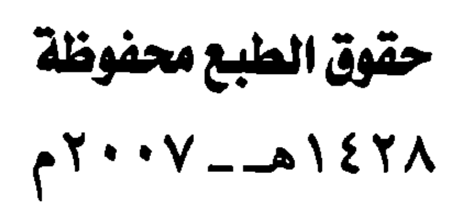


www.ibtesama.com
جبريل عليه السلام يسأل
والنبي صلى الله عليه وسلم يجيب
** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة
فضيلة الشيخ
محمد حسان
الناشر
مكتبة فياض
المنصورة - عزبة عقل
www.ibtesama.com

جبريل عليه السلام يسأل
والنبي ﷺ يجيب



رقم الإيداع بدار الكتب

٢٠٠٩/٨٦٠٣



جبريل عليه السلام يسأل
والنبي صلى الله عليه وسلم يجيب

تأليف
فضيلة الشيخ
مُحَمَّد بن حَسَّان

المجلد الثاني

مكتبة
فياض للتجارة والتوزيع



الركن الخامس
الحج

الركن الخامس : الحج

الحَجُّ : بفتح الحاء وكسرها ، والفتح أكثر .

لغة : أصله القصد ؛ فيقال : « حَجَّهُ حجًا » أي : قصده ، وقيل : هو من قولك : « حججته » إذا أتيته مرة بعد أخرى ، وقيل غير ذلك ، والأول هو المشهور[1] .

وشرعًا : قصد بيت الله الحرام والمشاعر لأداء عبادة مخصوصة في زمن مخصوص بكيفية معينة .

حكم الحج :

هو فرض عين على كلِّ مكلَّفٍ مستطيعٍ في العمر مرَّة ، وهو ركنٌ من أركان الإسلام ثبتت فرضيته بالكتاب والسنة والإجماع .

أما الكتاب : قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران:٩٧] .

أما السنة : فقد ثبتت فرضيته في أحاديثَ كثيرةٍ جدًّا بلغت حدَّ التواتر تفيد اليقين والعلم القطعي الجازم بثبوت هذه الفريضة .

منها : حديث جبريل الذي نحن بصدد شرحه ، وحديث ابن عمر المتقدم : « بُنِيَ الإِسْلامُ عَلَى خَمْسٍ ... » فذكر منها : « .. وَحَجِّ البَيْتِ لِمَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » .

---

(١) « معجم مقاييس اللغة » (٢/ ٢٩) ، و« مختار الصحاح » للرازي (٨٥) ، و« لسان العرب » (٣/ ٥٢) ، و « المجموع » (٧/ ٧) . وانظر في هذا الباب : « صحيح فقه السنة » لأبي مالك كمال سالم .

ولما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ: « أَيُّها النَّاسُ ، قَدْ فَرَضَ الله عَلَيْكُم الحَجَّ فحُجُّوا » فَقَالَ رَجُلٌ : أَكُلَّ عَام يا رَسُولَ الله ، فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلاثًا ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « لَوْ قُلْتُ : نَعَمْ لَوَجَبَتْ ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ . . . » الحديث (١).

أما الإجماع : فقد أجمعت الأمَّة على وجوب الحج على المستطيع مرة واحدة في العمر (إذا لم ينذر أن يحج ؛ فإن نَذَرَ وَجَبَ عليه) وهو من المعلوم من الدِّين بالضرورة يكفر جاحدهُ (٢).

هل يجبُ الحجُّ على الفورِ أم على التراخي ؟

- ذهب أبو حنيفة ـ في أصح الروايتين عنه ـ وأبو يوسف ومالك وأحمد إلى أنَّ مَنْ وُجِدَتْ عنده شروط وجوب الحج ـ التي ستأتي ـ وتحقَّق فرض الحج عليه ؛ فإنه يجب عليه على الفور ويأثم بتأخُّره ولهم أدلة على ذلك .

وذهب الشافعيُّ ومحمد بن الحسن وبعض السلف إلى أنه يجب على التراخي ، فلا يأثم بتأخير الحج مع الاستطاعة بشرط العزم على فعله في المستقبل (٤). ولهم أدلتهم .

وعلى كلٍّ فالأوْلَى التعجيل وعدم التأخير احتياطًا ؛ فإن العبد لا يدري أيمتد في عمرِه حتَّى يحج أم سيموت ؟!

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الحج ، باب فرض الحج مرة في العمر (١٣٣٧) .

(٢) « المغني » (٤/ ٢٩٨) ، و« المجموع » (١٧/ ١٣) .

(٣) انظر : الخلاف في « بداية المجتهد » (٢/ ٢٢٠) وما بعدها .

(٤) المغني » (٤/ ٣٤٠) ، و« المجموع » (٧/ ٨٥) ، و« الفروع » (٣/ ٢٤٢) .

من فضائل الحج

١ـ الحج يمحق الذنوب المتقدمة :

ففي « الصَّحِيحَيْنِ » عن أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قال : « مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ »(١) .

وروى مسلمٌ ، لما أراد عمرو بن العاص أن يبايع النبيَّ ﷺ على الإسلام اشترط أن يُغْفَرَ لَهُ ، فقال النبيُّ ﷺ : « أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ ؟ وَأَنَّ الهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا ؟ وَأَنَّ الحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ ؟ »(٢) .

٢ـ سبب لسعة الأرزاق :

روى الترمذيُّ والنسائيُّ وأحمد عن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما أن رسُولَ الله ﷺ قَالَ : « تَابِعُوا بَيْنَ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ ، فَإِنَّهُمَا يَنْفِيَانِ الفَقْرَ وَالذُّنُوبَ ، كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ وَالذَّهَبِ وَالفِضَّةِ ، وَلَيْسَ لِلحَجِّ المَبْرُورِ ثَوَابٌ دُونَ الجَنَّةِ »(٣) .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المحصر ، باب قوله الله تعالى : ﴿ فَلَا رَفَثَ ﴾ [البقرة:١٩٧] ، (١٨١٩ ، ١٨٢٠) وانظر : (١٥٢١) ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (١٣٥٠) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب كون الإسلام يهدم ما قبله وكذا الهجرة والحج (١٢١) .

(٣) أخرجه النسائيُّ ، كتاب مناسك الحج ، باب فضل المتابعة بين الحج والعمرة (٢٦٢٩ ، ٢٦٣٠) ، والترمذيُّ ، كتاب الحج ، باب ثواب الحج والعمرة (٨١٠) وقال : « حديث حسن صحيح غريب» ، وأحمد (١/ ٣٨٧) ، وصحَّح إسناده الشيخ أحمد شاكر ، وابن حبان (٣٦٩٣) ، والطبراني في « الكبير » (١٠٤٠٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٤/ ١١٠) ، وابن أبي شيبة (٤/ ١/ ٧٤) ، وابن خزيمة (٢٥١٢) ، والبغوي (١٨٤٣) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح سنن الترمذي والنسائي » ، و« صحيح الجامع » (٢٨٩٩ ، ٢٩٠٠ ، ٢٩٠١) .

٣ـ الحج جزاؤه الجنة :

لما في الحديث السابق ؛ ولما رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « العُمْرَةُ إِلَى العُمْرةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا ، وَالحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلاَّ الجَنَّةُ »[(١)].

٤ـ الحج سبب للعتق من النار :

روى مسلمٌ عن عائشةَ رضي الله عنها قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُعْتِقَ الله فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَإِنَّهُ لَيَدْنُو ثُمَّ يُبَاهِي بِهِمُ المَلاَئِكَةَ . فَيَقُولُ : مَا أَرَادَ هَؤُلاَءِ ؟ »[(٢)].

٥ـ الحج من أفضل الأعمال :

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ : سُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ : أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « إِيمَانٌ بِالله » ، قَالَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : « الجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله » قَالَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : « حَجٌّ مَبْرُورٌ »[(٣)].

٦ـ الحج أفضل جهاد النساء :

روى البخاريُّ عن عائشةَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ : يَا رَسُولَ الله ، نَرَى الجِهَادَ أَفْضَلَ العَمَلِ ، أَفَلاَ نُجَاهِدُ ؟

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العمرة ، باب وجوب العمرة وفضلها (١٧٧٣) ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (١٣٤٩) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الحج ، باب فضل الحج والعمرة ويوم عرفة (١٣٤٨) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب من قال : إن الإيمان هو العمل (٢٦) ، وانظر طرفه هناك ، وانظر : « صحيح مسلم » ، كتاب الإيمان ، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (٨٣) .

قَالَ : « لاَ ، لَكِنَّ أَفْضَلَ الجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ »[١].

٧ـ الحاجُ إذا مات في حجه يُبعثُ ملبيًا :

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ : بَيْنَمَا رَجُلٌ وَاقِفٌ بِعَرَفَةَ إِذْ وَقَعَ عَنْ رَاحِلَتِهِ فَوَقَصَتْهُ .. وفيه قَالَ ﷺ : « وَلَا تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ ، فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ القِيَامَةِ مُلَبِّيًا »[٢].

شروط إيجاب الحج

وهذه شروط إذا توفرت في شخصٍ وَجَبَ عليه الحج :

١ـ الإسلام ٢ـ العقل ٣ـ البلوغ ٤ـ الحرية ٥ـ الاستطاعة .

قال ابن قدامة : « لا نعلم في هذا كله اختلافًا »[٣].

فلا يصح الحج من الكافر أو المجنون ؛ أما البلوغ والحرية ، فهما شرطان لإجزاء الحج عن الفريضة كذلك ، وليسا شرطين لصحة الحج ، فلو حج الصبيُّ والعبد صحَّ حجهما ولا يجزئهما عن حجة الإسلام .

روى مسلمٌ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ : ...فَرَفَعَتْ إِلَيْهِ ــ أي : لرسول الله ﷺ ـ امْرَأَةٌ صَبِيًّا فَقَالَتْ : أَلِهَذَا حَجٌّ ؟ قَالَ : « نَعَمْ .وَلَكِ أَجْرٌ »[٤].

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الحج ، باب فضل الحج المبرور (١٥٢٠) ، وانظر أطرافه هناك .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب الكفن في ثوبين (١٢٦٥) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب ما يفعل بالمحرم إذا مات (١٢٠٦) .

(٣) « المغني مع الشرح » (٤/ ٣٢٩) .

(٤) أخرجه مسلم ، كتاب الحج ، باب صحة حج الصبي وأجر من حج به (١٣٣٦) .

أمَّا أن حجهما لا يجزئهما .

فلما رواه ابن خزيمة والحاكم والبيهقيُّ عن ابن عباسٍ أنَّه ﷺ قَالَ : « أَيُّمَا صَبِيٌّ حَجَّ ثُمَّ بَلَغَ فَعَلَيْهِ حَجَّةٌ أُخْرَى ، وَأَيُّمَا عَبْدٍ حَجَّ ثُمَّ عُتِقَ فَعَلَيْهِ حَجَّةٌ أُخْرَى »[١].

أمَّا الاستطاعة ؛ فهي شرط لوجوب الحج ، فلو تحمَّل الرجل المشاق والمتاعب وحجَّ كان حجه صحيحًا مجزئًا عنه ، كما لو تكلف القيام في الصلاة والصيام من يسقط عنه إجزاؤه [٢].

بم تتحقق الاستطاعة ؟

تتحقق بما يأتي :

١ـ صحة البدن وسلامته من الأمراض التي تعوقه عن أفعال الحج ؛ لما رواه البخاريُّ ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ امْرَأَةً مِنْ خَثْعَم قالت : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّ فَرِيضَةَ الله عَلى عِبَادِهِ في الحَجِّ أَدْرَكَتْ أَبِي شَيخًا كَبِيرًا لاَ يَثْبُتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ ، أَفَأَحُجُّ عَنْهُ ؟ قَالَ : « نَعَمْ » وَذلِكَ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ [٣].

فمن وُجِدَت فيه سائر الشروط وكان مريضًا مُزمنًا أو مُقْعَدًا فلا يجب عليه أداء الفريضة بنفسه اتفاقًا .

---

(١) أخرجه الشافعيُّ في « مسنده » (١/ ٢٩٠) ، والطحاويُّ (١/ ٤٣٥) ، والبيهقيُّ (٥/ ١٥٦) ، والحاكم (١/ ٤٨١) ، وابن خزيمة (٣٠٥٠) ، والخطيب في « التاريخ » (٨/ ٢٠٩) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « الإرواء » (٩٨٦) .

(٢) « المغني » مع الشرح (٤/ ٣٢٩، ٣٣٠) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الحج ، باب وجوب الحج وفضله (١٥١٣) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب الحج عن العاجز لزمانة وهرم ونحوهما أو للموت (١٣٣٤) .

لكن اختلفوا هل يلزمه أن ينيب من يحج عنه ؟

فذهب الشافعية والحنابلة وصاحبا أبي حنيفة أنه يلزمه ؛ بناء على أن صحة البدن شرطٌ للأداء بالنفس لا شرط للوجوب .

وقال أبو حنيفة ومالك : لا يلزمه [١].

والظاهر أنه يلزمه ، ويدلُّ على ذلك حديث ابن عباس السابق ؛ ففي بعض روايته : « أَرَأَيْتِ إِنْ كَانَ على أبيكِ دَيْنٌ ، أَكُنْتِ قَاضِيَتَهُ ؟» قَالَتْ : نَعمْ ، قَالَ : « فَدَيْنُ الله أَحقُّ أَنْ يُقْضَى » [٢].

٢ــ مِلْكُ ما يكفيه في رحلته وإقامته وعودته فاضلًا عن حاجاته الأصلية من دَيْن ونفقة من تلزمه نفقتهم ، عند جمهور العلماء [٣].

خلافًا للمالكية . ويدخل في هذا ملك الزاد والراحلة ، وقد فُسِّرَ السبيل في قوله تعالى : ﴿ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران:٩٧] ، بالزاد والراحلة ، وقد رُوِيَ مرفوعًا ولا يصح ؛ بل الصحيح أنه موقوف [٤].

٣ــ أمن الطريق : وهو يشمل الأمن على النفس والمال وقت خروج الناس للحج ؛ لأن الاستطاعة لا تثبت بدونه .

هل المرأة مع هذه الشروط كالرجل ؟

يشترط للمرأة شرطٌ آخرٌ على ما تقدَّم ، ألا وهو : أن يصحبها زوْجٌ أو مَحْرَمٌ ؛ وهو كل من يحرم عليه الزواج منها وهو لنسب أو رضاعة .

---

(١) « نهاية المحتاج » (٢/ ٣٨٥) ، و« الكافي » (١/ ٢١٤) ، و« شرح فتح القدير » (٢/ ١٢٥) .

(٢) النسائي (٢٦٣٣) ، وانظر : « المحلى » (٧/ ٥٧) .

(٣) « المجموع » (٧/ ٥٦ ، ٥٧) ، و« الموسوعة الفقهية » (١٧/ ٣١) .

(٤) « تفسير الطبري » (٤/ ١٥) ط شاكر .

وهذا مذهب الأحناف والحنابلة [١]، وذَهَبَ الشافعية والمالكية إلى أنَّ المحْرَم ليس شرطًا في الحج لكنهم اشترطوا أمن الطريق والرفقة المأمونة .

وأجاز الظاهرية للمرأة التي لا زوج لها ولا مَحْرَم أو أَبَى زوجها الحج معها أن تحج بدون محرم [٢].

وإذا حجَّت بدون مَحرم صحَّ حجها وأثمت لخروجها بدون مَحرم .

هل تستأذن المرأة زوجها للحج ؟ وهل له منعها [٣]؟

١ـ إذا توافرت الشروط السابقة في المرأة يستحب لها أن تستأذن زوجها ؛ فإن أَذِنَ لها وإلا خرجت بغير إذنه ؛ لأنه ليس للزوج أن يمنعها من الذهاب إلى حج الفريضة عند جمهور العلماء ؛ لأن حق الزوج لا يقدم على فرائض الأعيان كالصَّلاة والصِّيام والحج وغيره .

٢ـ إذا كان حجها حج نذر : فإن كانت نذرته بإذن زوجها أو نذرته قبل الزواج ثم أخبرته به فأقرَّه فليس له منعها ، أما إذا نذرته رغمًا عنه فله منعها ، وقيل : ليس له منعها ؛ لأنه واجب كحجة الإسلام .

٣ـ إذا كان حجها تطوعًا أو حجًّا عن غيرها : فيجب عليها استئذان الزوج إجماعًا ، ويجوز له أن يمنعها .

---

(١) « بداية المجتهد » (٢/ ٢٢١) وما بعدها ، و« المغني » (٤/ ٣٦٧) و« المجموع » (٧/ ٦٨) .

(٢) « المحلى » (٧/ ٤٧) .

(٣) « المغني مع الشرح » (٤/ ٣٧٣) ، و« الأم » (٢/ ١١٧) ، و« فتح القدير » (٢/ ١٣٠) ، و« المحلى » (٧/ ٥٢) .

هل تخرج المعتدة للحج ؟

المرأة المُعْتَدَّة عن طلاق أو وفاة مدة إمكان السير للحج لا يجب عليها الحج عند الجمهور ؛ لأن الله تعالى نهى المعتدَّات عن الخروج ؛ فقال : ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾

[الطلاق:١]

ولأن الحج ممكنٌ أداؤه في وقت آخر . أما العِدَّة فتجب في وقت مخصوص ، فكان الجمع بين الأمرين أوْلَى .

وفرَّق الحنابلة بين خروجها للحج في عدَّةِ الطَّلاق ، وعدَّة الوفاة فمنعوه في عدَّة الوفاة وأجازوه في عدَّة الطلاق المبتوت [١] .

الحج عن الغير

يجوز الحج عن العاجز : الذي عجز عن الحج بسبب كِبَرٍ ، أو مرضٍ مزمنٍ ويسمَّى المعضوب ، فإنه يلزمه أن يقيم من يحج عنه من ماله . وهذا قول الجمهور ، خلافًا لمالك ؛ فقد منع ، وإذا حُجَّ عن المعضوب أو هذا العاجز ثم عافاه الله ، فذهب أحمد وإسحاق وابن حزم إلى أنه قد برئت ذمَّته ولا يطالب بالحج بنفسه بعد ذلك .

وذهب أبو حنيفة والشافعيُّ وابن المنذر إلى أنه يلزمه الحج ولابد [٢] .

ومَنْ مات وهو مستطيع ـ بأحد الوجوه المتقدمة ـ أن يحج ولم يحج ،

(١) « المغني » (٤/ ٣٧٣) ، و« مغني المحتاج » (١/ ٥٣٦) .

(٢) « المغني مع الشرح » (٤/ ٣٥٣) ، و« المحلى » (٧/ ٦٢) .

حُجَّ عنه مِنْ رأسِ مالِه مقدَّمًا على ديون الناس إن لم يوجد من يحج عنه تطوعًا ، سواء أوْصَى بذلك أم لم يوصِ ، وهو قول الشافعيِّ وأحمد وطائفة من السلف خلافًا لأبي حنيفة ومالك ، فإنهما قالا: لا يُحج عنه إلا أن يوصي بذلك فيكون من ثلث ماله [(١)].

يشترط فيمن يريد الحج عن غيره أن يكون قد حجَّ هو عن نفسه حجة الإسلام حتى يجزئ حجه عن غيره ، وهو قول الشافعية والحنابلة وأكثر أهل العلم ، وبه قال ابن عباس ، ولا يعلم له من الصحابة مخالف .

وقال أبو حنيفة ومالك : يجزئ الحج وإن لم يحج عن نفسه [(٢)].

واستدل الأولون بحديث ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ : لَبَّيْكَ عَنْ شُبْرُمَةَ ، قَالَ : « مَنْ شُبْرُمَةَ ؟ » قال : أَخٌ لِي أَوْ قَرِيبٌ لِي . قَالَ : « حَجَجْتَ عَنْ نَفْسِكَ ؟ » قَالَ : لا ، قَالَ : « حُجَّ عَنْ نَفْسِكَ ، ثُمَّ عَنْ شُبْرُمَةَ » [(٣)].

ويُشرع حج النفل عن الغير بإطلاق وإن كان مستطيعًا ؛ لأنها حجة لا تلزم المستطيع نفسه ، فجاز أن يستنيب فيها كالمعضوب ؛ ولأنه يتوسع في النفل ما لا يتوسع في الفرض ؛ فإذا جازت النيابة في الفرض

---

(١) « المجموع » (٧/ ٩٣) وما بعدها، و« المحلى » (٧/ ٦٢) .

(٢) « المغني » (٤/ ٣٧٨) وما بعدها ، و« المجموع » (٧/ ٩٨) ، و« الفروع » (٣/ ٢٦٥) .

(٣) أخرجه أبو داود ، كتاب المناسك ، باب الرجل يحج عن غيره (١٨١١) ، وابن ماجه ، كتاب المناسك ، باب الحج عن الميت (٢٩٠٣) ، وابن خزيمة (٣٠٣٩) ، والبيهقي (٤/ ٣٣٦) ، والدارقطني (٢/ ٢٦٨) وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح سنن أبي داود وابن ماجه » ، و« الإرواء » (٩٩٤) ، و« صحيح الجامع » (٣١٢٨) .

ففي النفل أولى، وهو مذهب جمهور العلماء من الحنابلة والحنفية والمالكية، لكنهم قالوا مع الكراهة.

ويجوز للمرأة أن تحج عن امرأةٍ أخرى باتفاق العلماء سواء كانت بنتها أو غير بنتها[1].

ويجوز للمرأة أن تحج عن الرجل، وهو قول جمهور العلماء الأئمة الأربعة وغيرهم، لحديث الخثعمية المتقدم.

ومن حج بمالٍ حرامٍ أو راكبًا دابة مغصوبة أَثِمَ، وصحَّ حجه وأجزأه عند أكثر العلماء.

وخالف في ذلك الإمام أحمد رحمه الله[2]

المواقيت

وهي جمع ميقات، وتنقسم إلى زمانية ومكانية:

١ـ المواقيت الزمانية: هي الأوقات التي لا يصح شيء من أعمال الحج إلا فيها، وقد ذكرَهَا الله تعالى في قوله: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧]، فهذا نصٌّ على أن للحج أوقات منصوصة فلا يحل الإحرام بالحج إلا في أشهر الحج، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق:١]، فمن أحرم بالحج قبل أشهره لم يصح منه[3].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٦/ ١٢).

(٢) «المجموع» (٧/ ٥١).

(٣) «المحلى» (٧/ ٦٥، ٦٦)، و«المجموع» (٧/ ١٢٨) وما بعدها، و«المغني» (٤/ ٣٧٤).

وهو الراجح وهو قول الصحابة ﷺ وروي عن الشعبي وعطاء أنه يحل من إحرامه .

وقال الأوزعي والشافعي : تصير عمرة ولابد .

وقال أبو حنيفة ومالك وأحمد : يكره ذلك ويلزمه إن أحرم به قبل أشهر الحج .

أشهر الحج

١ـ المواقيت الزمانية

وهي: شوال ، وذو القعدة ، وتسع من ذي الحجة اتفاقًا .

ثم حصل خلافٌ في يوم النحر وبقية ذي الحجة على ثلاثة أقوال :

١ـ أنها شوال وذو القعدة وعشر من ذي الحجة : وهو مذهب الأحناف والحنابلة ، ويروى عن ابن مسعود ، وابن عباس ، وابن عمر ، وابن الزبير ، وجماعة من السلف [(١)].

٢ـ أنها شوال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة ، فلا يدخل يوم النحر في أشهر الحج ، وهو مذهب الشافعية [(٢)].

٣ـ أنها شوال وذو القعدة وذو الحجة كلُّه : وهذا مذهب مالك وابن حزم ، ومرويٌّ عن عمر وابنه وابن عباس ﷺ [(٣)].

---

(١) « شرح فتح القدير » (٢/ ٢٢٠) ، و« المغني » (٣/ ٢٧٥) .

(٢) « المجموع » (٢/ ١٣٥) ، و« نهاية المحتاج » (٣/ ٢٥٦) .

(٣) « بداية المجتهد » (٣/ ٣٥١) ، و« المحلى» (٧/ ٦٩) ، و« الكافي في مذهب أهل المدينة » (١/ ٣٥٧) .

٢ـ المواقيت المكانية

وهي أماكن حددَّها الشرع ليُحْرِمَ منها من أراد الحج أو العمرة ، ولا يجوز له أن يتجاوزها ـ إن كان قاصدًا للحج أو العمرة ـ دون أن يحرم ، وهذه المواقيت لكل مَنْ مَرَّ بها ـ مريدًا للنسك ، سواء كان من أهل تلك الجهات أو لم يكن ، وهذه الأماكن :

١ـ ذو الحُليفة : لأهل المدينة ، وهي المعروفة الآن (بأبيار عليٍّ) .

٢ـ الجُحفة : وهي لأهل الشام ومصر والمغرب ، وهي قريبة من (رابغ) التي جُعلت الآن الميقات .

٣ـ قرن المنازل : وهي لأهل نجد ، وهي المعروفة الآن بـ (وادي السيل) .

٤ـ يَلَمْلَم : وهي لأهل اليمن .

وهذه المواقيت الأربعة متفق عليها ، لما رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ : « وَقَّتَ رَسُولُ الله ﷺ لأَهْلِ المَدِينَةِ ذَا الحُلَيْفَةِ وَلأَهْلِ الشَّأمِ الجُحْفَةَ ، وَلأَهْلِ نَجْدٍ قَرْنَ المَنَازِلِ ، وَلأَهْلِ اليَمَنِ يَلَمْلَمَ ، فَهُنَّ لَهُنَّ وَلِمَنْ أَتَى عَلَيْهِنَّ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِنَّ لِمَنْ كَانَ يُرِيْدُ الحَجَّ وَالعُمْرةَ ، فَمَنْ كَانَ دُونَهُنَّ فَمُهَلُّهُ مِنْ أَهْلِهِ ، وَكَذَلِكَ حَتَّى أَهْلُ مَكَةَ يُهِلُّونَ مِنْهَا »[1] .

٥ـ ذات عرق : لأهل العراق والمشرق وهو مكان قريب من العقيق .

وقد اخْتُلِفَ فيمن وَقَّتَهُ ؛ فقيل : عمر ؛ لحديث ابنِ عُمَر رضي الله عنهما قَالَ :

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الحج ، باب مهل أهل مكة للحج والعمرة (١٥٢٤، ١٥٢٩) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب مواقيت الحج والعمرة (١١٨١) .

« لَمَّا فُتِحَ هَذَانِ المِصْرَانِ أَتَوا عُمَرَ فَقَالُوا : يَا أَميرَ الْمُؤمِنينَ ، إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ حَدَّ لأَهْلِ نَجْدٍ قَرْنًا وَهُوَ جَوْرٌ عَنْ طَرِيقِنَا ، وَإِنَّا إِنْ أَرَدْنَا قَرْنًا شَقَّ عَلَيْنَا . قَالَ : فَانْظُروا حَذْوَها مِن طَرِيقِكُمْ . فَحَدَّ لَهُمْ ذَاتَ عِرْقٍ »[1].

وقيل : بل حَدَّهُ النبيُّ ﷺ لحديث جابر : « مُهَلُّ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مِنْ ذِي الْحُلَيْفَةِ ، وَالطَّرِيْقُ الآخَرُ الجُحْفَةُ ، وَمُهَلُّ أَهْلِ العِرَاقِ مِنْ ذَاتِ عِرْقٍ ، وَمُهَلُّ أَهْلِ نَجْدٍ مِنْ قَرْنٍ ، وَمُهَلُّ أَهْلِ اليَمَنِ مِنْ يَلَمْلَمْ »[2].

وهو مُخْتَلَفٌ في رفعه ، لكن يؤيد الرَّفع حديث عائشة رضي الله عنها : « أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ وَقَّتَ لأَهْلِ العِراقِ ذاتَ عِرْقٍ »[3].

ويُجْمَعُ بأن النبيَّ ﷺ هو الذي وقَّته ، وخفي علمه على عمر رضي الله عنه فاجتهد فوافق السنة ، وكم له من موافقات للشرع .

* المقيم بمكة ميقاته : منازل مكة ، والمقيم بين مكة وأحد هذه المواقيت ، فميقاته منزله .

* ومن كان طريقه لا يمر بشيء من هذه المواقيت ، فإذا حاذى أقربها أَحْرَمَ منه ، وكذلك من كان في طائرة ، فإنه يرتدي ملابس الإحرام ، فإذا حاذى الميقات ؛ وكان فوقه أحرم ، ولا يؤخره إلى أن يهبط[4].

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الحج ، باب ذات عرق لأهل العراق (١٥٣١) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الحج ، باب مواقيت الحج والعمرة (١١٨٣) .

(٣) أخرجه أبو داود ، كتاب المناسك ، باب في المواقيت (١٧٣٩) ، والنسائي ، كتاب المناسك ، باب ميقات أهل مصر (٢٦٥٢) ، والدارقطني (٢/ ٢٣٦) ، والبيهقي في « السنن » (٥/ ٢٨) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « الإرواء » (٩٩٩) .

(٤) « أوضح المسالك إلى أحكام المناسك » للسلمان (ص٤٢ ، ٤٣) باختصار .

صفةُ حجَّةِ النبيِّ ﷺ كما رواها جابر ﷺ

عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : دخلنا على جابر بن عبد الله فَسأَل عَنْ القَوْمِ حَتَّى انْتَهَى إِلَيَّ . فَقُلْتُ : أَنَا مُحَمَّدُ بنُ عَلِيٍّ بنِ حُسَيْنٍ : فَأَهْوَى بِيَدِهِ إِلَى رَأْسِي فَنَزَعَ زِرِّي الأَعْلَى ، ثُمَّ نَزَعَ زِرِّي الأَسْفَلَ ، ثُمَّ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ ثَدْيَيَّ وَأَنَا يَوْمَئِذٍ غُلامٌ شَابٌّ ، فَقَالَ : مَرْحَبًا بِكَ يَا ابْنَ أَخِي ، سَلْ عَمَّا شِئْتَ . فَسَأَلْتُهُ ، وَهُوَ أَعْمَى ، وَحَضَرَ وَقْتُ الصَّلاَةِ ، فَقَامَ فِي نِسَاجَةٍ مُلْتَحِفًا بِهَا ، كُلَّمَا وَضَعَهَا عَلَى مَنْكِبِهِ رَجَعَ طَرَفَاهَا إِلَيْهِ مِنْ صِغَرِهَا ، وَرِدَاؤُهُ إِلَى جَنْبِهِ ، عَلَى المِشْجَبِ ، فَصَلَّى بِنَا ، فَقُلْتُ : أَخْبِرنِي عَن حَجَّةِ رَسُولِ الله ﷺ ؟ فَقَالَ بِيَدِهِ فَعَقَدَ تِسْعًا ، فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ مَكَثَ تِسْعَ سِنِينَ لَمْ يَحُجَّ ، ثُمَّ أَذَّنَ فِي النَّاسِ فِي العَاشِرَةِ ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ حَاجٌّ ، فَقَدِمَ الْمَدِينَةَ بَشَرٌ كَثِيرٌ ، كُلُّهُمْ يَلْتَمِسُ أَنْ يَأْتَمَّ بِرَسُولِ الله ﷺ ، وَيَعْمَلَ مِثْلَ عَمَلِهِ ، فَخَرَجْنَا مَعَهُ ، حَتَّى أَتَيْنَا ذَا الحُلَيْفَةِ ، فَوَلَدَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ مُحَمَّدَ بنْ أَبِي بَكْرٍ ، فَأَرْسَلَتْ إِلى رَسُولِ الله ﷺ : كَيْفَ أَصْنَعُ ؟ قَالَ : « اغْتَسِلِي وَاسْتَثْفِرِي بِثَوْبٍ وَأَحْرِمِي » فَصَلَّى رَسُولُ الله ﷺ فِي المَسْجِدِ ، ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ ، حَتَّى إِذَا اسْتَوَتْ بِهِ نَاقَتُهُ عَلَى الْبَيْدَاءِ ، نَظَرْتُ إِلَى مَدِّ بَصَرِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، مِنْ رَاكِبٍ وَمَاشٍ ، وَعَنْ يَمِينِهِ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَعَنْ يَسَارِهِ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَمنْ خَلْفِهِ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَرَسُولُ الله ﷺ بَيْنَ أَظْهُرِنَا ، وَعَلَيْهِ يَنْزِلُ الْقُرْآنُ وَهُوَ يَعْرِفُ تَأْوِيلَهُ ، وَمَا عَمِلَ بِهِ مِنَ شَيْءٍ عَمِلْنَا بِهِ فَأَهَلَّ بِالتَّوْحِيدِ : «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ ،

إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكُ ، لاَ شَرِيكَ لَكَ » ، وأَهَلَّ النَّاسُ بِهَذَا الَّذِي يُهِلُّونَ بِهِ ، فَلَمْ يَرُدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيْهِمْ شَيْئًا مِنْهُ ، وَلَزِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَلْبِيَتَهُ ، قَالَ جَابِرٌ رضي الله عنه : لَسْنَا نَنْوِي إِلاَّ الْحَجَّ ، لَسْنَا نَعْرِفُ الْعُمْرَةَ حَتَّى إِذَا أَتَيْنَا الْبَيْتَ مَعَهُ ، اسْتَلَمَ الرُّكْنَ ، فَرَمَلَ ثَلاَثًا ، وَمَشَى أَرْبَعًا ، ثُمَّ نَفَذَ إِلَى مَقَامِ إِبراهِيمَ عليه السلام. فَقَرَأَ : « ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ » [البقرة:١٢٥] ؛ فَجَعَلَ المَقَامَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ فكَانَ أَبِي يَقُولُ : « وَلَا أَعْلَمُهُ ذَكَرَهُ إِلاَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ » : كَانَ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]، وَ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الكافرون:١] ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الرُّكْنِ فَاسْتَلَمَهُ ، ثُمَّ خَرَجَ مِنَ الْبَابِ إِلَى الصَّفَا ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ الصَّفَا قَرَأَ :

« ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ » [البقرة: ١٥٨] .

« أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ » فَبَدَأَ بِالصَّفَا ، فَرَقِيَ عَلَيْهِ ، حَتَّى رَأَى الْبَيْتَ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ ، فَوَحَّدَ اللهَ ، وَكَبَّرَهُ ، وَقَالَ : « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ » .

ثُمَّ دَعَا بَيْنَ ذَلِكَ ، قَالَ مِثْلَ هَذَا ثَلاَثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ نَزَلَ إِلَى الْمَرْوَةِ ، حَتَّى إِذَا انْصَبَّتْ قَدَمَاهُ فِي بَطْنِ الْوَادِي سَعَى ، حَتَّى إِذَا صَعِدَتَا مَشَى ، حَتَّى أَتَى الْمَرْوَةَ ، فَفَعَلَ عَلَى الْمَرْوَةِ كَمَا فَعَلَ عَلَى الصَّفَا ، حَتَّى إِذَا كَانَ آخِرُ طَوَافِهِ عَلَى الْمَرْوَةِ فَقَالَ : « لَوْ أَنِّي اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لَمْ أَسُقِ الْهَدْيَ ، وَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ لَيْسَ مَعَهُ هَدْيٌ فَلْيَحِلَّ ، وَلْيَجْعَلْهَا عُمْرَةً »

فَقَامَ سُرَاقَةُ بْنُ مَالِكِ بْنِ جُعْشُمٍ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، أَلِعَامِنَا هَذَا أَمْ لِأَبَدٍ ؟ فَشَبَّكَ رَسُولُ الله ﷺ أَصَابِعَهُ وَاحِدَةً فِي الأُخْرَى . وَقَالَ : « دَخَلَتِ الْعُمْرَةُ فِي الْحَجِّ » مَرَّتَيْنِ « لاَ ؛ بَلْ لأَبَدِ أَبَدٍ » .

وَقَدِمَ عَلِيٌّ مِنَ الْيَمَنِ بِبُدْنِ النَّبِيِّ ﷺ فَوَجَدَ فَاطِمَةَ رضي الله عنها مِمَّنْ حَلَّ ، وَلَبِسَتْ ثِيَابًا صَبِيغًا ، وَاكْتَحَلَتْ ، فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهَا ، فَقَالَتْ : إِنَّ أَبِي أَمَرَنِي بِهَذَا ، قَالَ : فَكَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ بِالْعِرَاقِ : فَذَهَبْتُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ مُحَرِّشًا عَلَى فَاطِمَةَ ، لِلَّذِي صَنَعَتْ ، مُسْتَفْتِيًا لِرَسُولِ الله ﷺ فِيمَا ذَكَرَتْ عَنْهُ فَأَخْبَرْتُهُ أَنِّي أَنْكَرْتُ ذَلِكَ عَلَيْهَا ، فَقَالَ : « صَدَقَتْ صَدَقَتْ . مَاذَا قُلْتَ حِينَ فَرَضْتَ الْحَجَّ ؟ » .قَالَ : قُلْتُ : اللَّهُمَّ إِنِّي أُهِلُّ بِمَا أَهَلَّ بِهِ رَسُولُكَ . قَالَ : « فَإِنَّ مَعِيَ الْهَدْيَ فَلاَ تَحِلُّ » . قَالَ : فَكَانَ جَمَاعَةُ الْهَدْيِ الَّذِي قَدِمَ بِهِ عَلِيٌّ مِنَ الْيَمَنِ وَالَّذِي أَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِائَةً ، قَالَ : فَحَلَّ النَّاسُ كُلُّهُمْ وَقَصَّرُوا إِلاَّ النَّبِيَّ ﷺ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ هَدْيٌ ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ التَّرْوِيَةِ تَوَجَّهُوا إِلَى مِنًى فَأَهَلُّوا بِالْحَجِّ ، وَرَكِبَ رَسُولُ الله ﷺ فَصَلَّى بِهَا الظُّهْرَ وَالعَصْرَ وَالْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ وَالْفَجْرَ ، ثُمَّ مَكَثَ قَلِيلًا حَتَّى طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَأَمَرَ بِقُبَّةٍ مِنْ شَعَرٍ تُضْرَبُ لَهُ بِنَمِرَةَ . فَسَارَ رَسُولُ الله ﷺ وَلاَ تَشُكُّ قُرَيْشٌ إِلاَّ أَنَّهُ وَاقِفٌ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ، كَمَا كَانَتْ قُرَيْشٌ تَصْنَعُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَجَازَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى أَتَى عَرَفَةَ . فَوَجَدَ الْقُبَّةَ قَدْ ضُرِبَتْ لَهُ بِنَمِرَةَ فَنَزَلَ بِهَا ، حَتَّى إِذَا زَاغَتِ الشَّمْسُ أَمَرَ بِالْقَصْوَاءِ فَرُحِلَتْ لَهُ ، فَأَتَى بَطْنَ الْوَادِي ، فَخَطَبَ النَّاسَ وَقَالَ : « إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا ، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ

هَذَا ، أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ ، ودِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ ، وإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الحَارِثِ ، كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ ، وَرِبَا الجاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ ، فَاتَّقُوا الله فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ الله ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ الله ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوف ، وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ كِتَابُ الله ، وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي ، فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ ؟ » .

قَالُوا : نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَأَدَّيْتَ وَنَصَحْتَ . فَقَالَ بِإِصْبَعِهِ السَّبَابَةِ ، يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْكُتُهَا إِلَى النَّاسِ : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ ، اللَّهُمَّ اشْهَدْ » ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ أَذَّنَ ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الظُّهْرَ ، ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الْعَصْرَ . وَلَمْ يُصَلِّ بَيْنَهُمَا شَيْئًا . ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ الله ﷺ حَتَّى أَتَى الْمَوْقِفَ . فَجَعَلَ بَطْنَ نَاقَتِهِ الْقَصْوَاءِ إِلَى الصَّخَرَاتِ . وَجَعَلَ حَبْلَ الْمُشَاةِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ ، فَلَمْ يَزَل وَاقِفًا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ ، وَذَهَبَتِ الصُّفْرَةُ قَلِيلًا حَتَّى غَابَ الْقُرْصُ ، وَأَرْدَفَ أُسَامَةَ خَلْفَهُ . وَدَفَعَ رَسُولُ الله ﷺ وَقَدْ شَنَقَ لِلْقَصْوَاءِ الزِّمَامَ ، حَتَّى إِنَّ رَأْسَهَا لَيُصِيبُ مَوْرِكَ رَحْلِهِ وَيَقُولُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى :« أَيُّهَا النَّاسُ ، السَّكِينَةَ السَّكِينَةَ » ، كُلَّمَا أَتَى حَبْلاً مِنَ الْحِبَالِ أَرْخَى لَهَا قَلِيلاً ، حَتَّى تَصْعَدَ ، حَتَّى أَتَى الْمُزْدَلِفَةَ فَصَلَّى بِهَا الْمَغْرِبَ وَالْعِشَاءَ بِأَذَانٍ وَاحِدٍ وَإِقَامَتَيْنِ ، وَلَمْ يُسَبِّحْ بَيْنَهُمَا شَيْئًا ، ثُمَّ اضْطَجَعَ

رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ وَصَلَّى الْفَجْرَ ـ حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ الصُّبْحُ ـ بِأَذَانٍ وَإِقَامَةٍ ، ثُمَّ رَكِبَ الْقَصْوَاءَ ، حَتَّى أَتَى الْمَشْعَرَ الْحَرَامَ فَاسْتَقْبَلَ الْقِبْلَةَ ، فَدَعَاهُ وَكَبَّرَهُ وَهَلَّلَهُ وَوَحَّدَهُ ، فَلَمْ يَزَلْ وَاقِفًا حَتَّى أَسْفَرَ جِدًّا ، فَدَفَعَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ ، وَأَرْدَفَ الْفَضْلَ بْنَ عَبَّاسٍ ، وَكَانَ رَجُلاً حَسَنَ الشَّعْرِ أَبْيَضَ وَسِيمًا ، فَلَمَّا دَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَرَّتْ بِهِ ظُعُنٌ يَجْرِينَ ، فَطَفِقَ الْفَضْلُ يَنْظُرُ إِلَيْهِنَّ ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى وَجْهِ الْفَضْلِ ، فَحَوَّلَ الْفَضْلُ وَجْهَهُ إِلَى الشِّقِّ الآخَرِ يَنْظُرُ ، فَحَوَّلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ مِنَ الشِّقِّ الآخَرِ عَلَى وَجْهِ الْفَضْلِ ، يَصْرِفُ وَجْهَهُ مِنَ الشِّقِّ الآخَرِ يَنْظُرُ حَتَّى أَتَى بَطْنَ مُحَسِّرٍ فَحَرَّكَ قَلِيلاً ، ثُمَّ سَلَكَ الطَّرِيقَ الْوُسْطَى الَّتِي تَخْرُجُ عَلَى الْجَمْرَةِ الْكُبْرَى ، حَتَّى أَتَى الْجَمْرَةَ الَّتِي عِنْدَ الشَّجَرَةِ فَرَمَاهَا بِسَبْعِ حَصَيَاتٍ ، يُكَبِّرُ مَعَ كُلِّ حَصَاةٍ مِنْهَا مِثْلِ حَصَى الْخَذْفِ ، رَمَى مِنْ بَطْنِ الْوَادِي ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى الْمَنْحَرِ ، فَنَحَرَ ثَلاَثًا وَسِتِّينَ بِيَدِهِ ، ثُمَّ أَعْطَى عَلِيًّا فَنَحَرَ مَا غَبَرَ ، وَأَشْرَكَهُ فِي هَدْيِهِ ، ثُمَّ أَمَرَ مِنْ كُلِّ بَدَنَةٍ بِبَضْعَةٍ . فَجُعِلَتْ فِي قِدْرٍ ، فَطُبِخَتْ ، فَأَكَلاَ مِنْ لَحْمِهَا وَشَرِبَا مِنْ مَرَقِهَا ، ثُمَّ رَكِبَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَأَفَاضَ إِلَى الْبَيْتِ . فَصَلَّى بِمَكَّةَ الظُّهْرَ ، فَأَتَى بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ يَسْقُونَ عَلَى زَمْزَمَ . فَقَالَ : « انْزِعُوا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، فَلَوْلاَ أَنْ يَغْلِبَكُمُ النَّاسُ عَلَى سِقَايَتِكُمْ لَنَزَعْتُ مَعَكُمْ » . فَنَاوَلُوهُ دَلْوًا فَشَرِبَ مِنْهُ .

ثُمَّ قَالَ مُسْلِمٌ : وَحَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ ، حَدَّثَنَا أَبِي ، حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ ، حَدَّثَنِي أَبِي قَالَ : أَتَيْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ فَسَأَلْتُهُ عَنْ حَجَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ . وَسَاقَ الْحَدِيثَ بِنَحْوِ حَدِيثِ حَاتِمِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ .

وَزَادَ فِي الحَدِيثِ : وَكَانَتِ الْعَرَبُ يَدْفَعُ بِهِمْ أَبُو سَيَّارَةَ عَلَى حِمَارٍ عُرْيٍ . فَلَمَّا أَجَازَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ الْمُزْدَلِفَةِ بِالْمَشْعَرِ الحَرَامِ . لَمْ تَشُكَّ قُرَيْشٌ أَنَّهُ سَيَقْتَصِرُ عَلَيْهِ . وَيَكُونُ مَنْزِلُهُ ثَمَّ . فَأَجَازَ وَلَمْ يَعْرِضْ لَهُ . حَتَّى أَتَى عَرَفَاتٍ فَنَزَلَ[1] .

*****

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الحج ، باب حجة النبي ﷺ (١٢١٨) .

صفة الحج

فإذا دخلَتْ أشهر الحج وأراد الحاجُّ أن يحج أتي الميقات المخصص له وعليه أن يحرم ، والإحرام هو نية الحج أو العمرة من الميقات المعتبر شرعًا .

والإحرام أنواع :

١ ـ **الإفْرَاد :** وهو أن يُهِلَّ (أي : ينوي) الحاجُّ بالحج فقط عند إحرامه قائلًا : « لبيك اللهم حجًّا » ثم يأتي بأعمال الحج وحده .

٢ ـ **القِرَان :** وهو أن يُهِلَّ بالحج والعمرة معًا قائلًا : « لبيك حجًّا وعمرةً » فيأتي بهما في نُسُكٍ واحدٍ ، أو أن يدخل الحج على العمرة قبل الطواف ، والقارن يجب عليه أن ينحر هديًا بالإجماع .

٣ ـ **التمتع :** وهو أن يُهِلَّ بالعمرة فقط في أشهر الحج قائلًا : « لبيك عمرة » ويأتي مكة ؛ فيؤدي مناسك العمرة ويتحلل ، ويمكث بمكة حلالًا ، ثم يُحْرِم بالحج ، ويأتي بأعماله ، وذلك في العام نفسه ، ويجب عليه أن ينحر هديًا بالإجماع ، والأنساك الثلاثة كلُّها مشروعةٌ جائزة ، والأمر فيها واسع وإن كان بعضهم قد أوجب التمتع على مَنْ لم يسق الهدْي . وأنه إذا طاف وسعى فقد حلَّ شاءَ أم أَبَى .

واختلف العلماء في أي الأَنْسَاك الثلاثة أفضل ، فمن قائل : الإفراد أفضل ، ومن قائل القِرَان أفضل ، وقال فريق : التمتع أفضل[1] .

---

(١) انظر : « المدونة » (١/ ٣٦٠) ، و« الأم » (٢/ ١٤٣) ، و« المجموع » (٧/ ١٤٥) وما بعدها ، و« زاد المعاد » (٢/ ١٧٧) ، و« المحلى » (٧/ ٩٩) ، و« المغني » (٣/ ٢٦٠) .

وفصَّل شيخ الإسلام في المسألة، وخلاصة كلامِه [١]:

١ـ أنه إذا أفرد بالحج بسفرة والعمرة بسفرة فهو أفضل من القِرَانِ والتمتع الخاص بسفرة واحدة (وهو إذا كان قد اعتمر قبل أشهر الحج)، قال: وهذا هو الإفراد الذي فعله أبو بكر وعمر، وكان يختاره للناس، وكذلك عليٌّ.

٢ـ وإذا أراد أن يجمع بين النُّسكين الحج والعمرة بسفرة واحدة وقَدِمَ إلى مكة في أشهر الحج ولم يسق الهَدْي فالتمتع أفضل له.

٣ـ وإن أراد أن يجمع بين النُّسكين بسفرةٍ واحدةٍ ويسوق الهَدْي فالقِرَان أفضل اقتداءً بالنبيِّ ﷺ؛ حيث قَرَن وساق الهَدْي.

ثم أيهما أفضل أن يسوق الهَدْي ويقرن أو أن يتمتع بلا سوق للهَدْي ويحِلُّ من إحرامه؟.

قال: هذا موضع اجتهاد لتعارض دليلين شرعيين؛ ومال رحمه الله إلى الأول؛ ثم قال بعد أن ذكر القول الثاني: «وعلى هذا التقدير فيكون الله قد جَمَعَ له بين أن فعل الأفضل وبين أن أعطاه بما يراه من الموافقة لهم ما في ذلك من الفضل، فاجتمع له الأجران، وهذا هو اللائق بحاله ﷺ». اهـ.

وأهل الحرم ليس لهم إلا الإفراد، وهو قول ابن عباس وأبي حنيفة خلافًا لمالك والشافعي وأحمد، وانتصر له ابن حزم [٢].

وإن كان الرجل جاهلًا فلم يُعَيِّن نسكًا من هذه الأنساك، أو أحرم

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٦/ ٨٥ – ٩١).

(٢) «المجموع» (٧/ ١٦٥، ١٦٦)، و«فتح الباري» (٣/ ٥٠٨)، و«المحلى» (٧/ ١٥٦).

كإحرام شخص يعرفه ؛ فهذا جائز ويصح إحرامه عند جمهور العلماء خلافًا للمالكية لقول عليٍّ ﷺ لما أهلَّ قال : « لَبَّيْكَ بِإِهْلاَلٍ كَإِهْلاَلِ النَّبِيِّ ﷺ »[1].

ولا يجوز أن يتجاوز الشخص الميقات بدون إحرام إجماعًا .

فمَنْ جاوز الميقات ثم أَحْرَمَ بعده فهو آثمٌ بذلك ، ولا يذهب عنه الإثم إلا أن يعود إلى الميقات فيحرم منه ، ثم يتم سائر نسكه ، ولا دم عليه إن عاد إلى الميقات قبل التلبس بالنسك ؛ وهو قول الشافعية والثوري وأبي يوسف ومحمد وأبي ثور .

وقال مالك وابن المبارك وأحمد : لا يسقط عنه الدم بالعود .

وقال أبو حنيفة : إن عاد مُلَبِّياً سقط الدم وإلا فلا .

وحكى ابن المنذر عن الحسن والنخعي أنه لا دم على المجاوز مطلقًا .

فإن لم يعد إلى الميقات صحَّ نُسُكه وعليه دم عند الجمهور[2] .

أجمع من يعتد به من السلف والخلف من الصحابة فمن بعدهم ؛ على أنه يجوز الإحرام من الميقات ومما فوقه ـ أي قبله ؛ خلافًا لداود ؛ فإنه قال : لا يجوز أن يحرم قبله ، ولا يصح إحرامه ، وهو مردودٌ عليه بمن قبله ، لكن يكره الإحرام قبل الميقات على الأصح[3] .

ومَنْ مَرَّ بميقاتين في طريقه ، كأن يكون شاميٌّ أو مصريٌّ ، يمر

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الحج ، باب من أهل في زمن النبيِّ ﷺ كإهلال النبيِّ ﷺ (١٥٥٨ ، ١٥٥٩) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب نسخ التحلل من الإحرام والأمر بالتمام (١٢٢١) .

(٢) انظر : « المجموع » (٧/ ٢١٢ ، ٢١٥) .

(٣) « المجموع » (٧/ ٢٠٥) بتصرف .

بميقات أهل المدينة قبل الوصول إلى ميقاته الأصلي ؛ فلا يجوز له أن يؤخر إحرامه ؛ بل يُحْرِم من ميقات أهل المدينةِ ؛ لقوله ﷺ : « هُنَّ لَهُنَّ وَلِمَنْ أَتَى عَلَيْهِنَّ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِنَّ »[١] .

ويجوز للمُحْرِمِ أن يشترط عند إحرامه التحلل متى حبسه عن إتمام النُّسُك شيء من مرضٍ أو نحوه فيقول : « اللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي » .

لحديث عائشة رضي الله عنها قَالَتْ : دَخَلَ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى ضُبَاعَةَ بِنْتِ الزُّبَيْرِ ؛ فَقَالَ لَهَا : « أَرَدْتِ الحَجَّ ؟ » قَالَتْ : والله مَا أَجِدُنِي إِلاَّ وَجِعَةً ؛ فَقَالَ لَهَا : « حُجِّي وَاشْتَرِطِي ، وَقُولِي : اللَّهُمَّ مَحِلِّي حَيْثُ حَبَسْتَنِي »[٢] .

فإذا اشترط جاز له أن يتحلل من إحرامه إذا حُبِسَ ولا دم عليه .

أما إذا لم يشترط فإذا حبسه عارض لزمه دم ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ [البقرة:١٩٦] .

*****

(١) تقدم تخريجه .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب النكاح ، باب الأكفاء في الدين (٥٠٨٩) ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب اشتراط المحرم التحلل بعذر المرض ونحوه (١٢٠٧) .

كيفية الإحرام

١ـ الغُسْل للإحرام : وهو للرجل والمرأة ؛ سواء كانت حائضًا أو نفساء[1] .

٢ـ يتطيَّب على بدنه قبل الإحرام ، فلقد كانت عائشة رضي الله عنها تُطيِّب النبي ﷺ لإحرامه حين يحرم[2] .

وكذلك يجوز للمرأة ذلك[3] .

أما بعد الإحرام ؛ فلا يجوز استعمال الطِّيبِ بإجماع العلماء ؛ كما قال النووي في « المجموع » (٧/ ٢٧٠) .

٣ـ الرجل يُحْرِمُ في إزار ورداء أبْيَضَيْنِ[4] ، أما المرأة فتلبس ما شاءت

---

(١) انظر : الترمذيَّ ، كتاب الحج ، باب ما جاء في الاغتسال عند الإحرام (٨٣٠) وقال : «حديث حسن غريب » ، والدارمي (١٧٩٤) ، وانظر إلى قول النبيِّ ﷺ لأسماء بنت عميس لما ولدت محمد بن أبي بكر : « اغتسلي واستثفري ـ ضعي خرقة أو شيئًا على محل الدم ـ بثوب وأحرمي » من حديث جابر في حجة النبيِّ ﷺ . عند مسلم (١٢١٨) .

(٢) البخاريُّ ، كتاب الحج ، باب الطيب عند الإحرام (١٥٣٩) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب الطيب للمحرم عند الإحرام (١١٨٩) .

(٣) أبو داود ، كتاب المناسك ، باب ما يلبس المحرم (١٨٣٠) ، وأحمد (٦/ ٧٩) ، والبيهقي (٥/ ٤٨) ، وانظر : « صحيح سنن أبي داود » .

(٤) البخاريُّ ، كتاب الحج ، باب ما يلبس المحْرِم من الثياب والأردية والأزر (١٥٤٥) أما كونه أبيض ؛ لحديث ابن عباس : « البسوا من ثيابكم البياض ، فإنها من خير ثيابكم ، وكفِّنوا فيها موتاكم» أخرجه أبو داود (٣٨٧٨) ، والترمذي (٩٩٤) . وقال : «حديث حسن صحيح» ، وابن ماجه (١٤٧٢) ، وأحمد (٢٢٢٠ ، ٢٤٧٥ ، ٣٠٢٧ ، ٣٣٣٢ ، ٣٤١٦) ، وابن حبان (٥٤٢٣) ، والبيهقي في « السنن » (٣/ ٢٤٥) ، وصحَّحه الألباني في « صحيح الجامع » (١٢٣٦) .

من الثياب ، لكن لا تلبس النِّقاب ولا القفَّازين على ما يأتي .

٤ـ الصلاة في وادي العقيق [(١)] لمن مرَّ به وهو وادٍ بقرب البقيع ؛ بينه وبين المدينة أربعة أميال ؛ كما قال الحافظ في « الفتح » ، وكذلك الصلاة في مسجد ذي الحليفة لمن مَرَّ به [(٢)].

٥ـ أن تكون نية الإحرام عقب صلاة فريضة أو نافلة .

قال شيخ الإسلام : « إن كان يصلي فَرْضًا أحرم عقبه وإلا فليس للإحرام صلاة تخصه . وهذا أرجح » [(٣)].

٦ـ الحمد والتسبيح والتكبير قبل الإهلال ، كما في حديث أنس قَالَ : « ... ثُمَّ رَكِبَ حَتَّى اسْتَوَتْ بِهِ عَلَى الْبَيْدَاءِ ، حَمِدَ الله ، وَسَبَّحَ وَكَبَّرَ ، ثُمَّ أَهَلَّ بِحَجٍّ وَعُمْرَةٍ » [(٤)].

٧ـ استقبال القِبلَةِ عند الإهلال [(٥)]

٨ـ رفع الصوت بالتلبية [(٦)] وهو على الندب عند الجمهور ، والمرأة

---

(١) انظر : البخاريَّ (١٥٣٤) ،وانظر أطرافه هناك .

(٢) انظر : مسلم (١١٨٤) والذي بعده ، وكذلك النسائي (٢٧٥٥) .

(٣) « مجموع الفتاوى » (٢٦/ ١٠٨) .

(٤) البخاريُّ ، كتاب الحج ، باب التحميد والتسبيح والتكبير قبل الإهلال عند ركوب الدابة (١٥٥١) .

(٥) البخاريُّ ، كتاب الحج ، باب الإهلال مستقبل القبلة (١٥٥٣) ، وانظر أطرافه هناك .

(٦) أخرجه أبو داود ، كتاب المناسك ، باب كيف التلبية (١٨١٤) ، والترمذي ، كتاب الحج ، باب ما جاء في رفع الصوت بالتلبية (٨٢٩) ، وقال : «حسن صحيح» ، والنسائي ، كتاب المناسك ، باب رفع الصوت بالإهلال (٢٧٥٢)، وابن ماجه ، كتاب المناسك ، باب رفع الصوت بالتلبية (٢٩٢٢) ، وأحمد (٤/ ٥٦) ، وابن خزيمة (٢٦٢٥) ، ومالك في « الموطأ» (٣٤) ، والدارمي (١٨٠٩) ، وانظر « صحيح سنن أبي داود والترمذي والنسائي » ، وكذلك « صحيح مسلم » (١١٤٨) .

ترفع صوتها بقدر ما تُسْمِع رفيقتها [(١)]. وكذلك الحائض والنفساء تهلُّ وتلبي.

صيغ التلبية:

١ـ « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لاَ شَرِيكَ لَكَ ».

وهذه تلبية النبيِّ ﷺ في حديث ابن عمر [(٢)] وحديث جابر السابق.

٢ـ وزاد ابن عمر في حديثه عند مسلم: **« لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ بِيَدَيْكَ، وَالرَّغْبَاءُ إِلَيْكَ والعَمَلُ »** [(٣)].

٣ـ وفي رواية: أهلَّ الناسُ بهذا الذي يهلُّون به: **« لَبَّيْكَ ذَا المَعَارِجِ، لَبَّيْكَ ذَا الفَوَاضِلِ، فَلَمْ يَرُدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ... »** [(٤)].

وكان يقول ﷺ: **« لَبَّيْكَ إِلَهَ الحَقِّ »** [(٥)].

مواطن التلبية:

يستحبُّ الإكثار من التلبية من حيْنَ الإحرام فما بعده دائمًا في حال الركوب والمشي والنزول والصعود وعلى كلِّ حالٍ حتى يرمي جمرة العقبة.

---

(١) قاله شيخ الإسلام في « مجموع الفتاوي » (٢٦/ ١١٥).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحج، باب التلبية (١٥٤٩).

(٣) مسلم، كتاب الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها (١١٨٤).

(٤) أخرجه أبو داود، كتاب المناسك، باب كيفية التلبية (١٨١٣)، وأحمد (١٣٩١٨)، وابن خزيمة (٢٦٢٦)، وانظر: « صحيح سنن أبي داود ».

(٥) أخرجه النسائيُّ، كتب مناسك الحج، باب كيف التلبية (٢٧٥١)، وابن ماجه، كتاب المناسك، باب التلبية (٢٩٢٠)، وأحمد (٢/ ٣٤١)، وابن خزيمة (٢٦٢٣، ٢٦٢٤)، وصحَّحه الألبانيُّ في « الصحيحة » (١١٤٦)، و« صحيح الجامع » (٥٠٥٧).

محظورات الإحرام

والمحظورات هي : أمور مُنِعَ منها المُحْرِمُ وحُرِّمت عليه ما دام مُحرمًا ، وهي على قسمين :

(١) محظور يفسد الحج : وهو الجِمَاع قبل التحلُّل الأول ، أي : قبل رمي جمرة العقبة على الأرجح ، وهو أشد المحظورات إثمًا وأعظمها تأثيرًا في النُّسُك ؛ قال تعالى : ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٩٧] .

قال ابن عباس وابن عمر وقتادة : الرَّفث في الآية هو الجِمَاع ، وقيل غير ذلك .

قال ابن قدامة [١]: « أما فساد الحج بالجِمَاع في الفَرْجِ فليس فيه اختلاف » ، قال ابن المنذر : أجمع أهل العلم على أن الحج لا يفسد بإتيان شيء في حال الإحرام إلا الجِمَاع » .

وليس في المسألة حديثٌ صحيحٌ إلى رسول الله ﷺ .

*****

(١) « المغني مع الشرح » (٤/ ٤٦٥) ، و« الإجماع » لابن المنذر (١٤٢) .

ماذا يفعل المجامع ؟

من جَامَعَ زوجته قبل التحلل الأول أَثِمَ وبطل حجُّه عند الأكثرين ، ويُلْزَمُ بإتمام الحج رغم فساده ؛ لقوله تعالى : ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٦]

وعليهما في العام المقبل الحج والهَدْي . أي ذبح بدنة ؛ وبهذا أفتى ابن عمر ، وابن عباس ، وابن عمرو .

فعن عمرو بن شعيب عن أبيه قال : « أتى رجلٌ ابْنَ عمر فسأله عن محرم وقع بامرأته ؟ فأشار له إلى عبد الله بن عمرو فسأله ؛ فقال : بطل حجُّه ، قال : فيقعد ؛ قال : لا ؛ بل يخرج مع الناس فيصنع كما يصنعون ، فإن أدركه قابل ، حج وأهدى ، فرجعا إلى عبد الله بن عمر فأخبراه ، فأرسلنا إلى ابن عباس ، فسأله فقال له مثل ما قال ابن عمرو فرجع إليه فأخبره فقال له الرجل : ما تقول أنت ؟ فقال : مثل ما قالا »[١].

إذا جَامَعَ المحْرِمُ ناسيًا قبل تحلله فلا يفسد نُسكه ولا شيء عليه[٢] ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَـٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب:٥] .

إذا أُكْرِهَت المرأة على الجِمَاعِ ؛ فإن حجها صحيحٌ ، ولا فدية عليها بخلاف زوجها في أصح قولي العلماء[٣].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٤/ ١٤٢) ، والبيهقي (٥/ ١٦٧) .
(٢) «المجموع» (٧/ ٣٤٦) ، و«المحلى» (٧/ ١٨٦) .
(٣) «المجموع» (٧/ ٤٠٤) .

(٢) محظورات لا تفسد الحج :

١ـ **لبس الرجل المخيط من الثياب** : يَحْرُم على الرجل لبس المخيط الذي هو مفصَّل على قدر عضو من البدن ، وليس المراد بالمخيط الذي فيه خيط ؛ فإن الإزار والرداء خيط ، ولكن الذي يُفَصَّل على قدر العضو يسمى مخيطًا فلا يلبس المحرم القميص ولا السراويل ولا العمائم ولا القلنسوة (الطاقية) ، ولا الجبة ، ولا الخفين ، ولا الجوربين ، ولا القفَّازين ، ونحو ذلك .

لحديث ابن عمر : أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ رَسُولَ الله ﷺ مَا يَلْبَسُ الْمُحْرِمُ مِنَ الثِّيَاب ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « لاَ تَلْبَسُوا الْقُمُصَ ، وَلاَ الْعَمَائِمَ ، وَلاَ السَّرَاوِيلاَتِ ، وَلاَ الْبَرَانِسَ ، وَلاَ الْخِفَافَ ، إِلاَّ أَحَدٌ لاَ يَجِدُ النَّعْلَيْنِ ، فَلْيَلْبَسِ الْخُفَّيْنِ ، وَلْيَقْطَعْهُمَا أَسْفَلَ مِنَ الْكَعْبَيْنِ ، وَلاَ تَلْبَسُوا مِنَ الثِّيَابِ شَيْئًا مَسَّهُ الزَّعْفَرَانُ وَلاَ الْوَرْسُ »[١].

فلو التحف بقميص (أي جعله على غير ما يعتاد الناس لبسه) أو اتزر بسراويل فلا شيء عليه ؛ لأنها حينئذ تكون من جنس الإزار والرداء[٢].

من لم يجد إزارًا ولا نعلين يلبس السراويل والخفين ولا شيء عليه لقوله ﷺ : « مَنْ لَمْ يَجِدِ الإِزَارَ فَلْيَلْبَسِ السَّرَاوِيلَ ، وَمَنْ لَمْ يَجِدِ النَّعْلَيْنِ

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العلم ، باب من أجاب السائل بأكثر مما سأله (١٣٤) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب ما يباح للمحرم بحج أو عمرة وما لا يباح وبيان تحريم الطيب له (١١٧٧) .

(٢) « المجموع » (٧/ ٢٧٠) ، و« مجموع الفتاوى » (٢٦/ ١٠٩) .

فَلْيَلْبَسِ الخُفَّيْنِ »[1].

وإذا لبس الخفَّيْن يقطعهما أسفل الكعبين .

٢ـ **تغطية الرأس بملاصق** : كغطاء الرأس أو العمامة أو ما شابه ذلك ؛ لحديث ابن عمر السابق ، فإن استظل بمنفصل عن رأسه كالمظلة والشَّمسية أو سيارة أو شجرة ، أو نحو ذلك فلا بأس بذلك .

وكذلك يجوز له حمل أغراضه على رأسه كالحقيبة أو نحوها ولا شيء عليه .

٣ـ **لبس المرأة النقاب والبرقع والقفازين** : لزيادة في حديث ابن عمر : « ... وَلاَ تَنتَقِبُ المَرْأَةُ المُحْرِمَةُ ، وَلاَ تَلْبَسِ القُفَّازَيْنِ »[2].

وقال بذلك جمهور العلماء خلافًا للأحناف ، ورواية عن المالكية والشافعية ، ورجَّح الحافظُ ابنُ حجر أنَّ هذه الزيادة مدرجة[3].

٤ـ **استعمال الطِّيب على الثوب أو البدن** : لحديث ابن عمر المتقدم وفيه : « ... وَلاَ تَلْبسُوا مِنَ الثِّيَابِ شَيْئًا مَسَّهُ الزَّعْفَرَانُ وَلاَ الوَرْسُ » .

وكذلك في قوله ﷺ في المحرِمِ الذي وقصته ناقته : « لا تُحَنِّطُوهُ ، ولاَ تُخَمِّرُوا رَأْسَهُ ، فَإِنَّهُ يُبْعَثُ يَوْمَ القِيَامَةِ مُلَبِّيًا »[4].

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب جزاء الصيد ، باب إذا لم يجد الإزار فليلبس السراويل (١٨٤٣) ، وانظر : (١٧٤٠) ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب ما يباح للمحرم بحج أو عمرة وما لا يباح وبيان تحريم الطيب له (١١٧٨) .

(٢) البخاريُّ ، كتاب جزاء الصيد ، باب ما ينهى من الطيب للمحرم والمحرمة (١٨٣٨) .

(٣) «فتح الباري» (٤/ ٦٤، ٦٥) .

(٤) تقدم تخريجه .

٥ـ **حلق شعر الرأس** : لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ﴾ [البقرة:١٩٦] .

قال النوويُّ ـ رحمه الله تعالى: « وقد أجمع المسلمون على تحريم حلق الرأس ، يستوي في هذا الرجال والنساء ، وتجب الفدية » [(١)].

فإن تأذَّى المحْرِم ببقاء شعره جاز له إزالته ، وفيه فدية ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة:١٩٦] ، **وقد نزلت هذه الآية في كعب بن عجرة لـمَّا مرَّ به النبيُّ ﷺ وهو مُحْرِم والقمل يتهافت على وجهه ، فقال ﷺ : « لَعَلَّكَ آذَاكَ هَوَامُّكَ ؟ » قَالَ : نَعَمْ يَا رَسُولَ الله ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « احْلِقْ رَأْسَكَ ، وَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ ، أَوْ انْسُكْ بِشَاةٍ »** [(٢)].

ويلحق بشعر الرأس شعر الشارب والإبط والعانة ، وهذا عند جمهور العلماء [(٣)] **، وأما إذا حكَّ المحْرِمُ رأسه فلا حَرَجَ عليه ؛ وإن سقط بعض شعره إذا لم يقصده .**

٦ـ **تقليم الأظفار** : نقل ابنُ المنذر الإجماع على منع المحرم من أخذ الأظفار .

---

(١) « المجموع » (٧/ ٢٦٢) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المحصر ، باب قول الله تعالى :﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾ [البقرة:١٩٦] ،(١٨١٤) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب جواز حلق الرأس للمحرم إذا كان به أذى ووجوب الفدية لحلقه وبيان قدرها (١٢٠١) .

(٣) « المجموع » (٧/ ٢٦٢) .

قال ابنُ قدامة : « أجمع أهل العلم على أن المحرم ممنوع من أخذ أظفاره ، وعليه الفدية بأخذها في قول أكثرهم : حماد ، ومالك ، والشافعي ، وأبي ثور ، وأصحاب الرأي ، ورُوِيَ عن عطاء . وعنه : لا فدية عليه ؛ لأن الشرع لم يرد فيه بفدية »[1] .

وقد خالف في ذلك داود الظاهري[2] .

* أما إذا انكسر ظفره ، فله إزالته ولا شيء عليه .

٧ـ دواعي الجِمَاع : **قال النوويُّ ـ رحمه الله تعالى**: «فتحرم المباشرة بشهوة كالمفاخذة والقبلة واللمس باليد بشهوة قبل التحللين ، وفيما بين التحللين خلاف ، ومتى ثبت التحريم فباشر عمدًا بشهوة لزمته الفدية ؛ وهي شاة أو بدلها من الإطعام ، أو الصيام ، ولا يلزمه البدنة بلا خلاف سواء أنزل أم لا ، وإنما تجب البدنة في الجِمَاعِ ، ولا يفسد نسكه بالمباشرة بشهوة بلا خلاف ؛ سواء أَنْزَلَ أم لا ، هذا كلُّه إذا بَاشَرَ عالمًا بالإحرام ، فإن كان ناسيًا فلا فدية عليه بلا خلاف »[3] .

وذهب مالك إلى أنَّ من بَاشَرَ أو قَبَّلَ أو لمس فأنزل فقد فَسَدَ حجه وعليه الحج من قابل ، وإن قبَّل أو باشر أو تلذذ فلم ينزل ولم يولج فعليه دم[4] .

أما ابن حزم فأباح كل شيء عدا الجماع[5] .

---

(١) « الإجماع » لابن المنذر (٥٧) ، و« المغني » (٥/ ٣٨٨) .
(٢) « المجموع » (٧/ ٢٦٣) ، و« المحلى » (٧/ ٢٤٦) .
(٣) « المجموع » (٧/ ٣٠٦) .
(٤) « المدونة » (١/ ٣٢٧) .
(٥) « المحلى » (٧/ ٢٥٤) .

٨ـ **الخطبة وعقد النكاح** : لقول النبي ﷺ : « لاَ يَنْكِحُ المحْرِمُ ، وَلاَ يُنْكَحُ ، وَلاَ يَخْطُبُ »[١].

وهو قول جمهور العلماء .

٩ـ **اقتراف المعاصي والمخاصمة والجدال** : لقوله تعالى : ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾[البقرة:١٩٧] .

١٠ـ **التعرض لصيد الحيوان البري** : سواء بالقتل أو الذبح أو الإشارة أو الدلالة عليها لقوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ﴾ [المائدة:٩٦] ، ولقوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾

[المائدة:٩٥]

ولحديث أبي قتادة وفيه : « ... فَلَمَّا انْصَرَفُوا ، أَحْرَمُوا كُلُّهُمْ إِلاَّ أَبو قَتَادَةَ لَمْ يُحْرِمْ ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَسِيرُونَ إِذَ رَأَوْا حُمُر وَحْشٍ ، فَحَمَلَ أَبُو قَتَادَةَ عَلَى الحُمُرِ فَعَقَرَ مِنْهَا أَتَانًا ، فَنَزَلُوا فَأَكَلُوا مِنْ لَحْمِهَا ، وقَالُوا : أَنَأْكُلَ لَحْمَ صَيْدٍ وَنَحْنُ مُحْرِمُونَ ؟ فَحَمَلْنَا مَا بَقِيَ مِنْ لحم الأَتَانِ ، فَلَمَّا أَتَوْا رَسُولَ الله ﷺقَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّا كُنَّا أَحْرَمْنَا ، وَقَدْ كَانَ أَبو قَتَادَةَ لَمْ يُحْرِمْ ، فَرَأَينَا حُمُرَ وَحْشٍ فَحَمَلَ عَلَيْهَا أَبو قَتَادَةَ فَعَقَرَ مِنْهَا أَتَانًا ، فَنَزَلْنَا فَأَكَلْنَا مِنْ لحمِهَا ، ثُمَّ قُلْنَا : أَنَأْكُلُ لحْمَ صَيْدٍ وَنَحْنُ مُحْرِمُونَ ؟ فَحَمَلْنَا مَا بَقِيَ مِنْ لحْمِهَا . قَالَ : « أَمِنكُمْ أَحَدٌ أَمَرَهُ أَنْ يَحْمِلَ عليْهَا أَوْ أَشَارَ إِلَيْهَا؟ »

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب النكاح ، باب تحريم نكاح المحرم وكراهة خطبته (١٤٠٩) .

قَالُوا : لا . قَالَ : « فَكُلُوا مَا بَقِيَ مِنْ لَحْمِهَا »(١) ».

فمن قتل صيدًا فما جزاؤه ؟

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [المائدة:٩٥] .

فاشتملت الآية على ثلاثة أمور :

١ـ ذبح مثل ما قتل من النعم إن كان له مثل ، والتصدُّق به على فقراء الحرم، وله أن يذبحه في أي وقت شاء .ولا يختص ذلك بأيام النحر .

والمراد بالأشبه ؛ أي : الأشبه في الخلقة والشكل لا القيمة ، فمثلًا في صيد الضبع يذبح كبشًا ، وفي الغزال عنزًا ، وفي النعامة ناقة ، وهكذا .

فعن جابر بن عبد الله ﷺ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ الله ﷺ عَنِ الضَّبُعِ فَقَالَ : « هُوَ صَيْدٌ وَيُجْعَلُ فِيهِ كَبْشٌ إِذَا صَادَهُ الْمُحْرِمُ »(٢) .

٢ـ أن يُقَوِّم المثل بالدراهم ، والدراهم بطعام ، ويتصدَّق به على المساكين ؛ لكل مسكين مُدًّا ، ولا يجزئ إخراج القيمة(٣) .

٣ـ أن يصوم بدل ذبح المثل والإطعام عن كل مُدٍّ يومًا عند جمهور العلماء.

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب جزاء الصيد ، باب لا يشير المحرم إلى الصيد لكي يصطاده الحلال (١٨٢٤) ، وانظر: (١٨٢١) ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب تحريم الصيد للمحرم (١١٩٦) .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب الأطعمة ، باب في أكل الضبع (٣٨٠١) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « الإرواء » (١٠٥٠) وانظر: (١٠٥١) .

(٣) « المجموع » (٧/ ٤٢٣) .

والإطعام والصيام يفعلان في أي موضع شاء ؛ لأن الله تعالى لم يحد لهما موضعًا[(١)] .

إذا اشترك جماعة في صيد ماذا عليهم ؟

عليهم جزاء واحد ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ ﴾ [المائدة:٩٥] ، وهذا قول ابن عمر[(٢)] والشافعي ، وجماعة من السلف .

والجزاء والإطعام يشترك فيه القاتلون ، فلو اختاروا الصيام فعلى كل واحد منهم الصيام كله ؛ لأن الصيام لا يشترك فيه ولا يمكن ذلك بخلاف الأموال .

ومن قتل صيدًا بعد صيد فماذا عليه ؟

عليه لكل مرة جزاء ، فليس الجزاء الأول مسقطًا للثاني[(٣)] .

ومن قتل الصيد ناسيًا فماذا عليه ؟

جمهور العلماء (أبو حنيفة ومالك والشافعي) على أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه[(٤)] .

بينما ذهب ابن حزم إلى أن الناسي لإحرامه وغير المتعمد لا جزاء عليه ، ولا إثم ، ونقل هذا عن عمر بن الخطاب ، وعبد الرحمن بن عوف ، وابن عباس ، وسعيد ابن جبير ، وابن المسيب ، وطاوس ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله ، وعطاء ، ومجاهد[(٥)] .

---

(١) « المحلى » (٧/ ٢٣٥) .

(٢) أخرجه الدارقطني (٢/ ٢٥٠) ، وابن حزم (٧/ ٢٣٧) .

(٣) «المحلى» (٧/ ٢٣٨) ، و « المجموع » (٧/ ٤٣٧) .

(٤) «المحلى» (٧/ ٢١٤) وما بعدها ، و« المجموع » (٧/ ٣١٦) .

(٥) المصدر السابق .

١١ـ **الأكل مما صيد من أجله أو بإشارته أو إعانته** : لما في حديث أبي قتادة المتقدم من قوله ﷺ : « أَمِنكُمْ أَحَدٌ أَمَرَهُ أَنْ يَحْمِلَ علَيْهَا أَوْ أَشَارَ إِلَيْهَا ؟» . قَالُوا : لا . قَالَ : « فَكُلُوا مَا بَقِيَ مِنْ لَحْمِهَا »[١] .

وهذا هو مذهب الجمهور من العلماء ، ورجَّحه ابن القيم[٢] رحمه الله .

ما لا يحرم قتله أو صيده للمُحْرِم :

١ـ الحيوان الإنسي أصلًا ، الذي يربِّيه كالدَّجاجة والأرنب الإنسي والبقر والإبل ، وغير ذلك .

٢ـ صيد البحر ، لقوله تعالى : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ [المائدة:٩٦] .

٣ـ قتل مُحَرَّم الأكل ؛ كالسباع ، وذوات الناب والمخلب ؛ لأنه لا قيمة له ، وليس بصيد ، وهو قول الشافعي ، وقول للحنابلة ؛ خلافًا لجمهور العلماء الذين أوجبوا فيه الفدية .

٤ـ ما أمر بقتله مما يؤذِي ؛ ففي « الصَّحِيحَيْنِ » عن عائشة رضي الله عنها أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : « خَمْسٌ فَوَاسِقُ يُقْتَلْنَ فِي الحِلِّ والحَرَمِ : الحيَّةُ ، وَالغُرَابُ الأَبْقَعُ ، وَالفَأْرَةُ ، والكَلْبُ العَقُورُ ، والحُدَيَّا »[٣] .

وكذلك قتل البعوض ، والذباب ، والبراغيث ، والقمل إذا كانت

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) « زاد المعاد » (٢/ ١٦٤) ، و« تهذيب سنن أبي داود مع عون المعبود » (٥/ ٢١٥) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ،كتاب جزاء الصيد ، باب ما يقتل المحرم من الدواب (١٨٢٩) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب ما يندب للمحرم وغيره قتله من الدواب في الحل والحرم (١١٩٨) واللفظ له .

تؤذيه ؛ لا حرج فيه ولا شيء عليه[١] .

٥ـ **قتل الآدمي الصائل** ؛ كقاطع الطريق أراد قتله أو غير ذلك مما قد يؤذيه إذا لم يندفع إلا بالقتل قاتله ؛ لقوله ﷺ : « مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ »[٢] .

أمور لا بأس بها للمُحْرِم

١ـ الاغتسال وتكراره لغير احتلام وتغيير إزاره وردائه .

٢ـ الامتشاط وحك الرأس والجسد .

٣ـ الاحتجام ولو بحلق الشعر مكان الحجم ، وكذلك نزع الضرس ، وفقء الدمل ؛ فإن ذلك لا حرج فيه .

٤ـ شم الريحان والطيب لحاجة لا للتلذذ به[٣] .

٥ـ طرح الظفر إذا انكسر .

٦ـ تغطية الوجه للرجل[٤] .

٧ـ إسدال المرأة من على رأسها على وجهها[٥] .

---

(١) « مجموع الفتاوى » (٢٦/ ١١٨) ، و« المحلى » (٧/ ٢٤٥) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ،كتاب المظالم ، باب من قاتل دون ماله (٢٤٨٠) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من قصد أخذ مال غيره بغير حق كان القاصد مهدر الدم (١٤١) .

(٣) « الشرح الممتع » (٧/ ١٥٨، ١٥٩) .

(٤) وهو قول الجمهور ، انظر: « المجموع » (٧/ ٢٨١) ، و« المحلى » (٧/ ٩١) .

(٥) « مجموع الفتاوى » (٢٦/ ١١٢) ، و« المحلى » (٧/ ٩١) ، و« المغني » (٣/ ٣٢٥) .

لحديث عائشة : « كان الركبان يمرون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات ، فإذا حاذوا بنا أسدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها ، فإذا جاوزونا كشفناه » ، أخرجه أبو داود ، كتاب المناسك ، باب في المُحْرِمة تغطي وجهها (١٨٣٣) ، وابن ماجه ، كتاب المناسك ، باب المُحْرِمَة تسدل بالثوب على وجهها (٢٩٣٥) ، وأحمد (٦/ ٣٠) وابن خزيمة (٢٦٩١) وانظر : « صحيح سنن أبي داود وابن ماجه » ، وكذلك ورد أثر في ذلك عن أسماء عند الحاكم (١/ ٤٥٤) .

٨ـ لبس المرأة ما شاءت من الثياب من أي لون حتى أنها تلبس المخيط والسراويل والخفين[١] .

٩ـ للمرأة أن تلبس من الحلي ما شاءت .

١٠ـ ولها أن تخضب بالحناء ونحوها إن شاءت .

وهو قول الشافعية والحنابلة ؛ خلافًا للأحناف والمالكية[٢] .

١١ـ الاكتحال للمُحْرم للحاجة[٣] .

١٢ـ الاستظلال بالخيمة أو المظلة (الشمسية) وفي السيارة ، وغيرها .

١٣ـ شد الحزام على إزاره ، ولبس الخاتم والساعة والنظارة وغيرها .

*****

(١) « الأم » (٢/ ١٢٦) ، و« المغني » (٣/ ٣٢٨) ، و« مجموع الفتاوى » (٢٦/ ١١٢) ، و« فتح الباري » (٣/ ٤٠٦) .

(٢) « المجموع » (٧/ ٢١٩) .

(٣) انظر : « الأم » (٢/ ١٢٩) ، و« المدونة » (٢/ ٣٤٢) ، و« المغني » (٣/ ٣٢٧) .

دخول مكة

وعند دخول مكة يُسَنُّ الآتي : المبيت بذي طُوى ، والاغتسال لدخولها ، ودخولها نهارًا لفعله ﷺ [(١)] .

ويُسَنُّ الدخول من الثنية العليا [(٢)] .

فإذا أتى المسجد الحرام قَدَّمَ رِجْله اليمنى عند الدخول ، ودعا بدعاء دخول المسجد [(٣)] .

فإن رفع يديه بالدعاء عند رؤية الكعبة ؛ فلا بأس لثبوته عن ابن عباس [(٤)] وابن عمر [(٥)] ويقول : « **اللَّهُمَّ أَنتَ السَّلاَمَ ، وَمِنْكَ السَّلاَمَ ، فَحينَا رَبَنَا بالسَّلاَمِ** » .

والمتمتع يطوف ويسعى ويحلق أو يقصر إن كان الوقت قليلًا بين العمرة والحج ، ثم يتحلل .

وهذه بعض أحكام الطواف والسعي :

---

(١) انظر : البخاريَّ ، كتاب الحج ، باب الاغتسال عند دخول مكة (١٥٧٣) ، وباب دخول مكة نهارًا أو ليلًا (١٥٧٤) ، و« صحيح مسلم » ، كتاب الحج ، باب استحباب المبيت بذي طوى عند إرادة دخول مكة ، والاغتسال لدخولها ودخولها نهارًا (١٢٥٩) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الحج ، باب من أين يدخل مكة (١٥٧٥) ، وانظر طرفه هناك ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب استحباب دخول مكة من الثنية العليا والخروج منها من الثنية السفلى ودخول بلده من طريق غير التي خرج منها (١٢٥٧) .

(٣) سبق في أمور تتعلق بالصلاة .

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٩٦) وانظر : « مناسك الحج » للألباني (ص٢٠) .

(٥) أخرجه البيهقي (٥/ ٧٢) ، وانظر : « مناسك الحج » (ص٢٠) .

الطواف

الطواف لغة : الدوران حول الشيء .

واصطلاحًا : الدوران حول البيت الحرام على الوجه الذي سيأتي .

والطواف على ثلاثة أنواع :

١ ـ طواف القدوم :

ويسمى طواف الورود وطواف التحية ؛ لأنه شُرِعَ للقادم من غير مكة لتحية البيت ، وهو مستحب عند الجمهور لمن كان قادمًا من غير مكة ، خلافًا للمالكية ، فإنهم أوجبوه ، وقالوا : من تركه لزمه دم .

والدليل عليه فعل النبيِّ ﷺ كما في حديث جابر السابق ، وحديث عائشة [١] .

* أما من ذهب من الميقات إلى منى أو عرفات مباشرةً ولم يدخل مكة قبله فلا يستحب في حقه ولا في حق المتمتع أن يطوف للقدوم بعد الوقوف بعرفة [٢] ، فإن طواف القدوم يفوت بالوقوف بعرفة .

٢ ـ طواف الإفاضة :

ويُسَمَّى طواف الزيارة ، وهو ركنٌ من أركان الحج باتفاق ، ولا يتحلل الحاج بدونه التحلل الأكبر ، ولا ينوب عنه شيء البتة ، وقد

---

(١) انظر : « صحيح البخاري » ، كتاب الحج ، باب من طاف بالبيت إذا قدم مكة قبل أن يرجع إلى بيته ثم صلى ركعتين ثم خرج إلى الصفا (١٦١٤، ١٦١٥) ، وانظر أطرافه هناك ، و « صحيح مسلم » ، كتاب الحج ، باب ما يلزم من طاف بالبيت وسعى من البقاء على الإحرام وترك التحلل (١٢٣٥) .

(٢) « مجموع الفتاوى » (٢٦/ ١٣٩) بنحو هذا الكلام .

ثبتت ركنيته بالكتاب والسنَّة والإجماع .

قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [الحج:٢٩] .

وأجمع العلماء على أن هذه الآية في طواف الإفاضة [١] .

وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن صفية بنت حُيي رضي الله عنها حَجَّت مع النبيِّ ﷺ ، فحاضَت فقالَ النبيُّ ﷺ : « أَحَابِسَتُنَا صَفِيَّةُ ؟ » .

قُلْنَا : قَدْ أَفَاضَتْ.

قَالَ : « فَلاَ إِذَنْ » [٢] .

فدلَّ ذلك على أن طواف الإفاضةِ ركنٌ لابد منه ، ولولا ركنيته لم يمنع من لم يأت به عن السفر .

وقته [٣] :

أول وقته : لا يصحُّ طواف الإفاضة قبل وقته .

وهو يبدأ من طلوع الفجر يوم النحر . وهذا عند الأحناف والمالكية ، أما الشافعية والحنابلة ، فقالوا : يبدأ من بعد منتصف ليلة النحر لمن وقف بعرفة قبله .

---

(١) « المغني » (٥/ ٣١١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الحج ، باب الزيارة يوم النحر (١٧٣٣) ، وانظر رقم (٣٢٨) ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب وجوب طواف الوادع وسقوطه عن الحائض (١٢١١) .

(٣) انظر : « المغني » (٣/ ٤٤١، ٤٤٣) ، و« حاشية ابن عابدين » (٢/ ٥٢٠) ، و« نهاية المحتاج » (٢/ ٤٢٩) ، و« الموسوعة الفقهية » (١٧/ ٥٣) .

آخر وقته : ذهب الأحناف إلى أن آخر وقته هو آخر أيام التشريق ، وعند المالكية وقته شهر ذي الحجة فإن أخَّرَه ففيه دم ، أما الشافعية والحنابلة وصاحبا أبي حنيفة ، فقالوا : الأصل عدم التأقيت ، وليس هناك ما يوجب فعله في أيام النحر ، ولا يلزمه فدية إذا أخره بعد أيام النحر أو بعد شهر ذي الحجة ، ولا يسقط عنه أبدًا ولا يكفي الفداء عنه ؛ لأنه ركنٌ ويظل محرمًا عن النساء إلى أن يعود فيطوف .

قال شيخ الإسلام رحمه الله[1] : « يدخل مكة فيطوف طواف الإفاضة ـ إن أمكنه ذلك يوم النحر ـ وإلا فعله بعد ذلك ، لكن ينبغي أن يكون في أيام التشريق ، فإن تأخيره عن ذلك فيه نزاع » .

أفضل وقته : يستحب أن يكون طواف الإفاضة يوم النحر ـ يوم العيد ـ لأنه فعل النبيِّ ﷺ كما في حديث جابر .

* يشترط في طواف الإفاضة أن يكون مسبوقًا بالوقوف بعرفة ، فلو طاف للإفاضة قبل الوقوف بعرفة ، لا يسقط به فرضه من الطواف إجماعًا .

إذا حاضت المرأة قبل طواف الإفاضة ماذا عليها ؟

إن استطاعت ـ من غير مشقة ـ أن تنتظر حتى تطهر ثم تطوف لزمها ذلك لقول النبيِّ ﷺ لعائشة لما حَاضَت : « افْعَلِي مَا يَفْعَلُ الحَاجُّ غَيْرَ أَنْ لاَ تَطُوفِي بِالبَيْتِ »[2] .

---

(١) « مجموع الفتاوى » (٢٦/ ١٣٨) .

(٢) انظر : « صحيح مسلم » (١٢١١) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله[١]: «أما الذي لا أعلم فيه نزاعًا أنه ليس لها أن تطوف مع الحيض إذا كانت قادرة على الطواف مع الطهر، فما أعلم منازعًا أن ذلك يحرم عليها وتأثم به وتنازعوا في إجزائه: فمذهب أبي حنيفة: يجزئها ذلك، وهو قول في مذهب أحمد ...».

أما إذا كانت غير قادرة على الانتظار حتى تطهر كي تطوف لارتباطها بموعد رحلة العودة أو نحو ذلك فلا تخلو هذه المرأة من ثمانية أقسام[٢] أظهرها أن يقال لها: أن تطوف بالبيت وهي حائض للضرورة، وهذا موافق لروح الشريعة السمحة ولرفع الحرج عن الأمة، وهو ما اختاره شيخ الإسلام رحمه الله[٣].

* وإن استطاعت المرأة أن تأخذ دواء يمنع الحيضة وقت الحج فلها أن تفعل إن لم يكن فيه ضرر خروجًا من الخلاف. والله أعلم.

٣ـ طواف الوادع:

وهو واجب من واجبات الحج عند جمهور العلماء خلافًا للمالكية فهو عندهم سنة؛ لما في «الصَّحِيحَيْنِ» عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: «أُمِرَ النَّاسُ أَنْ يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهِمْ بِالبَيْتِ، إلاَّ أَنَّهُ خُفِّفَ عَنِ المَرْأَةِ الحَائِضِ».

وفي لفظٍ لمسلم: كَانَ النَّاسُ يَنْصرِفُونَ فِي كُلِّ وَجْهٍ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لاَ يَنْفِرَنَّ أَحَدٌ حَتَّى يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهِ بالبَيْتِ»[٤].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٢٦/ ٢٠٥، ٢٠٦).

(٢) انظر: «إعلام الموقعين» (٣/ ١٩) وما بعدها.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٦/ ١٧٦ - ٢٤١).

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحج، باب طواف الوداع (١٧٥٥)، ومسلم، كتاب الحج، باب وجوب طواف الوداع وسقوطه عن الحائض (١٣٢٧، ١٣٢٨).

أما المرأة إذ حاضت بعد ما طافت طواف الإفاضة ؛ فإنه لا يلزمها البقاء حتى تطهر وتطوف للوداع ، لكن يرخص لها في ترك طواف الوداع والسفر إلى بلدها ولا يلزمها دم بذلك ، ويدل على ذلك أن النبيَّ ﷺ لما حاضت صفية قال : « أَحَابِسَتُنَا هِيَ ؟ » قالوا : إِنَّهَا قَدْ أَفَاضَتْ ، قال : « فَلْتَنْفِرْ إِذَنْ »[(١)].

* إن طهرت المرأة قبل أن تسافر فعليها طواف الوداع إذا لم تكن قد خرجت من بيوت مكة[(٢)].

* المكيُّ الذي هو من أهل مكة لا وداع عليه عند الحنفية والحنابلة أما الشافعية والمالكية ، فقالوا : عليه طواف الوداع[(٣)].

كيفية الطواف:

يستحبُّ الوضوء قبل الطواف ؛ لحديث عائشة ﵂: « أَنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ بَدَأَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ قَدِمَ أَنَّهُ تَوَضَّأَ ثُمَّ طَافَ بِالْبَيْتِ »[(٤)].

وجمهور العلماء ـ خلافًا للأحناف ورواية عن أحمد وابن حزم ـ إلى أن الطهارة من الأحداث شرط في صحة الطواف ، فإذا طاف فاقدًا أحدهما فطوافه باطل لا يعتد به ، واستدلوا بحديث ابن عباس ﵄ أن النبيَّ ﷺ قال : « الطَّوَافُ بِالْبَيْتِ صَلاَةٌ إِلاَّ أَنَّ اللهَ أَبَاحَ فِيهِ الكَلاَمَ ... »[(٥)]

(١) تقدم تخريجه .

(٢) « الأم » للشافعي (٢/ ١٥٤).

(٣) « الموسوعة الفقهية » (١٧/ ٥٨) .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الحج ، باب الطواف على وضوء (١٦٤١)، ومسلم ، كتاب الحج ، باب ما يلزم من طاف البيت وسعى من البقاء على الإحرام وترك التحلل (١٢٣٥) .

(٥) انظر: الترمذيَّ (٩٦٠)، والنسائيَّ (٢٩٢٢) ، وابن خزيمة (٢٧٣٩) ، والدارمي (٢/ ٦٦) وغيرهم . =

والحديث اختلف في رفعه ووقفه .

فإذا قلنا بأن الطواف على غير وضوء جائز ؛ فلا شك أنه مستحب ، لحديث عائشة السابق ولعموم استحباب الذكر على طهارة .

* وكذلك ستر العورة : فلا يجوز لأحدٍ أن يطوف بالبيت عريانًا ، فإن فعل لم يجزئه عند جمهور العلماء ، لقوله تعالى : ﴿ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف:٣١] ، ولقوله ﷺ : « أَلاَ لاَ يَحُجُّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ ، وَلاَ يَطُوف بِالبَيْتِ عُرْيَان »[1].

أما الأحناف فيقولون : حجُّهُ صحيحٌ ، وعليه دم .

* وأن يكون طوافه سبعة أشواط كاملة عند الجمهور. فإذا شك في عدد الأشواط وهو في الطواف بنى على اليقين وهو الأقل عند جمهور الفقهاء ؛ بل نقل ابن المنذر الإجماع على ذلك[2].

* وأن يكون الطواف من خارج الكعبة : لقوله تعالى : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾[الحج:٢٩] .

فلو طاف في الحجر وهو الموضع المحاط بجدار مقوس تحت ميزاب

= وقد قال فريق من العلماء بوقفه منهم شيخ الإسلام في المجلد السادس والعشرين ، والترمذي ، وكذلك البيهقي في « سننه الصغرى » (١/ ٤٢٥) ، وفي « الكبرى » (٢/ ٨٧) ، وابن حجر في « التلخيص الحبير » (١/ ١٢٩) قال : « رجَّح الموقوف: النسائي والبيهقي وابن الصلاح والمنذري والنووي وابن عبد الهادي» والمناوي كما في « فيض القدير » (٤/ ٢٩٣) .

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الصلاة ، باب ما يستر من العورة (٣٦٩) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب لا يحج البيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان (١٣٤٧) .

(٢) « المجموع » (٨/ ٢٥) ، و« المغني » (٣/ ٣٧٨) .

الكعبة لم يصح الطواف ؛ لقوله ﷺ : «الحِجْرُ مِنَ البَيْتِ »[(١)].

فلابد أن يكون الطواف من خارج هذا الجدار فمن طاف داخل الحجر بطل طوافه عند الجمهور .

* وأن يبدأ الطواف من الحجر الأسود وينتهي إليه ويجعل البيت عن يساره؛ كما في حديث جابر الطويل .

وأن يوالي بين الأشواط فلا يقطعها إلا لعذر كقضاء حاجة أو صلاة أو غير ذلك . أما إن كان عابثًا بطل طوافه [(٢)].

* ويستحب الاضطباع للرجال فقط .

والاضطباع : هو أن يجعل وسط إزاره تحت إبطه الأيمن ويَرُدَّ طرفيه على منكبه الأيسر فيكون المنكب الأيمن مكشوفًا ؛ لأن النبيَّ ﷺ طاف مضطبعًا [(٣)].

والاضطباع يكون في جميع الأشواط ، ولا يشرع الاضطباع في شيء من سائر المناسك إلا الطواف .

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب المناسك ، باب الصلاة في الحجر (٢٠٢٨) ، والترمذي ، كتاب الحج ، باب ما جاء في الصلاة في الحجر (٨٧٦) ، وقال : « حديث حسن صحيح » ، والنسائي ، كتاب المناسك ، باب الصلاة في الحجر (٢٩١٢) ، وابن ماجه ، كتاب المناسك ، باب الطواف بالحجر (٢٩٥٥). وأصل الحديث في البخاري ومسلم ، عن عائشة .

(٢) انظر : « المحلى » (٧/ ١٨٠) .

(٣) انظر : «سنن أبي داود» ، كتاب المناسك ، باب الاضطباع في الطواف (١٨٨٣) ، والترمذي ، كتاب الحج ، باب ما جاء أن النبيَّ ﷺ طاف مضطبعًا (٨٥٩) ، وابن ماجه ، كتاب الحج ، باب الاضطباع (٢٩٥٤) ،والدارمي (١٨٤٣)، وانظر : «صحيح سنن أبي داود والترمذي وابن ماجه » .

* ويُسَنُّ الرَّمَل[1] في الأشواط الثلاثة الأولى للرجال فقط دون النساء .

والرَّمَل : هو إسراع المشي مع تقارب الخطى وهزِّ الكتفين من غير وثب ، ويكون في الأشواط الثلاثة الأولى ، ويمشي في الأربعة الباقية ، وانظر: حديث جابر الطويل ، وهو سنة باقية لحديث عمر[2].

* ولا يقضي الرمل فمن فاته في الثلاثة الأولى فلا يقضه في الأربعة الأخرى ؛ لأن هيئتها السكينة فلا تغير[3] .

* ويُسَنُّ كذلك استلام الحجر الأسود وتقبيله في كل شوط إن أمكنه ذلك[4] . فإن لم يستطع واستلمه وشقَّ عليه تقبيله قَبَّل يده ؛فإن شقَّ عليه استلامه بيده ؛ فله أن يستلمه بعصًا ونحوها ، ويقبلها[5] ؛ فإن عجز عن استلامه يشير إليه بيده ويكبر[6] .

---

(١) انظر: البخاريَّ ، كتاب الحج ، باب كيف كان بدء الرَّمَل ؟ (١٦٠٢) ، وانظر طرفه هناك ، و« صحيح مسلم » ، كتاب الحج ، باب استحباب الرمل في الطواف (١٢٦٦) .

(٢) انظر: البخاريَّ، كتاب الحج ، باب الرمل في الحج والعمرة (١٦٠٥)، و« صحيح مسلم » ، كتاب الحج ، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف (١٢٧٠) .

(٣) « فتح الباري » (٣/ ٥٥١) .

(٤) انظر: « صحيح البخاري » ، كتاب الحج ، باب استلام الحجر الأسود (١٦٠٣) ، وانظر أطرافه هناك ، و« صحيح مسلم » ، كتاب الحج ، باب استحباب الرمل في الطواف والعمرة (١٢٦١) ، وانظر : رقم (١٢٦٨) ، وكذلك انظر : « صحيح البخاري » (١٠٦٥) ، و«صحيح مسلم» (١٢٧٠) .

(٥) انظر: «صحيح البخاري» ، كتاب الحج ، باب استلام الركن بالمحجن (١٦٠٧) ، وانظر : «صحيح مسلم» ، كتاب الحج ، باب جواز الطواف على بعير وغيره واستلام الحجرَ بمحجن ، ونحوه للراكب (١٢٧٥) .

(٦) انظر: «صحيح البخاري» ، كتاب لحج ، باب التكبير عند الركن (١٦١٣) ، وانظر أطرافه هناك .

* وله كذلك أن يسجد على الحجر الأسود ؛ لفعل عمر ﷺ[١] .

* وكذلك يستحب استلام الركن اليماني إن استطاع [٢] .

ولا تزاحم المرأة الرجال في الطواف أو استلام الركنين أو تقبيل الحجر الأسود [٣] .

* ولا يستلم الركنين الشاميين .

* ويُسَنُّ له الدعاء بين الركنين اليمانيين ؛ ويقول[٤] : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة:٢٠١] .

ويجوز الكلام والتعليم [٥] في الطواف والإفتاء والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؛ لفعله ﷺ [٦] .

وكذلك يجوز الطواف راكبًا ولو مع القدرة على المشي لفعله ﷺ [٧] .

* فإذا انتهى من الطواف ذهب إلى مقام إبراهيم وقرأ قوله تعالى :

---

(١) انظر : « إرواء الغليل » (١١١٢) .

(٢) انظر : « صحيح البخاري » ، كتاب الحج ، باب من لم يستلم إلا الركنين اليمانيين (١٦٠٩) ، و« صحيح مسلم » ، كتاب الحج ، باب استحباب استلام الركنين اليمانيين في الطواف دون الركنين الآخرين (١٢٦٧) .

(٣) انظر : « صحيح البخاري » ، كتاب الحج ، باب طواف النساء مع الرجال (١٦١٨) .

(٤) انظر : «سنن أبي داود» ، كتاب المناسك ، باب الدعاء في الطواف (١٨٩٢) ، والنسائي في «الكبرى» ، كتاب الحج (٣٩٣٤) ، وأحمد (٣/ ٤١١) ، والبيهقي في « الكبرى » (٥/ ٨٤) ، وابن خزيمة (١٧٢١) ، وحسَّن إسناده الشيخ الألباني في «صحيح سنن أبي داود» . وهو فعل عمر وابنه . انظر : « مصنف عبد الرزاق » (٨٩٦٦، ٨٩٦٤) .

(٥) «المجموع » (٨/ ٦٢، ٦٣) .

(٦) انظر: البخاريَّ ، كتاب الحج ، باب الكلام في الطواف، (١٦٢٠) ، وانظر أطرافه هناك .

(٧) انظر : « صحيح البخاري » (١٦٠٧) ، وانظر: «صحيح مسلم» (١٢١٥) .

﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥] .

* ويُصَلِّي ركعتين خلف المقام إن تيسَّر ، وإلا ففي أي مكان من الحرم يقرأ في الأولى بـ : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون:١] ، وفي الثانية بـ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص:١] [1] .

* وتُصَلَّى ركعتا الطواف في أي وقت كان من غير كراهة ولو في أوقات النهي لقوله ﷺ : « يَا بَنِي عَبْد مَنَافٍ ، لاَ تَمْنَعُوا أحدًا طَافَ بِهَذَا البَيْتِ وَصَلَّى أَيَّةَ سَاعَةٍ شَاءَ مِنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » [2] .

* ثم يشربُ من ماء زمزم ، ويصبُّ على رأسه بعد الركعتين ، لفعل رسول الله ﷺ [3] .

* ثم بعد ذلك يذهب إلى السعي .

*****

(١) انظر : حديث جابر رضي الله عنه الطويل .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب المناسك ، باب الطواف بعد العصر (١٨٩٤) ، والترمذي ، كتاب الحج ، باب ما جاء في الصلاة بعد العصر وبعد الصبح لمن يطوف (٨٦٨) ، وقال : « حديث حسن صحيح » ، والنسائي ، كتاب المواقيت ، باب إباحة الصلاة في الساعات كلها بمكة (٥٨٤) ، وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة ، باب الرخصة في الصلاة بمكة في كل وقت (١٢٥٤) ، وأحمد (٤/ ٨١) ، وابن خزيمة (١٢٨٠) والدارمي (١٩٢٦) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « الإرواء » (٤٨١) ، و « صحيح الجامع » (٧٩٠٠) .

(٣) كما عند الإمام أحمد في « مسنده » (٣/ ٣٩٤) بسند صحيح عن جابر .

السعي بين الصفا والمروة

وهو المشي بين الصفا والمروة ذهابًا وإيابًا بنية التعبد ؛ وهو سبعة أشواط تبدأ من الصفا وتنتهي بالمروة ؛ وهو ركن من أركان الحج والعمرة عند الجمهور لا يصح الحج أو العمرة إلا به ، ولا يجبره دم ولا غيره [١] .

والأدلة على ذلك كثيرة ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:١٥٨] .

وبيَّنت عائشة رضي الله عنها معنى الآية [٢] .

واختلف العلماء في طواف وسعي القارن والمتمتع على ثلاثة مذاهب [٣] ؛ أظهرها أن المتمتع يلزمه طواف وسعي لعمرة ، ثم يحل ويلزمه طواف وسعي آخران بعد الإفاضة من عرفة ، وأما القارِن فعليه طواف وسعي واحد عند الجمهور .

هل يجوز للحائض أن تسعى بين الصفا والمروة ؟

الظاهر أنه يجوز ، أما الزيادة التي وردت في حديث عائشة : « افْعَلِي كَمَا يَفْعَلُ الحَاجُّ غَيْرَ أَنْ لا تَطُوفِي بِالبَيْتِ (وَلاَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ) حَتَّى

---

(١) « شرح فتح القدير » (٢/ ١٥٦) ، و« المغني » (٣/ ٣٨٥) ، و« المجموع » (٨/ ٧١) .

(٢) انظر : البخاريَّ ، كتاب الحج ، باب وجوب الصفا والمروة وجُعِلَ من شعائر الله (١٦٤٣) وانظر أطرافه هناك ، وصحيح مسلم ، كتاب الحج ، باب بيان أن السعي بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به (١٢٧٧) ، وانظر : « الإرواء » (١٠٧٢) .

(٣) « زاد المعاد » (٢/ ٢٧١) ، و« تهذيب السنن مع عون المعبود » (٥/ ٢٤٣) و« مجموع الفتاوى » (٢٦/ ١٠٤) .

تَطْهُرِي » .

فقد مال الحافظ في « الفتح » : أنها شاذَّةٌ[١] ، وأجاب على ذلك بعدة أجوبة ، وقد روي عن ابن عمر[٢] وغيره إثبات السعي .

أحكام السعي بين الصفا والمروة

ويشترط للسعي أمور :

١ـ أن يكون بعد طواف صحيح ؛ كما تقدم .

٢ـ أن يكون سبعة أشواط يبدأ من الصفا إلى المروة شوط ، ومن المروة إلى الصفا شوط ثانٍ وهكذا .

ولو شكَّ في العدد فعل كما فعل في الطواف .

ولو نَكَّسَ وبدأ بالمروة قبل الصفا لم يُعتد بهذا الشوط ، ولو بدأ بالمروة وختم السابع بالصفا لم يجزئه الأول ، وبقي عليه شوط سابع[٣] .

٣ـ أن يكون السعي في المسعى ؛ وهو الطريق الممتد بين الصفا والمروة ، لفعل النبيِّ ﷺ .

سنن السعي :

١ـ أن يكون على طهارة .

٢ـ أن يستلم الحجر الأسود قبل خروجه للسعي ؛ كما في حديث جابر الطويل .

---

(١) « فتح الباري » (٣/ ٥٨٩) .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في « المصنف » (١/ ٤/ ٣٤٣، ٣٤٤) وهو صحيح ،وانظر: « المجموع » (٨/ ١٠٦) .

(٣) « المجموع » (٨/ ٩٥) .

٣ـ إذا اقترب من الصفا يقرأ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١٥٨] ، ويقول : « أَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللهُ بِهِ » وهذا في حديث جابر .

٤ـ أن يستقبل الكعبة ، وهو على الصفا ، ويقول : « لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٍ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ ، أَنْجَزَ وَعْدَهُ ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ » ثم يدعو بما شاء .

يفعل هذا ثلاث مرات .

٥ـ أن يمشي إلى المروة ، وله أن يركب ، لما في حديث جابر ، ولما في حديث ابن عباس عند مسلم (١٢٦٤) .

٦ـ الإسراع بين العلمين الأخضرين ، وهذا خاص بالرجال دون النساء ، كما في الرمل في الطواف .

٧ـ الدعاء بين الصفا والمروة بما شاء ، وكان ابن مسعود يدعو؛ فيقول : « رَبِّ اغْفِر وارْحَم ، إِنَّكَ أَنْتَ الأَعَزُّ الأَكْرَم »[١] .

٨ـ أن يفعل على المروة مثل ما فعل على الصفا من القراءة والتهليل والتكبير واستقبال البيت والدعاء .

*****

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٤/ ٦٨) ، والطبراني في «الدعاء» (٨٧٠) وهو صحيح .

الحلق أو التقصير للمتمتع

فإذا فرغ المتمتع من السعي بين الصفا والمروة ، فإنه يتحلل من عمرته بالحلق أو التقصير إن كان وقت الحج قريبًا ؛ لما في حديث جابر أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « أَحِلُّوا مِنْ إِحْرَامِكُمْ ، فَطُوفُوا بِالبَيْتِ وبَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ وَقَصِّرُوا ، وَأَقِيمُوا حَلالاً ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ التَّرْوِيَةِ فَأَهِلُّوا بِالحَجِّ ، وَاجْعَلُوا الَّتِي قَدِمْتُمْ بِهَا مُتْعَةً »[1].

وحكم الحلق والتقصير عند جمهور العلماء أنه واجب خلافًا للشافعي فإنه قال إنه ركن[2] ، وهما ثابتان بالكتاب والسنة والإجماع .

قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح:٢٧] .

وفي « الصَّحيحَيْنِ » عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ قال : «اللَّهُمَّ ارْحَمِ المُحَلِّقِينَ» قَالُوا : «والمُقَصِّرِينَ يا رَسُولَ الله؟» ، قالَ: «اللَّهُمَّ ارْحَمِ المُحَلِّقِينَ» ، قَالُوا : « والمُقَصِّرِينَ يا رَسُولَ الله ؟ » ، قالَ : « والمُقَصِّرِينَ »[3] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الحج ، باب التمتع والقران والإفراد بالحج وفسخ الحج لمن لم يكن معه هَدْي (١٥٦٨) ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب بيان وجوه الإحرام وأنه يجوز إفراد الحج والتمتع والقران (١٢١٦) .

(٢) انظر : « شرح فتح القدير » (٢/ ١٧٨، ٢٥٢) ، و« المغني » (٣/ ٤٣٥) ، و« الفروع » (٣/ ٥١٣) ، و« المجموع » (٨/ ١٨٩) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الحج ، باب الحلق والتقصير عند الإحلال (١٧٢٧) ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب تفضيل الحلق على التقصير وجواز التقصير (١٣٠١) .

والحلق أفضل من التقصير ؛ للحديث السابق ، وعليه : فإذا قَصَّرَ جَمَعَ شعره فيقص من جميعه ، لا كما يفعله كثير من الناس ، يأخذون بعض شعرات من الرأس ويتركون بقيته ، فعليه أن يأخذ من جميع شعره .

أما النساء فلا حلق عليهن بل عليهن التقصير .

لما رواه أبو داود من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « إِنَّمَا عَلَى النِّسَاءِ التَّقْصِيرُ »[1].

وقد حكى غير واحد الإجماع على هذا[2].

قدر كم تأخذ المرأة من شعرها ؟

لم يرد في هذا نص في الكتاب أو السنة ؛ لكن قال بعض أهل العلم : تأخذ قدر أنملة من كل ضفيرة ، وهو قول ابن عمر ، والشافعي ، وأحمد ، وأبي ثور ، وقيل : تأخذ من جوانبها شيئًا ، ولها أن تقصر بحيث لا تشابه الرجال ، وإلا لم يجز ، والله أعلم .

ماذا يفعل الأصلع ؟

الأصلع الذي لا شعر له ، ليس عليه حلق ولا فدية ، ويستحب إمرار الموسي على رأسه[3].

وقد نقل الإجماع على ذلك .

---

(١) أخرجه أبو داود كتاب المناسك باب الحلق والتقصير (١٩٨٥) ، والدارمي ،كتاب المناسك ، باب من قال : ليس على النساء حلق (١٩٠٥) ، والبيهقي في الكبرى (٥/ ١٠٤) ، وصحَّحه الألباني في « الصحيحة » (٦٠٥) ، و« صحيح الجامع » (٥٤٠٣) .

(٢) « الإجماع » لابن المنذر (ص٢٣) ، و« المغني » (٥/ ٣٠٦، ٣١٠) .

(٣) « المجموع » (٨/ ١٩٢، ١٩٣) .

وقت الحلق والتقصير :

أما في العُمرة : فيكون بعد السعي .

وأما في الحج : فهو يوم النحر بعد رمي جمرة العقبة ونحر الهدْي ، اقتداءً بالنبيِّ ﷺ .

ومن الآداب أن لا يَحْلِقَ بنفسه ؛ بل يحلق له غيره ، وأن يبدأ الحالق بالشق الأيمن كما فعل رسول الله ﷺ [1].

*****

(١) أخرجه مسلم ،كتاب الحج ، باب بيان أن السنة يوم النحر أن يرمي ثم ينحر ثم يحلق ، والابتداء في الحلق بالجانب الأيمن من رأس المحلوق (١٣٠٥) .

الخروج إلى منى

يُسنُّ أن يُحرم الحاج (سواء كان مفردًا أو مقرنًا أو متمتعًا) من منزله يوم التروية ، وهو اليوم الثامن من ذي الحجة ، ويتوجه الجميع إلى منى قبل الظهر ، ثم يُصَلُّوا الظهر والعصر والمغرب والعشاء قصْرًا من غير جمع وهذا في يوم التروية ، وأن يبيتوا بمنى حتى يُصَلُّوا الفجر وتطلع شمس يوم عرفة ؛ ثم يسير إلى عرفة راكبًا إن تيسر ، وهو أفضل من المشي ، فإذا أتى عرفة يُضرب له بقُبة ـ أي خيمة ـ إن تيسر اقتداءً بالنبيِّ ﷺ ؛ كما في حديث جابر الطويل .

ويظل يلبي ويكبِّر في طريقه من منى إلى عرفة لفعل الصحابة ﭬ[1] .

ثم يخطبهم الإمام فيبين لهم المناسك ويحرِّضهم على الإكثار من الدعاء والابتهال وغير ذلك ؛كما في حديث جابر الطويل ، وهذه الخطبة سُنَّة بالاتفاق ، وهي خطبة واحدة لا جلوس فيها .

ثم يُصَلِّي الظهر والعصر جَمْعًا وقَصْرًا مع الإمام بنَمْرَة يوم عرفة .

*****

---

(١) انظر : « صحيح البخاريِّ » ، كتاب الحج ، باب التلبية والتكبير إذا غدا من منى إلى عرفة (١٦٥٩)، ومسلم ، كتاب الحج ، باب التلبية والتكبير في الذهاب من منى إلى عرفات في يوم عرفة (١٢٨٥) ، وانظر : (١٢٨٤) .

الوقوف بعرفة

الوقوف بعرفة ركنٌ أساسٌ من أركان الحج ، ومن فاته الوقوف بعرفة ، فقد فاته الحج .

وثبتت ركنيته بالكتاب والسنة والإجماع ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾[البقرة :١٩٩] .

وقد ثبت في «الصَّحِيحَيْنِ» أنها نزلت تأمر الناس بالوقوف بعرفة [(١)].

وقال النبي ﷺ: « الحَجُّ عَرَفَةُ » [(٢)].

وقد نقل غير واحد الإجماع على أنه ركن من أركان الحج ، وأن من فاته فعليه حج قابل [(٣)].

وقت الوقوف بعرفة :

١ـ يبدأ وقت الوقوف بعرفة بعد الزوال (الظهر) يوم عرفة عند الجمهور [(٤)]، لفعله ﷺ؛ كما في حديث جابر الطويل .

---

(١) انظر: «صحيح البخاريّ» ، كتاب الحج ، باب الوقوف بعرفة (١٦٦٥) ، وانظر أطرافه هناك ، و« صحيح مسلم » كتاب الحج ، باب في الوقوف ، وقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ ﴾[البقرة :١٩٩] (١٢١٩) .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب المناسك ، باب من لم يدرك عرفة (١٩٤٩) ، والترمذي ، كتاب الحج ، باب فيمن أدرك الإمام (٨٨٩) ، والنسائي ، كتاب المناسك ، باب فيمن لم يدرك الصبح مع الإمام (٣٠٤٤) ، وابن ماجه ، كتاب المناسك ، باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع (٣٠١٥) ، والدارمي (١٨٨٧) ، وانظر : «الإرواء» (١٠٦٤) ، و«صحيح الجامع » (٣١٧٢).

(٣)« الإجماع » (٢١) ، و« بداية المجتهد » (٢/ ٣٣٥) .

(٤)« بدائع الصنائع » (٢/ ١٢٥) ، و« المغني » (٣/ ٤١٤) .

وذهب الإمام أحمد رحمه الله إلى أن وقت الوقوف يبدأ من فجر يوم عرفة ، وحُجَّته حديث عروة بن مضرس أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « مَنْ شَهِدَ صَلاَتَنَا هَذِهِ وَوَقَفَ مَعَنَا حَتَّى نَدْفَعَ ، وَقَدْ وَقَفَ بِعَرَفَةَ قَبْلَ ذَلِكَ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ؛ فَقَدْ أَتَمَّ حَجَّهُ ، وَقَضَى تَفَثَهُ »(١).

لكن قوله ﷺ : « أَوْ نَهَارًا » مطلق ، فيقيد بفعل النبيِّ ﷺ ، ويكون المراد من بعد الزوال ،وهذا هو الأحوط ، والله أعلم .

٢ـ ومن وقف بالنهار بعرفات ؛ فعليه أن يمدّ وقوفه إلى ما بعد الغروب ؛ فإن دفع منه قبل الغروب ؛ فذهب أبو حنيفة والشافعيُّ وأحمد إلى أن حجه صحيح ، وعليه دم يَجْبُرُ ما نقص من جمع جزء من الليل إلى النهار في الوقوف(٢).

وفي رواية عن الشافعي : لا يجب عليه دم ؛ وبه قال أهل الظاهر(٣).

وذهب مالك إلى أن حجه لا يصح حتى يجمع بين الليل والنهار في وقوفه(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب المناسك ، باب من لم يدرك عرفة (٢٩٥٠) ، والترمذي ، كتاب الحج ، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج (٨٩١) . وقال : «حديث حسن صحيح» ، والنسائي ، كتاب مناسك الحج ، باب فيمن لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام بالمزدلفة (٣٠٣٩، ٣٠٤٣) ، وابن ماجه ، كتاب المناسك ، باب من أتى عرفة قبل الفجر ليلة جمع (٣٠١٦) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح سنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه » ، و« الإرواء » (١٠٦٦) ، و« صحيح الجامع » (٦٣٢١) .

(٢) « المجموع » (٨/ ١٢٣) ، و« المغني » (٣/ ٣٧٠) .

(٣) « المحلى » (٧/ ١١٨) .

(٤) « المدونة » (١/ ٤١٣) ، و« بداية المجتهد » (٢/ ٣٧٥) .

٣ـ والقدر المجزئ للوقوف أن يقف جزءًا من الليل قبل الفجر ـ ولو لحظة ـ فإن طلع الفجر قبل وقوفه فاته الحج ؛ وقد دل على ذلك حديث عروة بن مضرس السابق .

سنن وآداب الوقوف بعرفة والإفاضة منها:

١ـ الوقوف عند الصخرات : يجوز للحاج أن يقف في أي مكان من عرفة ؛ لكن يستحب أن يقف عند الصخرات المفترشات في أسفل جبل الرحمة ؛ كما دلَّ عليه حديث جابر الطويل ؛ لا كما يفعله بعض الناس مما لا علم له بصعود الجبل والوقوف بأعلاه ؛ فهذا ليس من هَدْيِهِ ﷺ .

٢ـ استقبال القبلة ورفع اليدين بالدعاء : لما في حديث جابر أنه ﷺ استقبل القبلة ؛ ولحديث ابن عمرو رضي الله عنهما أَنَّ النبيَّ ﷺ قالَ : « خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لاَ إِلَهَ إلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »[1].

٣ـ التلبية : لحديث ابن عباس رضي الله عنهما[2].

٤ـ أن يكون مفطِرًا لا صائمًا ؛ لفعله ﷺ[3].

٥ـ الإفاضة من عرفة ، أي النزول بعد الغروب بسكينة ؛ كما في حديث جابر : « أَيُّهَا النَّاسُ ، السَّكِينَةَ ، السَّكِينَةَ » . وفي رواية للبخاري :

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الدعوات ، باب في دعاء يوم عرفة (٣٥٨٥) وقال : « حديث غريب من هذا الوجه » ، وابن أبي شيبة (١/ ٣٦٩) ، وانظر: « الصحيحة » (١٥٠٣) .

(٢) انظر: الحاكم (١/ ٤٦٤، ٤٦٥) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٥/ ١٠٣) ، و« حجة النبيِّ ﷺ » للشيخ ناصر الدين الألباني (ص٧٤) .

(٣) البخاري ، كتاب الصوم ، باب صوم يوم عرفة (١٩٨٨، ١٩٨٩) ، ومسلم ، كتاب الصيام ، باب استحباب الفطر للحاج بعرفات بوم عرفة (١١٢٣، ١١٢٤) .

« فإنَّ البِرَّ لَيْسَ بِالإيضَاعِ »[(١)]. أي : الإسراع ؛ فإن وجد فجوة أمامه ، فإنه يسرع قليلًا[(٢)].

٦ـ السير إلى المزدلفة مع التلبية ، وقد سبق الحديث عنها .

المبيت بمزدلفة ليلة النحر

اختلف العلماء في حكم المبيت بمزدلفة على ثلاثة أقوال :

١ـ أنه ركن . ومن فاته ؛ فاته الحج ؛ وهو مذهب ابن عباس ، وابن الزبير من الصحابة ؛ وإليه ذهب النخعي والشعبي وعلقمة وأهل الظاهر ؛ وفي مذهب مالك ما يدل عليه ، وهو اختيار ابن القيم[(٣)] رَحِمَهُ اللَّهُ .

٢ـ أنه واجب؛ فمن تركه صحَّ حجه وعليه دم ، وهو قول جمهور العلماء[(٤)].

٣ـ أنه سنة ؛ وهو قول ضعيف . وهو رواية عن أحمد .

حد المبيت الواجب:

ذهب الأحناف : إلى أن من حصَّل قدر لحظة من طلوع الفجر من يوم النحر إلى طلوع الشمس بمزدلفة ، فقد أدرك الوقوف سواء بات أو لا ؛ وإلا لزمه دم إلا إن تركه لعذر كالزحام ونحوه فلا شيء عليه .

وذهب المالكية : إلى أنه زمن حط الرَّحل في أي جزء من الليل ما بين

---

(١) البخاري ، كتاب الحج ، باب أمر النبي ﷺ بالسكينة عند الإفاضة (١٦٧١) .

(٢) البخاري ، كتاب الحج ، باب السير إذا دفع من عرفة (٦٦٦) ، ومسلم ،كتاب الحج ، باب الإفاضة من عرفات إلى المزدلفة (١٢٨٦).

(٣) « المحلى » (٧/ ١١٨) ، و« بداية المجتهد » (١/ ٣٧٦) ، و« زاد المعاد » (٢/ ٢٥٣) ، و« المغني » (٣/ ٣٧٦) .

(٤) « المغني » (٣/ ٤١٧) ، و« الزاد » (٢/ ٢٥٣) .

وصوله إلى طلوع الفجر .

وعند الشافعية والحنابلة : يجب الوقوف قدر لحظة من وصوله إلى منتصف الليل ـ إن وصلها قبل منتصفه ـ فإن وصلها بعد منتصف الليل أجزأه قدر لحظة قبل طلوع الفجر [(١)] ؛ وَرَخَّصَ للضعفة من النساء وغيرهن في النفر بَعْدَ منتصف الليل ، وأحاديث المسألة تدل على ذلك [(٢)] .

السنن في المزدلفة والدفع منها:

وهي في حديث جابر الطويل .

١ـ صلاة المغرب والعشاء جمع تأخير بمزدلفة .

٢ـ الأذان لهما بأذان واحد وإقامتين .

٣ـ ترك النافلة بين الصلاتين .

٤ـ النوم حتى طلوع الفجر وعدم إحياء الليل بالصلاة .

٥ـ صلاة الفجر في أول وقتها بأذان وإقامة .

٦ـ الوقوف على المشعر الحرام من المزدلفة مستقبل القبلة داعيًا حامدًا مكبرًا مهللاً حتى إسفار الصبح .

٧ـ الدفع بسكينة من مزدلفة قبل أن تطلع الشمس .

٨ـ الإسراع قليلًا في بطن محسر إن استطاع .

٩ـ الذهاب إلى الجمرة من طريق أخرى غير طريق الذهاب إلى عرفات .

---

(١) «رد المحتار» (٢/ ٢٤١) ، و «مغني المحتاج» (١/ ٤٩٨) ، و«المغني» (٣/ ٤١٧) ، و«الفروع» (٣/ ٥١٠) .

(٢) البخاريُّ ، كتاب الحج ، باب من قدم ضعفة أهله بليل (١٦٨١) ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب استحباب تقديم الضعفة من النساء وغيرهن من مزدلفة إلى منى في أواخر الليل قبل زحمة الناس (١٢٩٠) ، والبخاري (١٦٧٨، ١٦٧٩) ، ومسلم (١٢٩١، ١٢٩٣) .

رمي الجمرات بمنى

والرمي لغة : القذف .

والجمرات أو الجمرة : الأحجار الصغيرة ، جمع جمرة ، وهي: الحصاة .

حكمه : ذهب الجمهور إلى أنه واجب لا يجوز تركه ؛ فمن تركه لزمه دم عندهم ؛ ولأنه عمل يترتب عليه الحِلُّ فكان واجبًا ليكون فاصِلًا بين الحل والإحرام .

موضع الجمار التي ترمى وعددها :

وهي ثلاثة :

١ـ جمرة العقبة : وهي الأولى جهة مكة ، وتكون على يسار الداخل إلى منى .

٢ـ الجمرة الوسطى : وهي التي تلي جمرة العقبة جهة المزدلفة .

٣ـ الجمرة الصغرى : وهي التي تلي مسجد الخيف بِمنَى .

صفة الحصيات:

يستحب أن تكون مثل حصى الخذف ، أي : قَدْرَ حَبِّ الباقلاء ـ الفول ـ وقيل : تكون أكبر من الحمص ودون البندق ؛ لحديث جابر الطويل .

وقد أمر النبيُّ ﷺ ابنَ عباس فقال له غداة جمع : « الْقُطْ لِي حَصىً » فَلَقَطْتُ لَهُ سَبْعَ حَصَيَاتٍ هُنَّ حَصَى الخَذْفِ ، فَجَعَلَ يَنْفُضُهُنَّ فِي كَفِّهِ

وَيَقُولُ : « أَمْثَالَ هَؤُلاَءِ فَارْمُوا » ثُمَّ قَالَ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ ، فَإِنَّهُ أَهلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ »[(١)].

من أين تلتقط الحصيات ؟

يجوز للحاج أن يلتقط الحصيات من أي مكان شاء ؛ لأن النبيَّ ﷺ لم يحدد لذلك مكانًا ؛ كما في حديث ابن عباس السابق ، وهو قول مالك وأحمد وعطاء ، واختاره ابن المنذر وابن تيمية ـ رحمهم الله.

واستحب الشافعي [(٢)] أن تؤخذ من مزدلفة ، وهو مروي عن ابن عمر وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم . والأمر في ذلك واسع ، والله أعلم .

هل يجوز الرمي بحصى رمى به قبل ؟

أجاز ذلك جمهور العلماء مع الكراهة ، وذهب ابن حزم إلى الجواز من غير كراهة [(٣)].

هل يغسل حصى الرمي ؟

الظاهر أنه لا يغسل ، واستحب الشافعي غسل الحصى ، ولا دليل على هذا الرأي .

قال ابن المنذر : لا يعلم في شيء من الأحاديث أن النبيَّ ﷺ غَسَلها أو أمر بغسلها ولا معنى لغسلها .

---

(١) أخرجه النسائيُّ ، كتاب مناسك الحج ، باب التقاط الحصى (٣٠٥٧) ، وابن ماجه ، كتاب المناسك ، باب قدر حصى الرمي (٣٠٢٩) ، وأحمد (١/ ٢١٥ ، ٣٤٧) ، وصحَّحه الشيخ ناصر الدين الألباني في « صحيح سنن النسائي وابن ماجه » .

(٢) « المجموع » (٨/ ١٥٥) .

(٣) « المحلى » (٧/ ١٨٨) ، و« المجموع » (٨/ ١٧٢ ، ١٨٥) .

وكان عطاء والثوري ومالك وكثير من أهل العلم لا يرون غسلها وقال : روينا عن طاوس أنه كان يغسلها [١].

ويجوز رمي الجمار راكبًا لفعله ﷺ [٢].

توقيت الرمي وعدده :

أيام الرمي أربعة : يوم النحر وهو العاشر من ذي الحجة ، وثلاثة أيام بعده ؛ وهي أيام التشريق الحادي عشر ، والثاني عشر ، والثالث عشر من ذي الحجة .

يوم النحر يرمى جمرة العقبة الكبرى بسبع حصيات ، ويرمى في أيام التشريق الجمار الثلاث يبدأ بالجمرة الصغرى ثم الوسطى ثم الكبرى ، ويرمى كل جمرة بسبع حصيات ؛ فيصير مجموع الحصيات سبعين ، فإن تعجل ولم ينتظر اليوم الثالث عشر يكون عدد الحصى تسعًا وأربعين .

* ويستحب أن يرمي جمرة العقبة من بطن الوادي بحيث تكون مكة عن يساره ومنى عن يمينه إن تيسر له ذلك ؛ لفعل النبيِّ ﷺ ؛ كما في حديث جابر الطويل ، وكذلك حديث ابن مسعود [٣].

فإن لم يتيسر هذا فلا بأس أن يرميها من أي مكان تيسر .

---

(١) « المجموع » (٨/ ١٥٦، ١٦٤) .

(٢) الترمذي ،كتاب الحج (٩٠٣) ، والنسائي ،كتاب مناسك الحج (٣٠٦١) ، وابن ماجه ، كتاب المناسك ، باب رمي الجمار راكبًا (٣٠٣٥) ، والدارمي (١٩٠١) ، والبيهقي (٥/ ١٣٤) وانظر : « صحيح سنن الترمذي والنسائي وابن ماجه » .

(٣) البخاري ، كتاب الحج ، باب يكبر مع كل حصاة (١٧٥٠) ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب رمي جمرة العقبة من بطن الوادي وتكون مكة عن يساره ويكبر مع كل حصاة (١٢٩٦) .

وقت الرمي:

السنة [١] أن لا يرمي جمرة العقبة يوم النحر إلا بعد طلوع الشمس، ولا يجب هذا عند جمهور العلماء، وإن أخر الرمي إلى ما قبل الغروب جاز ـ وإن لم يكن مستحبًا ـ بالإجماع [٢].

فمن شق عليه الرمي قبل الغروب، فإنه يرخص له أن يرمي ولو بالليل؛ لقوله ﷺ لما أتاه رجل فسأله قال: رَمَيْتُ بَعْدَ مَا أَمْسَيْتُ؟ قَالَ: «لاَ حَرَجَ» [٣].

* ويبدأ وقت الرمي عند الأحناف والمالكية من طلوع الفجر يوم النحر.

وعند الشافعية والحنابلة من منتصف ليلة النحر لمن وقف بعرفة قبله.

وآخر وقتِ رمي جمرة العقبة عند الحنفية إلى فجر اليوم التالي الحادي عشر، وعند المالكية إلى المغرب، ويجب على من تأخر عندهما دم على تأخيره.

وأما الشافعية والحنابلة فآخر وقت الرمي عندهم آخر أيام التشريق.

* أما الضعفة الذين دفعوا من مزدلفة قبل الفجر: المستحب لهم

---

(١) البخاري، فقد روى الأثر بذلك معلقًا بصيغة الجزم «فتح الباري» (٣/ ٦٧٧)، و«صحيح مسلم» كتاب الحج، باب وقت استحباب الرمي (١٢٩٩).

(٢) «التمهيد» لابن عبد البر (١٧/ ٢٥٥).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الحج، باب إذا رمى بعدما أمسى أو حلق قبل أن يذبح ناسيًا أو جاهلًا (١٧٣٥).

الرمي بعد طلوع الشمس ؛كما فعل ﷺ ، أما قبل طلوع الشمس فأجازه الشافعي رحمه الله ولو قبل الفجر ، وأجازه الجمهور بعد الفجر إلى طلوع الشمس .

سنن الرمي يوم النحر

١ـ قطع التلبية قبل الشروع في الرمي .

لفعله ﷺ [(١)]، وبه قال الجمهور [(٢)].

٢ـ التكبير مع كل حصاة يرميها ؛ لحديث جابر الطويل .

٣ـ أن يرميها من أسفلها من بطن الوادي ؛ كما تقدم .

٤ـ أن يرمي بعد طلوع الشمس .

٥ـ الانصراف بعد الرمي وعدم الوقوف [(٣)]؛ لحديث جابر الطويل .

الأعمال في يوم النحر وترتيبها:

عند وصول الحاج إلى منى يشرع له أربعة أمور :

١ـ رمي جمرة العقبة .

٢ـ ذبح الهدي .

٣ـ الحلق .

٤ـ طواف الإفاضة .

---

(١) البخاري ، كتاب الحج ، باب النزول بين عرفة وجمع (١٦٧٠) ، ومسلم ،كتاب الحج ، باب استحباب إدامة الحاج التلبية حتى يشرع في رمي جمرة العقبة يوم النحر (١٢٨١) .

(٢) « فتح الباري » (٣/ ٦٢٣) ، و« المجموع » (٨/ ١٧٧) ، وعند ابن حزم في « المحلى » (٧/ ١٨٠) : يقطع التلبية إذا أتم الرمي .

(٣) وراجع : « الفتح » (٣/ ٦٧٩) .

وهذا الترتيب سنة ليس بواجب ؛ فلو قدَّم الطواف قبل الرمي أو الذبح قبل الرمي أو حلق قبل الرمي جاز له ذلك ولا فدية عليه ، لكن فاته الأفضل ، وهو مذهب الشافعي وجمهور السلف والعلماء وفقهاء أصحاب الحديث [(١)].

أما الإمام أحمد وغيره ؛ فقالوا : الرخصة في عدم الترتيب تختص بمن نسي أو جهل لا بمن تعمد [(٢)].

التحلل الأول والثاني :

للحج تحللان : أول وثانٍ ، يتعلقان برمي جمرة العقبة والحلق وطواف الإفاضة ؛ وقد اختلف العلماء هل يحصل التحلل الأول بالرمي وإن لم يحلق أم بالرمي مع الحلق ؟

والأصل في ذلك حديث عائشة قالت : « طَيَّبْتُ رَسُولَ الله ﷺ بِيَدَيَّ هَاتَيْنِ حِيْنَ أَحْرَمَ ، وَلِحِلِّه حين أَحَلَّ قَبْلَ أَنْ يَطُوفَ » [(٣)].

فدل ذلك على أن تطييبها له وقع بعد الرمي لكن هل كان التطيب قبل الحلق أو بعده ؟

فقال بعض العلماء : لو كان يحل بالرمي فقط لقالت : « ولحله قبل أن يحلق » فهي رضي الله عنها جعلت الحل ما بين الطواف والذي قبله ، والذي قبله هو الرمي والنحر والحلق ، لا سيما وقد قال ﷺ : « إِنَّ مَعِيَ الهَدْيَ ، فَلاَ

---

(١) « المجموع » (٨/ ١٦٨) ، و« فتح الباري » (٣/ ٦٦٨) .

(٢) « المغني » (٣/ ٤٤٧) ، و« فتح الباري » (٣/ ٦٦٨) ، و« شرح عمدة الأحكام » لابن دقيق العيد (٢/ ٧٩) .

(٣) سبق تخريجه .

أَحِلُّ حَتَّى أَنْحَرَ » .

وقال آخرون : إن المحرم إذا رمى جمرة العقبة حَلَّ له كل شيء إلا النساء ولو لم يحلق ، وهو قول عطاء ومالك وأبي ثور وأبي يوسف ، ورواية عن أحمد اختارها ابن قدامة وذهب إليه ابن حزم[١] ؛ بل قال : يحل له ذلك بمجرد دخول وقت الرمي ولو لم يرم .

وذهب الشافعية : إلى أن التحلل الأول يقع بأمرين من ثلاثة : الرمي والحلق والطواف ، ويقع التحلل الثاني بالثالث[٢] .

وأما التحلل الثاني: فيحصل بعد طواف الإفاضة ؛ لحديث ابن عمر[٣] .

الرمي في أول وثاني أيام التشريق

وفي اليوم الحادي عشر والثاني عشر من ذي الحجة يجب رمي الجمار الثلاث على الترتيب : الجمرة الصغرى ثم الوسطى ثم جمرة العقبة ، يرمي كل جمرة منها بسبع حصيات .

وقت الرمي:

يبدأ وقت الرمي في هذين اليومين بعد الزوال عند جمهور العلماء ولا يجوز قبله[٤] .

ويمتد الوقت المسنون من زوال الشمس إلى غروبها ، فإن شق الرمي قبل المغرب ، فلا حرج أن يرمي بالليل كما سبق في يوم النحر ، وأما نهاية

---

(١) انظر : « المغني » (٣/ ٤٣٩) ، و« المحلى » (٧/ ١٣٩) .

(٢) « المجموع » (٨/ ٢٠٣) ، و« فتح الباري » (٣/ ٦٨٤) .

(٣) « البخاري » (١٦٩١) ، و« صحيح مسلم » (١٢٢٧) .

(٤) « المبسوط » (٤/ ٢٣) ، و« الموطأ » (١/ ٤٠٩) ، و« المجموع » (٨/ ٢١١) .

وقت الرمي فمذاهب العلماء فيه كما في رمي جمرة العقبة يوم النحر .

صفة الرمي في اليومين :

بيّنها حديث ابن عمر رضي الله عنهما : « أَنَّهُ كَانَ يَرْمِي الجَمْرَةَ الدُّنيا بِسَبْعِ حَصَياتٍ يُكَبِّرُ عَلَى إِثْرِ كُلِّ حَصَاةٍ ، ثُمَّ يَتَقَدَّمُ حَتَّى يُسْهِلَ فَيَقُومُ مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ ، فَيَقُومُ طَوِيْلًا ، وَيَدْعُو وَيَرْفَعُ يَدَيْهِ ، ثُمَّ يَرْمِي الوُسْطَى ، ثُمَّ يَأْخُذُ ذَاتَ الشِّمَالِ ، فَيَسْتَهِلُّ وَيَقُومُ مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ ، فَيَقُومُ طَوِيْلًا وَيَدعو ، وَيَرْفَعُ يَدَيْهِ وَيَقُومُ طَوِيْلًا ، ثُمَّ يَرْمِي جَمْرَةَ ذَاتِ العَقَبَةِ مِنْ بَطْنِ الوادي ، وَلاَ يَقِفُ عِنْدَهَا ، ثُمَّ يَنْصَرِفُ فَيَقُولُ : هَكَذا رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَفْعَلُهُ »[1].

النفر الأول :

من رمى الجمار أول وثاني أيام التشريق ، فإنه يجوز له أن ينفر (أي يرحل) إلى مكة إن أحب التعجل في الانصراف من منى ، ويسمَّى هذا اليوم يوم النَّفر الأول ، وبه يسقط رمي اليوم الثالث من أيام التشريق اتفاقًا ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾[البقرة:٢٠٣] .

فإذا أراد الرحيل رَحَل قبل غروب الشمس ثاني أيام التشريق عند جمهور العلماء .

أما الأحناف قالوا : له أن ينفر ما لم يطلع الفجر من ثالث أيام التشريق .

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الحج ، باب إذا رمي الجمرتين يقوم مستقبل القبلة ويُسْهِلُ (١٧٥١) ، وانظر طرفيه هناك .

الرمي ثالث أيام التشريق

من لم يتعجل وتأخر يرمي الجمرات بعد الزوال عند الجمهور ، واتفق العلماء على أن آخر وقت الرمي في هذا اليوم عند غروب الشمس ، وكذلك وقت قضاء الرمي للأيام السابقة ينتهي عند الغروب .

* فإذا رمى الجمار في اليوم الثالث انصرف إلى مكة ، ولا يُسَنّ له أن يقيم بمنى بعد الرمي ، ويسمى بيوم النفر الثاني . وبه تنتهي المناسك .

هل يجوز الرمي عن الغير ؟

من عجز عن الرمي بنفسه لمرض أو حُبِسَ أو نحو ذلك ، فإنه يستنيب من يرمي عنه ؛ لأن وقته مضيق ، وينبغي أن يكون النائب رمى عن نفسه أولًا .

ولا يصح الرميُ عن النساء اللواتي يستطعن الرمي وكذلك الصبيان .

* والمبيت بمنى أيام التشريق واجب عند الجمهور سواء للمتعجل أو المتأخر من تركه بدون عذر يلزمه دم عندهم [1].

وذهب الأحناف ـ وقول للشافعي ورواية عن أحمد: أنه سُنَّة [2].

*****

(١) « المغني » (٣/ ٤٤٩)، و« الفروع » (٣/ ٥١٨) .

(٢) « الهداية » (٢/ ١٨٦)، و« الإنصاف » (٣/ ٤٧) .

الهَدْي

وهو ما يُهْدَى إلى الحرم من حيوان وغيره ، والمراد هنا : ما يُهْدَى من الأنعام - خاصة - إلى الحرَمِ تقربًا إلى الله تعالى . قال تعالى : ﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الحج:٣٦، ٣٧].

أنواع الهَدْي:

اتفق العلماء على أنه لا يكون الهدي إلا من الأزواج الثمانية التي نص عليها القرآن ، وأن الأفضل في الهدايا : الإبل ، ثم البقر ، ثم الغنم ، ثم المعز[1] ، فكلما كان أغلى ثمنًا كان أفضل ؛ لأن النبيَّ ﷺ لما سُئِل عن الرِّقاب : أَيُّها أَفْضَل ؟ قال : « أَغْلَاهَا ثَمَنًا وَأَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا »[2] .

شروط الهَدْي:

١ـ أن يكون من بهيمة الأنعام - كما سبق - وهذا مجمع عليه .

٢ـ أن يكون جذع ضأن أو ثنيَّ سواه ، لا يجزئ دون ذلك ، فلا يجزئ من الإبل ما له أقل من خمس سنين ، ولا من البقر ما له أقل من سنتين ، ولا من المعز أقل من سنة ، ولا من الضأن أقل من ستة أشهر .

---

(١) « بداية المجتهد » (٢/ ٥٥٩) ، و« المجموع » (٨/ ٣٦٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العتق ، باب أي الرقاب أفضل (٢٥١٨) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (٨٤) .

٣ـ أن تكون سليمة من العيوب كالعوراء والمريضة والعرجاء والكسيرة وغير ذلك ؛ بل يتخير أفضلها وأحسنها .

أنواع الهَدْي:

أجمع العلماء على أن الهدي المسوق في هذه العبادة منه واجب ومنه تطوع :

١ـ الهدْي الواجب : وهو على أقسام :

(أ) هدْي التمتع والقران : وهو الذي وجب على الحاج الذي لبى بعمرة متمتعًا بها إلى الحج ، أو لبى بحج وعمرة قارنًا بينهما ؛ لقول الله ﷻ : ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ﴾ [البقرة:١٩٦] .

وهذا الهَدْي يجب على المتمتع بالإجماع ، وعلى القارن عند الجمهور .

(ب) هدي الفدية : وهو الذي يجب على الحاج إذا حلق شعره لمرض أو شيء مؤذٍ ، لقوله تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦] .

ويكون مخيَّرًا بين الهَدْي وبين الإطعام والصيام ؛ كما تقدم .

* وقد ألحق الجمهور بهذا النوع إيجاب الهَدْي على من ترك واجبًا من واجبات الحج وعلى من ارتكب محظورًا من محظورات الإحرام .

(جـ) هدي الجزاء : وهو الذي يجب على المحرم الذي يقتل صيد البر ، وقد سبق الحديث عنه .

وقاسوا على هذا دمًا على من ارتكب محظورًا من المحظورات في الحرمين : مكة والمدينة كقطع شجرة ونحوه .

(د) هدْي الإحصار : وهو ما يجب على من حُبِسَ عن إتمام المناسك لمرض أو عدو أو نحوه ، ولم يكن قد اشترط عند إحرامه ـ كما سبق ـ لقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ [البقرة:١٩٦] .

(هـ) هَدْي الوطء :

وهو الذي يجب على الحاج الذي جَامَعَ زوجته أثناء الحج .

(و) هَدْي النذر : وهو الذي أوجبه الشخص على نفسه إذا نذره .

(٢) هَدْي التطوع : وهو ما يتطوع به الحاج المفرد أو المعتمر بإهدائه وما يتطوع به غيرهما فوق ما يجب عليه .

* يجوز ويستحب لمن كان في بلده أن يبعث هَدْي تطوع مع غيره ، فإذا بعثه لا يصير بذلك محرمًا ولا يحرم عليه شيء مما حرم على المحرم ، وهو قول جمهور العلماء لحديث عائشة رضي الله عنها قالت : « فَتَلْتُ قَلائِدَ بُدْنِ رَسُولِ الله ﷺ بِيَدَيَّ ، ثُمَّ أَشْعَرَهَا وقَلَّدَهَا ، ثُمَّ بَعَثَ بِهَا إِلى البَيتِ ، وَأَقَامَ بِالمَدِينَةِ ، فَمَا حَرُمَ عَلَيْهِ شَيءٌ ، كَانَ لَهُ حِلاً »[(١)] .

وللحاج أن يشتري هَدْيَه من الحَرَمِ كما يجوز له أن يسوقه من خارج الحَرَمِ ، فإن ساقه استُحب له أن يقلده ويشعره إن كان من الإبل أو البقر

---

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الحج ، باب من أشعر وقلد بذي الحليفة ثم أحرم (١٦٩٦) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب استحباب بعث الهدي إلى الحرم لمن لا يريد الذهاب بنفسه (١٣٢١) .

بلا خلاف ، والتقليد هو أن يجعل في الهَدْي نعلاً أو نعلين أو قطعة جلد ليعرف أنه هَدْي .

والإشعار هو : أن يشق أحد جنبي سنام البدنة أو البقرة ـ ويستحب الأيمن عند الشافعي وأحمد ـ حتى يسيل الدم ؛ فيكون علامةً على أنها من الهَدْي ؛ لحديث عائشة السابق وحديث ابن عباس [(١)] .

وهل تقلد الغنم؟ الظاهر : أنه نعم [(٢)]، وهو قول الشافعي وأحمد وأبي ثور وداود ؛ خلافًا لمالك وأبي حنيفة .

كم يجزئ من الهَدْي ؟

ليس في أكثر الهَدْي حدٌّ معلوم ، وقد كان هَدْيُ النبيِّ ﷺ مائة [(٣)] .

وأقل ما يجزئ عن الواحد شاة .

وقد أجمعوا على أن الكبش لا يجزئ إلا عن واحد في الهدايا إلا ما رُوِيَ عن مالك من أنه يجزئ أن يذبحه الرجل على نفسه وعن أهل بيته لا على جهة الشركة بل إذا اشتراه مفردًا [(٤)] .

* ويجوز أن يشترك سبعة في بعير أو بقرة ،وهو قول الشافعي والمشهور عن أحمد ؛ كما في حديث جابر ﷺ .

وقد نقل ابن رشد الإجماع على أنه لا يجوز أن يشترك في النسك أكثر

---

(١) «صحيح مسلم» (١٢٤٣) .

(٢) «البخاريُّ» ،كتاب الحج ، باب تقليد الغنم (١٧٠١) ، و«صحيح مسلم» ، كتاب الحج ، باب استحباب بعث الهدي إلى الحرم لمن لا يريد الذهاب (١٣٢١) .

(٣) «البخاريُّ» ،كتاب الحج ، باب يتصدق بجلود الهَدْي (١٧١٧) ، وانظر : رقم (١٧٠٧) .

(٤) انظر : «بداية المجتهد» (١/ ٦٥٥) .

من سبعة [١] .

وذهب إسحاق إلى أن البدنة والبقرة تجزئ عن عشرة .

وانظر توجيه ابن القيم لهذا القول في « زاد المعاد » [٢] .

وقت الذبح أو النحر:

يستحب الذبح يوم النحر ، وهو العاشر من ذي الحجة ، بعد رمي جمرة العقبة ، وقبل الحلق والطواف ـ كما تقدم .

أما وقت الجواز ؛ فقد اختلف العلماء في ذلك [٣] :

١ـ **يجوز الذبح يوم النحر وثلاثة أيام بعده** : وهو قول عليٍّ بن أبي طالب ، والحسن ، وعطاء ، والأوزاعي ، والشافعي ، واختاره ابن المنذر ، وابن تيمية ، وابن القيم .

٢ـ **يوم النحر ويومان بعده** : وهو قول ابن عمر ، وابن عباس ، وأحمد ، ومالك ، وأبي حنيفة ، وغير واحد من الصحابة رضي الله عنهم .

٣ـ **وقت النحر يوم واحد** : وهو قول ابن سيرين .

٤ـ **يوم واحد في الأمصار وثلاثة أيام في منى** : وهو قول سعيد بن جبير وجابر بن زيد .

٥ـ **أنه من يوم النحر إلى آخر ذي الحجة** : وهو محكيٌّ عن أبي سلمة بن

---

(١) المصدر السابق .

(٢) « زاد المعاد » (٢/ ٢٦٦، ٢٦٧) .

(٣) انظر : « الأم » (٢/ ٢١٧) ، و« الإنصاف » (٤/ ٨٧) ، و« المجموع » (٨/ ٣٩٠) ، و« زاد المعاد » (٢/ ٣١٨) .

عبد الرحمن والنخعي .

٦ـ أنه لا يختص بوقت معين : وهو وجه عند الشافعية ،وضعَّفه النووي .

مكان الذبح والنحر:

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج:٣٣] .

ولحديث جابر [١] وفيه « نَحَرْتُ هَاهُنَا ، وَمِنىً كُلُّها مَنْحَرٌ ، فَانْحَرُوا فِي رِحَالِكُمْ ... » .

وفي لفظ : « مِنى كُلُّهَا مَنْحَرٌ، وَكُلُّ فِجَاجِ مَكَّةَ طَرِيقٌ وَمَنْحَرٌ ، وَكُلُّ عَرَفَةَ مَوْقِفٌ ، وَكُلُّ المُزْدَلِفَةِ مَوْقِفٌ » [٢] .

فالهَدْي لا يذبح إلا في الحرم ؛ في مكة أو غيرها من الحرم ، فمن فعل أجزأه عند الجمهور ، خلافًا لمالك ، فإنه قال : لا يجزئ في الحرم إلا بمكة تمسكًا بقوله تعالى : ﴿ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة:٩٥] .

وفعل النبيِّ ﷺ وقوله حجة عليه .

هل يجوز نقل لحوم الهدايا خارج الحرم ؟

قال مجلس هيئة العلماء بالسعودية في قراره (٧٧) بتاريخ (٢١/ ١٠/ ١٤٠٠ هـ) : « إن ما يذبحه الحاج ثلاثة أنواع :

١ـ «هَدْي التمتع أو القِرَان : فهذا يجوز النقل منه إلى خارج الحرم ،

---

(١) وقد سبق ؛ وهو في « صحيح مسلم » برقم (١٢١٨) .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب المناسك ، باب الصلاة بجمع (١٩٣٦، ١٩٣٧) ، وابن ماجه ، كتاب المناسك ، باب الذبح (٣٠٤٨) ، والدارمي (١٨٧٩) ، وأحمد (٣/ ٣٢٦) .
وانظر : « صحيح الجامع » (٦٧٤٨) ، و « حجة النبيِّ ﷺ » (ص٦٨ ، ٧٤) .

وقد نقل الصحابة رضي الله عنهم من لحوم هداياهم إلى المدينة ؛ ففي صحيح البخاري عن جابر رضي الله عنه قال : « كُنَّا لاَ نَأْكُلُ مِنْ لُحُومِ بُدْنِنَا فَوْقَ ثَلاَثِ مِنى ، فَرَخَّصَ لَنَا رَسُولُ الله ﷺ فَقَالَ : « كُلُوا وَتَزَوَّدُوا » ، فَأَكَلْنَا وَتَزَوَّدْنَا »[1].

٢ـ ما يذبحه الحاج داخل الحرم جزاء الصيد أو فدية لإزالة أذى أو ارتكاب محظور أو ترك واجب ، فهذا النوع لا يجوز نقل شيء منه ؛ لأنه كله لفقراء الحرم .

٣ـ ما ذبح خارج الحرم من فدية الجزاء أو هَدْي الإحصار أو غيرهما مما يسوغ ذبحه خارج الحرم ، فهذا النوع يوزَّع حيث ذُبِحَ ، ولا يمنع نقله من مكان ذبحه إلى مكان آخر »[2].

* توقيف الهَدْي بعرفة (التعريف)[3] :

ذهب مالك إلى أنه لا يجزئ من الهَدْي الذي يبتاع في الحرم إلا أن يوقف بعرفة ، فإن ابتيع في الحل ثم أدخل الحرم أجزأ ، وإن لم يوقف بعرفة .

وقال الليث : لا يكون هدْيًا إلا ما قلد وأشعر ووقف بعرفة .

وقال الشافعي والثوري وأبو ثور : وقوف الهَدْي بعرفة سنة ، ولا حرج في تركه سواء كان داخلًا من الحل أو لم يكن .

---

(١) البخاري ، كتاب الحج ، باب وما يأكل من البدن وما يتصدق (١٧١٩) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب بيان ما كان من النهي عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث في أول الإسلام ، وبيان نسخه وإباحته إلى متى شاء (١٩٧٢) .

(٢) « توضيح الأحكام » للبسام (٣/ ٣١١ ، ٣١٢) .

(٣) « المحلى » (٧/ ١٦٦ ، ١٦٧) ، و« بداية المجتهد » (١/ ٥٦١ ، ٥٦٢) .

وقال أبو حنيفة : التعريف ليس بسنة .

فمن استطاع أن يقف بالهَدْي فهو حسن ؛ وإلا فلا حرج في تركه ، للمشقة والحرج الشديدين في ذلك . والله أعلم .

النحر والذبح في الأنعام :

اتفق أهل العلم على أن الذكاة في بهيمة الأنعام نحر وذبح ؛ وأن من سنة الغنم الذبح ؛ وأن من سنة الإبل النحر ؛ وأن البقر يجوز فيها الذبح والنحر [(١)].

* من سنة نحر الهَدْي أن تنحر وهي قائمة ومقيدة .

قال الله تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ﴾[الحج:٣٦] .

قال ابن عباس : أي : قيامًا على ثلاث . وأتى ابن عمر على رجل وهو ينحر بدنته باركة ؛ فقال : « ابْعَثْهَا قِيَامًا مُقَيَّدَة ، سُنَّةَ نَبِيكُمْ ﷺ » [(٢)].

ولحديث جابر ﷺ : « أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وأَصْحَابَهُ كَانُوا يَنْحَرُونَ البَدَنَةَ مَعْقُولَةَ اليُسْرَى ، قَائِمَةً عَلَى مَا بَقِيَ مِنْ قَوَائِمِهَا » [(٣)].

أما البقر والغنم فيستحب ذبحها مضطجعة على جنبها الأيسر، وتترك رجلها اليمنى ، وتُشَدُّ قوائمها الثلاث .

انتفاع صاحب الهَدْي به :

١ـ الأكل منه إذا بلغ محله : قال تعالى : ﴿ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ

---

(١) « بداية المجتهد » (١/ ٦٧٠) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الحج ، باب نحر الإبل مقيدة (١٧١٣) ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب نحر البدن قيامًا مقيدة (١٣٢٠).

(٣) أخرجه أبو داود ، كتاب المناسك ، باب كيف تنحر البدن (١٧٦٧) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح سنن أبي داود » .

ٱلْفَقِيرَ﴾ [الحج:٢٨].

واختلف أهل العلم في الأكل من الهَدْي الواجب.

فقال أبو حنيفة: لا يؤكل من الهَدْي الواجب إلا هَدْي المتعة وهَدْي القران. وهو قول أكثر الحنابلة.

وقال مالك: يؤكل من كل الهَدْي الواجب إلا جزاء الصيد ونذر المساكين وفدية الأذى.

وقال الشافعي: لا يؤكل من الهَدْي الواجب كله، ولحمه كله للمساكين[1] وقد أكل النبيُّ ﷺ من هَدْيِهِ.

* وأما هَدْي التطوع فقد أجمعوا على أنه يأكل منه - إذا بلغ محله - كسائر الناس.

* وإذا عطب (أي عجزت أو كلت وأعيت ووقفت) قبل أن يبلغ الهَدْي محله:

خلى بينه وبين الناس ولم يأكل منه؛ لحديث ابن عباس[2].

٢- ركوب الهَدْي لمَنْ احتاج إليه: يجوز للحاج أن يركب الهَدْي إذا احتاج إلى ذلك بالمعروف من غير إضرار بها؛ وهو قول الشافعي لقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج:٣٣]

---

(١) «المبدع» (٣/ ١٢٤)، و«الإنصاف» (٣/ ٤٣٩)، و«بداية المجتهد» (١/ ٥٦٥)، و«روضة الطالبين» (٣/ ١٩١)، و«مجموع الفتاوى» (٢٦/ ٨٢)، و«المجموع» (٧/ ١٧٦).

(٢) مسلم، كتاب الحج، باب ما يفعل بالهَدْي إذا عطب في الطريق (١٣٢٥، ١٣٢٦).

ولحديث أبي هريرة [(١)] وجابر رضي الله عنهما [(٢)].

* لا يعطى الجزار أجرته من الهدْي ؛ لحديث عليٍّ رضي الله عنه أنه قالَ : « وَأَمَرَنِي أَلاَّ أُعْطِي الجَزَّار منهَا شَيْئًا ، وَقَالَ : نَحْنُ نُعْطِيهِ مِنْ عِنْدِنَا » [(٣)].

* الصيام لمن لم يستطع الهدْي : من كان قارنًا أو متمتعًا فإنه يجب عليه هَدْي - كما سبق - فإن لم يملك ثمن الهَدْي ولم يستطعه فإنه يصوم ثلاثة أيام في الحج ، وسبعة إذا رجع إلى بلده ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة:١٩٦].

ولحديث ابن عمر [(٤)] رضي الله عنهما .

متى يصوم الأيام الثلاثة ؟

اختلف العلماء في الأيام الثلاثة التي تصام في الحج على أقوال ، أشهرها قولان :

١- أنه يشرع صيامها من حين الإحرام بالعمرة في أشهر الحج ، واختاره ابن تيمية ، ويستحب أن يجعلها السابع من ذي الحجة ويوم

---

(١) البخاري ، كتاب الحج ، باب ركوب البدن (١٦٨٩) ،وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب جواز ركوب البدنة المهداة لمن احتاج إليها (١٣٢٢) .

(٢) مسلم (١٣٢٤) .

(٣) البخاري ، كتاب الحج ، باب يتصدق بجلود الهَدْي (١٧١٧) ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب الصدقة بلحوم الهَدْي وجلودها وجلالها (١٣١٧) .

(٤) البخاري ، كتاب الحج ، باب من ساق البدن معه (١٦٩١) ، ومسلم ، كتاب الحج ، باب وجوب الدم على المتمتع (١٣٢٧) .

التروية ويوم عرفة ، وهذا مذهب الأحناف والحنابلة ، وعن أحمد أن الأفضل أن يكون آخرها يوم التروية [١].

٢ـ أنه لا يجوز الصيام إلا بعد الإحرام بالحج : وهو مذهب المالكية والشافعية [٢] ؛ لقوله تعالى : ﴿ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٩٦] .

وهو مرويٌّ عن ابن عمر .

ولا يصوم الحاج يوم عرفة ؛ لأنه خلاف السنة ، وإذا صام أيام التشريق فلا بأس ، ولا يجوز له أن يؤخر الصيام عن أيام التشريق ؛ لأن ما بعد أيام التشريق ليست من أيام الحج ، ولا يشترط التتابع في الصيام إلا إذا ضاق الوقت لزمه التتابع ، والله أعلم .

المحصر إذا لم يستطع الهَدْي ماذا يفعل ؟

تقدَّم أن المحصر الذي لم يشترط في إحرامه يجب عليه هَدْي ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ [البقرة:١٩٦] . فإن لم يستطع أو لم يجده ؛ الصواب أنه يحل ولا شيء عليه لا صيام ولا غيره ، خلافًا للحنابلة والشافعية ؛ فقد قاسوه على هَدْي التمتع [٣].

الفوات والإحصار

١ـ الفوات : ما يفوت به الحج ومن فاته الوقوف بعرفة حتى طلع الفجر من يوم النحر فقد فاته الحج ، وقد تقدم هذا .

---

(١) « شرح فتح القدير » (٢/ ٥٢٩) ، و« الإنصاف » (٣/ ٥١٢) ، و« المبدع » (٣/ ١٨٦) .

(٢) « المجموع » (٧/ ١٨٦) .

(٣) انظر : « الإنصاف » (٤/ ٦٩) ، و« المجموع » (٧/ ١٨٦) ، وانظر : « الشرح الممتع » (٧/ ٢١٢، ٤٤٨) .

من فاته الحج ماذا يفعل ؟

من فاته الوقوف بعرفة فقد فاته الحج ، ويتحلل بعمرة من طواف وسعي وحلق أو تقصير ، ولزمه أن يقضيه من قابل ، ولزمه الهَدْي في وقت القضاء ، ويسقط عنه ما بقى من المناسك كالنزول بالمزدلفة والرمي ومنى ونحوها ، وهو قول الجمهور ، خلافًا للأحناف فإنهم لا يوجبون عليه الهَدْي [(١)] .

وإن اختار من فاته الحج أن يبقى على إحرامه ليحج من قابل فله ذلك ؛ لأن تطاول المدة بين الإحرام وفعل النسك لا يمنع من إتمامه ، كالعمرة والمحرم بالحج في غير أشهره .

* **إذا أخطأ في الوقوف بعرفة :** إذا أخطأ الناس فوقفوا في اليوم الثامن أو العاشر فإنه يجزئهم ، ولا يجب عليهم القضاء [(٢)] ؛ لأنهم فعلوا ما أمروا به .

فإن اختلفوا فأصاب بعضهم وأخطأ بعضهم لم يجزئهم ؛ لأنهم غير معذورين في ترك ما عليه الجماعة .

٢- الإحصار : وهو منع المحرم من إتمام النسك والأصل فيه قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ﴾ [البقرة:١٩٦] .

* **الإحصار المعتبر :** اختلف أهل العلم في السبب المعتبر به الإحصار

---

(١) « بدائع الصنائع » (٢/ ٢٢٠) ، و« روضة الطالبين » (٣/ ١٨٢) ، و« الكافي » (٣٦٠) ، و«القوانين الفقهية » (ص٩٥) .

(٢) « المجموع » (٨/ ٢٨١) .

لاختلافهم في فهم الآية ؛ فقال بعضهم :

المحصر : هو المحصر بالعدو فقط ، وهو مذهب الشافعية والحنابلة ، وقول ابن عمر وابن عباس .

وقال آخرون : بل المحصر هو المحصر بِمرضٍ وعدوٍ ، وكل ما يمنع من إتمام النسك ، وبه قال مالك ، ورواية عن أحمد ، واختاره شيخ الإسلام [1] ، وهو الراجح ، والله أعلم .

هل يجب على المحصر القضاء ؟

الجمهور على أنه لا يجب عليه القضاء إن تحلل خلافًا للأحناف ، إلا إذا كان حجه واجبًا في الأصل كحجة الإسلام ، فإنه يطالب بها للوجوب السابق ، والله أعلم .

*****

(١) «بداية المجتهد» (١/ ٥٢٩) ، و«الإنصاف» (٤/ ٧١)، و«الاختيارات الفقهية» (١٢٠) .

ملخص أعمال الحج للمتمتع

ما قبل السفر :

١-من استطاع الحج ، واستقر عزمه وجزمه على أدائه ، بادر بتوبة نصوح من كل المعاصي ، واجتهد في الخروج من مظالم الخلق بردِّها إلى أصحابها ، ويجتهد في قضاء ما أمكنه من ديونه ، ويجتهد في رضا والديه ، ويسترضي أقاربه إن كان بينه وبينهم شيء ،ويترك لأولاده ومن تلزمه نفقتهم ما يلزمهم مدة غيابه .

٢-يحرص على أن يكون زاده طيبًا ، ويحذر ما كان من المشتبهات والغُصوب ليكون أقرب إلى القبول .

٣-يجتهد في تحصيل الرفقة الصالحة المرغِّبة في الخير ، المعينة عليه ، المبغضة للشر ؛ وإن تيسر أن تكون الرفقة من العلماء العاملين فهو أفضل .

٤-ويخرج إلى سفره ملتزمًا الآداب الشرعية في السفر ، وذلك في أشهر الحج .

الإحرام :

٥-فإذا أتى الميقات فيتجرد من ثيابه ويغتسل كما يغتسل من الجنابة ، ويتطيَّب بأطيب ما يجد من الطيب ، وكذلك تفعل المرأة ولو كانت حائضًا أو نفساءَ ، ولا يضرهما بقاء الطيب في الثوب والبدن بعد الإحرام .

٦-ويلبس الرجل ملابس الإحرام ، وتلبس المرأة ما شاءت من الثياب .

٧ـ ويصَلِّي إن حضر وقت فريضته ، وإلا صلى ركعتين بنية سنة الوضوء ، فإذا فرغ نوى الإحرام بعمرة ، بعد أن يركب راحلته (سيارته) حامدًا مكبِّرًا مستقبلًا القبلة ، ويقول : « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ عُمْرَةً » .

٨ـ ومن كان في طائرة ، فإنه يحرم إذا حاذى الميقات وكان فوقه ، ويكون متأهبًا قبل الإحرام بالغسل والطيب وملابس الإحرام .

٩ـ فإذا أهلَّ بالعمرة لبَّى : « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ ، لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ ، إِنَّ الحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالمُلْكُ ، لا شَرِيكَ لَكَ » ، ويرفع الرجل بها صوته ، وترفع المرأة بقدر ما تسمع رفيقتها .

١٠ـ وينبغي للمحرم أن يكثر من التلبية خصوصًا عند تغيُّر الأحوال والأزمان ، مثل أن يعلو مُرْتَفِعًا أو أن ينزل مُنْخَفَضًا ، أو أن يُقبل الليل أو النهار ، وتلبي المرأة وإن كانت حائضًا ، ولا تُقطع التلبية إلا عند ابتداء الطواف[١] .

دخول مكة والطواف :

١١ـ فإذا وصل مكة ، أسرع إلى المسجد الحرام ، ويتقدم إلى الحجر الأسود ، فيستلمه (يلمسه) بيده اليمنى ويقبِّله ــ إن تيسَّر ــ وإلا استلمه وقبَّل يده ، فإن لم يستطع أشار إليه بيده ويكبِّر ولا يقبل يده ، والأفضل ألا يزاحم فيؤذي الناس ويتأذى بهم .

١٢ـ ثم يطوف ـ جاعلًا الكعبة عن يساره ـ فإذا بلغ الركن اليماني

---

(١) لأنه في عمرة ، وأما المفرد والقارن فلا يقطعان التلبية حتى يشرعان في رمي جمرة العقبة .

استلمه من غير تقبيل - إن تيسَّر - فإذا كان بين الركن اليماني والحجر الأسود قال : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:٢٠١] ؛ فإذا بلغ الحجر الأسود فقد أتم شوطًا ويفعل عنده ما تقدم ، ثم يطوف حتى يكمل سبعة أشواط .

١٣- وينبغي للرجل - دون المرأة - في هذا الطواف أن يضطبع [1] من بداية الطواف إلى انتهائه ،ويرمل (يسرع المشي) في الأشواط الثلاثة الأولى فقط ، ويمشي كعادته في الأربعة الأخرى .

١٤- فإذا أتم طوافه صلَّى ركعتين خلف مقام إبراهيم ، يقرأ فيهما : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون:١] ، و﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]

١٥- ثم يذهب إلى زمزم فيشرب منها ويصب على رأسه .

١٦- ثم يرجع إلى الحجر الأسود فيستلمه إن تيسَّر .

السعي بين الصفا والمروة:

١٧- ثم يخرج إلى المسعى ، فإذا دنا من الصفا قرأ : ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة:١٥٨] ، ويقول : «أبدأ بما بدأ الله به» .

١٨- ويرقى على الصفا حتى يرى الكعبة فيستقبلها قائلًا : « لا إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْك ولَهُ الْحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، لا إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ ، أَنْجَزَ وعْدَهُ ،وَنَصَرَ عَبْدَهُ ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وحْدهُ » ويدعو بما شاء ، ويفعل ذلك ثلاث مرات .

---

(١) الاضطباع : أن يجعل وسط ردائه داخل إبطه الأيمن وطرفيه على كتفه الأيسر .

١٩-ثم ينزل من الصفا إلى المروة ماشيًا ، ويسرع الرجل ـ دون المرأة ـ بين العلمين الأخضرين .

٢٠-فإذا وصل إلى المروة فعل مثلما فعل على الصفا ، وهذا شوط ، ثم ينزل إلى الصفا وهكذا حتى يكمل سبعة أشواط (الذهاب شوط والعودة شوط) .

التحلل من الإحرام:

٢١-إذا أتم سعيه حلق رأسه أو قصَّر شعره ، والتقصير ـ هنا ـ أفضل لا سيما إذا كان وقت الحج قريبًا ، والمرأة لا تحلق وإنما تقصر ـ ثم يلبس ملابسه المعتادة ويحل له كل ما كان محرمًا عليه بالإحرام ، من جماع وغيره ، حتى يأتي وقت الحج[1] .

يوم التروية:

٢٢-إذا كان يوم الثامن من ذي الحجة (يوم التروية) فإنه يستعد للإحرام ؛ كما تقدم ـ من منزله بمكة ـ ثم يحرم بالحج قائلًا : « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ بِحِجَّةٍ » ويلبِّي ، وإن كان يخشى أن يعوقه شيء ، ويمنعه من إتمام حجه ؛ فله أن يشترط فيقول : « وَإِنْ حَبَسَنِي حَابِسٌ فَمحلِّي حَيْثُ حبَسْتَنِي » .

٢٣-ثم يخرج إلى منى ضُحى ، ويبيت بها يُصلي بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، قصرًا من غير جمع .

---

(١) وبهذا تكون قد تمت مناسك العمرة .

يوم عرفة:

٢٤ـ فإذا طلعت الشمس ـ يوم التاسع (عرفة) ـ سار من منى إلى عرفة ، فنزل بنمرة فيقيم بها إلى الزوال (الظهر) إن تيسر .

٢٥ـ فإذا زالت الشمس صلى الظهر والعصر جمعًا وقصرًا (جمع تقديم) بأذان واحد وإقامتين ـ مع الإمام ـ بدون سنة .

٢٦ـ ثم يتفرغ بعد الصلاة للذكر والدعاء والتضرع إلى الله تعالى على عرفة رافعًا يديه مستقبلًا القبلة ويقف هكذا حتى تغرب الشمس .

٢٧ـ فإذا غربت الشمس ؛ فإنه ينزل بهدوء وسكينة .

الإفاضة إلى المزدلفة والمبيت بها:

٢٨ـ ثم يسير إلى مزدلفة ، فإذا وصلها صلى المغرب والعشاء جمع تأخير بأذان وإقامتين وبدون سنة .

٢٩ـ ينام بمزدلفة حتى الفجر ، ولا يصلي بالليل .

٣٠ـ يصلي الفجر في أول الوقت بأذان وإقامة ، ثم يقف على المشعر الحرام[1] مستقبل القبلة ، داعيًا مكبرًا مهللًا حتى يسفر الصبح جدًا .

٣١ـ ويرخَّص للضعفة من النساء وغيرهن في الرحيل من مزدلفة بعد منتصف الليل وغياب القمر .

يوم النحر:

* الإفاضة إلى منى ورمي الجمرة :

٣٢ـ ثم يدفع إذا أسفر الصبح ، قبل طلوع الشمس من مزدلفة إلى

---

(١) المشعر الحرام : جبل معروف بالمزدلفة .

منى ، ويسرع في وادي محسر .

٣٣ـ فإذا وصل منى قطع التلبية عند الشروع في رمي جمرة العقبة ـ وهي الأخيرة جهة مكة ـ بسبع حصيات متعاقبات واحدة تلو الأخرى ، يكبِّر مع كل حصاة ، ويكون الرمي بعد طلوع الشمس .

٣٤ـ فإذا رمى جمرة العقبة ؛ فقد حلَّ له ما كان حرامًا إلا الجماع [(١)] .

٣٥ـ ثم يذبح هَدْيه بمنى أو مكة ، وله الذبح في أي من أيام التشريق ، فإن لم يملك ثمن الهَدْي ، فإنه يصوم ثلاثة أيام في الحج وسبعة بعد رجوعه إلى أهله .

٣٦ـ ثم يحلق رأسه ، وتقصِّر المرأة شعرها ، ولو قدر أنملة .

الرجوع الى مكة وطواف الإفاضة :

٣٧ـ ثم يرجع إلى مكة ، فيطوف سبعًا ، ويسعى بين الصفا والمروة [(٢)] ، وله تأخير الطواف آخر أيام التشريق ، فإذا طاف حلَّ له كل شيء حتى الجماع [(٣)] .

٣٨ـ وإذا كانت المرأة ـ أثناء المناسك ـ حائضًا ، فإنها تفعل جميع المناسك إلا الطواف فتؤخره حتى تطهر إن استطاعت .

٣٩ـ فإذا كان في انتظارها مشقة عليها ـ كأن تكون مرتبطة بموعد رحلة العودة وتخشى الضرر إن بقيت ـ فإنها تطوف وهي حائض في

---

(١) وهذا ما يُسَمَّى التحلُّل الأول ، فيلبس ما شاء من الثياب ، ويقلم أظافره ، ويتطيب .

(٢) لأنه متمتع ؛ فأما القارن فلا يطوف إلا طوافًا واحدًا .

(٣) وهذا هو التحلل الأكبر .

أصح أقوال العلماء ؛ لأن هذا غاية وسعها .

الذهاب إلى منى :

٤٠ـ ثم بعد الطواف والسعي ، يرجع إلى منى ليبيت بها ليالي التشريق ، وهي ليلة الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر .

أيام التشريق:

*** رمي الجمرات الثلاث يوم الحادي عشر والثاني عشر :**

٤١ـ ثم يرمي الجمرات الثلاث يوم الحادي عشر ـ بعد الظهر ولو إلى الليل ـ كل جمرة بسبع حصيات مكبرًا مع كل حصاة ، مبتدئًا بالصغرى ثم الوسطى ، يتقدم بعد كل جمرة فيستقبل القبلة ويدعو دعاءً طويلًا ـ إن تيسَّر ـ ثم يأتي جمرة العقبة فيرميها بسبع حصيات ، ولا يقف للدعاء بعدها ، والحصاة التي لا تقع في المرمى لا تعدُّ .

٤٢ـ ثم يفعل في اليوم الثاني عشر ؛ كما فعل في الذي قبله تمامًا .

فإذا أتم الجمار ـ في اليوم الثاني عشر ـ فإن شاء تعجل ونزل من منى ، وإن شاء تأخَّرَ فبات بها ليلة الثالث عشر ، والتأخر أفضل .

الرمي في اليوم الثالث عشر (آخر أيام التشريق) :

٤٣ـ فإن اختار المبيت ليلة الثالث عشر أو غربت عليه الشمس يوم الثاني عشر ، وهو بمنى فيلزمه أن يبيت بمنى ، ليرمي الجمرات الثلاث يوم الثالث عشر كما فعل في اليومين السابقين بعد الظهر .

طواف الوداع قبل السفر:

٤٤ـ إذا أراد الحاج السفر إلى بلده ؛ فلا يخرج حتى يطوف للوداع ، فيجعله آخر عهده بمكة ، وأما الحائض والنفساء فيرخَّص لهم في ترك

طواف الوداع .

٤٥ـ ويستحب له أن يزور المسجد النبوي بالمدينة ، لكنه ليس من مناسك الحج كما يظنه كثير من الناس .

٤٦ـ ثم يعود إلى بلده ، والله تعالى أعلم .

تقبل الله منا ومنكم صالح الأعمال

*****



أركان الإيمان

أولاً

الإيمان باللّه

مقدمة أركان الإيمان

أركان الإيمان:

هذه هي المرتبةُ الثانية في حديث جبريلَ ؛ حيث قال للنبيِّ ﷺ بعد سؤاله عن الإسلام ، فأخبرني عن الإيمان ؟ فأجابه النبيُّ ﷺ بقوله : « أَنْ تُؤْمِن بِالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسِلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ » . قَالَ : صَدَقْتَ .

وقبل أن أشرع في الحديث عن أركان الإيمان أقدم بمقدمة مهمَّة تتعلق بحقيقة الإيمان عند أهل السُّنةِ .

أولا : حقيقةُ الإيمان :

الإيمان لغةً :

قال ابن فارس ﷬ : الهمزة والميم والنون أصلان متقاربان ؛ أحدهما : الأمانة التي هي ضد الخيانة ، ومعناها : سكون القلب . والآخر : التصديق . والمعنيان كما قلنا متدانيان .

قال الخليل : الأَمَنَة من الأمن ، والأمان : إعطاء الأَمَنَة ، والأمانة ضد الخيانة . وأما التصديق ؛ فقول الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ [يوسف:١٧] ، أي بمصدق لنا .

وقال بعض أهل العلم : إن « المؤمن » في صفات الله هو أن يصدق ما وعد عَبْدَهُ منَ الثوابِ .

وقال آخرون : هو مؤمن لأوليائه ، يؤمنهم من عذابه ولا يظلمهم[1] .

---

(١) «معجم مقاييس اللغة» (١/ ١٣٣ ، ١٣٥) ، باب الهمزة والميم وما بعدهما في الثلاثي ، مادة (أمن) .

وقال ابن منظور رحمه الله: « الإيمان ضد الكُفر، والإيمان: بمعنى التصديق، ضده التكذيب، يقال: آمن به قوم، وكذب به قوم »[1].

ويرى شيخ الإسلام أن الصواب أن يقال: إن الإيمان هو الإقرار ـ وتفسيره بلفظ الإقرار أقرب من تفسيره بلفظ التصديق، مع أن بينهما فرقًا.

قال رحمه الله: « إنه (أي الإيمان) ليس مرادفًا للفظ التصديق في المعنى، فإن كل مُخْبِرٍ عن مُشَاهدةٍ أو غيب يقال له في اللغة: صدقت؛ كما يقال: كذبت؛ فمن قال: السماء فوقنا، قيل له: صدق؛ كما يقال: كذب، وأما لفظ الإيمان فلا يستعمل إلا في الخبر عن غائب، لم يوجد في الكلام أن من أخبر عن مشاهدة، كقوله: طلعت الشمس، وغربت، أنه يقال: آمناه، كما يقال: صدقناه، ولهذا؛ المحدثون والشهود ونحوهم يقال: صدقناهم، وما يقال آمنا لهم، فإن الإيمان مشتق من الأمن؛ فإنما يستعمل في خبر يؤتمن عليه المخبر كالأمر الغائب الذي يؤتمن عليه المخبر، ولهذا لم يوجد قط في القرآن الكريم وغيره لفظ: آمن له إلا في هذا النوع »[2].

وقال رحمه الله: « ومعلوم أن الإيمان هو الإقرار لا مجرد التصديق، والإقرار ضمن قول القلب الذي هو التصديق، وعمل القلب الذي هو

---

(١) «لسان العرب» (١/ ١٠٧) مادة: (أمن)، و«القاموس المحيط» (١٥١٨)، و«النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (١/ ٦٩، ٧٠)، و« الصحاح » للجوهري (٥/ ٢٠٧١)، و« مفردات ألفاظ القرآن » للأصفهاني (٩٠).

(٢) « مجموع الفتاوى » (٧/ ٢٩١)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (٣٢٠).

الانقياد »[(١)].

وقال : « ... فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة ، وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد »[(٢)].

تعريفُ الإيمان في الشرع :

قال الحافظ في « الفتح » : « هو تصديق الرسول فيما جاء به عن ربه ، وهذا القدر متفق عليه »[(٣)].

وعرَّفه شيخُ الإسلام فقال : « قول وعمل ، قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح »[(٤)].

وقال الآجري في « الشريعة » : « الإيمان تصديق بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالجوارح ، لا يكون مؤمنًا إلا بأن تجتمع فيه هذه الخصال الثلاث » . ثم قال : « اعلموا أنه لا تجزئ المعرفة بالقلب والتصديق ، إلا أن يكون معه الإيمان باللسان نطقًا ، ولا تجزئ معرفة بالقلب ونطق باللسان حتى يكون عمل بالجوارح ، فإذا كملت فيه هذه الخصال الثلاث كان مؤمنًا ، دلَّ على ذلك القرآن والسنة وقول علماء المسلمين »[(٥)].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٧/ ٦٣٨) .

(٢) «الصارم المسلول على شاتم الرسول» (٥١٩) . ط عالم الكتب .

(٣) « فتح الباري » (١/ ٦٠) .

(٤) « شرح العقيدة الواسطية » لهراس (١٦٧) .

(٥) «الشريعة» للآجري (٢/ ٦١١) ، وانظر : « شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة » للالكائي (٣/ ١٠٨) ، وكذلك « شرح العقيدة الطحاوية » (٣١٣) ، و«الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة » لابن بطة (٢/ ٧٦٠) ، و« الحجة في بيان المحجة » (١/ ٤٠٣، ٤٠٥) ، و« عقائد الثلاث والسبعين فرقة » (١/ ٣١٣) .

فأنت ترى أن أئمة السنة كلهم متفقون ؛ على أن الإيمان لفظ باللسان وهو النطق بالشهادتين ، ثم الإتيان بأعمال الإيمان القولية .

واعتقاد بالقلب : أي عقد القلب على ما قاله بلسانه ، وهذا الذي يفرق بين المسلم والمنافق ، ثم الإتيان بأعمال الإيمان القلبية كحب الله ورسوله والخوف من الله وخشيته ، ورجائه ، والتوكل ، والاستعانة ، وغير ذلك .

وعمل بالجوارح : أي الإتيان بالعبادات الواجبة والمستحبة ؛ كالصلاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقيام الليل وبر الوالدين . . وغيرها من سائر أعمال الجوارح ، فكل ذلك من الإيمان ؛ على ما سيأتي بيانه .

وهذا الذي ذُكِرَ هو قول مالك والشافعي وأحمد وسائر أهل الحديث والسنة .

حتى قال الإمام البخاريُّ رحمه الله : « لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار ، فما رأيت أن أحدًا منهم يختلف أن الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص » [١].

وقد نقل الإمام اللالكائي في كتابه عن كثير من هؤلاء العلماء كالأوزاعي والحميدي والمزني وسفيان بن عيينة ووكيع وغيرهم الكثير ؛ فانظره هناك [٢].

---

(١) « فتح الباري » (١/ ٦١) ، وانظر : « تغليق التعليق » (٥/ ٣٨٨) ، وكذلك « شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة » (٣/ ١٤٢) .

(٢) وانظر أقوالهم في « الإبانة » (٢/ ٨١٤:٨٢٦) .

وقد يقول العلماء عن الإيمان أنه : (قول وعمل) ، ويعنون بذلك القول : قول اللسان والقلب ، والعمل : عمل القلب والجوارح كما تقدم عن شيخ الإسلام .

أما الإيمان عند غير أهل السنة :

فذهب الأحناف وابن كُلاَّب إلى أن الإيمان إقرار باللسان وتصديق بالقلب فقط !!! .

وذهب الجهمية والأشعرية والماتريدية : إلى أن الإيمان تصديق القلب فقط !!! .

وذهب الغسانية : إلى أنه قول باللسان والجوارح فقط ، وأخرجوا اعتقاد القلب !!! .

وذهب الكرَّامية :إلى أن الإيمان هو إقرار باللسان فقط !!! .

وذهب الخوارج والمعتزلة: إلى أن الإيمان (اعتقاد وقول وعمل) لكن لا يزيد ولا ينقص ، وبناءً على ذلك قالوا : إن الإيمان هو عمل الجوارح !! فافترقوا ، قالت الخوارج : يكفر صاحب الكبيرة ، وقالت المعتزلة : هو بمنزلة بين المنزلتين[1] .

ولا أود مناقشة آراء هذه الفرق ، ودفع شبهاتهم والرد عليهم ، فهذا أمر يطول ، وقد ردَّ عليهم شيخ الإسلام ردًا ماتعًا في كتابه « الإيمان »

(١) انظر : « الحجة لبيان المحجة » (١/ ٤٠٣- ٤٠٥) ، و« تحريف النصوص من مآخذ أهل الأهواء في الاستدلال » للشيخ بكر أبو زيد (١٢٠، ١٢١) ، و« عقائد الثلاث والسبعين فرق » لأبي محمد اليمني (١/ ٢٩٦) وما بعدها .

المجلد السابع من « مجموع الفتاوى » .

المهم أن نعرف الإيمان عند أهل السنة .

قال أبو محمد اليمني : « الإيمان إقرار باللسان ومعرفة بالقلب وعمل بالجوارح ، وكل خصلة من خصال الطاعات المفروضة إيمان ، فعلى هذا الإيمان عندهم التصديق ، وموضعه القلب والمعبر عنه باللسان ، وظاهر الدليل عليه بعد الإقرار شهادة الأركان وهي ثلاثة أشياء : شهادة ، واعتقاد ، وعمل ، فالشهادة تحقن الدم وتمنع المال وتوجب أحكام الله ، والعمل يوجب الديانة والعدالة ، وهذان ظاهران فأما العقيدة فإنها تظهرها الآخرة ؛ لأنها خفية لا يعلمها إلا الله ، فمن ترك العقيدة بالقلب وأظهر الشهادة فهو منافق ، ومن اعتقدها بقلبه وعبَّر عنها لسانه وترك العمل بالفرائض عصيانًا منه فهو فاسقٌ غير خارج بذلك عن إيمانه ، لكنه يكون ناقصًا وتجري عليه أحكام المسلمين ، اللهم إلا إذا تركها وهو جاحد بوجوبها فهو كافر حلال الدم ويجب قتله ، وأما من اعتقد بقلبه أن الله وحده لا شريك له وأثبته معرفةً ووجودًا . . . فعلى هذا لئن عبَّر عنه لسانه بما تقدم وعمل بجوارحه ما فرض عليه ، وصدق بما جاء من عند ربه على لسان نبيه ﷺ أنه صواب وحكمة وعدل ، وأن الطاعة له فيها لازمة ، واجتنب الكبائر الموبقة ، فهو مؤمن حقًا يزيد إيمانه بالطاعات وينقص بالمعاصي ، فيستحق بالطاعات الثواب ، ويأمن بترك المعاصي العذاب والعقاب ، لكنه يكون بين حالَيْن : خائفًا لربه بما أوعد من العقوبات ، راجيًا له بما وعد من العفو »[1].

---

(١) « عقائد الثلاث والسبعين فرقة » (١/ ٣١٣، ٣١٤) .

حقيقة الإيمان عند أهل السن والجماعة :

قول باللسان وتصديق بالجنان ـ يعني القلب ـ وعمل بالجوارح والأركان .

أولًا : قولٌ باللسان : وهو النطق بالشهادتين بأن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله .

والدليل على ذلك ؛ قول الله تعالى : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ۝١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ [البقرة:١٣٦، ١٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾

. [آل عمران:٨٤]

وقال تعالى : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾ [البقرة:٨٣] .

وقال تعالى : ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡ ﴾ [الحجرات:١٤] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾ [فصلت:٣٠] .

وفي « الصَّحِيحَيْنِ » قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لعمِّهِ أبي طالب : « يا عَمِّ ،

قُلْ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله ... » الحديث [(١)].

وفي « الصَّحِيحَيْنِ » من حديث عتبان بن مالك لما ذهب النبيُّ ﷺ إليه وَذُكِرَ مالك بن دُخْشُم فَقَضَى رَسُولُ الله ﷺ الصَّلاَةَ ، وَقَالَ : « أَلَيْسَ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَنِّي رَسُولُ الله ؟ » ، قَالُوا : إِنَّهُ يَقُولُ ذَلِكَ وَمَا هُوَ فِي قَلْبِهِ ، قَالَ : « لاَ يَشْهَدُ أَحَدٌ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَنِّي رَسُولُ الله فَيَدْخُلَ النَّارَ ، أَوْ تَطْعَمَهُ » [(٢)].

وقال ﷺ : « الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ؛ فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ... » [(٣)].

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلمٌ ـ واللفظ للبخاري ـ [(٤)] من

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجنائز ، باب إذا قال المشرك عند الموت : لا إله إلا الله (١٣٦٠) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يَشرع في النزع وهو في الغرغرة (٢٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الصلاة ، باب المساجد في البيوت (٤٢٥) ، وانظر رقم (٦٩٣٨) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٣٣) .

(٣) أخرجه مسلمٌ ، كتاب الإيمان ، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾[التوبة: ٥] ، (٢٥) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، ويؤمنوا بجميع ما جاء به النبيُّ ﷺ ، وأنه من فعل ذلك عصم نفسه وماله إلا بحقها ، ووكلت سريرته إلى الله تعالى ، وقتال من منع الزكاة أو غيرها من حقوق الإسلام واهتمام الإمام بشعائر الإسلام (٢٢) ، وفي البخاري ومسلم من حديث عمر بن الخطاب بلفظ : « حَتَّى يَقُولُوا » البخاري (١٣٩٩) ، ومسلم (٢٠) ، وكذلك من حديث أبي هريرة في البخاري (٢٩٤٦) ، ومسلم (٢١) ، وروي كذلك عن جابر عند مسلم (٢١) .

حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ : «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إلاَّ الله ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ ، وَأَمْوَالَهُمْ ، إلاَّ بِحَقِّ الإِسْلاَمِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى الله » .

إذًا هذه أدلة موجزة ، كلُّها ؛ وغيرها يدلُّ على وجوب القول باللسان .

ثانيًا : تصديق بالجنان « والجنان هو القلب » :

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَٰهَدُوا بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحجرات:١٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر:٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات:١٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات:٧] ، وقال تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ ﴾ [المجادلة:٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [المائدة:٤١] ، وقال تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا

مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل:١٠٦] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦] .

والآيات في هذا كثيرة تدل على أنه لابد من تصديق القلب واعتقاده .

قال الإمام الآجري في « الشريعة »(١) بعد أن ذكر الآيات : « فهذا يدلك على أن على القلب الإيمان ، وهو التصديق والمعرفة ، ولا ينفع القول إذا لم يكن القلب مصدقًا بما ينطق به اللسان مع العمل فاعلموا ذلك » .

وقال ابن أبي زمنين في « أصول السنة »(٢) : « ومن قول أهل السنة أن الإيمان إخلاص بالقلوب وشهادة بالألسنة وعمل بالجوارح ؛ على نية حسنة وإصابة السنة » .

وقال ابن بطة في « الإبانة »(٣) : « اعلموا ـ رحمكم الله ـ أن الله ـ جلَّ ثناؤه وتقدست أسماؤه ـ فرض على القلب المعرفة به والتصديق له ولرسوله وبكتبه ؛ وبكل ما جاءت به السنة ، وعلى الألسن النطق بذلك والإقرار به قولًا ، وعلى الأبدان والجوارح العمل بكل ما أمر به ورضيه من الأعمال ، لا تجزئ واحدة من هذه إلا بصاحبتها ؛ ولا يكون العبد مؤمنًا إلا بأن يجمعها كلها ؛ حتى يكون مؤمنًا بقلبه مقرًا بلسانه عاملاً

---

(١) « الشريعة » للآجري (١/ ٢٧٤) .

(٢) « أصول السنة » (٢٠٧) .

(٣) « الإبانة » لابن بطة (٢/ ٧٦٠، ٧٦١) .

مجتهدًا بجوارحه ، ثم لا يكون أيضًا مع ذلك مؤمنًا حتى يكون موافقًا للسنة في كل ما يقوله ويعمله متبعًا للكتاب والعلم في جميع أقواله وأعماله ، وبكل ما شرحته لكم نزل به القرآن ومضت به السنة ، وأجمع عليه علماء الأمة ، فأما فرض المعرفة على القلب .. ثم ذكر الأدلة التي سبقت ، ثم قال : « فهذا بيان ما لزم القلب من فرض الإيمان لا يرده ولا يخالفه ويجحده إلا ضال مضل » .

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلم[1] من حديث معاذ بن جبل ﷺ أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلاَّ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ » .

وهذا الحديث مقيد . « مقيد بشرط الصدق». إذًا لا يكفي أن تقول بلسانك فقط ، وإنما يجب أن تقول بلسانك ، وأن تصدق بقلبك .

وروى الترمذيُّ عن ابن عمر ﷺ قَالَ : صَعِدَ رَسُولُ الله ﷺ المِنْبَرَ فَنَادَى بِصَوْتٍ رَفِيعٍ ، فَقَالَ : « يَا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ ، لاَ تُؤْذُوا الْـمُسْلِمِينَ وَلاَ تُعَيِّرُوهُمْ ، وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ ، يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ رَحْلِهِ »[2].

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العلم ، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية ألا يفهموا (١٢٨ ، ١٢٩) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٣٢).

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في تعظيم المؤمن (٢٠٣٢) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٧٩٨٥) ، و« المشكاة » (٥٠٤٤) .

وفي حديث أبي برزة رضي الله عنه : «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ ..»[1].

وغير ذلك من الأدلة كلها يدلُّكَ على أنه لابد من اعتقاد القلب .

ثالثا : عمل بالجوارح والأركان :

وهنا مكمن الخلاف بين كثير من الفِرَقِ وأهل السنة ؛ فأهل السنة لا يخرجون العمل أبدًا من الإيمان ؛ بل لابد من العمل ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة:٥] .

فبعد نطقك وإقرارك بالتوحيد يلزمك ترجمته إلى عمل من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وحج وأمرٍ بالمعروف ونهيٍ عن المنكر ، والدعوة إلى آخر هذه الأعمال الظاهرة التي تترجمُ حقيقة الإيمانِ الذي وقر في قلبك ، وقال الله ﷻ : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٦٢، ١٦٣] ، وقال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف:١١٠] ، وقال سبحانه : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٨].

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب الأدب ، باب في الغيبة (٤٨٨٠) ، وأحمد (٤/ ٤٢٠) ، وصححه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٧٩٨٤) ، و« المشكاة » (٥٠٤٤) .

وروى مسلمٌ[1] عن أبي سعيد الخدري ﷺ أنه ﷺ قال : « مَنْ رَأى مِنكُمْ مُنكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ » .

وروى مسلمٌ[2] عن ابن مسعود ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي ، إِلاَّ كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ ، يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ ، وَيَفْعَلُونَ مَا لاَ يُؤْمَرُونَ ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكِ مِنْ الإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ » .

وفي ذلك بيان على أن الإيمان عمل ، وعلى أنه يزيد وينقص كما سيأتي .

قال الإمام الآجري ﵀[3] : « فالأعمال ـ رحمكم الله ـ بالجوارح تصديق عن الإيمان بالقلب واللسان ، فمن لم يُصَدِّق الإيمان بعمله بجوارحه ،مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وأشباه لهذه ، ورضي من نفسه بالمعرفة والقول لم يكن مؤمنًا ، ولم تنفعه المعرفة والقول ، وكان تركه للعمل تكذيبًا لإيمانه ، وكان العمل بما

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص(٤٩) .
(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص(٥٠) .
(٣) « الشريعة » للآجري (٢/ ٦١٤) .

ذكرناه تصديقًا منه لإيمانه ، وبالله التوفيق .

وقد قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل:٤٤] .

فقد بيَّنَ رسول الله ﷺ لأمته شرائع الإيمان أنها على هذا النعت في أحاديث كثيرة .

وقد قال تعالى في كتابه ، وبيَّنَ في غير موضع أن الإيمان لا يكون إلا بعمل ، وبيَّنه النبي ﷺ ، خلاف ما قالت المرجئة الذين لعب بهم الشيطان ، قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[البقرة:١٧٧] .

إلى أن قال : « اعلموا ـ رحمنا الله وإياكم ـ يا أهل القرآن ، ويا أهل العلم بالسنن والآثار ، ويا معشر من فقههم الله تعالى في الدين بعلم الحلال والحرام ؛ أنكم إن تدبرتم القرآن كما أمركم الله تعالى علمتم أن الله تعالى أوجب على المؤمنين بعد إيمانهم به وبرسوله العمل ، وأنه تعالى لم يثن على المؤمنين بأنه رضي عنهم وأنهم رضوا عنه ، وأثابهم على ذلك الدخول إلى الجنة والنجاة من النار إلا بالإيمان والعمل الصالح .

قَرَنَ مع الإيمان العمل الصالح ، لم يدخلهم الجنة بالإيمان وحده حتى ضمَّ إليه العمل الصالح الذي وفقهم له ، فصار الإيمان لا يتم لأحد حتى يكون مصدقًا بقلبه ، وناطقًا بلسانه ، وعاملًا بجوارحه ، لا يخفى على من تدبر القرآن وتصفحه ، وجده كما ذكرت .

واعلموا ـ رحمنا الله وإياكم ـ أني قد تصفحت القرآن فوجدت ما ذكرته من خمسين موضعًا من كتاب الله تعالى ـ أن الله تبارك وتعالى ـ لم يدخل المؤمنين الجنة بالإيمان وحده ، بل أدخلهم الجنة برحمته إياهم ، وبما وفقهم له من الإيمان والعمل الصالح »[1] . ثم سرد الآيات الدالة على ذلك .

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى[2] : « ومما يدل من القرآن على أن الإيمان المطلق مستلزم للأعمال ؛ قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾

[السجدة:١٥]

فنفي الإيمان عن غير هؤلاء ، فمن كان إذا ذُكِّر بالقرآن لا يفعل ما فرضه الله عليه من السجود لم يكن من المؤمنين ، وسجود الصلوات الخمس فرض باتفاق المسلمين ، وأما سجود التلاوة ففيه نزاع ، وقد يحتج بهذه الآية من يوجبه ، لكن ليس هذا موضع بسط هذه المسألة ، فهذه الآية مثل قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ

---

(١) « الشريعة » للآجري (٢/ ٦١٨، ٦١٩) وما بعدها وهو قول ابن بطة في « الإبانة » (٢/ ٧٧٩) وما بعدها .

(٢) « مجموع الفتاوى » (٧/ ١٦٠، ١٦١) .

﴿ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾[الحجرات:١٥] ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾[الأنفال:٢] ، وقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾[النور:٦٢] ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ۝ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ۝ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[التوبة:٤٣ـ٤٥] .

وهذه الآية مثل قوله : ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾[المجادلة:٢٢] ، وقوله : ﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾[المائدة:٨١] .

بين سبحانه أن الإيمان له لوازم ، وله أضداد موجودة تستلزم ثبوت لوازمه وانتفاء أضداده ، ومن أضداده مودة من حاد الله ورسوله ، ومن أضداده استئذانه في ترك الجهاد ، ثم صرَّح بأن استئذانه إنما يصدر من الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ودلَّ قوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾[التوبة:٤٤] على أن المتقين هم المؤمنون ؛ ومن هذا الباب قول رسولِ الله ﷺ : « لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِيْنَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ »[١].

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المظالم ، باب النُّهبَى بغير إذن صاحبه (٢٤٧٥) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله (٥٧) .

وقوله ﷺ: « لاَ يُؤْمِنُ مَنْ لاَ يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ »[(١)].

وقوله ﷺ: « لاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا »[(٢)].

وقوله ﷺ: « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ »[(٣)].

وقوله ﷺ: « لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ »[(٤)].

وقوله ﷺ: « مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا، وَمَنْ حَمَلَ عَلَيْنَا السِّلاَحَ فَلَيْسَ مِنَّا »[(٥)].

وقال ابنُ القيم في كتابه: « الصلاة وحكم تاركها »[(٦)]: « ولما كان الإيمان أصلًا له شعبٌ متعددة، وكل شعبة منها تسمَّى إيمانًا، فالصلاة من الإيمان، وكذلك الزكاة والحج والصيام، والأعمال الباطنة؛ كالحياء والتوكل والخشية من الله والإنابة إليه، حتى تنتهي هذه الشعب إلى

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بوائقه (٦٠١٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم إيذاء الجار (٤٦).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون (٥٤).

(٣) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (١٥)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله أكثر من الأهل والولد والناس أجمعين (٤٤).

(٤) أخرجه البخاريُّ، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه (١٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه من الخير (٤٥).

(٥) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: « من غشنا فليس منا » (١٠١)، وانظر: البخاريَّ (٧٠٧٠، ٧٠٧١)، و« صحيح مسلم » (٩٨، ١٠٠).

(٦) « الصلاة وحكم تاركها » (٤٥، ٤٦)، وانظر: « شرح العقيدة الطحاوية » (٣٢٢-٣٢٤).

إماطة الأذى عن الطريق ؛ فإنه شعبة من شُعبِ الإيمان ، وهذه الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادة ، ومنها ما لا يزول بزوالها ؛ كترك إماطة الأذى عن الطريق ، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتًا عظيمًا : منها ما يلحق بشعبة الشهادة ويكون إليها أقرب ، ومنها ما يلحق بشعبة إماطة الأذى ويكون إليها أقرب .

وكذلك الكفر ذو أصل وشعب ، فكما أن شُعَبَ الإيمانِ إيمان ، فشعب الكفر كفر ، والحياء شعبة من الإيمان ، وقلة الحياء شعبة من شعب الكفر . والصدق شعبة من شعب الإيمان ، والكذب شعبة من شعب الكفر ، والصلاة والزكاة والحج والصيام من شعب الإيمان ، وتركها شعبة من شعب الكفر . والحكم بما أنزل الله من شعب الإيمان ، والحكم بغير ما أنزل الله من شعب الكفر . والمعاصي كلها من شعب الكفر ، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان .

وشعب الإيمان قسمان : قولية ، وفعلية .

وكذلك شُعب الكفر نوعان : قولية ، وفعلية .

ومن شعب الإيمان القولية : شعبة يوجب زوالها الإيمان ، فكذلك من شُعَبِه الفعلية ما يوجب زوالها زوال الإيمان .

وكذلك شُعب الكفر القولية والفعلية : فكما يكفر بالإتيان بكلمة الكفر اختيارًا وهي شُعبة من شعب الكفر ، فكذلك يكفر بفعل شُعبة من شُعَبِه كالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف . فهذا أصل .

وها هنا أصل آخر : وهو أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل .

والقول قسمان : قول القلب وهو الاعتقاد ، وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام .

والعمل قسمان : عمل القلب وهو نيته وإخلاصه ، وعمل الجوارح . فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله ، وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء ، فإن تصديق القلب شرط في اعتقادها وكونها نافعة . وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق ، فهذا موضع المعركة بين المرجئة وأهل السنة . فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو محبته وانقياده ، كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق الرسول ؛ بل ويقرون به سرًا وجهرًا ؛ ويقولون : ليس بكاذب ، ولكن لا نتبعه ، ولا نؤمن به ، وإذا كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح ، ولاسيما إذا كان ملزومًا لعدم محبة القلب وانقياده الذي هو ملزوم لعدم التصديق الجازم كما تقدم تقريره ، فإنه يلزم من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح ، إذ لو أطاع القلب وانقاد أطاعت الجوارح وانقادت ،ويلزم من عدم طاعته وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة وهو حقيقة الإيمان . فإن الإيمان ليس مجرد التصديق - كما تقدم بيانه - وإنما هو التصديق المستلزم للطاعة والانقياد ، وهكذا الهدى ليس هو مجرد معرفة الحق وتبينه ، بل هو معرفته المستلزمة لاتباعه والعمل بموجبه ، وإن سُمِّي الأول هدي

فليس هو الهدي التام المستلزم للاهتداء ، كما أن اعتقاد التصديق وإن سُمِّي تصديقًا فليس هو التصديق المستلزم للإيمان . فعليك بمراجعة هذا الأصل ومراعاته » .

وقال الإمام البخاريُّ رحمه الله في « صحيحه » : باب من قال : إن الإيمان هو العمل ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف:٧٢] ، وقال عدَّة من أهل العلم في قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر:٩٢، ٩٣] : عن قول لا إله إلا الله . وقال : ﴿ لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴾ [الصافات:٦١] .

ثم روى حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه أنه ﷺ سُئِلَ : أَيُّ العَمَلِ أَفْضَلُ ؟ فَقَالَ : « إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ » . قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَال : « الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ » . قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : « حَجٌّ مَبْرُورٌ » [١] .

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله في شرحه لصحيح البخاري : « مقصود البخاري بهذا الباب أن الإيمان كله عمل ، مناقضةً لقول من قال : إن الإيمان ليس فيه عمل بالكلية ؛ فإن الإيمان أصله تصديق بالقلب ، وقد سبق ما قرره البخاري أن تصديق القلب كسبٌ له وعمل ، ويتبع هذا التصديق قول اللسان » [٢] .

وقال ابن منده في كتاب « الإيمان » : « ذكر ما يدل على أن اسم الإيمان واقع على من يُصدِّق بجميع ما أتى به المصطفى ﷺ عن الله نية وإقرارًا

---

(١) « البخاري » (٢٦) وانظر طرفه هناك ، مع « فتح الباري » (١/ ٩٧) .

(٢) « فتح الباري » لابن رجب الحنبلي (١/ ١١١) . ط ابن الجوزي .

وعملًا وإيمانًا وتصديقًا ويقينًا ، وأن من صدق ولم يقر بلسانه ولم يعمل بجوارحه الطاعات التي أُمِرَ بها لم يستحق اسم الإيمان ، ومن أقرَّ بلسانه وعمل بجوارحه ولم يصدق بذلك قلبه لم يستحق اسم الإيمان »[1].

وقال أيضًا : « ذكر الأبواب والشعب التي قالها النبيُّ ﷺ أنها الإيمان ، وأنها قول باللسان ، ومعرفة القلب ، وعمل بالأركان التي علمهن جبريل ﷺ الصحابة ، وكذلك روي عنه من رواية عليٍّ بن أبي طالب ﷺ وبين المصطفى مجملها .

فمن أفعال القلوب :

النيات والإرادات ، والعلم ، والمعرفة بالله وبما أمر به والاعتراف به والتصديق به وبما جاء من عنده ، والخضوع له ولأمره ، والإجلال والرغبة إليه ، والرهبة منه ، والخوف والرجاء والحب له ولما جاء من عنده ، والحب والبغض فيه ، والتوكل والصبر والرضاء والرحمة والحياء والنصيحة لله ولرسوله ولكتابه ، وإخلاص الأعمال كلها مع سائر أعمال القلب . اهـ .

ومن أفعال اللسان :

الإقرار بالله وبما جاء من عنده والشهادة لله بالتوحيد ولرسوله بالرسالة ولجميع الأنبياء والرسل ، ثم التسبيح والتكبير والتحميد والتهليل ، والثناء على الله ، والصلاة على رسوله والدعاء ، وسائر الذكر . أ هـ .

ثم أفعال سائر الجوارح :

من الطاعات والواجبات التي بني عليها الإسلام .

---

(١) « الإيمان » لابن منده (١/ ٣٠٥) .

أولها : إتمام الطهارات كما أمر الله ﷻ ، ثم الصلوات الخمس وصوم شهر رمضان والزكاة ، على ما بيَّنه الرسول ﷺ ، ثم حج البيت من استطاع إليه سبيلًا ، وترك الصلاة كفر ، وكذلك جحود الصوم والزكاة والحج ، والجهاد فرض على الكفاية مع البر والفاجر .

وسائر أعمال التطوع : التي يستحق بفعلها اسم زيادة الإيمان ، والأفعال المنهي عنها التي بفعلها يستحق نقصان الإيمان »[(١)].

وفي الحديث الذي رواه الشيخان [(٢)] من حديث أبي هريرةَ ﷺ أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « الإيمَانُ بِضعٌ وَستُّونَ شُعْبَةً أَفْضَلُهَا لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، والحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمَانِ » .

وهذا التوضيح يبين أن أهل السنة حينما يقولون : الإيمان قولٌ وتصديق وعمل . فقد أدخلوا الأعمال كلها في مسمى الإيمان ، بل وحكى الإمام الشافعي إجماعَ أهل السنة على أن الأعمال كلها تدخل تحت مسمى الإيمان ، وأنكر السلف إنكارًا شديدًا على من أخرج الأعمال من الإيمان [(٣)].

وكتب عمر بن عبد العزيز ﷺ إلى الأمصار ، وقال : « أما بعد ؛ فإن للإيمان فرائض وشرائع ، وحدودًا وسننًا ؛ فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ؛ فإن أعش فسأبينها لكم

(١) « الإيمان » لابن منده (١/ ٣٦٢) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الإيمان ، باب أمور الإيمان (٩) مختصرًا ، ومسلم ، واللفظ له ، كتاب الإيمان ، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها (٣٥) .

(٣) « جامع العلوم والحكم » لابن رجب (٣٨) .

حتى تعملوا بها » . والحديث رواه البخاريُّ تعليقًا [١].

وهذا المعنى العظيم هو الذي أراد الإمام البخاري رحمه الله إثباته في « الصحيح » من كتاب الإيمان ، وعليه بوَّب كل هذه الأبواب ، فقال : « باب أمور الإيمان ـ باب الصلاة من الإيمان ـ باب الجهاد من الإيمان ـ باب حب الرسول من الإيمان ـ باب الحياء من الإيمان ـ باب اتباع الجنائز من الإيمان ـ باب أداء الخمس من الإيمان ـ باب قيام ليلة القدر من الإيمان ـ باب صوم رمضان احتسابًا من الإيمان » [٢].

وذكر أبوابًا عجيبة كثيرة في كتاب الإيمان أدخل فيها كل هذه الأعمال ـ سواء كانت أعمال القلب أو الجوارح ـ ضمن مسمى ومفهوم الإيمان ، وهذا الذي خالف به أهل السنة والجماعة الفرق الأخرى كالكرامية والمعتزلة والمرجئة ، والخوارج ، إلى آخر هذه الفِرَقِ .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله [٣]: « وكان من مضى من سلفنا ؛ لا يُفَرِّقُونَ بين الإيمان والعمل ، والعمل من الإيمان ، والإيمان من العمل ، وإنما الإيمان اسم يجمع كما يجمع هذه الأديان اسمها ، ويصدقه العمل ؛ فمن آمن بلسانه ، وعرف بقلبه ، وصدق بعمله ؛ فتلك العروة الوثقى التي

---

(١) أخرجه البخاريُّ تعليقًا في الباب الأول من كتاب الإيمان ترجمة كتاب الإيمان ، ووصله ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان (١٣٥) ، والخلال في « السنة » (١١٦٢، ١٥٥٣) ، وابن بطة (١١٦) ، واللالكائي (١٥٧٢) ، والبيهقي في « الشعب » (٥٩) ، وأحمد في « الإيمان » له كما في « الفتح » (١/ ٤٥) ، وفي « تغليق التعليق » (٢/ ٢٠) ، والحافظ أيضًا في « التغليق » (٢/ ١٩) ، وقال الحافظ في التغليق : « إسناد صحيح ، ورجاله ثقات » .

(٢) هذه الأبواب في « صحيح البخاري » وانظر : الأحاديث التي استشهد بها ـ رحمه الله .

(٣) « الإيمان » لابن تيمية (٢٨٠) .

لا انفصام لها ، ومن قال بلسانه ، ولم يعرف بقلبه ، ولم يصدِّق بعمله ؛ كان في الآخرة من الخاسرين ، وهذا معروف عن غير واحد من السلف والخلف ؛ وأنهم يجعلون العمل مصدقًا للقول » .

وأختم بكلامٍ ماتعٍ لابن بطة العكبري في كتابه «الإبانة»[1] ؛ حيث قال : « وأما الإيمان بما فرضه الله ﷻ من العمل بالجوارح تصديقًا لما أيقن به القلب ونطق به اللسان ؛ فذلك في كتاب الله تعالى يكثر على الإحصاء وأظهر من أن يخفى ، قال الله ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الحج:٧٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [البقرة:٤٣] . في مواضع كثيرة من القرآن أمر الله فيها بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وصيام شهر رمضان ، والجهاد في سبيله ، وإنفاق الأموال ، وبذل الأنفس في ذلك ، والحج بحركة الأبدان ونفقة الأموال ، فهذا كله من الإيمان ، والعمل به فرض لا يكون المؤمن إلا بتأديته ، وكل من تكلم بالإيمان وأظهر الإقرار بالتوحيد ، وأقر أنه مؤمن بجميع الفرائض ؛ غير أنه لا يضره تركها ولا يكون خارجًا من إيمانه إذا هو ترك العمل بها في وقتها مثل الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت مع الاستطاعة وغسل الجنابة ، ويرى أن صلاة النهار إن صلاَّها بالليل أجزأه ، وصلاة الليل إن صلاها بالنهار أجزأته ، وأنَّه إن صام في شوال أجزأه ، وإن حج في المحرم أو صفر أجزأه ، وأنه متى اغتسل من الجنابة لم

(١) « الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة » (٢/ ٧٦٣ ـ ٧٧٩) .

يضره تأخيره ، ويزعم أنه مع هذا مؤمن مستكمل الإيمان عند الله على مثل إيمان جبريل وميكائيل والملائكة المقربين . فهذا مكذب بالقرآن مخالف لله ولكتابه ولرسله ولشريعة الإسلام ؛ ليس بينه وبين المنافقين الذين وصفهم الله تعالى في كتابه فرق ، قد نزع الإيمان من قلوبهم ؛ بل لم يدخل الإيمان في قلوبهم كما قال الله ﷻ فيهم : ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤] .

فكلُّ من ترك شيئًا من الفرائض التي فرضها الله تعالى في كتابه أو أكدها رسول الله ﷺ في سنَّته ـ على سبيل الجحود لها والتكذيب بها ـ فهو كافرٌ بيِّن الكفر لا يشك في ذلك عاقل يؤمن بالله واليوم الآخر ، ومن أقرَّ بذلك وقاله بلسانه ثم تركه تهاونًا ومجونًا أو معتقدًا لرأي المرجئة ومتبعًا لمذاهبهم ، فهو تارك الإيمان ليس في قلبه منه قليل ولا كثير وهو في جملة المنافقين الذين نافقوا رسول الله ﷺ فنزل القرآن بوصفهم ، وما أعد لهم وأنهم في الدرك الأسفل من النار ، نستجير بالله من مذاهب المرجئة الضالة ... إلى أن قال : « وفَرَضَ اللهُ الإيمانَ على جوارحِ ابن آدم وقَسَمَهُ عليها وفرقة فيها فليس من جوارحه جارحة إلا وهي موكلة من الإيمان بغير ما وكلت به صاحبتها ؛ فمنها قلبه الذي يعقل به ويتقي به ويفهم به ، وهو أمير بدنه الذي لا ترد الجوارح ولا تصدر إلا عن رأيه وأمره ، ومنها لسانه الذي ينطق به ، ومنها عيناه اللتان ينظر بهما ، وسمعه الذي يسمع به ، ويداه اللتان يبطش بهما ، ورجلاه اللتان يخطو بهما ، فليس من هذا جارحة إلا وهي موكلة من

الإيمان بغير ما وكلت به صاحبتها بفرض من الله تعالى ينطق به الكتاب ويشهد به علينا .

ففرض على القلب غير ما فرض على اللسان ، وفرض على اللسان غير ما فرض على العينين ، وفرض على العينين غير ما فرض على السمع ، وفرض على السمع غير ما فرض على اليدين ، وفرض على اليدين غير ما فرض على الرجلين ، وفرض على الرجلين غير ما فرض على الفرج ، وفرض على الفرج غير ما فرض على الوجه .

وأما ما فرض على القلب ؛ فالإقرار والإيمان والمعرفة والتصديق والعقل والرضا والتسليم وأن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أحدًا صمدًا ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى من رسول أو كتاب .

فأما ما فرض على القلب من الإقرار والمعرفة فقد ذكرناه في أول هذا الكتاب ، ونعيده ها هنا ؛ فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا ﴾[النحل:١٠٦] ، وقال : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾[الرعد:٢٨] ، وقال : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾[المائدة:٤١].

فذلك ما فرضه على القلب من الإقرار والمعرفة والتصديق وهو رأس الإيمان وعمله ، وفرض على اللسان القول والتعبير عن القلب وما عقد عليه وأقرَّ به ؛ قال الله ﷻ : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾[البقرة:١٣٦] ، وقال : ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ

حُسْنًا ﴾ [البقرة:٨٣] .

فهذا ما فرض على اللسان من القول بما عقد عليه ، وذلك من الإيمان وهو عمل اللسان .

وأما ما فرض على السمع ؛ أن يتنزه عن الاستماع إلى ما حرم الله تعالى ، فمما فرض على السمع قوله تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ﴾ [النساء:١٤٠] ، وقال : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ﴾ [الزمر:١٧، ١٨] ، وقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [الزمر:١-٣] ، وقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [القصص:٥٥] ، وقال : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ [الفرقان:٧٢] .

فهذا ما فرض على السمع التنزه عن الاستماع إلى ما لا يحل له ؛ وهو عمل السمع وذلك من الإيمان .

وفرض على البصر أن لا ينظر إلى ما حرَّم الله ، وأن يغض بصره عما لا يحل له مما نهى الله عنه ؛ فقال تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ﴾ [النور:٣٠] .

وفرض على الرجال والنساء أن لا ينظروا إلى ما لا يحل لهم ، وكل شيء في القرآن من حفظ الفرج فهو من الزنا ، إلا هذه الآية فإنه من النظر .

ثم أخبر تعالى ما فرض على القلب واللسان والسمع والبصر في آية واحدة ؛ فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء:٣٦] .

فهذا ما فرض على العينين والسمع والبصر والفؤاد وهو عملهن ، وهو من الإيمان ، وفرض على الفرج أن لا يهتك عما حرم الله عليه ؛ فقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴾ [المؤمنون:٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ ﴾ [الأحزاب:٣٥] ، ثم أخبر بمعصية السمع والبصر والفؤاد والأيدي والأرجل والجلود في آية واحدة ؛ فقال :

﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ ﴾ [فصلت:٢٢]

وفرض على اليدين أن لا يبطش بهما فيما حَرَّم الله عليهما ، وأن يستعملهما فيما أمره الله تعالى به ، من الصدقة وصلة الرحم والجهاد في سبيل الله والوضوء للصلوات ؛ فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ [المائدة:٦] .

فهذا ما فرض على اليدين ؛ لأن الطهور نصف الإيمان ؛ وهو من عمل اليدين .

وقال : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ [محمد:٤] .

فهذا ما فرض على اليدين وصلة الرحم والضرب في سبيل الله وهو

من الإيمان .

وفرض على الرجلين أن لا يمشي بهما في شيء من معاصي الله ؛ وأن يستعملا فيما أمر الله تعالى من المشي إلى ما يرضيه ؛ فقال : ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء:٣٧] ، وقال :﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ [لقمان:١٩] .

وقال فيما شهدت به الأيدي والأرجل على أنفسها يوم القيامة من تضييعها وتركها فرض الله عليها وتعديها ما حرمه عليها : ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥] .

فهذا ما فرض الله على اليدين والرجلين من العمل وهو من الإيمان .

وفرض على الوجه السجود آناء الليل والنهار في مواقيت الصلوات ؛ فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ ﴾ [الحج:٧٧] ؛ فهذه فريضة من الله تعالى جامعة على الوجه واليدين والرجلين ، وقال في موضع آخر : ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾[الجن:١٨] ، يعني بالمساجد ما سجد عليه ابن آدم في صلاته من الجبهة والأنف واليدين والرجلين والركبتين وصدور القدمين .

وقال فيما فرض الله تعالى على الجوارح كلها من الصلاة والطهور ؛ وذلك أن الله تعالى سمى الصلاة إيمانًا في كتابه ؛ وذلك أن الله تعالى لما صرف نبيه ﷺ عن الصلاة إلى بيت المقدس وأمره أن يصلي إلى الكعبة قال المسلمون للنبيِّ ﷺ : أرأيتك صلاتنا التي كنا نصلي إلى بيت المقدس ما حالها ؟ وما حالنا فيها ؟ وحال إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت

المقدس؟ فأنزل الله تعالى في ذلك قرآنًا ناطقًا ؛ فقال : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ﴾ [البقرة:١٤٣] ، يعني : صلاتكم إلى بيت المقدس ؛ فسمَّى الله الصلاة إيمانًا .

فمن لقي الله حافظًا لجوارحه موفيًا كل جارحة من جوارحه ما فرض الله عليه ؛ لقي الله مؤمنًا مستكمل الإيمان ، ومن ضيَّع شيئًا منها وتعدَّى ما أمر الله به فيها لقي الله تعالى ناقص الإيمان وهو في مشيئة الله ، إن شاء غفر له ، وإن شاء عذَّبه ، ومن جحد شيئًا كان كافرًا .

قال الشيخ : فقد أخبر الله تعالى في كتابه في آي كثيرة منه أن هذا الإيمان لا يكون إلا بالعمل وأداء الفرائض بالقلوب والجوارح ، وبيَّنَ ذلك رسول الله ﷺ وشرحه في سننه وأعلمه أمته ، وكان مما قال الله تعالى في كتابه مما أعلمنا أن الإيمان هو العمل ، وأن العمل من الإيمان ما قاله في سورة البقرة : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٧٧] .

فانتظمت هذه الآية أوصاف الإيمان وشرائطه من القول والعمل والإخلاص ، ولقد سأل أبو ذر النبيَّ ﷺ عن الإيمان فقرأ عليه هذه

الآيـة ... إلى أن قـال : فقـد أنبأنـا الله ﷻ في كتابـه عـن معرفـة الإيـمان بدلالات القرآن أنه قول وعمل وتصديق ويقين وأن جميع ما فرضه الله في القرآن شفاء لما في الصدور من الشك والريب ؛ لما فيه من البيان والبرهان والحق المبين ، ولكن الله ﷻ جعله شفاء ورحمة للمؤمنين : ﴿ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء:٨٢] .

فمن لم يشفه القرآن ، ولم تنفعه السُّنَّة وما فيهما من النور والبيان ، والهدى والضياء ؛ وتنطع وتعمق وقال برأيه وقاس على الله وعلى رسوله بفعله وهواه ، داخل الله في عمله ، ونازعه في غيبه ، ولم يقنع بما كشف له عنه ، حتى خالف الكتاب والسُّنَّة ، وخرق إجماع الأمة ، وضلَّ ضلالًا بعيدًا ، وخسر خسرانًا مبينًا ، واتبع غير سبيل المؤمنين ، وولاه الله ما تولى ، وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا .

.. إلى أن قال : فأيُّ عبد أتعس جدًّا ، ولا أعظم نكدًا ، ولا أطول شقاء، وعناء ، من عبد حرم البصيرة بنور القرآن والهداية بدلالته والزجر بموعظته ، قال الله ﷻ بلسان عربي مبين وقوله الحق والصدق ، قال : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف:٩] .

فالهدي هدى الإيمان وهو القول ، والدين هو العمل وجميع الفرائض والشرائع والأحكام ومجانبة الحرام والآثام . فالدين ليس هو خصلة واحدة ولكنه خصال كثيرة من أقوال وأفعال ، من فرائض وأحكام ، وشرائع ، وأمر ونهي ، فقوله ﷻ : ﴿ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الصف:٩] .

يجمع ذلك كله حتى صار دينًا قيمًا فمن كان من أهل الدين عمل بجميع ما فيه ، ومن آمن ببعضه وكفر ببعضه لم يكن من أهله . ومن قال : الإيمان قول بلا عمل فليس هو من أهل دين الحق ، ولا مؤمن ولا مهتد ولا عامل بدين الحق ولا قابل له ؛ لأن الله ﷻ قد أعلمنا أن كمال الدين بإكمال الفرائض .

قال الله ﷻ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] .

وذلك أنه لما علم الله ﷻ الصدق منهم في إيمانهم والعمل بجميع ما افترضه عليهم من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان وحج البيت ، وما بذلوه من مهج أنفسهم ، ونفقات أموالهم ، والخروج عن ديارهم ، وهجران آبائهم ، وقطيعة أهليهم ، وهجران شهواتهم ولذاتهم ، مما حرمها عليهم وعلم حقيقة ذلك من قلوبهم بما زينه الله تعالى في قلوبهم وحببه إليهم من طاعته والعمل بأوامره والانتهاء عن زواجره سمَّى هذه الأفعال كلها إيمانًا ؛ فقال : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ﴾ [الحجرات:٧، ٨] .

فاستحقوا اسم الرشاد بإكمال الدين ؛ وذلك أن القوم كانوا في فسحة وسعة ليس يجب عليهم صلاة ولا زكاة ولا صيام ولا كان حرم عليهم كثيرًا مما هو محرم ، وكان اسم الإيمان واقعًا عليهم بالتصديق ترفقًا بهم لقرب عهدهم بالجاهلية وجفائها ، فجعل الإقرار بالألسن والمعرفة بالقلوب الإيمان

المفترض يومئذ ؛ حتى إذا حلت مذاقة الإيمان على ألسنتهم وحسنت زينته في أعينهم وتمكنت محبته من قلوبهم وأشرقت أنوار لبسته عليهم وحسن استبصارهم فيه ، وعظمت فيه رغبتهم ؛ تواترت أوامره فيهم وتوكدت فرائضه عليهم ، واشتدوت زواجره ونواهيه . فكلما أحدث لهم فريضة عبادة وزاجرة عن معصية ازدادوا إليه مسارعة وله طاعة ، دعاهم باسم الإيمان وزادهم فيه بصيرة ، فقال : ﴿ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج:٧٨] ، وقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ ﴾ [المائدة:٦] ، وقال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة:٩] ، ثم قال في فرض الجهاد : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة:٢١٦] ، وقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [التوبة:٣٨] .

ونظائر لهذا في القرآن كثيرة .

وقال في النهي: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ ﴾ [آل عمران:١٣٠] ، وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ ﴾ [المائدة:٩٥] ، وقال تعالى :﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ [المائدة:٩٠] .

فعلى هذا كل مخاطبة كانت منه لهم فيها أمر ونهي وأباح وحظر ، وكان اسم الإيمان واقعًا بالإقرار الأول إذ لم يكن هناك فرض غيره ؛ فلما نزلت الشرائع بعد هذا وجب عليهم التزام فرضها والمسرعة إليها كوجوب الأول

سواء ؛ لا فرق بينهما ؛ لأنهما جميعًا من عند الله وبأمره وإيجابه .

- ولقد فرضت الصلاة عليهم بمكة فصلُّوا نحو بيت المقدس ، فلما هاجروا إلى المدينة أقاموا بها يصلُّون نحوه ثمانية عشر شهرًا ثم حوِّلت القبلة نحو الكعبة ؛ فلو لم يصلُّوا نحو الكعبة كما أمروا لما أغنى عنهم الإقرار الأول ولا الإيمان المتقدم .

ولقد بلغ بهم الإشفاق في الطاعة والمسارعة إليها أن خافوا على من مات وهو يصلِّي نحو بيت المقدس قبل تحويل القبلة ؛ حتى قال قائلهم : يا رسول الله ، فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلُّون نحو بيت المقدس ؟ فأنزل الله ﷻ قرآناً أزال عنهم ذلك الإشفاق ، وأعلمهم به أيضًا أن الصلاة إيمان . فقال ﷻ : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[البقرة:١٤٣] .

... إلى أن قال : بلغني عن سفيان ، أنه قال : ما علمت أن الصلاة من الإيمان حتى قرأت هذه الآية ؛ فالله ﷻ قد جعل الصلاة من الإيمان وسمَّى العاملين بها مؤمنين ؛ فقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ ﴾ [المؤمنون:١، ٢] .

ثم نعت وصف الإيمان فيهم ، ثم ذكر ما وعدهم به عند آخر وصفهم فقال : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾[المؤمنون:١٠، ١١] .

- والمرجئة تزعم أن الصلاة والزكاة ليستا من الإيمان ، فقد أكذبهم الله ﷻ وأبان خلافهم . واعلموا ، رحمكم الله ، أن الله ﷻ لم يثن على

المؤمنين ولم يصف ما أعد لهم من النعيم المقيم والنجاة من العذاب الأليم ، ولم يخبرهم برضاه عنهم إلا بالعمل الصالح والسعي الرابح ، وقَرَن القول بالعمل ، والنية بالإخلاص ؛ حتى صار اسم الإيمان مشتملًا على المعاني الثلاثة ، لا ينفصل بعضها من بعض ولا ينفع بعضها دون بعض ، حتى صار الإيمان قولًا باللسان ، وعملًا بالجوارح ، ومعرفة بالقلب ، خلافًا لقول المرجئة الضالة الذين زاغت قلوبهم وتلاعبت الشياطين بعقولهم ، وذكر الله ﷻ ذلك كله في كتابه والرسول ﷺ في سنته » . انتهى كلامه رحمه الله .

إذًا لا بد وأن تُترجم حقيقة التوحيد الذي وقر في القلب إلى عمل ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الحج:٧٧].

هذا أمرٌ بالعمل لأهل الإيمان ، وهذه من أجمع الآيات بالأمر بالعمل الصالح ضمن هذا الأمر الجامع في قوله ـ جلَّ وعلا :﴿ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ . وقد أكدنا أن العمل هو عمل القلب وعمل الجوارح .

فعمل القلب : إخلاص التوحيد ، الخوف من الله ، الحب في الله ، الإنابة ، الرجاء ، التفويض ، التوكل ، الصدق ، المحبة ، اليقين ، هذا كله وغيره عمل القلب ، بل القلب هو الأصل : « أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً ، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ ؛ أَلَا وَهِيَ القَلْبُ » . وهذا الحديث رواه البخاريُّ ومسلم من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه [(١)] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢) ، (٢٠٥١) ، ومسلم ، كتاب المساقاة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهة (١٥٩٩).

وفي حديث : « إِنَّ اللهَ لاَ يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ » . رواه مسلمٌ من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه[1] .

وبيَّنَ الله ـ سبحانه ـ أن أعمال القلوب من الإيمان ؛ قال سبحانه : ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾[البقرة:٢٨٣] ، وقال تعالى : ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾[التغابن:١١] ، وقال جَلَّ وَعَلا : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨] ، وقال سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾[الحديد:١٦] ، وقال تعالى :﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة:٢٢] .

وغير ذلك من الآيات .

وبهذا يتضح لنا مفهوم الإيمان ومراد السلف بقولهم : الإيمان اعتقاد وقول وعمل . أسأل الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ أن يرزقنا الإيمان وأن يثبت قلوبنا عليه حتى نلقاه .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب البر والصلة ، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤) .

المسألة الثانية
زيادة الإيمان ونقصانه

الإيمان يزيد وينقص ؛ وهذا أصل متفق عليه عند أهل السنة والجماعة ؛ أن الإيمان يزيد بالطاعات ، وينقص بالمعاصي والزلات ، وينقص أيضًا بنقص الطاعات.

وقد دلت الأدلة من القرآن والسنة وكلام علماء السلف على هذا الأصل .

أولاً : من القرآن :

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة :١٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب:٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح:٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ﴾[المدثر:٣١]، وقال تعالى: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾[الكهف:١٣]، وقال تعالى: ﴿ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴾[مريم:٧٦]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾[محمد:١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾[الإسراء:١٠٩]، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾[آل عمران:١٧٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[البقرة:٢٦٠].

أي: يزداد إيماني فهذه آيات من القرآن مصرحة بأن الإيمان يزيد.

قال الحافظ في «الفتح»: «وبثبوتها يثبت المقابل، فإن كل قابل للزيادة قابل للنقصان ضرورة»[1].

وقال ابن منده رحمه الله: «ذكر الأعمال التي يستحق بها العامل زيادة الإيمان والتي توجب النقصان»[2].

فما وقعت فيه الزيادة وجب وقوع النقصان فيه.

ثانيًا: من السنة:

ما رواه البخاريُّ ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ

(١) «فتح الباري» (١/ ٦٢).

(٢) «الإيمان» لابن منده (٢/ ٥٤١).

إِحْدَاكُنَّ ». قُلْنَ : وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « أَلَيْسَ شَهَادَةُ المَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ ؟ » ، قُلْنَ : بَلَى ، قَالَ : « فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا ، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ ؟ » ، قُلْنَ : بَلَى ، قَالَ : « فَذَلِكَ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا »(١) .

فدلَّ الحديث على أن الدين ينقص بنقص الطاعات .

وفي « الصَّحِيحَيْنِ » عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هِرَقْلَ قَالَ لَهُ : « سَأَلْتُكَ هَلْ يَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ فَزَعَمْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حَتَّى يَتِمَّ ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدخُلَ فِيهِ ؟ فَزَعَمْتَ أَنْ لا ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ القُلُوبَ لاَ يَسْخَطُهُ أَحَدٌ »(٢) .

وروى أحمد والترمذي وابن ماجه(٣) من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه أنه ﷺ قَالَ : « إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ عَادَ : زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ ؛ وَهُوَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الحيض ، باب ترك الحائض الصوم (٣٠٤) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله ككفر النعمة والحقوق (٨٠) ، وأخرجه مسلم من حديث ابن عمر (٧٩) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب (٣٨) (٥١) ، وانظر: (٧) ، ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب كتاب النبيِّ ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (١٧٧٣) .

(٣) أخرجه الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة ويل للمطففين (٣٣٣٤) وقال : « حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب ذكر الذنوب (٤٢٤٤) ، وأحمد (٢/ ٢٩٧) ، والحاكم (٢/ ٥١٧) ، وقال : « صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه » ووافقه الذهبي ، وابن حبان في « صحيحه » (٧٧١) ، وحسَّن إسناده الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (١٦٧٠) .

الرَّانُ الذي ذَكَرَ اللهُ : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين:١٤]. وقوله : « سُقِلَ » بالسين المهملة ، وفي رواية : « صُقِلَ » أي: لمع ونظف . فدلَّ ذلك على أن التوبة تزيل الرَّان وتزيد الإيمان ، والمعصية تنقص الإيمان وتزيد الران !! .

وَرَوَى أبو داود والترمذيُّ وأحمد وغيرهم عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنه ﷺ قَالَ : « أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا » (١) .

وَرَوَى أبو داود وغيره عن أبي أمامة رضي الله عنه أنه ﷺ قَالَ : « مَنْ أَحَبَّ لله ، وَأَبْغَضَ لله ، وَأَعْطَى لله ، وَمَنَعَ لله ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ » (٢) .

وَرَوَى مسلم عن أبي مالك رضي الله عنه أنه ﷺ قَالَ : « الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ » (٣) .

وَرَوَى مسلمٌ عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه ﷺ قَالَ : « لاَ يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ ، وَلاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ

---

(١) أخرجه أبو داود ،كتاب السنة ، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٨٢) ، والترمذي ، كتاب الرضاع ، باب حق المرأة على زوجها (١١٦٢) وقال : « حسن صحيح » ، وأحمد (٢/ ٢٥٠، ٤٧٢، ٥٢٧) ، والحاكم (١/ ٣) ، وصحَّحه ووافقه الذهبي ، وابن أبي شيبة في الإيمان (١٧، ١٨) ، وفي « المصنف » (٨/ ٣٢٧) ، وابن حبان (٤٧٩) ، والبيهقي في الشعب (٢٧) وغيرهم ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (١٢٣٠ - ١٢٣٢) ، و« الصحيحة » (٢٨٤، ٧٥١) وروي من حديث عائشة وجابر وأنس رضي الله عنهم .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب السنة ، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٨١) ، وابن أبي شيبة (٧/ ١٣٠) ، (٣٤٧٣٠) ، والطبراني في « مسند الشاميين » (١٢٦٠) ، وفي « المعجم الكبير » (٨/ ١٣٤، ١٧٧) و« الأوسط » (٩٠٨٣) ، والبيهقي في « الشعب » (٩٠٢١) ، و« الاعتقاد » (٢٢٧) ، والبغوي في « السنة » (١٣/ ٥٤) ، و« اللالكائي » (١٦١٨) وغيرهم ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (٣٨٠) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الطهارة ، باب فضل الوضوء (٢٢٣) .

حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرِيَاءَ »[1].

وفي « الصَّحِيحَيْنِ » عن أنس ﷺ أنه ﷺ قَالَ : « يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً ، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً »[2].

وفي رواية البخاري : « مِنْ إِيمَانٍ » بدل : « مِنْ خَيْرٍ ».

وَرَوَى البخاريُّ ومسلم عن حذيفة ﷺ قال : حَدَّثَنَا رَسُولُ الله ﷺ حَدِيثَيْنِ قَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ ؛ حَدَّثَنَا : « أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ ، ثُمَّ نَزَلَ القُرْآنُ فَعَلِمُوا مِنَ القُرْآنِ وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ » ، ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الأَمَانَةِ قَالَ : « يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الوَكْتِ . ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ . فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ المَجْلِ كَجَمْرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رَجْلِكَ فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ (ثُمَّ أَخَذَ حَصًى فَدَحْرَجَهُ عَلَى رِجْلِهِ) فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ ؛ لاَ يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ : إِنَّ فِي بَنِي فُلاَنٍ رَجُلًا أَمِينًا ؛ حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ : مَا أَجْلَدَهُ !! مَا أَظْرَفَهُ !! مَا أَعْقَلَهُ !! وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ »[3].

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر وبيانه (٩١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب زيادة الإيمان ونقصانه (٤٤) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٣) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الرقاق ، باب رفع الأمانة (٦٤٩٧)، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب وعرض الفتن على القلوب (١٤٣) .

وَرَوَى ابن ماجه عن جندب بن عبد الله قال : « كُنَّا مَعَ النبيِّ ﷺ وَنَحْنُ فِتْيَانٌ حَزَاوِرَةٌ ؛ فَتَعَلَّمْنَا الإِيمَانَ قَبْلَ أَنْ نَتَعَلَّمَ القُرْآنَ ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا القُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا »[1] .

وقال النبيُّ ﷺ في الحديث الجميل الذي رواه «مسلم»[2] من حديث حنظلة الأسيدي رضي الله عنه ـ وكان حنظلة من كُتَّاب الوحي ـ قَالَ : لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ : كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةَ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ . قَالَ : سُبْحَانَ الله ! مَا تَقُولُ ؟ قَالَ : قُلْتُ : نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ والجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ الله ﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَوَ الله ! إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللهَ ﷺ قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ الله ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « وَمَا ذَاكَ ؟ » ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، نَكُونُ عِنْدَكَ ، تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيُ عَيْنٍ ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ .نَسِينَا كَثِيرًا .فقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي ، وفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ المَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ ، وَلَكِنْ ، يَا حَنْظَلَةُ ، سَاعَةً وَسَاعَةً » ثلاث مَرَّاتٍ .

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ، باب في الإيمان (٦١) ، وقال البوصيري في « الزوائد » : « إسناد هذا الحديث صحيح رجاله ثقات » ، والخلال في « السنة » (٧٩٩، ١٥٩٣) ، وابن بطة في « الإبانة » (١١٣٦) ، واللالكائي (١٧١٥) ،والبيهقي في « الشعب » (٥١) وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح سنن ابن ماجه » .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب التوبة ، باب دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة ، والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا (٢٧٥٠) .

وكذلك في حديث أبي هريرة ﷺ : « الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسِتُّونَ أَوْ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً ؛ فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ »[1].

فهذه بعض الأحاديث من السنة النبوية تثبت أن الإيمان يزيد وينقص .

وهذه أقوال بعض الأئمة في هذا الشأن :

قال الإمام اللالكائي[2] : « سياق ما دلَّ أو فسَّر من الآيات من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، وما روي عن الصحابة والتابعين من بعدهم من علماء أئمة الدين : أن الإيمان يزيد وينقص ، يزيد بالطاعة ، وينقص بالمعصية » ثم ذكر الأدلة على ذلك .

وقال الإمام الآجري[3] في « الشريعة » : « باب ذكر ما دلَّ على زيادة الإيمان ونقصانه » ثم سرد الأدلة على ذلك .

وقال الأصبهاني في كتاب « الحجة في بيان المحجة »[4] : « ويجوز الزيادة والنقصان في الإيمان ؛ وزيادته بفعل الطاعات ، ونقصانه بتركها وفعل المعاصي ، خلافًا لمن قال : الإيمان معرفة القلب وتصديقه وهما عرضان من الأعراض ، والزيادة والنقصان لا تجوز على الأعراض » . . . « وإذا كان الإيمان عبارة عن جميع الطاعات ، فإذا أخل ببعضها وارتكب المنهيات ، فقد أخل ببعض أفعاله ، فجاز أن يوصف بالنقصان

---

(١) تقدم تخريجه .

(٢) « شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة » (٣/ ١٤٣) .

(٣) « الشريعة » (٢/ ٥٨٠) .

(٤) « الحجة في بيان المحجة » (١/ ٤٠٥ ، ٤٠٦) .

والزيادة » .

وبهذا قال الإمام ابن بطة في « الإبانة »[(١)] .

كذلك مثل قول هؤلاء ؛ فرحمهم الله جميعًا وجزاهم الله خيرًا .

وقال ابن القيم في « نونيته » الرائعة[(٢)] :

وأشهد عليهم أن إيمان الورى ... قول وفعل ثم عقد جنان

ويزيد بالطاعات قطعًا هكذا ... بالضد يمسي وهو ذو نقصان

والله ما إيمان عاصينا كإيمـ ... ـان الأمين منزل القرآن

كلا ولا إيمان مؤمننا كإيمـ ... ـان الرسول معلم الإيمان

وأشهد عليهم أنهم لم يخلدوا ... أهل الكبائر في حميم آن

بل يخرجون بإذنه بشفاعة ... ويدونها لمساكن بجنان

فالشاهد أن الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالبُعْدِ عن بيئة الإيمان والوقوع في المعاصي والزلات .

*****

(١) « الإبانة عن الشريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة » (٢/ ٨٣١) وما بعدها .

(٢) « قصيدة ابن القيم » (الشرح ٢/ ١٣٣) ، ط المكتب الإسلامي .

المسألة الثالثة
تفاضل أهل الإيمان

فأهل الإيمان يتفاضلون ، وَوَهَمَ من فهم غير ذلك .

تدبر قول الله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [فاطر:٣٢]

فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ؛ فهذا تفاضل بين أهل الإيمان .

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ : « بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ ، رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ ـ جمع قميص ـ مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِيَّ ، وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ ، وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ » ، قَالُوا : فَمَا أَوَّلْتَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « الدِّينَ »[1] .

وفي رواية أخرى في «الصَّحِيحَيْنَ»[2] من حديث ابن عمر ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ : « بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُوتِيتُ بِقَدَحِ لَبَنٍ ، فَشَرِبْتُ حَتَّى إِنِّي لأَرَى الرِّيَّ يَخْرُجُ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب تفاضل أهل للإيمان في كتاب الأعمال (٢٣) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عمر رضي الله تعالى عنه (٢٣٩٠) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العلم ، باب فضل العلم (٨٢) وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عمر ﷺ (٢٣٩١) .

فِي أَظْفَارِي ، ثُمَّ أَعْطَيْتُ فَضْلِي عُمَرَ بنَ الخطَّابِ » ، قَالُوا : فَمَا أَوَّلتَهُ يَا رسُولَ الله ؟ قَالَ : « العِلْمُ » .

فهناك تفاوت في الدِّين والعلم (فيأتي أحد أهل الضلال يقول: لا فرق بين إيماني وإيمان عمر ، وهذا مذكور في الكتب) .

رَوَى الإمام أحمد في فضائل الصحابة ، ورواه الإمام عبد الله في «السنة» بإسنادٍ حسنٍ أن عمر بن الخطاب ﷺ قال : « لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان أهل الأرض لرجح إيمان أبي بكر »[1] .

وقلت : ما فاز الصِّدِّيق وسبق إلا بشيء وقر في قلبه .

والمقصود : أن الناس يتفاوتون في الدين بتفاوت الإيمان في قلوبهم ؛ فأفضلهم وأعلاهم أولو العزم من الرسل ، وأدناهم الذين خلطوا عملًا صالحًا وآخر سيئًا ، وبين ذلك مراتب ودراجات لا يعلمها إلا رب الأرض والسموات ؛ بل ويتفاضل أهل الإيمان في العمل الواحد ؛ بل وفي الوقت الواحد ، بل إن الناس في المسجد في صلاة الجماعة يقفون في مسجد واحد في وقت واحد خلف إمام واحد بينهم من التفاوت ما الله به عليم ، فهذا قرة عينه في الصلاة يتمنى أن لو أطال الإمام في القراءة والركوع والسجود .

وهذا يرى نفسه في سجن ضيق يتمنى لو فتح له ليخرج ، وهذا قلبه

---

(١) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (٦٥٣) ، وعبد الله في « كتاب السنة » (٨٢١) ، والبيهقي في « الشعب » (٣٦) ، والخلال في « السنة » (١١٣٤) ، وإسحاق في « مسنده » (١١٦١) ، وصحح إسناده البيهقي والعجلوني في « كشف الخفاء » (٢١٣٠).

قد تفرقت به الأهواء والشبهات لا يدري ما يقول أقرأ التشهد قائمًا ام قرأ الفاتحة جالسًا !! وهذا ترفع صلاته تشرق بالنور حتى تفضي إلى عرش العزيز الغفور .

وهذا تخرج صلاته مظلمة لظلمة قلبه فتغلق دونها أبواب السماء ، وهذا يصلي نفاقًا ورئاء الناس وكلهم يقفون في مسجد واحد ، وهكذا فجميع أعمال الإيمان يتفاوت الناس فيها بحسب ما وقر في قلوبهم من العلم واليقين ،وعلى ذلك يموتون ، وعلى ذلك يبعثون ، وعلى ذلك يحشرون ، وفي عَرَقِ الموقف يقفون ، وعلى ذلك تنقسم الأنوار على الصراط ، وبذلك يتسابقون في دخول الجنات، وبحسب درجاتهم عند رب الأرض والسموات تكون مقاعدهم عند الله ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [البقرة:١٠٥] ، وقال تعالى : ﴿ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾

[النساء:٦٩]

فهذه طبقات المؤمنين وهي دليل على تفاضلهم .

ومن ذلك ما رواه البخاريُّ ومسلمٌ[١] عن أبي هريرةَ ﷺ : أَنَّ فُقَراءَ المُهَاجِرينَ أَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالُوا : ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ العُلَى والنَّعِيمِ المُقِيمِ ، فَقَالَ : « وَمَا ذَاكَ ؟ » ، قَالُوا : يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ وَلاَ نَتَصَدَّقُ ، وَيَعْتِقُونَ وَلاَ نَعْتِقُ ،

(١) أخرجه البخاريُّ ،كتاب الأذان ، باب الذكر بعد الصلاة (٨٤٣)، وانظر طرفه هناك ، ومسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته (٥٩٥) .

فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « أَفَلاَ أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ ، وَلاَ يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إِلا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ ؟ » ، قَالُوا : بَلَى يَا رسُولَ الله ، قَالَ : « تُسَبِّحُونَ وَتُكَبِّرُون وَتَحْمَدُونَ دُبُرَ كُلِّ صَلاَةٍ ثَلاَثًا وَثَلاثِينَ مَرَّةً » ، فَرَجَعَ فُقَرَاءُ المُهَاجِرِينَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالُوا : سَمِعَ إِخْوانُنَا أَهْلُ الأَمْوَالِ بِمَا فَعَلْنَا . فَفَعَلُوا مِثْلَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيه مَنْ يَشَاءُ » .

فهذا دليل على تفاضل المؤمنين في الأعمال .

وأختم بهذا الكلام الماتع لابن بطة في « الإبانة » حيث قال : « قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ﴾ » [النساء:١٣٦] ؛ فلو لم يكونوا مؤمنين لما قال لهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ... ﴾ ؛ وإنما أراد بقوله : دوموا على إيمانكم ، وازدادوا إيمانًا بالله وطاعة ، واستكثروا من الأعمال الصالحة التي تزيد في إيمانكم ، وازدادوا يقينًا وبصيرة ومعرفة بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

وقد يقول الناس بعضهم لبعض مثل ذلك في كل فعل يمتد ويحتمل الازدياد فيه ؛ كقولك للرجل يأكل : كُلْ ، تريدُ: زد في أكلك ، ولرجل يمشي : امش ، تريدُ أسرع في مشيتك ، ولرجل يصلي أو يقرأ : صل واقرأ ، تريدُ زد في صلاتك . ولما كان الإيمان له بداية بغير نهاية ، والأعمال الصالحة والأقوال الخالصة تزيد المؤمن إيمانًا جاز أن يقال : يا أيها المؤمن آمن ؛ أي ازدد في إيمانك .

ولا يجوز أن يقال ذلك في الأفعال المتناهية التي لا زيادة على نهايتها ،

كما لا تقول للقائم : قم ، ولا لرجل رأيته جالسًا : اجلس ؛ لأن ذلك فعل قد انتهى فلا مستزاد فيه ، فهذا يدل على زيادة الإيمان ؛ لأنه كلما ازداد بالله علمًا وله طاعة ومنه خوفًا كان ذلك زائدًا في إيمانه ، وبالمعرفة والعقول والفضائل في الأعمال والأخلاق والاستباق إلى الله تعالى بالأعمال الزاكية تفاضل الناس عند خالقهم جَلَّ وَعَلا بعضهم فوق بعض درجات . قال الله ﷻ : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴾ [البقرة:٢٥٣] ، وقال ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [الإسراء:٥٥] ، وقال : ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ ﴾ [الأنعام:١٣٢] ، وقال : ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحديد:١٠] ، وقال : ﴿ لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء:٩٥، ٩٦] .

وقال : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ ﴾ [التوبة:١٠٠] ، وقال ﷻ : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [الواقعة :١٠ـ ١٢] .

فقد علم أهل العلم والعقل أن السابق أفضل من المسبوق ، والتابع دون المتبوع ، وأن الله ﷻ لم يفضل الناس بعضهم على بعض بوثاقة الأجسام ، ولا بصباحة الوجه ، ولا بحسن الزي وكثرة الأموال ، ولو كانوا بذلك متفاضلين لما كانوا به عنده ممدوحين ؛ لأن ذلك ليس هو بهم ولا من فعلهم ، فعلمنا أن العلو في الدرجات والتفاضل في المنازل ؛ إنما هو بفضل الإيمان وقوة اليقين والمسابقة إليه بالأعمال الزاكية والنيات الصادقة من القلوب الطاهرة .

قال الله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية:٢١] ، وقال الله ﷻ : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ [ص:٢٨] .

فهذا وأشباهه في كتاب الله يدل العقلاء على زيادة الإيمان ونقصانه وتفاضل المؤمنين بعضهم على بعض ، وعلوهم في الدرجات ، وبمثل ذلك جاءت السنة عن النبي ﷺ وعن الصحابة والتابعين وفقهاء المسلمين .

ولو كان الإيمان كله واحدًا لا نقصان له ولا زيادة لم يكن لأحد على أحد فضل ولا استوت النعمةُ فيه ، وبطل العقل الذي فضل الله به العقلاء وشرَّف به العلماء والحكماء ، وبإتمام الإيمان دخل الناس الجنة وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون في الدرجات في الجنان عند الله ، وبالنقصان منه دخل المقصرون النار فنعوذ بالله من النار .

وإن الإيمان درجات ومنازل ؛ يتفاضل بها المؤمنون عند الله ، ومتى تأمل مُتَأَمِّلٌ وَصْفَ الله للمؤمنين وتفضيلَه بعضهم على بعض ، وكيف نَدَبَهُم إليه بالسباق ؛ علِم أن الله قد سبق بين المؤمنين في الإيمان كما سبق بين الخيل في الرهان ؛ ثم قبلهم على درجاتهم إلى السبق إليه فجعل كل امرئ منهم على درجة سبقه لا ينقصهم فيها من حقه ؛ لا يتقدم مسبوق سابقًا ؛ ولا مفضول فاضلًا .

وبذلك فضَّل الله أوائل هذه الأمة على أواخرها ؛ ولو لم يكن للسابقين بالإيمان فضل على المسبوقين . لَلَحِقَ آخرُ هذه الأمةِ أولها في الفضل ولتقدمهم !! إذ لم يكن لمن سبق إلى الله فضل على من أبطأ عنه ، ولكن بدرجات الإيمان قُدِّم السابقون ، وبالإبطاء عن الإيمان أُخِّر المقصرون ، ولأنك قد تجد في الآخرين من المؤمنين من هو أكثر عملًا وأشد اجتهادًا ، وكذا من الأولين المهاجرين أكثر منهم صلاة وأكثر منهم صيامًا ، وأكثر منهم حجًا وجهادًا ، وأنفق مالًا ، ولولا سوابق الإيمان وفضله لما فَضل المؤمنون بعضهم بعضًا ، ولكان الآخرون لكثرةِ العمل مقدمين على الأولين ، ولكنَّ الله تعالى أبَى أن يدركَ أحدٌ بآخرِ درجات الإيمان أولها ويؤخر من قدَّم الله بسبقه أو يقدم من أخر الله بإبطائه ألا ترى يا أخي - رحمك الله - كيف ندب الله المؤمنين إلى الاستباق إليه ، فقال تعالى : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد:٢١] ، وقال : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم

بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة:١٠٠] .

فبدأ بالمهاجرين الأولين على درجاتهم في السبق ، ثم ثَنَّى بالأنصار على سبقهم ، ثم ثَلَّثَ بالتابعين لهم بإحسان فوضع كل قوم على درجاتهم ومنازلهم عنده . ثم ذكر ما فَضَّل به أولياءه بعضهم على بعض ، فبدأ بالرسل والأنبياء ، فقال : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة:٢٥٣] ، وقال : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥] ، وأمر نبيه ﷺ أن يتأمل ذلك ، فقال تعالى : ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء:٢٠، ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١٦٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود:٣] ، وقال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْ ﴾ [الحديد:١٠] ، وقال تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة:١١] ، وقال تعالى : ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء:٩٥] ، وقال : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [التوبة:٢٠] .

فهذه درجاتُ الإيمان ومنازلُه تفاضل الناسُ بها عند الله واستبقوا إليه بالطاعة بها . وبذلك فضَّل الله المهاجرين والأنصار ؛ لأنهم أطاعوا الله

ورسوله ؛ ولأنهم أسلموا من خوف الله ، وأسلم سائر الناس من خوف سيوفهم وفضَّل المهاجرين والأنصار بطواعيتهم لله ولرسوله ؛ وكذلك قال تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء:٨٠] ، وقال : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [آل عمران:١٣٢] ، وقال : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر:٧] ، وقال : ﴿ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ﴾ [الممتحنة:١٢] .

يعني : في سنن الرسول .

وخلق الله الخلق لطاعته إلا من سبق عليه القول في كتابه بشقوته ؛ فقال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات:٥٦] ، وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الحج:١٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ [النحل:٤٩] ، وقال : ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ [فصلت:١١] .

فالإيمان يا أخي ـ رحمك الله : هو القول ، والعمل: هو الطاعة ، والقول تبع للطاعة والعمل ، والناس يتفاضلون فيه على حسب مقادير عقولهم ومعرفتهم بربهم وشدة اجتهادهم في السبق بالأعمال الصالحة إليه .

وقد شَرَحَت السُّنَّةُ عن رَسُولِ الله ﷺ وأصحابه ﷺ والتابعينَ بإحسانٍ زيادةَ الإيمانِ ونقصانِهِ وتفاضلَ أهلِه بعضهم على بعض .

... إلى أن قال: « ففي بعض الأخبار والسنن والآثار وما قد ذكرته

في هذا الباب ما أقنع العقلاء وشفاهم ، وأعلمهم أن الإيمان يزيد وينقص ، وأن الأعمال الزاكية والأخلاق الفاضلة تزيد فيه وتنميه وتعليه ، وأن الأفعال الخبيثة والأخلاق الدنية والفواحش تمحقه وتفنيه وتسلب الإيمان من فاعلها وتعريه ، وهب الله لنا ولكم صوابًا بتوفيقه وتسديدًا لمرضاته ؛ وعصمة من الضلال إنه رحيم ودود »[١].

وعقد الإمام البخاريُّ في « صحيحه »[٢] بابًا بعنوان : (باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال).

وقال ابن تيمية رحمه الله[٣] : «وزيادة الإيمان الذي أمر الله به ، والذي يكون من عباده المؤمنين يعرف من وجوه » وعدَّ ثمانية وجوه ـ رحمه الله تعالى.

*****

---

(١) « الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة » (٢/ ٨٣٤ ـ ٨٤٠) .

(٢) « فتح الباري » (١/ ٩١) .

(٣) « مجموع الفتاوى » (٧/ ٢٣٢ ـ ٢٣٧) .

كيف يزيد الإيمان في القلب ؟

أَصَّلنَا فيما مضى أن الإيمان : قولٌ وعملٌ ، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

فالعَبْدُ إذا وحَّدَ ﷻ وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ يكون بهذه الشهادة العظيمة قد بذر بذرةَ الإيمان في قلبه .

فإما أن يتعهد هذه البذرة لتصبح شجرة شامخة وارفة الظلال ، وإما أن يَدَعَ هذه البذرة لتموت في قلبه في الحال أو بعد الحال ، فلا يتوقف الإيمان عند مجرد النطق بالشهادتين فحسب .

فإذا نَطَقْتَ بالشهادتين فلتعلم أن للشهادتين أركانًا وشروطًا يجب عليك أن تحققها ، فإن تعهدت هذه البذرة بالعناية والرعاية ؛ فسقيتها بماء الإخلاص واتباع سيد الناس ﷺ ترعرعت شجرة الإيمان في قلبك وآتت أُكلها كل حين بإذن ربها وأثمرت جميع أنواع الثمار ، فشجرة الإيمان إن استقرت في القلب ؛ فهي شجرة كريمة مباركة أصلها ثابت في قرار قلب المؤمن وفرعها متصل بسدرة المنتهى .

وقد أخذت هذا المعنى من كلامٍ جميلٍ للإمام ابن القيم ؛ يقول [١] :
« إذا غُرست شجرةُ المحبة في القلب وسُقيت بماء الإخلاص ومتابعة سيد الناس أثمرت كل أنواع الثمار ، وآتت أكلها كل حين بإذن ربها ، فهي شجرة أصلها ثابت في قرار قلب المؤمن وفرعها متصل بسدرة المنتهى » .

---

(١) « المدارج » (٣/ ٩) .

وهذه بعض الأسباب التي يزيد بها الإيمان :

أولاً : معرفة الله ﷻ بأسماء جلاله وصفات كماله :

هل تَعَرَّفْتَ على الله ﷻ بأسماء جلاله وصفات كماله ؛ فامتلأ قلبُك بحب هذه الأسماء والصفات ، ثم تعبَّدت لله بمقتضى هذه الأسماء والصفات ؟! فمعرفةُ الله ﷻ بأسماء الجلال وصفات الكمال ليست معرفة باللسان فحسب ، بل لو تعبدت لله ﷻ بمقتضى هذه الأسماء والصفات لتذوقت حلاوةَ الإيمان ، فكلُّنا يردد اسم السميع والبصير والعليم والرقيب . . . إلى آخر هذه الأسماء الجليلة لربنا الجليل .

فهل عرفنا مقتضى هذه الأسماء ، وتعبدنا لله ﷻ بها ؟

فمن عرف أن من أسماء الله السميع ، وأنه لا يعزب عن سمعه شيء في السماوات أو في الأرض ، وأنه يسمعُ دبيب النملة السوداء تحت الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ؛ لَفَكَّر بدل المرة ألف مرة قبل أن ينطق بلفظة واحدة ، لعلمه يقينًا أن الله - جَلَّ وَعَلاَ - سيسمع قولَه ، فهل هذا القول يرضي الله - جَلَّ وَعَلاَ - أو من القول الذي سيسخط الله عليه ؟! .

ومن أسماء الله « البصير » الذي يرى كُلَّ شيء ولا يغيبُ عن بصرِه شيء ؛ فلو أغلقت على نفسك الأبواب والنوافذ وأرخيت على نفسك الستور وخلوت بنفسك لو كنت ممن آمن وحقق مقتضى اسم البصير ما تجرأت أن تعصى الله في الخلوة وأنت بعيد عن أعين الناس لأنك حينئذ ستعلم أن البصير يراك .

إذا ما خلوتَ الدَّهر يومًا فلا تقل خلوتُ ولكنْ قُلْ عليَّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تُخفي عليه يغيب

لو آمنت باسم « العليم » الذي يعلم السر وأخفى وتعبَّدت لله بمقتضى هذا الاسم ؛ فلو استطعت أن تخادع الجماهير وأن تخادع الناس بإخفاء ما يدور في قلبك ؛ فلن تستطيع أن تخادع ربك العليم الذي يعلم السرَّ وأخفى !!

ومن أسمائه ـ جَلَّ وَعَلاَ : « الرزَّاق » ، لو عرف المسلمون حقيقة اسم الرزاق وتعبدوا لله بمقتضاه ؛ ما أكلوا الحرام ؛فما تجرأ على أكل الحرام إلا رجل لم يتعبد لله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ بمقتضى اسم الرزَّاق ؛ لأنه لو عرف حقيقة اسم الرزَّاق لعلم يقينًا أن رزقه بيد الله ﷻ ، وأن ما قدَّره الله له من رزقٍ سيكون وما لم يقدِّره الله له فلن تستطيع قوة على ظهر الأرض أن تأتيه به ، فكلما ازداد العبد علمًا بالله ﷻ وأسمائه الحسنى وصفاته العلى ازداد حبًا لله ﷻ وخوفًا من عقابه ، ورغبة في ثوابه ،وطمعًا في جنته ،وهربًا من عذابه .

يقولُ ابن القيم رحمه الله وطيَّبَ ثراه [1] : « جميع ما يبدو للقلوب من صفات الرب سبحانه يستغني العبد بها بقدر حظه وقسمه من معرفتها وقيامه بعبوديتها ، فمن شهد مشهد علو الله تعالى على جميع خلقه ، ومن شهد فوقية الله تبارك وتعالى على جميع عباده ، ومن شهد باستواء الله تبارك وتعالى على عرشه ، كما أخبر بذلك أعرفُ الخلق به محمدٌ ﷺ ،

---

(١) نقلًا عن «معارج القبول» (١/ ٨٥ـ ٨٧) بتصرف في المعنى .وانظر : « شجرة الإيمان » (٣٥ـ ٥٥) .

ومن شهد ذلك وعرف أن علم الله لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات أو في الأرض أو في قرار البحار ، من عرف ذلك امتلأ قلبه بالحب لله وحده ، وبالهيبة من الله وحده ومن الجلال لله وحده ، وعلى قدر حبك لله ، وعلى قدر خوفك من الله ، وعلى قدر هيبتك من الله يكون إيمانك بالله ؛ فعلى قدر الحب لله ﷻ ، وعلى قدر البغض لما حَرَّمه الله ﷻ يكون الإيمانُ في القلب ؛ فاعلم أن المعرفةَ بأسماء الله ﷻ وبصفاته معرفة حقيقية يتعبد بمقتضاها العبد لربه مما يغذي شجرةَ الإيمان في القلب ، ولذلك كان أعلم الناس بالله أكثرهم خشية من الله ﷻ قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر:٢٨] ؛ فكلَّما تعرَّفت على قدْرِ الله ، وعلى عظمة الله ، وعلى جلالِ الله ، وعلى هيبة الله ﷻ ، امتلأ قلبك بالإيمان وازددتَ خشية من الرحمن الرحيم : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾ ، الذين عرفوا قدْره وعظمته وجلاله ، وما تجرَّأ على معصية الله إلا جاهل بالله ، قال سبحانه : ﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ [الحج:٧٤] .

فمن عرف أن الله هو الغني عرف نفسه بالفقر ، ومن عرف ربه بالعز عرف نفسه بالذل ، ومن عرف ربه بالقوة عرف نفسه بالضعف ، ومن عرف ربه بالعلم عرف نفسه بالجهل [١]، وهكذا كُلَّما ازددت علمًا بالله ، ومعرفة بالله ؛ ازددت تواضعًا ، وخشية ، وذلًّا ، وانكسارًا ، وحبًّا لله ﷻ ، فتعرف على الأسماء وعلى الصفات وتعبد لله بمقتضى الأسماء والصفات

(١) راجع في هذا المعنى « طريق الهجرتين » (٢٣، ٢٤) .

تغذي شجرة الإيمان في قلبك .

ثانيًا : تدبر القرآن :

فهناك من الناس من يقرأ القرآن وهمُّهُ أن يصل إلى آخر السورة ؛ ليقول : لقد ختمت القرآن في هذا الأسبوع مرة أو مرتين أو ختمته في هذا الشهر مرة أو مرتين ، فلا يكن همك أن تصل إلى آخر السورة ، وليكن همك أن تدبر وأن تتفكر فيما تقرأ ، قال الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ في صفات المؤمنين الصادقين : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا ﴾ [الأنفال:٢] .

فتلاوة الآيات تزيد الإيمان ، لكن متى يزداد إيمانك بتلاوتك لآيات القرآن ؟ إذا تدبَّرت وتفكَّرت وعشت مع المعاني ووقفت على جلال الآيات وعظمة القرآن يزداد الإيمان في قلبك : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢] .

هذه صفة من صفات المؤمنين الصادقين ؛ قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد:٢٤] .

إذًا فالقلبُ الذي لا يتدبر القرآن عليه قفلٌ بنصِّ القرآن ؛ فالقلب المنفتح الذي يتدبر القرآن ويعيش مع آيات القرآن هو الذي يخشع لله الرحيم الرحمن ، فشتان شتان بين رجل يسمع القرآن وكأنه ما سمع شيئًا !! وبين رجل سمع القرآن فوصلت آيات القرآن إلى قلبه ، فخشع القلب وتلا الخشوع للقلب قشعريرةٌ في البدن كلِّه ، وهذه حالات تنتاب الإنسان في حالةِ صدقٍ وصفاء ، فقد لا تحصل هذه السعادة في كلِّ وقتٍ وأنت تتلو القرآن أو وأنت تسمع القرآن لا تشعر بهذه اللذة

والحلاوة إلا في بعض الأوقات حينما يصفو قلبك ويستعد للتدبر ؛ ولذلك قال ﷻ : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق:٣٧] .

قال جمهور المفسرين [١] : ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ أي : حيٌّ [٢] يعقل عن الله ـ جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي : أصغى السمع للقرآن ، وأحضر قلبه .

لكِنْ عقلٌ غافلٌ ، وسمعٌ لاهٍ ، وقلبٌ منشغلٌ ، ويُتْلَى بين يديك القرآنُ لن تؤثر فيك آيةٌ ، ولن تحرك قلبَك سورةٌ !! .

قال الله ﷻ : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:٨٢] .

الشاهد من الآية: أن المؤمن الذي يتدبر القرآن ويقف على جلال الله وعظمته ، وأن القرآنَ كلامُ العليم الخبير الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لَيَزْدَادُ الإيمان في قلبه ، ولو وقفت مع أول سورة ومع آخر سورة ، ومع أول آية ومع آخر آية لتعرفت على أن هذا القرآن من عند الحكيم الخبير ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ فازداد الإيمان في قلبك حتمًا ، لكن المتشكك الذي يشك في القرآن محالٌ أن تنبت في قلبه بذرةُ الإيمان ؛

---

(١) انظر : «تفسير الطبري» (١١/ ٤٣٢- ٤٣٤) ط دار الكتب ، و«تفسير ابن كثير» (١٣/ ٢٠١) ط أولاد الشيخ ، و« الفوائد » لابن القيم (ص ٧، ٨) ط ابن رجب .

(٢) عند الطبري بسند صحيح عن قتادة قال : ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾ أي : من هذه الأمة ، يعني بذلك القَلب الحيّ .

فالمؤمن بمجرد أن يتلو القرآن الكريم ، ويقف على ما في القرآن الكريم من أخبار صادقة وآيات محكمةٍ ، علم أنه لا يمكن على الإطلاق أن يكون إلا من عند الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وحتمًا سيردد قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ [آل عمران:١٩٣] .

محالٌ أن يقف المؤمن مع آيات القرآن ليتدبرها ثم لا يخرج إلا بهذا النداء العذب الحلو ، ويتضرع بعدها إلى الله بهذا الدعاء الذي هو ترجمةٌ فعليةٌ حقيقيةٌ لثمرة الإيمان في القلب : ﴿ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ۝ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران:١٩٣] ، وقال تعالى : ﴿ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [ص:٢٩] .

فلابد أن يقف المؤمن مع آيات القرآن متدبرًا ليقف على المعاني ليستخرج الدُّرر والجواهر ، وليقف مع آيات الترغيب وآيات الترهيب ، ليقف مع وعد الله للمؤمنين ، وليقف مع وعيد الله للمجرمين والمكذبين ، والمعاندين ، ليقف مع ما أعده الله للمؤمنين من نعيم ، ومع ما أعده الله للكافرين من جحيم ، ليقف مع ما نصر الله ﷻ به أولياءه ، وما أعده الله ﷻ للظالمين المحاربين للأنبياء والدعاة الصادقين ، كل هذا مما يقوى به الإيمان في القلب .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله : « إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه ، وألق سمعك ، واحضر حضور من يخاطبه به من

تكلم به سبحانه إليه ، فإنه خطاب من الله لك على لسان رسوله ﷺ »[١].

فبالله عليك إذا قرأت القرآن بهذه الطريقة ، أو سمعت فاستحضرت القلب والسمع وأصغيت وانتبهت لكل كلمة ، بل لكل حرف على أن القرآن خطاب من الله لك على لسان نبيه ﷺ كيف يكون حالك ؟ .

استحضر هذه الكلمات ، فو الله ما أروعها ! .

فكلامُ الله يحتاج إلى تدبُّر وتفكر ، وأن تُحضر قلبك ، وأن تُصغي سمعك ، وأن تسأل الله أن يعلمك ما فيه ؛ فإن الله قد يفتح على عبدٍ من عبيده بفتوحات كريمة فضلًا منه ونعمة ؛ فلو تدبرنا القرآن لأذعنت القلوب لعلام الغيوب ، أما تعلم أن المشركين كان يوصي بعضهم بعضًا ألا يستمعوا لهذا القرآن خوفًا على قلوبهم من التحول من الكفر إلى الإيمان !!! قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[فصلت:٢٦] .

هل علمت أن المشركين طلبوا من أبي بكر[٢] ألا يصلِّي خارج بيته وألا يقرأ القرآن ؛ لأن النساء والصبيان كانوا إذا سمعوا التلاوة من أبي بكر رضي الله عنه ورأو بكاءه تتحول قلوبُهم !!! بل لقد ثبت في « صحيح البخاري » من حديث ابن عباس رضي الله عنهما : « أن المشركين لما سمعوا القرآن من الحبيب

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (٣) .

(٢) انظر: البخاريّ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبيِّ ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٩٠٥) وفيه : قالوا لابن الدغنة : « مُرْ أبا بكر فليعبد ربه في داره ، فليصَلِّ فيها وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به ، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا ... » الحديث.

المصطفى ﷺ وقرأ النبيُّ ﷺ سورةَ النجم ، وفي آخر السورة قرأ قوله تعالى : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾[النجم :٥٩ـ ٦٢] .

فخرَّ المشركون سُجَّدًا لله خلف رسول الله [(١)] .

إنه القرآن ! لو تدبَّر عاقل كتاب الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ والله لسَجَدَ في محراب الإذعان والانقياد لله تبارك وتعالى وقد امتلأ قلبه بالرضا عن الله والحب لله تبارك وتعالى .

قال ابن قتيبة ﷺ في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾[ق:٣٧] : « استمع كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم ، ليس بغافل ولا ساه ، وهو إشارة إلى المانع من حصول التأثير ، وهو سهو القلب وغيبته عن تعقل ما يقال له ، والنظر فيه وتأمله ، فإذا حصل المؤثر وهو القرآن والمحل القابل وهو القلب الحي ، ووجد الشرط وهو الإصغاء ، وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر ، حصل الأثر وهو الانتفاع والتذكر والتدبر » [(٢)].

أسأل الله أن يجعلني وإياكم ممن يستشعرون حلاوة القرآن .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب سجود القرآن ، باب سجود المسلمين مع المشركين ، والمشرك نجس ليس له وضوء (١٠٧١) ، وفي كتاب التفسير ، باب ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ برقم (٤٨٦٢) بمعناه .

(٢) راجع « الفوائد » لابن القيم (١٠) .

ثالثًا : معرفةُ النبيُّ ﷺ :

وكان وجود النبي ﷺ بين أصحابه من أعظم الآيات والأسباب التي تقوى الإيمان في القلب ، كان يكفي أن ينظر أحدهم إلى وجه النبيِّ ﷺ ليزداد إيمانًا بالربِّ العلي ؛ إلا من طُمس على بصيرته وبصره ، فالمشرك العاقل المنصف إذا نظرَ إلى وجهِ النبيِّ ﷺ يؤمنُ بالله ويصدق .

قال عبدُ الله بن سلام «حبرُ اليهود» : « فَلَمَّا نَظَرْتُ إِلى وَجْهَهُ عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ»[1] سبحان الله ! لم يُكَلِّم النبيَّ ﷺ ؛ بل جاء فنظر في وجهه واستدلَّ على صدقه بذلك .

ثم سأل عبد الله بن سلام النبيَّ ﷺ بعض الأسئلة لا يعرفها إلا نبيٌّ ، فأجابه عنها فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله[2].

يقول حسان بن ثابت :

لو لم تكن فيه آيات مُبينة ... كانت بديهته تأتيك بالخبر

وهو الذي قال للنبيِّ ﷺ :

قيامي للعزيز على فرض ... وترك الفرض ما هو مستقيمُ

عجبت لمن له عقل وفهم ... ويرى هذا الجهال ولا يقومُ

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب صفة القيامة (٢٤٨٥) ،وابن ماجه ، كتاب الأطعمة ، باب إطعام الطعام (٣٢٥١) ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح الترمذي » (٢/ ٣٠٣) .

(٢) انظر : القصة في البخاريِّ ، كتاب مناقب الأنصار ، باب هجرة النبيِّ ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٣٩١١) ، من حديث أنس رضي الله عنه ، وانظر : الترمذيَّ (٢٤٨٥) وقال : « حديث صحيح » ، وابن ماجه (١٣٣٤ ، ٣٢٥١)، والدارمي (١٤٦٠) من حديث عبد الله بن سلام .

فلقد نهاهم النبيﷺ[1] بأبي هو وأمي عن ذلك ، فقد كان لا يحب أن يقف الناس بين يديه ، فهو المتواضع الذي علَّم الدنيا حقيقة التواضع ، ودخل عليه أعرابيٌّ فنظر إليه النبيُّﷺ فارتعد الأعرابيُّ فالتفت إليه النبيُّﷺ وقال : « هَوِّنْ عَلَيْكَ ؛ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلَكٍ ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ القَدِيدَ فِي مَكَّةَ ».

رواه ابن سعد في « الطبقات » والحاكم وغيرهما ، وصحَّحه الشيخ الألباني[2] .

ومن عظيم وجميل تواضعهﷺ : أنه كان يُردف خلفَه على دابةٍ واحدة أحدَ الصحابة ، كابن عباس ، وأسامة بن زيد ، والفضل ، ومعاذ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ جميعًا ـ[3] ؛ فمعرفة النبيِّﷺ خَلْقًا وخُلُقًا ؛ ومعرفة سيرته ودلائل نبوته ومعجزاته الباهرات ؛ من الأسباب التي تقوي الإيمان في القلب ، فلا شك أن المنصف لو وقف أمام معجزة من معجزات النبيِّﷺ لامتلأ قلبه إيمانًا ، فلك أن تتصور أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في يوم من الأيام وهم يجلسون في المسجد والنبيُّ

---

(١) انظر : البخاريَّ في « الأدب المفرد » (٩٤٦) ، وأحمد (٣/ ١٣٢ ، ١٣٤ ، ١٥١ ، ٢٥٠) ، والترمذي (٧٥٤) ، و« الشمائل » (٣٣٦) ، وابن أبي شيبة (٨/ ٣٩٨) وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح سنن الترمذي والشمائل » .

(٢) أخرجه ابن سعد في « الطبقات » (١/ ٢١) عن قيس بن أبي حازم به مرسلًا ، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة ، باب القديد (٣٣١٢) ، والحاكم في « مستدركه » (٣/ ٤٧ ، ٤٨) موصولًا عن ابن مسعود ، وقد صحَّحه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (١٨٧٦) .

(٣) انظرْ : « سبل الهدى والرشاد » للإمام الصالحي (٧/ ٣٧٦) فقد عد جماعة ممن ركب خلف النبيِّﷺ منهم أبو بكر ، وأبو ذر ، وابن عباسٍ، وأسامة بن زيد ، وأبو المليح بن أسامة ، ومعاذ بن جبل ، والفضل بن العباس ، وعبد الله بن جعفر وقُثَمْ وغيرهم الكثير .

ﷺ يخطب على جذع نخلة ، فلما ترك النبيُّ ﷺ الجذعَ وصعد المنبر لك أن تتصور كيف يكون حال أصحاب النبي ﷺ وهم يسمعون الجذع يبكي لفراق المصطفى ﷺ سمعوا له أنينًا وخوارًا كخوار الثور . والحديث في « الصحيح »[1].

فالمؤمن يزداد إيمانًا ، والعاقل يشهد أن لا إله إلا الله ، وكيف يكون حال أولئك الذين طلبوا من النبي ﷺ آيةً وحددوا له الآية !! قال: ماذا تريدون؟ قالوا : نريد أن تشق لنا القمر نصفين فسأل النبيُّ ﷺ ربَّه أن يشق القمر في السماء نصفين ، فاستجاب الله لحبيبه وانشق القمر نصفين [2].

وكيف يكون حال من رأى هذه الآية ؟! المؤمن يزداد إيمانًا ، والمنصف يشهد أن لا إله إلا الله ، وأن هذا النبي ﷺ هو رسولٌ من عند الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ، كيف يكون حال رجال يرون النبيَّ ﷺ يضع يده في إناء فيه قليل من الماء ويدعو النبيُّ ﷺ ربَّه فيرى هؤلاء الماءَ يتفجرُ من بين أصابعِ النبي ﷺ؛ فيشربون ويتوضؤون ويملؤون أوعيتهم بالماء ، فقالوا : كَمْ كنتم يومها يا أنس ، قال : «ثلاثمائة أو يزيد» . والحديث في « الصحيحين »[3].

---

(١) انظر: البخاريَّ (٩١٨، ٢٠٩٥، ٣٥٨٤، ٣٥٨٥) ، وانظر : « سبيل الهدى والرشاد » (٩/ ٤٩٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المناقب ، باب سؤال المشركين أن يريهم النبيَّ ﷺ آية ما فأراهم انشقاق القمر برقم (٣٦٣٧) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب صفات المنافقين ، باب انشقاق القمر (٢٨٠٢) ، وانظر: البخاريَّ (٤٧٦٧، ٤٨٢٠، ٣٨٦٨، ٤٨٦٦، ٣٨٧٠، ٤٨٦٤، ٤٨٦٥، ٣٨٦٩) ، و« مسلم » (٢٨٠٠ـ٢٨٠٣) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام برقم (٣٥٧٢) ، و« مسلم » ، كتاب الفضائل ، باب في معجزات النبيِّ ﷺ برقم (٢٢٧٩) .

فالمؤمن الصادق حينما يقف على هذه الآيات - حتى وإن لم يرها بعينه - يزداد إيمانًا بالله وبرسوله ﷺ ؛ بل المؤمن الصادق يثق فيما رآه النبيُّ ﷺ بعينه أكثر من ثقته فيما رآه هو بعَيْنَي نفسِهِ ؛ لأن بصرك قد يزيغ ، أما بصر النبيِّ ﷺ فلا يزيغ ولا يطغى .

قال تعالى : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم:١٧] .

قف عند هذه يمتلأ قلبُك حبًّا له وإيمانًا به ، فالمؤمن الصادق ما عليه إلا أن يقف مع الدليل الصحيح ، فإن ثبت بالدليل الصحيح أن الماء قد تفجر من بين أصابعه ﷺ ، وأن القمر قد انشقَّ له نصفين ﷺ ، وأن الجذع قد حنَّ لفراقه ﷺ ، وأن الطعام قد سبَّح الله بين يديه ﷺ [(١)] .

وأن الحجر قد سلَّم عليه [(٢)] ، وغير ذلك من الآيات والمعجزات .

فالمؤمن الصادق ، حتمًا يزداد الإيمان في قلبه بالله ، وبالحبيب رسول الله ﷺ .

فتعرَّف على النبيِّ ﷺ ؛ بالوقوف على صفاته الخَلْقِية والخُلقية ، وعلى سيرته العطرة الزكية ، وحياته الطيبة المرضية ، وسنته النبوية تزدد إيمانًا بالله ورسوله وحبًا لله ورسوله ﷺ .

مَنْ يدَّعي حب النبيِّ ولم يَفِدْ   من هديه فسفاهةٌ وهُراء

فالحبُّ أول شَرْطه وفروضه   إن كان صِدْقًا طاعةٌ ووفاء

---

(١) انظر : البخاريّ (٣٥٧٩) ، والترمذي (٣٦٣٣) .

(٢) « صحيح مسلم » (٢٢٧٧) .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران:٣١] ، أي : فاتبعوا النبيَّ ﷺ .

قال العلامة السعدي ـ رحمه الله تعالى: « ومن طرق موجبات الإيمان وأسبابه : معرفةُ النبيِّ ﷺ ، ومعرفة ما هو عليه من الأخلاق العالية والأوصاف الكاملة ؛ فإنَّ مَنْ عَرَفه حق المعرفة لم يَرْتَبْ في صدقه وصدق ما جاء به من الكتاب والسنة والدين الحق ؛ كما قال تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [المؤمنون:٦٩] . أي: فمعرفته توجب للعبد المبادرة إلى الإيمان ممن لم يؤمن ، وزيادة الإيمان ممن آمن به ، قال تعالى وهو يحثُّ على تدبر أحوال الرسول ﷺ الداعية للإيمان : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ:٤٦] »[١].

فالتعرف على أخلاق النبيِّ ﷺ من أعظم الأسباب التي تقوّي الإيمان في القلب ؛ ولذلك فمن أعظم الأسباب التي قوَّت الإيمان في قلوب الصحابة أنهم رأوا النبيَّ ﷺ بأعينهم وسمعوه بآذانهم ؛ حيث وقفوا على أخلاق المصطفى ،حيث ترجم النبيُّ ﷺ القرآن إلى واقع عمليٍّ وإلى منهج حياة ؛ فلو سألْتَ عائشة عن أخلاق المصطفى ﷺ لقالت لك : « كَانَ خُلُقُهُ القُرْآنَ »[٢].

---

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن السعدي (٣/ ١١١) .

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض برقم (٧٤٦) .

علم الله - جَلَّ وَعَلاَ - أن المنهج النظريَّ لا يمكن على الإطلاق أن يتحول إلى منهجٍ عمليٍّ في دنيا الناس إلا من خلال قدوة ، فشاء الله أن يكون النبيُّ ﷺ من جنس البشر ليسمع الناسُ بآذانهم قوله ، وليرى الناس بأعينهم صدقَه ، فيعلموا أن هذا المنهج النظري ما أنزله الله ﷻ إلا ليحوِّله الناس في حياتهم إلى منهجٍ عمليٍّ ،وإلى واقع يتألق سموًّا وروعة وجلالًا .

لذا ؛ جعل الله نبيَّه المصطفى ﷺ القدوة المتجددة على مر الأجيال والقرون ، فما كانت سيرة النبيِّ ﷺ ماضيًا أبدًا ؛ بل لقد جعل الله سيرته دماءً تتدفق في عروق المستقبل والأجيال ، وشموعًا توقد للناس طريق ربهم وطريق نبيهم ﷺ ، قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١] .

رابعًا : **التفكر في مخلوقات الله ﷻ :**

لاشك أن التفكر في مخلوقات الله من أعظم العبادات ، ولك أن تتصور أن النبيَّ ﷺ لما نزل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران:١٩٠، ١٩١] .

قال : « وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا »[1] ، تفكر في خلق السماء ..

---

(١) أخرجه ابن حبان كما في « الإحسان » (٦٢٠) ، وأبو الشيخ في «أخلاق النبيِّ ﷺ » (ص١٨٦)، وابن مردويه وعبد بن حميد وابن أبي حاتم وابن أبي الدنيا في «التفكر» كما في «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٤١) ، وصحَّحه ابن حبان ، وأخرجه الأصبهاني في « الترغيب والترهيب » (٦٦٦) ، وانظر : « الدر المنثور » للسيوطي (٢/ ١٩٥) ، وزاد في عزوه ابن المنذر وابن عساكر ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (٦٨) .

انظر إلى السماء وارتفاعها ، انظر إلى الأرض واتساعها ، انظر إلى الجبال وأثقالها ، انظر إلى الأفلاك ودورانها ، انظر إلى البحار وأمواجها ، انظر إلى كل ما هو متحرك ، وإلى كل ما هو ساكن ، سترى الكلَّ يقر بتوحيد الله ، ولا يغفل عن ذكر مولاه إلا مَنْ كفر من الإنس والجن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فالتفكر في مخلوقات الله ﷻ مما يقوىَ به الإيمان في القلب .

يقول الغزاليُّ ـ رحمه الله تعالى: « والعجب كلُّ العجب ممن يرى خطًّا حسنًا ، أو نقشًا حسنًا على حائط فيستحسنه ، فيصرف جميع همه إلى التفكر في النقَّاش والخطاط ، وأنه كيف نقشه وخطَّه ، وكيف اقتدر عليه ، ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول : ما أحذقه وما أكمل صنعته ، وأحسن قدرته ، ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ، ثم يغفل عن صانعه ومصوره فلا تدهشه عظمته ، ولا يحيره جلاله وحكمته »[1].

قال تعالى : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾[الذاريات :٢١] .

فنظرك فيك يكفيك على أن الخالق هو الله ، وعلى أن الذي يستحق الثناء والحمد والعبادة هو الله ﷻ.

خامسًا : **كثرة النوافل بعد الفرائض :**

كما قال الله في الحديث القدسي : « وَلاَ يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ »[2].

---

(١) « إحياء علوم الدين » (٢٨٢٠) ، ط الشعب .

(٢) سبق تخريجه .

فإذا ما أديت الفرائض أكثر من النوافل ، ثم تهجَّد لله ﷻ في الليل ، وأكْثر من الصيام ، ومن الصدقة ، ومن أعمال البر والخير ؛ فإن ذلك مما يقوِّي الله به الإيمان في قلبك .. الحرص على النوافل بعد أداء الفرائض .

سادسًا : تعريضُ القلب والنفس إلى بيئة الطاعة وأن تحجب القلب والنفس عن بيئة المعصية :

فالإيمان يزيد وينقص ، يزيد بالطاعات ، وينقص بالمعاصي والزلات ، فمن المحال أن تُعَرِّضَ قلبَك لبيئة معصية ، وتنتظر أن يقوى الإيمان في قلبك في هذه البيئة . هيهات هيهات !!

ألقاه في اليم مكتوفًا وقال له إيَّاك إيَّاك أن تبتلَّ بالماء

فَعَرِّضْ قلبَك لبيئةِ الطاعة ؛ كمجالس العلم ، وقراءة القرآن ، والاستغفار ، والصلاة ، والنوافل ، والصدقة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى الله ؛ كلٌّ هذا من عوامل الخير التي يقوى بها الإيمانُ في قلبك ، وابتعدْ عن بيئة المعصية ؛ فإن بيئةَ المعصية من الأسباب التي تُضْعِفُ الإيمانَ في القلب ، يأبى الله ﷻ إلا أن يذل من عصاه ، ويأبى الله إلا أن يعز من أطاعه واتقاه ، فمحال أن تعصي الله في أول الليل ليقيمك الله بين يديه في آخره ، إلا إذا تبت إليه وأنبت ، وأقلعت عن المعصية .

قال حذيفة بن اليمان ﷺ : « القلوبُ أربعة ، قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن ، وقلب أغلف فذلك قلب الكافر ، وقلب

منكوس عرف ثم أنكر وأبصر ثم عمي فذلك قلب المنافق ، وقلب تمده مادتان ، مادةُ إيمان ومادة نفاقٍ وهو لما غلب عليه منهما ».

ففتش جيدًا عن المواد التي تعرضها كل ساعة على قلبك فمواد الإيمان تزيد الإيمان في قلبك ، ومواد المعصية تضعف الإيمان .

أسأل الله ﷻ أن يزيد الإيمان في قلوبنا ، إنه وليٌّ ذلك ومولاه .

سابعًا : **ذِكْرُ الله تبارَكَ وتعالى :**

قال ﷺ: « **مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ والَّذِي لاَ يَذْكُرُ رَبَّهُ ؛ كَمَثَلِ الحَيِّ وَالْمَيتِ** » [(١)].

فأكثر من ذكر الله تعالى ليحيى قلبك دائمًا .

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى: « الذكر هو المنزلة الكبرى التي منها يتزود العارفون ، وفيها يتجرون ، وإليها دائمًا يترددون ، وهو منشور الولاية الذي من أعطيه اتصل ، ومن منعه عزل ، وهو قوت قلوب العارفين التي متى فارقتها صارت الأجساد لها قبورًا ، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بورًا ، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق ، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق ، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب ، والسبب الواصل والعلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب ، به يستدفعون الآفات ،

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الدعوات ، باب فضل ذكر الله ﷻ (٦٤٠٧) ، ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب استحباب صلاة النافلة في بيته (٧٧٩) ، عن أبي موسى الأشعري

ويستكشفون الكربات ، وتهون عليهم به المصيبات ، إذا أظلهم البلاء فإليه ملجؤهم ، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم ، فهو رياض جنتهم التي فيها يتقلبون ، ورؤوس أموال سعادتهم التي بها يتجرون ، يدع القلب الحزين ضاحكًا مسرورًا ، ويوصل الذاكر إلى المذكور بل يدع الذاكر مذكورًا ، وفي كل جارحة من الجوارح عبوديته مؤقتة ، والذكر عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة ، بل هم يؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ، فكما أن الجنة قيعان وهو غراسها ، فكذلك القلوب بور خراب وهو عماراتها وأساسها ، وهو جِلاء القلوب وصقالتها ،ودواؤها إذا غشيها اعتلالها ، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استغراقًا ازداد محبة إلى لقائه للمذكور واشتياقًا ، وإذا واطأ في ذكره قلبه للسانه نسي في جنب ذكره كل شيء وحفظ الله عليه كل شيء ، وكان له عوضًا من كل شيء ، به يزول الوقر عن الأسماع ، والبكم عن الألسنة ، وتنقشع الظلمة عن الأبصار . زيَّن الله به ألسنة الذاكرين ؛ كما زيَّن بالنور أبصار الناظرين فاللسان الغافل ، كالعين العمياء ، والأذن الصماء ، واليد الشلاء .

وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده ما لم يغلقه العبد بغفلته .

قال الحسن البصري :«تفقَّدوا الحلاوة في ثلاثة أشياء : في الصلاة ، وفي الذكر ، وفي قراءة القرآن ؛ فإن وجدتم وإلا فاعلموا أن الباب مغلق »[1] .

---

(١)« مدارج السالكين » (٢/ ٤٢٣، ٤٢٤) ، وانظر : فوائد الذكر لابن القيم في كتابه الطيب : « الوابل الصيب » .

ثامنًا : أن تشارك في الدعوة إلى الله ﷻ :

فلقد دعا النبيُّ ﷺ لحامل الدعوة ؛ فكن أنت . وكفاك شرفًا أن يكون النبيُّ ﷺ قد دعا لك ، وقد خصَّك بالدُّعاء ؛ فقال ﷺ :

« نَضَّرَ اللهُ امْرَءًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَوَعَاهَا فَبَلَّغَهَا كَمَا سَمِعَهَا ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ »[1] .

فشارك في الدعوة بأقلِّ جهدٍ تنالُ هذا الفضل ، وحتَّى تكون ممن خصَّهم النبيُّ ﷺ بهذا الدعاء الكريم ، وحتَّى تكون من حواريِّ وأنصار رسول الله ﷺ .

وقال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشورى:٥٢] ، وقال سبحانه : ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٢] ، وقال جَلَّ في عُلاه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا

---

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب العلم ، باب فضل نشر العلم (٣٦٦٠) ، والترمذي ، كتاب العلم ، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع (٢٦٥٧) ، وقال : « حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه في المقدمة ، باب من بلغ علمًا (٢٣٠) ، والدارمي في المقدمة ، باب الاقتداء بالعلماء (٢٢٨ـ ٢٣٠) ، وأحمد في « المسند » (١/ ٤٣٧) ، (٣/ ٨٠ ، ٨٢) ، (٥/ ١٨٣) ، وأبو يعلى في « المسند » (٥١٢٦ ، ٧٤١٣) ، والطحاوي في « مشكل الآثار » (٢/ ٢٣٢) ، والحاكم في « المستدرك » (١/ ٨٦ ، ٨٧) ، وصحَّحه ووافقه الذهبي ، والقضاعي في « مسنده » (١٤٢١) والحديث عدَّه العلماء من الأحاديث المتواترة .

تُحْيِيكُمْ ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال:٢٤] .

فالجزاء من جنس العمل فمن كان يسعى لإحياء قلوب الناس بالإسلام والإيمان ، فإن الله ﷻ يكافئه بحياة قلبه ، ونماء شجرة الإيمان فيه ، وأسأل الله أن يجعلنا دعاة إلى الخير ، وأن يزيد الإيمان في قلوبنا .

تاسعًا : الدعاء :

فالدعاء من أعظم العبادات والقربات ؛ بل هو العبادة ؛ كما أخبر النبيُّ ﷺ [(١)] ، فتحول القلب إلي الطاعات بيد الله ـ جَلَّ وَعَلاَ.

روى مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ » ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ » [(٢)] .

ولذلك كان من أكثر دعا النبيِّ ﷺ : « يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ » [(٣)] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ في الأدب المفرد (٧١٤) ، وأبو داود ، كتاب الصلاة ، باب الدعاء (١٤٧٩) ، والترمذي ،كتاب التفسير سورة البقرة (٢٩٦٩) وقال : « حسن صحيح » ، وابن ماجه ، كتاب الدعاء ، باب فضل الدعاء (٣٨٢٨) ، وأحمد (٤/ ٢٦٧) وغيرهم ، وصحَّحه الألبانيُّ في « صحيح سنن أبي داود » و « صحيح الجامع » (٣٤٠٧) و « المشكاة » (٢٢٣٠) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالى والقلوب كيف شاء (٢٦٥٤) .

(٣) انظر : الترمذيَّ (٢١٤٠ ، ٣٥٢٢ ، ٣٥٨٧) ، وابن ماجه (٣٨٣٤) وغيرهما ، و« صحيح الجامع » (٧٩٨٧ ، ٧٩٨٨) ، و« مشكاة المصابيح » (١٠٢) .

وهو الذي علّمنا ذلك وأمرنا بالدعاء، فقال كما روى الطبرانيُّ والحاكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ الإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبَ، فَاسْأَلُوا اللهَ تَعَالَى أَنْ يُجَدِّدَ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ»(١).

فاللهم جدِّد الإيمان في قلوبنا، وثبِّتنا على الإيمان حتى نلقاك.

كيف تعرف أنك مؤمن؟

والجواب: اعرض نفسك على آيات الإيمان في القرآن، وعلى صفات المؤمنين وفكِّر هل أنت ممن توفرت فيهم هذه الصفات؟ قف مثلًا مع أول سورة المؤمنون: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون:١-٩].

فاعرض نفسك هل تخشع في الصلاة؟

إن كنت ممن يخشع قلبه في الصلاة فأنت من المؤمنين.

والصفة الثانية: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾: هل هذه الصفة

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٤) وقال: «رواته مصريون ثقات»، ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٥٢): «ورواه الطبراني في «الكبير» وإسناده حسن»، وصحَّحه الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٥٨٥)، و«صحيح الجامع» (١٥٩٠).

موجودة عندك؟ هل أعرضت عن اللغو ؟

هل إذا جلست بين إخوة يلغون انصرفت أو ذكَّرتهم بالله ﷻ أم تسعد وتشعر بلذة إذا كنت في مجلس لغو أو في مجلس غيبة أو نميمة ؟!!

اعرض الآيات على قلبك ، وأجب نفسك بنفسك ، لتتعرف هل أنت من المؤمنين الصادقين أم ممن ادَّعوا الإيمان ؟! .

والصفة الثالثة : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَـٰعِلُونَ ﴾ .

والرابعة : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ ﴾ . هل حفظت الفرج من أي شيء حرمه الله ﷻ ورسوله ﷺ ؟ فالمؤمن هو الذي يحفظ فرجه إلا على زوجته .

والخامسة : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ . هل حفظت الأمانة وراعيت العهد ؟

والسادسة : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ . هل أنت ممن يحافظ على الصلاة في بيوت الله ﷻ ؟

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال:٢] .هل لو قُرِئ عليك القرآن وَجِلَ قلبُكَ وازددت إيمانًا ، وازددت توكلًا ، ويقينًا في الله ، وثقة ورجاء في الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ؟ هل أنت ممن قال الله فيهم : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ

سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ﴾[التوبة:٧١] .

هل فيك من صفات المؤمنين التي أخبر الله عنها في قوله : ﴿ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[التوبة:١١٢] .

هل أنت من أهل قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١١٧]

هل تحبُّ شرع الله وحكمه وتسلم لشرعه ؟ كما قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[النساء:٦٥] .

هل تحبُّ لأخيك ما تحبُّ لنفسك ؟ هل تحبُّ الرسول ﷺ أكثر من والدك وولدك والناس أجمعين ؟ هل من صفاتك الحياء ؟ هل تكرم الضيف ؟ وتلزم الصمت إلا عن الخير ؟ هل يسلم المسلمون من لسانك ويدك ؟ هل رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا ؟ هل أنت غِرٌّ كَرِيمٌ ؟ هل تسرُّك حسنتك وتسوءك سيئتك ؟ هل تحافظُ

على الوضوء ؟ .. هل .. هل ؟ !! أسئلة كثيرة .

فاعرض نفسك على صفات أهل الإيمان في القرآن والسنة تقف على الجواب ، هل أنت من المؤمنين الصادقين أم أنت ممن يدَّعى الإيمانَ بالله رب العالمين ، وسيد النبيين ﷺ ؟

فكلَّما ازداد العبدُ إيمانًا بالله وعمِلَتْ جوارحهُ بطاعة الله أينعت شجرةُ الإيمان في قلبه وازداد حبه لله ﷻ ولرسوله ، وهنا يتذوق العبد طعم الإيمان ويجد حلاوته في قلبه وينبعث نورُ الإيمان في القلب بعدما تُمحى سحائب الظُّلَم والذنوب والمعاصي فيرى نفسه دومًا على طاعة الله تعالى .

روى مسلمٌ عن العباس بن عبد المطلب أنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ : « ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِالله رَبًّا ، وبِالإسْلاَمِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا »[1] .

وفي « الصَّحيحَيْنِ » عن أنسٍ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ : « ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْه ممَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لله ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ »[2] .

وفي رواية لمسلم : « ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ طَعْمَ الإِيمَانِ » .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من رضي بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا فهو مؤمن وإن ارتكب المعاصي والكبائر (٣٤) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان (١٦) ، وانظر أطرافه هناك ، و« مسلم » كتاب الإيمان ، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان (٤٣) .

وروى الطبرانيُّ في «الأوسط» وأبو نعيم في «الحلية» والديلميُّ عن عَليٍّ رضي الله عنه أنه ﷺ قَالَ : « مَا مِنَ القُلُوبِ قَلْبٌ إِلاَّ وَلَهُ سَحَابَةٌ كَسَحَابَةِ القَمَرِ ، بَيْنَمَا القَمَرُ يُضِيءُ إِذْ عَلَتْهُ سَحَابَةٌ فَأَظْلَمَ ، إِذَا تَجَلَّتْ عَنْهُ أَضَاءَ » [1].

أسأل الله عز وجل أن يملأ قلوبنا نورًا وإيمانًا به وبرسوله ﷺ.

إنه وليٌّ ذلك والقادر عليه .

(١) أخرجه الطبرانيُّ في « الأوسط » (٥٢٢٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٢/ ١٩٦) ، والديلميُّ (٤/ ٩٠٨) ، وصححه الشيخ الألبانيُّ في « الصحيحة » (٢٢٦٨) ، و « صحيح الجامع » (٥٦٨٢) .

رابعًا : ما الفرق بين الإيمان والإسلام ؟

الإسلام لغة :هو الاستسلام والإذعان والانقياد .

ومعناه الاصطلاحيُّ إن ذُكر ؛ فله حالتان :

الحالة الأولى :إذا ذُكِرَ لفظ الإسلام مُفْرَدًا غير مقترن بلفظ الإيمان ، فهو حينئذ يُرادُ به الدِّين كله (أصوله وفروعه من الاعتقادات والأقوال والأعمال) ، وهنا يدخل في مضمونه الإيمان ، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[آل عمران:١٩] ، قال تعالى : ﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[آل عمران:٨٥] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾[البقرة:٢٠٨] .

وتفسير جمهور أهل العلم للآية أن المراد بالسلم ؛ هو الإسلام [(١)] .

وفي الحديث الذي رواه أحمد في « مسنده » والطبراني في «معجمه الكبير» ـ وقال الهيثميُّ في « المجمع » : « رجاله ثقات » ـ من حديث عمرو بن عبسة ـ بالفتح أو بالتسكين ، والوجهان صحيحان ـ ﷺ قالَ : جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يا رَسُولَ الله ، مَا الإِسْلَامُ ؟ قال النبيُّ ﷺ: « أَنْ يُسْلِمَ قَلْبُكَ لله ، وَأَنْ يَسْلَمَ المسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِكَ وَيَدِكَ » [(٢)] .

---

(١) « تفسير ابن كثير » (٢/ ٢٧٣) لسورة البقرة :(٢٠٨) ورجَّحه ابن كثير .

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١١٤) ، وعبد بن حميد (٣٠١) ، وقال الهيثميُّ في « المجمع » (١/ ٥٩) : « رجاله ثقات » ، وصحَّحه الشيخ شعيب في تحقيقه لمسند أحمد .

ما أحوجنا إلى هذا الهدْيِ النبويِّ ، حقيقة الإسلام أن يَسْلَمَ المسلمون من لسانكِ ويدِكَ ، فكم من أناسٍ يتورَّعون عن أكل الحلال وهم يُنَجِّسُونَ أفواههم بالليل والنهار بما حَرَّمَ عليهم العزيز الغفار !! كم من مجالس يُؤكَلُ فيها لحوم العلماء والدُّعاة ، وهم أشرف الخلق على الأرض بعد الأنبياء والمرسلين ، ومع ذلك قد تكون فاكهةُ المجلس أَكْلَ لحومِهمُ ، نسأل الله العافية !!

قَالَ الرَّجُل : فَأَيُّ الإِسْلاَمِ أَفْضَلُ؟ قَالَ : «الإِيمَان» ، قَالَ : وَمَا الإِيمَانُ ؟ قَالَ : « أَنْ تُؤْمِنَ بِالله وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسِلِهِ وَالبَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ » .

الشاهد هنا أن النبيَّ ﷺ أدخل أركان الإيمان في مُسَمَّى الإسلام .

الحالة الثانية : إذا ذُكر لفظ الإسلام مُقْتَرِنًا بلفظ الإيمان ، يُرَادُ بالإسلام في هذه الحالة أعمال الظاهر ، ويراد بالإيمان في هذه الحالة أعمال الباطن، قال الله تعالى : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات:١٤] .

ففرَّق الله بين الإسلام والإيمان حين قَرَنَهُمَا مع بعضهما البعض .

وفي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلم(١) من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَعْطَى رَهْطًا ـ وَسَعْدٌ جَالِسٌ ـ فَتَرَكَ رَسُولُ الله رَجُلًا هُوَ أَعْجَبُهُمْ إِلَيَّ . فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ الله ، مَالَكَ عَنْ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف من القتل (٢٧) ، (١٤٧٨) ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب تألف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه والنهي عن القطع بالإيمان عن غير دليل قاطع (١٥٠) .

فُلانٍ ؟ فَوَ اللهِ إِنِّي لأَرَاهُ مُؤْمِنًا ، فَقَالَ : «أَوْ مُسْلِمًا؟» ، فَسَكَتُّ قَلِيلًا ، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَم مِنْهُ ، فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، مَا لَكَ عَنْ فُلانٍ ؟ فَوَ اللهِ إِنِّي لأَرَاهُ مُؤْمِنًا ، فقال : «أَوْ مُسْلِمًا؟» ، ثُمَّ غَلَبَنِي مَا أَعْلَمُ مِنْهُ ، فَعُدْتُ لِمَقَالَتِي ، وَعَادَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، ثُمَّ قَالَ : «يَا سَعْدُ ، إِنِّي لأَعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ» .

فالنبيُّ ﷺ يبين لسعدٍ أنه قد يعطى لرجلٍ من أصحابه ويترك من هو أحب إلى النبيِّ ﷺ من هذا الذي أخذ ؛ لأن هذا الأول إن لم يأخذ لشك في عدل النبيِّ ﷺ فأكبه الله على وجهه في النار . ألم يأت هذا الأعرابيُّ ، ليقول للنبيِّ ﷺ : اتق الله يا محمد واعدل (في الذُّهَيْبَةَ التي أرسل بها علي بن أبي طالب) . قال النبيُّ ﷺ : «وَيْحَكَ أَوَ لَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللهَ» .

وقام خالد بن الوليد واستأذن النبي ﷺ أن يضرب عنق هذا الرجل المنافق. فقال : «لا . لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي» ، فقال خالد : فَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مِا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ ، قال ﷺ : «إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ ، وَلاَ أَشُقَّ بُطُونَهُمْ» (١) .

والشاهدُ من حديث سعد ﷺ : أن النبيَّ ﷺ فرّق بين مرتبة الإيمانِ والإسلامِ .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [الأعراف:٦٥] (٣٣٤٤) ، وانظر أطرافه ، وبرقم (٤٣٥١) ، ومسلم ،كتاب الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (١٠٦٤) .

وفي الحديث الذي رواه الترمذيُّ وغيره عن عقبة بن عامر قال : قَالَ رَسُولُ ﷺ : « أَسْلَمَ النَّاسُ وَآمَنَ عَمْرُو بنُ العَاصِ »[١] .

وكذلك في الحديث الذي سبق : « يا مَعْشَرَ مَنْ أَسْلَمَ بِلَسَانِهِ وَلَمْ يُفْضِ الإِيمَانُ إِلَى قَلْبِهِ ... »[٢] .

مثال آخر للتوضيح : حديث جبريل الذي نحن بصدد شرحه ، ألم يسأل جبريلُ النبيَّ ﷺ عن الإسلام والإيمان ، ففرَّق بينهما النبيُّ ﷺ عندما ذُكرا معًا .

*****

(١) أخرجه الترمذيُّ ،كتاب المناقب ، باب مناقب عمرو بن العاص (٣٨٤٤) ، وقال : « حديث غريب » ، وأحمد (٤/ ١٥٥) ، والفريابي (٢١٢، ٢١٩) وابن نصر في « تعظيم قدر الصلاة » (٥٦٦) ، وانظر : « صحيح سنن الترمذي » .

(٢) سبق تخريجه .

مرتبة الإيمان

الحالة الأولى : إذا ذُكِرَتْ لفظة الإيمان غير مقترنة بلفظة الإسلام ؛ فإن الإيمان في هذه الحالة يشمل الدِّين كلَّه ، إذًا يدخل ضمن لفظة الإيمان :الإسلامُ .

ودونكم بعض الأدلة : قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال:٢ـ٤] ، وقال الله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾[الحجرات:١٥] .

والسنة توضح ما أجمله القرآن .

فتدبَّر هذا الحديث الصحيح الذي رواه البخاريُّ ومسلمٌ [١] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما لما قدم وفد عبد القيس على النبيِّ ﷺ أَمَرَهُمْ بِالإِيمَانِ بِالله وَحْدَهُ ، قَالَ : « أَتَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بالله وَحْدَهُ ؟» .

قَالُوا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : « شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إلاَّ الله ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله ، وَإِقَامُ الصَّلاَةِ ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ ،وَأَنْ تُعْطُوا مِنْ المَغْنَمِ الخُمُسَ » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب أداء الخمس من الإيمان (٥٣) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه من لم يبلغه (١٧) .

الشاهد : أنه أدخل أركان الإسلام تحت لفظة الإيمان .

وفي الحديث الذي رواه الشيخان [(١)] من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه أن النَّبيَّ ﷺ قَالَ : « الإِيمَانُ بِضعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، أَفْضَلُهَا : لاَ إِلَهَ إلاَّ الله ، وَأَدْنَاهَا : إِمَاطَةُ الأذَى عَنْ الطَّرِيقِ ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ » .

فهذه أعمال أدخلها المصطفى ﷺ ضمن الإيمان .

الحالة الثانية : وهي أن يُذْكَر الإيمانُ مُقْتَرِنًا بالإسلام ففي هذه الحالة يُرَادُ بالإيمانُ أعمال الباطن ، والإسلامُ يُرَاد به أعمال الظاهر .

والأدلة على هذا كما يلي :

* ورد في الحديث الذي رواه أحمد ، وأبو يعلى ، والبزار ، وابن أبي شيبة في « مصنفه» ـ وقال الهيثمي : « ورجاله رجال الصحيح » لكن للأمانة العلمية لما وقفت على الحديث [(٢)] وجدت في سنده عليَّ بن مسعدة وثَّقَه ابن حبان ، وضعَّفه آخرون من أهل الجرح والتعديل ـ عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « الإِسْلاَمُ عَلاَنِيَةٌ وَالإِيمَانُ فِي القَلْبِ » (يصح موقوفًا عن أنس ولا يصح مرفوعًا عند كثير من أهل الحديث) .

وحديثٌ آخر ، وهو قول النبيِّ ﷺ في دعاء الجنازة : «اللَّهُمَّ مَنْ أَحْيَيْتَهُ

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) رواه أحمد (٣/ ١٣٤، ١٣٥) ، وأبو يعلى (٢٩٢٣) ، وقال الهيثمي في « المجمع » (١/ ٥٢) : « رواه أحمد وأبو يعلى بتمامه ، والبزار مختصرًا ، ورجاله رجال الصحيح ، ما خلا علي بن مسعدة وقد وثَّقه ابن حبان ، وأبو داود الطيالسي ، وأبو حاتم ، وابن معين ، وضعفه آخرون» ، وقد ضعَّف الحديث الألباني في تعليقه على كتاب الإيمان لابن أبي شيبة (٦) فقال : «ضعيف السند من أجل علي بن مسعدة فهو سيئ الحفظ » وقال عبد الحق الأشبيلي في أحكامه : «حديث غير محفوظ » ، وانظر :«ضعيف الجامع » (٢٢٨٠) .

مِنَّا فَأَحْيِهِ عَلَى الإِسْلَامِ ، وَمَنْ تَوَفَّيْتَهُ مِنَّا فَتَوَفَّهُ عَلَى الإِيمَانِ» [(١)] .

وذلك لأن الأعمال بالجوارح يتمكن منها المرء في الحياة ، لكن عند الموت ؛ فمدار الأمر على أعمال القلب وهو: « الإيمان » .

والحديث رواه أبو داود والترمذي ، وابن ماجه ، وأحمد في « مسنده » ، وابن حبان في « صحيحه » ، والحاكم في « مستدركه » ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، وأقره الذهبي .

وبالجملة :فإنَّ الإسلام والإيمان لفظتان إذا افترقا اقترنا ، وإذا اقترنا افترقا ، أو بمعنى آخر : « إذا افترقا اجتمعا ، وإذا اجتمعا افترقا » .

قال النوويُّ رحمه الله في «شرح مسلم» في أول كتاب الإيمان [(٢)]، في شرح حديث جبريل وسؤاله للنبيِّ ﷺ عن الإسلام والإيمان : « قال الإمام أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابيُّ البستيُّ الفقيه الأديب الشافعي المحقق رحمه الله في كتابه «معالم السنن» : ما أكثر ما يغلط الناس في هذه المسألة !

فأما الزهريُّ فقال : الإسلام الكلمة ،والإيمان العمل ، واحتج بالآية يعني قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾[الحجرات:١٤] .

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٠١) ، كتاب الجنائز ، باب الدعاء للميت ، والترمذي (١٠٢٤) كتاب الجنائز ، باب ما يقول في الصلاة على الميت ، وابن ماجه (١٤٩٨) كتاب الجنائز ، باب ما جاء في الدعاء في الصلاة على الجنازة ، وأحمد(٢/ ٣٦٨) ، وصحَّحه الألباني في « صحيح الترمذي » (٨١٧) ، وفي « صحيح سنن ابن ماجه » (١٢١٧) ، وقد أعلَّه بعضهم بالإرسال ، ورجَّح الألباني في « المشكاة » (١٦٧٥) الوصل ، وانظر : « علل الحديث لابن أبي حاتم» (١/ ٣٥٤_ ٣٥٧) ، و«علل الدارقطني» (١٧٩٤) .

(٢) « صحيح مسلم » بشرح النووي (١/ ١٨٢) وما بعدها .

وذهب غيره إلى أن الإسلام والإيمان شيء واحد .

واحتج بقوله تعالى :﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات:٣٥، ٣٦] .

قال الخطابيُّ : وقد تكلَّم في هذا الباب رجلان من كُبراء أهل العلم ، وصار كل واحد منهما إلى قولٍ من هَذَيْن ، وردَّ الآخر منهما على المتقدم ، وصنَّف عليه كتابًا يبلغ عدد أوراقه المئين .

قال الخطابيُّ : والصحيح من ذلك أن يقيد الكلام في هذا ولا يطلق ، وذلك أن المسلم قد يكون مؤمنًا في بعض الأحوال ، ولا يكون مؤمنًا في بعضها ، والمؤمن مسلم في جميع الأحوال ، فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنًا ، إذا حملت الأمر على هذا استقام لك تأويل الآيات ، واعتدل القول فيها ولم يختلف شيء منها .

وأصل الإيمان : التصديق . وأصل الإسلام : الاستسلام والانقياد .

فقد يكون المرء مستسلمًا في الظاهر ، وقال الخطابيُّ أيضًا في قول النبيِّ ﷺ : « الإِيمَانُ بِضعٌ وَسَبعُونَ شُعْبَةً » :

في هذا الحديث بيان أن الإيمان الشرعيَّ اسمٌ لمعنى ذي شعب وأجزاء له أدنى وأعلى ، والاسم يتعلق ببعضها كما يتعلق بكلها ، والحقيقة تقتضي جميع شعبه ، وتستوفي جملة أجزائه ؛ كالصلاة الشرعية لها شعب وأجزاء ، والاسم يتعلق ببعضها والحقيقة تقتضي جميع أجزائها وتستوفيها ،ويدل عليه قوله ﷺ : « الحيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ » .

وفيه : إثبات التفاضل في الإيمان ، وتباين المؤمنين في درجاته » هذا آخر كلام الخطابيِّ .

وقال الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي الشافعي[(١)] رحمه الله في حديث سؤال جبريل ﷺ عن الإيمان والإسلام وجوابه قال : « جعل النبيُّ ﷺ الإسلام اسمًا لما ظهر من الأعمال ، وجعل الإيمان اسمًا لما بطن من الاعتقاد . وذلك تفصيل لجملة هي كلها شيء واحد وجماعها الدين ؛ ولذلك قال ﷺ : « ذَاكَ جِبْرِيل أَتاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينكُمْ » والتصديق والعمل يتناولهما اسم الإيمان والإسلام جميعًا ، يدل عليه قوله سبحانه وتعالى :﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩] .

﴿ وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:٣] .

﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران:٨٥].

فأخبر الله ﷻ أن الدِّينَ الذي رَضِيه ويَقْبَله من عبادِهِ هو الإسلام ، ولا يكون الدين في محل القبول والرضا إلا بانضمام التصديق إلى العمل » . هذا كلام البغوي .

ثم قال النوويُّ رحمه الله : وقال الشيخ الإمام أبو عمرو بن الصلاح :

« قوله ﷺ : « الإسلام أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ الله ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُول الله ﷺ ، وَتُقِيم الصَّلاةَ ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وتَصُوم رَمَضَانَ ، وتَحُجّ البَيْت إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيهِ سَبِيلا ، وَالإيمان : أَنْ تُؤْمِن بالله وَمَلائكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسِلِهِ

---

(١) انظر : « شرح السنة » للبغوي (١/ ١٠، ١١) .

واليَوْمِ الآخِر ، وَتُؤْمِن بالقَدَرِ خَيْرِه وَشَرِّهِ » قال : « هذا بيان لأصل الإيمان » .

وهو : التصديق الباطن ، وبيان لأصل الإسلام وهو : الاستسلام والانقياد الظاهر وحكم الإسلام في الظاهر ثبت بالشهادتين ، وإنما أضاف إليهما الصلاة والزكاة والحج والصوم ؛ لكونها أظهر شعائر الإسلام وأعظمها ، وبقيامه بها يتم استسلامه ، وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده أو اختلاله ، ثم إن اسم الإيمان يتناول ما فسر به الإسلام في هذا الحديث وسائر الطاعات ؛ لكونها ثمرات للتصديق الباطن ، الذي هو أصل الإيمان ومقويات ومتمِّمات وحافظات له ؛ ولهذا فسَّر ﷺ الإيمان في حديث وفد عبد القيس بالشهادتين والصَّلاة والزَّكاة وصوم رمضان وإعطاء الخُمُس من المغنم ؛ ولهذا لا يقع اسم المؤمن المطلق على من ارتكب كبيرة أو بَدَّل فريضة ؛ لأن اسم الشيء مطلقًا يقع على الكامل منه ولا يستعمل في الناقص ظاهرًا إلا بقيد ؛ ولذلك جاز إطلاق نفيه عنه في قوله ﷺ: « لا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ » .

واسم الإسلام يتناول أيضًا ما هو أصل الإيمان ، وهو التصديق الباطن ويتناول أصل الطاعات ؛ فإن ذلك كله استسلام ، قال : فخرج مما ذكرناه وحققنا أن الإيمان والإسلام يجتمعان ويفترقان ، وأن كل مؤمن مسلم ، وليس كل مسلم مؤمنًا . قال : وهذا تحقيق وافر بالتوفيق بين متفرقات نصوص الكتاب والسنة الواردة في الإيمان والإسلام التي طالما غلط فيها الخائضون . وما حقَّقناه من ذلك موافق لجماهير العلماء

من أهل الحديث وغيرهم» .

هذا آخر كلام الشيخ أبي عمرو بن الصلاح ـ رحمه الله تعالى .

قال شيخ الإسلام رحمه الله (١) : « ولو قدر أنَّ الإسلام يستلزم الإيمان الواجب ، فغاية ما يقال : إنهما متلازمان ؛ فكل مسلم مؤمن ، وكل مؤمن مسلم .

وهذا صحيح إذا أريدَ أن كل مسلم يدخل الجنة معه الإيمان الواجب ، وهو متفق عليه ؛ إذا أريد أن كل مسلم يثاب على عبادته ؛ فلابد أن يكون معه أصل الإيمان فما من مسلم إلا وهو مؤمن ، وإن لم يكن هو الإيمان الذي نفاه النبيُّ ﷺ عمن لا يحبُّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه ، وعمن يفعل الكبائر ، وعن الأعراب وغيرهم .

فإذا قيل : إن الإسلام والإيمان التام متلازمان ، لم يلزم أن يكون أحدهما هو الآخر؛ كالروح والبدن ، فلا يوجد عندنا روح إلا مع البدن ، ولا يوجد بدنٌ حيٌّ إلا مع الروح ، وليس أحدهما الآخر ؛ فالإيمان كالروح ، فإنه قائم بالروح ومتصل بالبدن .

والإسلام كالبدن ،ولا يكون البدن حيًّا إلا مع الروح ، بمعنى أنهما متلازمان ، لا أن مسمى أحدهما هو مسمى الآخر ، وإسلام المنافقين

(١) « مجموع الفتاوى » (٧/ ٣٦٦، ٣٦٧) ، وانظر كذلك (٧/ ٢٦٣) وما بعدها ، (٧/ ٣٥٦) وما بعدها . و« جامع العلوم والحكم » (٤٠ـ٤٣) ، و« تعظيم قدر الصلاة » للمروزي (٢٣٠) وما بعدها ـ ط مكتبة العلم ، و« الحجة في بيان المحجة »لأبي القاسم الأصبهاني (١/ ٤٠٦، ٤٠٨) ، وابن بطة في « الإبانة الصغرى » (١٨٢، ١٨٣)، وابن عبد البر في « التمهيد » (٩/ ٢٥٠) ، والبيهقي في « الشُّعب » (١/ ٥٠) ، وابن منده في « الإيمان » (١/ ٣٢١) .

كبدن الميت ، جسد بلا روح ، فما من بدن حي إلا فيه روح ، فكل من خشع قلبه ، خشعت جوارحه ، ولا ينعكس ،ولهذا قيل : إياكم وخشوع النفاق ، وهو أن يكون الجسد خاشعًا ، والقلب ليس بخاشع ؛ فإذا صلح القلب صلح الجسد كله ، وليس إذا كان الجسد في عبادة يكون القلب قائمًا بحقائقها » .

*****

هل يجتمع في الشخص الواحد
إيمان وكفر أو إيمان ونفاق؟

قال ابن القيم في كتابه : « الصلاة وحكم تاركها »[1] : «وها هنا أصل آخر، وهو أن الرجل قد يجتمع فيه كفر وإيمان ، وشرك وتوحيد ، وتقوى وفجور ، ونفاق وإيمان ، وهذا من أعظم أصول أهل السنة وخالفهم فيه غيرهم من أهل البدع كالخوارج والمعتزلة والقدرية ، ومسألة خروج أهل الكبائر من النار وتخليدهم فيها مبنية على هذا الأصل ، وقد دل عليه القرآن والسنة والفطرة وإجماع الصحابة ؛ قال تعالى : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف : ١٠٦] ؛ فأثبت لهم إيمانًا به سبحانه مع الشرك .

وقال تعالى : ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤] ؛ فأثبت لهم إسلامًا وطاعة لله ورسوله مع نفي الإيمان عنهم ، وهو الإيمان المطلق الذي يستحق اسمه بمطلقه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات:١٥] .

وهؤلاء ليسوا منافقين في أصح القولين ؛ بل هم مسلمون بما معهم من طاعة الله ورسوله ، وليسوا مؤمنين وإن كان معهم جزء من الإيمان

(١) « الصلاة وحكم تاركها » (ص٥١ ، ط٥) .

أخرجهم من الكفار .

قال الإمام أحمد : من أتى هذه الأربعة أو مثلهن أو فوقهن ـ يريد الزنا والسرقة وشرب الخمر والانتهاب ـ فهو مسلم ، ولا أسميه مؤمنًا . ومن أتى دون ذلك ـ يريد دون الكبائر ـ سميته مؤمنًا ناقص الإيمان ؛ فقد دل على هذا قوله ﷺ : « فَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ »[1].

فدلَّ على أنه يجتمع في الرجل نفاق وإسلام .

وكذلك الرياء شرك ، فإذا راءى الرجل في شيء من عمله اجتمع فيه الشرك والإسلام ، وإذا حكم بغير ما أنزل الله ، أو فعل ما سماه رسول الله ﷺ كفرًا ، وهو ملتزم للإسلام وشرائعه ، فقد قام به كفر وإسلام وقد بينا أن المعاصي كلها شعب من شعب الكفر ، كما أن الطاعات كلها شعب من شعب الإيمان . فالعبد تقوم به شعبة أو أكثر من شعب الإيمان ، وقد يسمَّى بتلك الشعبة مؤمنًا ، وقد لا يسمى كما أنه قد يسمى بشعبة من شعب الكفر كافرًا ، وقد لا يطلق عليه هذا الاسم فها هنا أمران : أمر اسم لفظي ، وأمر معنوي حكمي. فالمعنويُّ : هل هذه الخصلة كفرًا أم لا ؟ واللفظي : هل يسمى من قامت به كافرًا أم لا ؟ فالأمر الأول شرعي محض ، والثاني لغوي وشرعي .

وها هنا أصلٌ آخر ، وهو أنه لا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الإيمان ، باب علامة المنافق (٣٤) ، وانظر أطرافه هناك ، و« مسلم » ، كتاب الإيمان ، باب بيان خصال المنافقين (٥٨) .

بالعبد أن يسمى مؤمنًا ، وإن كان ما قام به إيمانًا . ولا من قيام شعبة من شعب الكفر به أن يسمى كافرًا ، وإن كان ما قام به كفرًا . كما أنه لا يلزم من قيام جزء من أجزاء العلم به أن يسمى عالمًا ، ولا من معرفة بعض مسائل الفقه والطب أن يسمى فقيهًا أو طبيبًا ، ولا يمنع ذلك أن يسمى شعبة الإيمان إيمانًا ، وشعبة النفاق نفاقًا ، وشعبة الكفر كفرًا » .

وقال شيخ الإسلام[1] ابن تيمية ﷺ : « والمقصود هنا أن من نفى عنه الرسول اسم الإيمان أو الإسلام فلا بد أن يكون قد ترك بعض الواجبات فيه وإن بقي بعضها ؛ ولهذا كان الصحابة والسلف يقولون : إنه يكون في العبد إيمان ونفاق ... عن أبي يحيى قال : « سُئِلَ حذيفة عن المنافق قال : الذي يعرف الإسلام ولا يعمل به ... وعن حذيفة قال : القلوب أربعة : قلب أغلف ، فذلك قلب الكافر ، وقلب مصفح ، وذلك قلب المنافق ، وقلب أجرد فيه سراج يزهر ، فذلك قلب المؤمن ، وقلب فيه إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه كمثل شجرة يمدها ماء طيب ، ومثل النفاق مثل قرحة يمدها قيح ودم ، فأيهما غلب عليه غلب »[2] ثم قال: « وهذا الذي قاله حذيفة يدل عليه قوله تعالى : ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ﴾ [آل عمران:١٦٧] .

فقد كان قبل ذلك فيهم نفاق مغلوب ، فلما كان يوم أحد غلب نفاقهم فصاروا إلى الكفر أقرب».

---

(١) « مجموع الفتاوى » (٧/ ٣٠٣ - ٣٠٥) ، وانظر : (٣١٢).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ، كتاب الإيمان (٥٤) ، وسيأتي .

ثم ذكر عدة آثار تدل على ذلك ، ثم قال : « وهذا كثير في كلام السلف ، يبينون أن القلب قد يكون فيه إيمان ، ونفاق ، والكتاب والسنة يدلان على ذلك ؛ فإن النبيَّ ﷺ ذكر شعب الإيمان ، وذكر شعب النفاق ، وقال : « مَنْ كَانَتْ فِيهِ شُعْبَةٌ مِنْهُنَّ ، كَانَتْ فِيهِ شُعْبَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا »[1] .

وتلك الشُّعبة قد يكون معها الكثير من شعب الإيمان ؛ ولهذا قال : « وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَال ذَرَّةٍ مِنْ إيمان »[2] .

فعُلِمَ أن من كان معه من الإيمان أقل القليل لم يخلد في النار ، وأن مَنْ كان معه كثير من النفاق ، فهو يعذَّب في النار على قدر ما معه مِنْ ذلك ، ثم يخرج من النار » .

وكذلك كل الأحاديث التي فيها الكفر الأصغر أو النفاق العملي ، فهي دالة على أنه قد يجتمع في العبد شيء من شُعب الإيمان وشُعب الكفر ، كقتال المسلم ، والطعن في النسب ، والنياحة على الميت ، والرغبة عن الآباء والنسبة إلى غيرهم . وكفران العشير ، وقولة الرجل لأخيه : يا كافر ، وغير ذلك ، ومع ذلك دلت النصوص المحكمة على أن أصحابها لم يسلبوا اسم الإيمان بالكلية »[3] .

وقد ضل الضالون في أبواب الإيمان والأسماء والأحكام بأسباب من جملتها : جهلهم بحقيقة الإيمان وعلاقته بالأعمال .

(١،٢) تقدم تخريجها.

(٣) انظر « مجموع الفتاوى » (٧/ ٣٥٠، ٣٥٣، ٣٥٥) .

قال شيخ الإسلام رحمه الله[1] : « قالت الخوارج والمعتزلة : قد علمنا يقينًا أن الأعمال من الإيمان ، فمن تركها فقد ترك بعض الإيمان ، وإذا زال بعضه زال جميعه ؛ لأن الإيمان لا يتبعض ، ولا يكون في العبد إيمان ونفاق ، فيكون أصحاب الذنوب مخلدين في النار ، إذ كان ليس معهم من الإيمان شيء » .

ثم قال رحمه الله[2] وهو يتحدث عن منشأ ضلالهم : «أنهم ظنوا أن الشخص الواحد لا يكون مستحقًّا للثواب والعقاب ، والوعد والوعيد ، والحمد والذم ، بل إما هذا وإما هذا ، فأحبطوا جميع حسناته بالكبيرة التي فعلها ، قالوا : الإيمان هو الطاعة ، فيزول بزوال بعض الطاعة ».

وقد زعموا أن الإيمان إذا كان مركبًا من أقوال وأعمال ظاهرة وباطنة ، لزم زواله بزوال بعضها ، كما يزول اسم العشرة عنها إذا زال أحد أفرادها .

قال شيخ الإسلام[3] : « وهذا هو الأصل الذي تفرعت عنه البدع في الإيمان ، فإنهم ظنوا أنه متى ذهب بعضه ذهب كله » .

وقال رحمه الله : « والصحيح أنه ليس كل من قام به شعبة من شعب الكفر ، يصير بها كافرًا الكفر المطلق ، حتى تقوم به حقيقة الكفر ، كما أنه ليس كل من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير بها مؤمنًا ، حتى

---

(١) « مجموع الفتاوى » (١٣/ ٤٨) .

(٢) « شرح العقيدة الأصفهانية » لشيخ الإسلام (ص١٣٧ ، ١٣٨) .

(٣) « مجموع الفتاوى » (٧/ ٢٢٣).

يقوم به أصل الإيمان وحقيقته . وفرق بين الكفر المعرف باللام ، كما في قوله ﷺ: « لَيسَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الكُفْرِ أَو الشِرْكِ إِلاَّ تَرْكُ الصَّلاَةِ » [١] وبين منكر الإثبات » [٢].

وبعد هذه الأصول المهمة أقول : فالإيمانُ هو الأصلُ الأولُ من أصول الاعتقاد ، وهو أهم الأصول العلمية والعملية على الإطلاق ، وعليه مدار الإسلام ، بل هو لب القرآن ، لا أكون مبالغًا إذا قلت : إن القرآن كله يتكلَّم عن هذه القضية ألا وهي الإيمان بالله ﷻ؛ فالقرآن إما حديثٌ مباشر عن الله ﷻ عن ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله ، وإما حديثٌ عن الأوامر التي أمر بها الحق سبحانه وتعالى وعن جزاء امتثال هذه الأوامر ، وإما نهيٌ وتحذيرٌ من الله ﷻ وجزاءُ مَنْ يقترفُ هذه المناهي . وهذا من لوازم الإيمان ، وكذلك إما أن يكون القرآن إخبارًا عن المؤمنين وصفاتهم وجزائهم ، وإما أن يكون إخبارًا عن الوعيد الذي أعدَّه الله للكافرين الذين لا يؤمنون بالله ﷻ إلى آخره ، وكما يقول علماؤنا شرف العلم بشرف ما يدرس فيه ، إذا كان ذلك كذلك ، فإن أشرف علم على الإطلاق هو علم الإيمان ، لأنه علم متصل بالله ﷻ وما يتعلق بذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله .

والعلم بالله ﷻ ومعرفته هو أول واجب على الإنسان على ظهر الأرض ، فمن الجفاء ومن الضلال أن يعيش الإنسان وسط هذا الكون

---

(١) تقدم تخريجها.

(٢) « اقتضاء الصراط المستقيم » (ص ١٤٦).

بما فيه من آيات وعجائب وهو يجهل خالقه ﷻ ، بل لا يعرف شيئًا عن ربه . واشتهر على ألسنة الكثيرين أن الله ﷻ قد عرفوه بالعقل فتسمع من يقول : « ربنا عرفوه بالعقل » .

وأنا أدلك على أن العقل البشري وحده دون اهتداء بعقول الأنبياء أو بمعنى أدق بالوحي الذي يتنزل على الأنبياء .لا يمكن أن يصل إلى معرفة الرب ﷻ معرفة على مراد الله ورسوله ﷺ .

واليكم بعض الأدلة :

انظر إلى العقل البشري على مدار التاريخ الإنساني كله سترى من بين هذه العقول عقولًا جحدت الخالق وكفرت به !!ولو أنصف العقل لاهتدى إلى الرب سبحانه وتعالى عن طريق هذه الآيات والآثار التي ملأ الله بها كونه ، فالعقل البشري حينما يحيد عن الوحي الإلهي الذي يوحيه الله ﷻ إلى أي نبيٍّ من الأنبياء أو إلى أي رسول قد يضل أو يتيه ، ولا يعرف شيئًا عن ربه وخالقه وربما يكون هذا العقل نفسه قد وصل إلى الإبداع المذهل في الجانب العلمي والدنيوي والمادي ، فإن الرب ﷻ لا يهتدي إليه إلا عن طريق العلم الموثق الصحيح الذي يأتي به الأنبياء والمرسلون .

تدبَّر قولَ الله ﷻ ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الرعد: ١٩] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[الزمر: ٩] .

ولم يقل في هذا الصدد : يعقلون .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾[الحج : ١١] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟ ﴾[فاطر: ٢٨] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ﴾[المجادلة:١١] .

فلا يتعرف العقل مجردًا على الله ﷻ إلا أن يهتدي العقل للعلم ؛ فلو نظرت إلى العقل على أنه عقل عالم عاقل فلا مانع ، فلن أخالفك في هذا المفهوم ، لكن لا نتعرف على الله بأسمائه وصفاته وأفعاله وذاته وعظمته وجلاله ، إلا من خلال العلم الذي أرسل الله تعالى له أنبياءه ورسلَه عن طريق الوحي .

تدبر هذا الأصل جيِّدًا .

انظر إلى العقل البشري الجبار الذي فجر الذرَّة ، وصنع القنبلة النووية ، وصنع الصاروخ والطائرة ، وصنع التليفاز المرئي المسموع ، وصنع هذا التقدم المذهل في علم الاتصالات والمواصلات ، فتحوَّل العالم كلُّه إلى قرية صغيرة ؛ فما يحدث هناك قد تراه وتسمعه في التو واللحظة إذا نقل لك الحدث على الهواء مباشرةً !

فقد تكون في المنصورة مثلًا وتتابع مؤتمرًا عالميًا في أمريكا : تسمع بأذنك وترى بعينك !! هذا هو العقل ، فنحن لا ننكر أبدًا ما وصل إليه العقل في هذا الجانب المادي .

لكن انظر إليه لتتعرف على حقيقته في الجانب الإيماني والخُلقي ، فلا زالت مليارات العقول تعبد عيسى ابن مريم ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ من دون الله !!! ولو تدبَّرت هذه العقول التي وصلت إلى ما وصلت إليه في الجانب المادي لعرفت أنها على ضلال وفي هراء .

ورحم الله صاحب العقل النيِّر وصاحب العلم الموثق الإمام ابن القيم ـ وهو يرد على هؤلاء ـ ويقول:

أعُبَّاد المسيح لنا سؤال ... نريد جوابه ممن وعاه

إذا مات الإله بصنع قوم ... أماتوه فهل هذا إله؟!

ويا عجبًا لقبر ضم ربًّا ... وأعجب منه بطن قد حواه

أقام هنالك تسعًا من شهور ... لدى الظلمات من حيض غذاه

وشقَّ الفرْجَ مولودًا صغيرًا ... ضعيفًا فاتحًا للثدي فاه

ويأكل ثم يشرب ثم يأتي ... بلازم ذاك فهل هذا إله؟

تعالى الله عن إفك النصارى ... سيُسْأَلُ كلُّهم عمَّا افتراه

وقال تعالى :﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران:٥٩] .

قالوا : إنا لا نُحكم العقل في عبادتنا لعيسى ، قلنا لهم : كيف ذلك ؟ قالوا : لأن عيسى ليس ببشر عادي. قلنا لهم : لماذا ؟ قالوا : لأن عيسى هو الوحيد في العالم البشري الذي جاء على أمر بخلاف ما جاء عليه

البشر . قلنا : كيف ؟ قالوا : ما من إنسان على ظهر هذه الأرض إلا جاء من أب وأم إلا عيسى ، فلا أب له ، فيدل ذلك على أنه إله أو ابن إله .

نقول : إذا استدللتم على ألوهيته من أنهُ خُلِقَ من أم دون أب ؛ فإننا نقول من هذا المنطلق : إن آدم إله لعيسى ؛ لأن آدم خُلِقَ من غير أب ولا أم ، أليس كذلك ؟! بلى ، فآدم أعجز في خلقه من عيسى ؛ لأن أصل التكوين الرحم ، والرحم موجود ، لكن آدم ما حمله رحم ، وما حملته أمٌّ ولا أبٌّ له !!!

ومع ذلك ، قال اللهُ تعالى لهذه العقول التي تدَّعي أنها عقول مستنيرة : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[آل عمران:٥٩] .

وليس هذا موضعًا لأُفند كل هذه الأدلة ، لكنني أضرب مثلًا على حقارة العقل البشري ، إذا ظن أنه يستطيع أنه يهتدي إلى الخالق بعقله دون الوقوف عند وحي من المرسلين ، وهذا هو العقل الأمريكي الجبار ، يدافع في الجانب الأخلاقي عن الشذوذ الجنسي ، وفي أمريكا الكنائس الكبيرة التي تزوِّج الرجال بالرجال ، والنساء بالنساء!!!

والعقل الروسي يدافع إلى الآن عن الكفر والإلحاد ، وشعاره الذي يتغنَّى به أنه يؤمن بثلاثة ويكفر بثلاثة ، يؤمن بلينين واستالين والملكية العامة ، ويكفر بالله ، يقول بأنه لا يوجد إله ، وأن الكون مخلوق من الطبيعة !! وبالدين والملكية الخاصة !! [(١)].

(١) انظر : «الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة» الندوة العلمية للشباب الإسلامي . ط ثانية (ص٣١٠) .

وهذا هو العقل الروماني إلى اليوم يدافع عن مصارعة الثيران ، ترون هذه الحلقات ، وأعجب عندما يستغل هذا الحيوان هذا الاستغلال !! وتراهم بعد ذلك يرفعون شعار الرفق بالحيوان!!.

والعقل الهندي إلى اليوم يدافع عن عبادة البقرة . البقرة التي نراها في بلادنا ، تعبد في عصر الذرَّة في بلاد الهند ، انظر إلى حقارة العقل البشري وتفاهته .

بل والعجيب أن الزعيم الكبير عند الهنود (غاندي) يقول : « إن أمه البقرة أحب عنده من أمه الحقيقية التي ولدته » . فلما سُئل ، قال : لأن أمه التي ولدته حملته تسعة أشهر وأرضعته حولَيْنِ كاملين ، ومع ذلك فإنها تريد منه الخدمة طيلة حياتها ، أما أمه البقرة ، فإنها لا تريد منه شيئًا على الإطلاق !! .

انظر إلى حقارة العقل ، بل وفي الهند إلى اليوم وفي عصر الذَّرة والحضارة العلمية والمادية تقام المعابد الضخمة ، ويهدِى إليها ملايين البشر القرابين والنذور ، وستعجب إذا علمت أن الآلهة في داخل هذه المعابد هي الفئران !![1] .

هذا هو العقل يا سادة !!

والعقل العربي في جاهليته صنع الأصنام بيده أو نحت الآلهة من الخشب والحجارة وعَبَدَهَا من دون الله ﷻ ووأد البنات وُهُنَّ أحياء مخافة

---

(١) انظر : «الرسل والرسالات » للدكتور الأشقر ـ نقلا عن كتاب «مقارنة الأديان» (ص٣٧) ط النفائس .

الفقر والعار ، ويدافع عن الكفر والإلحاد والزندقة ، يقول قائلهم:

هبوني عيدًا يجعل العرب أمة وسيروا بجسماني على دين برهم [1]

سلام على كفر يوحد بيننا وأهلًا وسهلًا بعده بجهنم

ويقول آخر : « إن تطبيق الشريعة الإسلامية في مصر رِدَّة حضارية بكل المقاييس » .

ويقول آخر : « إن مصر ستظل فرعونية ، ولو وقف الإسلام حجر عثرة في طريق فرعونيتنا لنحَّيْنَا الإسلام جانبًا لتبقى مصر فرعونية » .

هذا هو العقل !!

فلا يمكن بحال أن يصل الإنسانُ إلى معرفة الله بصفاته وأسمائه وأفعاله وجلاله وكماله إلا من طريق الوحي ، إلا عن طريق العلم الذي جاء به الأنبياء والمرسلون ـ تدبَّر هذا جيدًا ـ ومن أهم الأدلة العلمية على الإيمان بالله ﷻ؛ أنَّ العَدَمَ لا يَخْلُقُ شيئًا !!

هل هذا يعقل يا من تريدون أن تعرفوا الله بالعقل ؟!

فالعقل يقول بأن العدم لا يخلق شيئًا على الإطلاق ، وأن فاقد الشيء لا يعطيه ، وإذا ما تأملت في المخلوقات التي تولد كل يوم من إنسان وحيوان ونبات ، وتفكَّرت في كلِّ ما يحدث في الوجود من رياح وأمطار ، وليل ونهار ، ونظرت إلى ما يجري في كل حين من حركات منتظمة للشمس والقمر ، والنجوم والكواكب ، إذا تأملت لما يحدث من

---

(١) يعني : على دين إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام .

التغيرات المحكمة التي تجري في الكون في الليل والنهار في كل لحظة، فإن العقل المنصف يجزم بأن هذا كله لا يمكن على الإطلاق أن يكون من صنع العدم، إنما سيقرُّ إن احترم نفسه أنه من صنع الخالق الحكيم الخبير - جلَّ وعلا - لا يمكن أبدًا أن يكون هذا الكون بالمصادفة، كما يقول من يدَّعون أنهم أصحاب عقول، بل إنَّ الكون كله سمائه وأرضه، من عرشه إلى فرشه، قدَّم شهادة موثقة صارخة في أُذُنِ كل سامع، وعقل كل مفكر، أن هذا الكون من صنع الخالق الحكيم - جلَّ وَعَلَا.

انظر إلى السماء وارتفاعها، بل انظر إلى الأرض واتساعها.

انظر إلى الجبال وأثقالها، انظر إلى الأفلاك ودورانها.

انظر إلى البحار وأمواجها.

انظر إلى كل ما هو متحرك، وإلى كل ما هو ساكن، والله، إن الكل يقر بتوحيدِ الله، ولا يغفل عن ذكر مولاه.

اقرأ معي قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨]، واقرأ قول الله تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ

حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ [النمل:٦٠] .

وبعد آيات الربوبية هذه يُخَاطِبُ اللهُ العقولَ الذكيةَ والقلوبَ التَّقِيَّة ليلفتها من توحيد الربوبية إلى توحيد الألوهية ، فيقول ـ جلَّ وَعَلَا: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ ،

انظر إلى الكون لتتعرف على عظمة الخالق المدبِّر الحكيم العليم.

سَلِ الواحة الخضراء والماء جاريا وهذه الصحاري والجبال الرواسيا

سَلِ الروض مزدانًا والزهر والندى سَلِ الليل والإصباح والطير شاديًا

سَلْ هذه الأنسام والأرض والسَّما سل كل شيء يسمع التوحيد لله ساريًا

ولو جن هذا الليل وامتد سَرْمدًا فمَنْ غيرُ ربِّي يُرْجِعُ الصُّبْحَ ثانيًا

إنه اللطيف الخبير ، ثم لتسأل نفسك بعد ذلك : أإله مع الله خَلَقَ هذا ؟ أإله مع الله أَبْدَعَ هذا ؟ أإله مع الله صَنع هذا ؟ .

انظر إلى أي جزئية من جزئيات الكون لتوحِّدَ الخالق ، ولتسبِّحَ الإله العظيم ، ولتصرف العبادة إليه وحده .

انظر إلى العذب الفرات ، وإلى الملح الأجاج بينهما برزخ لا يبغيان ، قال تعالى : ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴾

[الرحمن:١٩،٢٠]

انظر إلى كوز الذرة ؟ أمسِك هذا الكوز من أسفله، وأدر الكوز أمام

عينيك دورات ودورات ، ثم ابدأ في تعرية هذا الكوز من أثوابه الكثيفة ، اخلع الثوب الأول ، فالذي يليه ، فالذي يليه حتى تنظر إلى حبات لؤلؤية بيضاء ، لتنظر كيف وضعت على القولحة بهذا الجمال والإتقان والإبداع وسبح الخالق العظيم ـ جَلَّ وَعَلَا.

وهذه الشُّرابة التي وضِعَت بجمالٍ وإتقانٍ فوق هذه الحبات ، وسَلْ نفسك لماذا وُضِعَتْ ؟

والجواب : لتبقى حبات الذرة داخل هذه الأغلفة على قيد الحياة ، فهي تنقل عوامل التلقيح ، ثم تقوم بعملية التنفس لحبات الذرة داخل الكوز ، ثم تخرج ما نتج عن هذه الحبات من عملية التنفس ، ثم لتأكل أيها الإنسان الجاحد لفضل ربك ومولاك ، إلا من رحم ربك .

انظر إلى حبة التمر لتسبح الخالق العظيم ليمتلئ قلبك إيمانًا بالله ـ جَلَّ وعَلاَ ـ لو فلقت حبة التمر لوجدت بداخلها النواة ، ثم لو دقَّقت النظر لوجدت غلافًا رقيقًا جدًا على النواة ، لو عُدْت إلى العلماء ، وسألت ، لقالوا لك : بأن هذا الغلاف الرقيق هو الذي فَصَلَ النوى عن التمر ، حتى لا يختلط النوى بالتمر لتنعم بالتمر أيها الإنسان !!

سبحان الله آيات كثيرة جدًّا .

ففي كل شيء له آية تدلُّ على أنه الواحد

إن الأدلة الإيمانية في هذا الكون كثيرة جدًا ، ولكن بكل أسف ادَّعى بعض الملاحدة والزنادقة ومن يعبدون العقول بأن الطبيعة هي التي خلقت الإنسان والحيوان ، وما في الكون مثل ما سمعنا أيام الزلزال أن

الزلزال حدث بالطبيعة ، وأن الطبيعة هي التي أوقعته . . الطبيعة الصماء الجامدة لا تمتلك حكمة ولا علمًا ولا حياة ولا رحمة ولا إرادة ومع ذلك ظن الجاهلون أنها تخلق .

الطبيعة هي هذه المخلوقات بما هي عليه من صفات ، الشمس ، القمر ، النجوم ، البحار ، الأنهار .

عبد الوثنيون بعض أجزاء هذه الطبيعة ، عبدوا الشمس والقمر والنجوم ، ومنهم من عبد النار ، ومنهم مَنْ عَبَدَ الأحجار ، ومنهم من عبد الإنسان ، ويتوهم الوثنيون الجدد « الطبيعيون » ، أن الطبيعة هي التي تتحكم في الكون فتحدث الزلازل والبراكين والمد والجزر .. إلى آخره !!

والعجيب أن الطبيعة كما ذكرت لا تملك علمًا ، ولهم عِلْمٌ ، ولا تملك إرادة ولهم إرادة ، لا تملك شيئًا ، ومع ذلك جعلوها إلها من دون الله يخلق ويتحكم في الكون ! والله ﷻ يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٧٣ ، ٧٤] .

يقولون : إن الطبيعة تخلق المخلوقات ، ويستدلون على ذلك بأشياء تافهة جدًا لا يمكن على الإطلاق أن يقبلها عقل عاقل .

تدبَّر معي قولهم : « بأن الطبيعة هي التي تخلق بدليل ما يتكون على فضلات الإنسان أو الحيوان من دود يتحرك ، وفيه الحياة ، ولما تقدم

العلم ، واكتشف أن هذا الدود الذي يتكون على هذه الفضلات وغيرها قد جاء من بيض صغير لا تراه العيون ، وشاهد العلماء هذا البيض بواسطة هذه المكبرات المعروفة « بالميكروسكوب » وغيرها ـ سقطت شبهة الملاحدة في هذا الباب » .

ولكنهم عادوا وقالوا : « إذا كان الدود جاء من دود سابق عن طريق البيض الصغير الذي لم نره ، فإن الجراثيم التي تعفن الأطعمة وتفسدها قد جاءت من الطبيعة » .

ولكن هذه الشبهة أيضًا قد دحضت قبل أكثر من ثمانين سنة ، عندما اكتشف الباحثون طريقة علمية يحفظون بها الطعام دون أن يتعفن ، وسقطت الشبهة .

وقرأت بحثًا مذهلًا جدًّا لعالم من العلماء اكتشف شيئًا يستطيع أن يحفظ به الطعام لفترات طويلة ، أذكر منها الآن الطماطم مثلًا ، يقول بأن الطماطم كانت تحفظ من ثلاث إلى خمسة أو سبعة أيام ، فاخترع شيئًا يوضع مع الثمار فتطول المدة التي لا تتعفن فيها إلى حوالي أربعين يومًا ، وتتسابق الدول الأوربية لشراء هذا الاختراع ؛ لأنه سيوفر لها فائضًا رهيبًا من المال .

الشاهد أيها الأحبة : أن هذه الحجَّة قد سقطت عن طريق التقدم العلمي .

وأنا أعجب لهؤلاء الذين لا يؤمنون بوجود الله ؛ لأنهم لا يرون ربنا ﷻ ، والعجيب أن عقولهم لا تنكر أن الكون مليء بالأشياء التي لا تُرَى

بالعين المجردة وهم لا ينكرونها ، لا ينكرون الهواء مع أنهم لا يَرَوْنَه ، ولكن يرون أثر الهواء عندما يحرِّك الأغصان فيؤمنون بالهواء وما رأوا الهواء ، يؤمنون بالتيار الكهربائي الواصل إلى هذه اللمبة عن طريق أثر التيار ألا وهو الضوء مع أنهم لا يرون التيار الكهربائي ، إنه العناد والكِبْر ؛ كما قال الله ﷻ : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج:٨] ، وكما قال الله ﷻ : ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] .

ويعجبني هذا الجواب من تلميذ نجيب ذكرته لكم قبل ذلك . وقف الأستاذ الملحد الشيوعي بين يدي طلابه وأراد أن يثبت لهم أنه لا إله ، فقال لهم : « لو رأينا الله لآمنا به » .

ثم أراد أن يُثبت لهم ذلك بالدليل العقلي المجرد ؛ فقال لهم : هل ترون الأستاذ ؟ قالوا : نعم . قال : إذًا فهو موجود . هل ترون السبورة ؟ قالوا : نعم . قال : إذًا فهي موجودة ، هل تَرَوْنَ كذا ، هل تَرَوْنَ كذا . يسأل الطلاب عن أشياء يرونها بأعينهم ، وأخيرًا قال لهم : هل تَرَوْنَ الله ؟ .

قالوا : لا . قال : إذًا فهو غير موجود .

فَسَخَّرَ اللهُ تلميذًا نجيبًا من بين هؤلاء ، ووقف التلميذ بعدما استأذن أستاذه الغبي ، ونظر التلميذ إلى زملائه قائلًا : يا أولاد ، هل ترون عقل الأستاذ ؟ قالوا : لا . قال: إذًا عقله غير موجود !!

هل عدم رؤية الله ﷻ ينفي وجود الحق تبارك وتعالى ؟ كلا ، فأنت لا ترى عقلي ولا أرى عقلك ، ومع ذلك أنا أقر لك بالعقل ، وأنت تقر لي

بالعقل ، إلى آخر الأشياء التي نصدِّقها ونؤمن بوجودها معنا ، وقد لا نراها بعيوننا ، قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء:١٦٧] .

فمن سمات أهل الكفر والإلحاد والزندقة أنهم يرفضون الإيمان بأدلته الساطعة ويستبدلون به الكفر بدون دليل ، اللهمَّ إلا أنهم يقلِّدون تقليدًا أعمى ، قال الله ﷻ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة:١٠٤] .

تقليد أعمى ويصنعون الافتراءات والشبهات ليصدوا الناس عن الله ﷻ كما قال من قبل المجرمون من اليهود لنبيِّ الله موسى قالوا : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة : ٥٥] .

(فالكفر ملة واحدة) فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ، ورفع الله فوق رؤوسهم جبل الطور كأنه ظُلة ، انظر إلى هذا . اقتلع الله ﷻ جبل الطور من أصله ورفعه فوق رؤوسهم كأنه ظُلة كالشمسية ، فلما رأوا هذه الآية تزلزلت قلوبهم وارتعدت ، ومع ذلك لما أعطوا الله العهود والمواثيق رجعوا إلى الكفر والعناد والكبر بعد ذلك ، فإن اليهود قوم بهت لا يقرون بالعهود ، ولا يعترفون بالمواثيق ، ولو كانت هذه العهود والمواثيق لرب العالمين ونبيهم الكليم موسى ـ على نبيهم ونبينا الصلاة والسلام .

أقول : إن البصر الضعيف لا يحيط بالنجوم في السماء .

هل تستطيع أن تحيط بشيء تراه أمام عينيك ؟ فالنجوم تراها ، ولكن هل تستطيع أن تحيط ببصرك كل النجوم في السماء مع أن النجوم أمام عينيك فقد يعجز بصرك الضعيف أن يحيط بها إحاطة كاملة .

هل تستطيع أن تنظر للشمس لتقف على حقيقتها ؟

لا تستطيع ، مع أنها أمام عينيك ، فكيف به يريد أن يحيط بالذي على العرش ــ جَلَّ وعَلاَ ــ لقد قطعت الطمع في إدراك حقيقةِ النجوم.. والنملُ يعيش معنا ، ومع ذلك قطعت الطمع أن تدرك لغة النمل ، فما جلس مسلم عاقل أو ملحد عاقل ـ مع أنهم ليس عندهم عقول ــ بين النمل وأتى بمكبرات للأصوات حساسة ليلتقط لغة النمل ويترجم . ما سمعنا عن هذا ! لماذا ؟ لأن العقل البشريَّ قد قطع الطمع في إدراك لغة النمل ، مع أنه يعلم أن النمل أمام عينيه وبين يديه ، يتكلَّم وله لغة ، فقطع الطمع أن يدرك حقيقة شيءٍ مخلوق ، ومع ذلك تبجح وتطاول وأراد أن يدرك كيفية ذات الله ﷻ .

يا أخي : هذه الجنة ، قال فيها المصطفى ﷺ : « فِيهَا مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلاَ خَطَرَ عَلَىَ قَلْبِ بَشَرٍ »[1].

والجنة خلق الله.

فكيف حال الخالق جلَّ في علاه ، وكيف لا يتحمل بصر البشر أن ينظر إلى الشمس مباشرة ، فكيف يتحمل أن ينظر إلى نور الملك ـ جلَّ وعلا ــ وقديمًا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (٣٢٤٣) ، وانظر أطرافه هناك ، و« مسلم » ، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب (١) حديث (٢٨٢٤) .

تمنى موسى أن يرى ربه ، وقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾[الأعراف : ١٤٣] .

فقال الحق : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾[الأعراف : ١٤٣] .

لأن بصره في الدنيا ما أُعِدَّ لهذا ، ولكن الحق سيعدُّ بَصَرَكَ إعْدَادًا جديدًا يوم القيامة إن كنت من أهل الجنة لتحصلَ على أعلى درجات النعيم في الجنة ، ألا وهو التمتع بالنظر إلى الله ـــ جَلَ وَعَلاَ ، قال سبحانه : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[القيامة : ٢٢ -٢٣] ، وقال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾[يونس: ٢٦] .

﴿ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾: هي الجنة .

﴿ وَزِيَادَةٌ ﴾: هي التمتع بالنظر إلى وجهِ الله ـ جَلَّ وَعَلاَ.

اللهم متِّعْنَا بالنظر إلى وجهك الكريم بصحبة نبيك يا أرحم الراحمين .

والناس جميعًا بما فيهم الكفار والمسلمون يصدِّقون الأطباء والخبراء والعلماء فيما يقولون . . إذا ذهبت لطبيب ، وقال لك : أرى في الكُلْيَةِ اليمنى على هذا الجهاز الإشعاعي حصاة . هل تكذبه ؟ لا ، بل تصدق الكافر والمسلم ، مع أنك ما رأيت الحصاة .

ويصنع الخبير الألمانيُّ أو الأمريكيُّ أو اليابانيُّ لك السيارة ، ويقول لك : طرق التشغيل للسيارة كذا وكذا ، تلتزم وتحترم النظام ولا تُكَذِّبُ المهندس أو الخبير ولا ترد عليه قوله أبدًا .

بل إذا ذهبت لطبيب غربيٍّ وتكلم بين يديك كلامًا كأنه وحيٌ ، كأنه لا ينطق عن الهوى ، وتقول : لا ، أنا أجريت الفحوصات في ألمانيا ، فالأمر لا يحتاج إلى مناقشة ولا يحتاج إلى حوار ، بل إن الموضة الجديدة الآن يقول أحدهم : أنا أجريت الجراحة لابني في إسرائيل ، هل قرأتم هذا التحقيق ؟

سبحان الله ! دعاية إعلانية وإعلامية ضخمة جدًّا على أن الطب في إسرائيل فاق الطب في البلاد الغربية ، ورأينا من أكابر مصر من ذهب بأبنائه للعلاج في إسرائيل ، والعجب أن الناس لا يكذِّبون قول بعض الناس ، في الوقت الذي كذَّبوا فيه قول خالق الناس ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وقول خير الناس من أنبياء الله ورسله .

ومن الناس من يشترط لكي يؤمن ويذعن أن يستجيب الله له ؛ كما قال أهل الكفر في مكة للنبيِّ ﷺ : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٩٠ـ٩٢] .

يطلبون هذا للتعجيز ، فإن استجاب نؤمن بالله ، كما قال الحواريون لعيسى : أنزل علينا مائدة من السماء ، فسأل عيسى ربه فأنزلها عليهم بشروط ، والتي كانت سببًا في العذاب بعد ذلك لمن أنكر وعاند وكذب ، والحقيقة أن الله ﷻ لو استجاب لهؤلاء المجرمين لصار دين الله ألعوبة .

قال الله ﷻ : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ

وَمَن فِيهِنَّ ﴾[المؤمنون :٧١] .

فيأتي أحدهم ، ويقول : لن نؤمن بالله حتى يقلب الليل نهارًا ، والنهار ليلًا ، إذا اختل قانون الكون .

والآخر يقول : لن أؤمن حتى ينتقم الله من الظالم فلان ، أو من البلد الفلاني ، أو لن أؤمن إلا إذا أصبحت زوجتي رجلًا أو ابنتي ولدًا !!

كلام باطل وضلال ، فلقد أقام الله الأدلة الساطعة الناصعة في مخلوقاته ليهتدي إلى الحق ـ تبارك وتعالى ـ كلُّ من أطاع أنبياءَ الله ورسله ونظر بعينيه إلى كون الله وآياته ومخلوقاته ، فاهتدى بعد هذا العلم واستقرت حقيقة الإيمان في قلبه .

وتدَّبر بعض الأدلة الجميلة التي أودعَهَا الله كونه دَلِيلًا سَاطعًا على وحدانيته وعلى عظيم حكمتِهِ ـ جَلَّ وعَلَا.

ذكر لنا الإمام ابن القيم رحمه الله وطيب ثراه ـ كلامًا عجيبًا دقيقًا وددتُ لو راجعتموه في كتابه « شفاء العليل »، وكذلك في « بدائع الفوائد » ، وأنا ألخص لكم بعض ما ذكره من عجائب مخلوقاته ـ تبارك وتعالى ـ في هذا الكون التي لو أنصف المنصفون ، ووقفوا أمام هذه المخلوقات العجيبة لوحدوا الله ﷻ ولامتلأت قلوبهم إيمانًا بالله .

يقول ابن القيم [1] مبينًا هداية الله للنحل في أمور معاشه : « وأمْر النحل في هدايتها من أعجب العجب ، وذلك أن لها أميرًا أو ملكًا ،

---

(١) « شفاء العليل » (١/ ٦٦) وما بعدها ، بتصرف . ط دار الفكر .

وهو أكبر جسمًا من جميع النحل وأحسن لونًا وشكلًا ، ثم تجمع الأمهات الفراخ والنحل عند الملك ، فيخرج بها إلى المراعي بين المروج والرياض والرياحين والبساتين في أقصر الطرق وأقربها ، فيجنى النحل منها ما يكتفون به ويرجع الملك بالنحل للخلايا مرة أخرى ، فإذا انتهى النحل بالخلايا وقف الملك على الباب ، ولم يدع ذكرًا أو نحلة لتدخل الخلية ، فإذا تكامل دخولها دخل بعدها وتواجدت النحل في مقاعدها وأماكنها ، فيبدأ الملك في العمل كأنه يعلم النحل والصغار خاصة كيف يعملون ، فإذا بدأ النحل في العمل كف الملك ، ثم يقسم النحل نفسه فرقًا داخل الخلية ، فرقة تلزم الملك ولا تفارقه ، وفرقة تهيئ الشمع وتصنعه ، ومنها فرقة تصفي الشمع وتخلصه من كل ما علق بها مما هو خارج عليه ، وفرقة تكنس الخلايا وتنظف الخلايا من الأوساخ ، وفرقة عجيبة جدًا إذا رأت نحلة لا تعمل داخل الخلية تقتلها خشية أن تنقل كسلها إلى بقية النحل من علم النحل ذلك ؟ الله .

وأول ما يبني النحل في الخلية يبنون بيت أو مقعد ملك ، ثم يأخذون في ابتناء البيت على خطوط متساوية كأنها سكك ومحلات ، وتبني النحل بيوتها على شكل مسدسات متساوية ، كأنها قرأت كتاب إقليدس ، حتى عرفت أوفق الأشكال لبيوتها ، فتبارك الذي هداها أن تسلك سبل مراعيها على قوتها ، ودلها على أماكن القوت ولا تضل عن أماكن القوت ، ولا تعجز أن تقتني أطيب ما في المرعى وألطف ما فيه ، وأن تعود إلى بيتها الخالي ، لتصب فيه شرابًا مختلفًا ألوانه فيه شفاء للناس ، إن في ذلك

لآيات لقوم يتفكرون .

فإذا فرغت من بناء البيوت خرجت خماصًا تسيح سهلًا وجبلًا ، فأكلت من الحلاوات المرتفعة على رؤوس الأزهار وورق الأشجار ، فترجع بطانًا ، وجعل سبحانه في أفواهها حرارة منضجة لتنضج ما جَنَتْه فتعيده حلاوة ونضجًا ، ثم تُمجُّهُ في البيوت ، حتى إذا امتلأت وسدت رؤوسها بالشمع المصفى عمدت إلى مكان آخر إن صادفته اتخذت فيه بيوتًا وفعلت كما فعلت في الأولى ، وتعمل كل فرقة منها بما يخصها من العمل ، فإذا أمست رجعت إلى بيوتها ، فإذا كان وقت رجوعها وقف الملك على باب الخلية ومعه أعوانه ، فكل نحلة تريد الدخول إلى الخلية يشمها البواب ، ويتفقدها فإن وجد منها رائحة منكرة ، أو رأى بها لطخة من قذر منعها من الدخول إلى الخلية وعزلها في ناحية ، فإذا دخل النحل يرجع مرة أخرى ليتفقد من عزل من النحل خارج الخلية ، فإذا وجد من النحل من وقع على شيء منتن ونجس قسمه نصفين ، ومن كانت جنايته خفيفة تركه خارج الخلية ليتأدب حتى لا يقع بعد ذلك على النتن ! من علَّمَ النحل ذلك ؟

وأما الملك فلا يكثر الخروج من الخلية إلا نادرًا إذا اشتهى التنزه ، خرج من الخلية ، وخرج معه أمراء النحل والخدم ، فيطوفون بين المروج والرياض والبساتين ساعة من النهار ثم يعود مكانه ، وفي النحل كرام عمال لها سعيٌ وهمة واجتهاد ، وفيها لئام كسالى قليلة النفع ، فالكسالى دائمًا تطردها وتبعدها عن الخلية ولا تسكنها خشية أن تعدي كرامها من

النحل .

والنحل من ألطف الحيوان وأنقاه ؛ لذلك لا يلقي النحل الفضلات إلا وهو يطير وتكره النتن والروائح الخبيثة .

يقول : ولما كانت النحل من أنفع الحيوان بركة قد خُصَّت بالوحي من الرب ـ جَلَّ وَعَلَا ـ قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل :٦٨] .

والسؤال : مَنْ الذي عَلَّمَ النَّحْل كل هذا ؟

إنه الله ربُّ العالمين .

ويقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه (شفاء العليل) عن عجائب صنع الله تعالى في عالم النمل بعد عالم النحل ، يقول[1] : « هذه النملة من أهدى الحيوانات ، وهدايتها من أعجب الأشياء ، فإن النملة الصغيرة تخرج من بيتها وتطلب قُوتَهَا وإن بَعُدَ عليها الطريق ، فإذا ظفرت بالطعام أو بالقوت حملته وساقته في طرق بعيدة معوجَّة ذات صعود وهبوط في غاية من التوعُّر ، حتى تصل النملة إلى بيتها ، فتخزن فيه قوتها ، فإذا خزَّنت القُوتَ عمدت إلى ما ينبت منه فَلَقَتْه فَلْقَتَيْنِ لئلا ينبت ، فإن كان ينبت مع فلقه باثنتين فلقته أربعة ، فإن أصابه بلل ، وخافت عليه العفن انتظرت به يومًا ذا شمس فخرجت بالطعام فنشرته على باب بيتها ، ثم أعادته إليها مرة أخرى » .

من الذي علَّمَ النملة ذلك ؟ دبِّر قول الله تعالى : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ

---

(١) « شفاء العليل » (١/ ٦٨، ٦٩) . ط دار الفكر .

جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[النمل :١٧، ١٨] .

ثم يقول الإمام ابن القيم : « فأخبر بأنهم بأجمعهم مروا على ذلك الوادي ، ودَلَّ على أن ذلك الوادي معروف بالنمل كوادي السباع ونحوه ، ثم أخبر بما دَلَّ على شدةِ فطنةِ هذه النملة ودقَّة معرفتها حيث أمرتهم أن يدخلوا مساكنهم المختصة بهم وقد عرفت هي والنمل أن لكل طائفة منها مسكنًا لا يدخل عليهم فيه سواهم : ﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ ﴾ ثم قالت : ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ .

فجمعت بين الاعتذار عن مضرة الجيش لكونهم لا يشعرون وبين اللوم لأمة النمل حيث لم تأخذ حذرها ؛ لذلك تبسم نبيُّ الله سليمان ضاحكًا من قولها ، فإنه موضع تبسُّم وتعجُّب حقًّا والله .

بل وفي « الصحيح » عن أبي هريرةَ أن النَّبيَّ ﷺ قالَ : « نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ ، فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ ، فَأَمَرَ بِجِهَازِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَأُحْرِقَتْ ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ أَفِي أَنْ قَرَصَتْكَ نَمْلَةٌ أَهْلَكْتَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ تُسَبِّحُ »[١] » اهـ.

هذا هو عالمُ النملِ ، عالم عجيب ، لو تفكَّرتَ فيه لتعرَّفت على

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ، فإن في أحد جناحيه داء وفي الآخر شفاء ، وخمس من الدواب فواسق يقتلن في الحرم (٣٣١٩) ، وانظر (٣٠١٩) ، ومسلم في كتاب السلام ، باب النهي عن قتل النمل (٢٢٤١).

الخالق .

مَنْ علَّمَ الثعلب تلك الحيل التي يعجز العقلاء عن علْمها وعَمَلِها؟ !

وهي أكثر من أن تذكر ، سبحان الله . . ينفخ الثعلب بطنه ، ويخرج ريحا نتنة كريهة ليوهم كل من يراه أنه قد مات ، فإذا ما أقبلت عليه الفريسة لتأكل من جيفته شيئًا انقض عليها فأكلها في الحال .

ومَنْ الذي علم الأسد إذا مشى ، وأراد أن يعفي الأثر أن يمشي على الأثر بذيله ليعفي موضع آثار الأقدام ؟ .

ومَنْ الذي ألهم كرام الأسود وأشرافها ألا تأكل إلا من فريستها ، فإذا مرَّ الأسد الشريف الكريم على فريسة أوقعها أسد غيره لا يمكن أن يأكل منها أبدًا ! مَنْ الذي علمه ذلك ؟ .

ومَنْ الذي عَلَّمَ الذباب إذا سقط في سائل مائع أن يتقي بالجناح الذي فيه الداء دون الآخر ؟ .

ومَنْ الذي عَلَّمَ الكلب إذا ما عاين الظباء أن يعرف المعتل من غيره ، والذكر من الأنثى ؟

فالكلب إذا جرى وراء الظباء لا يجري وراء الأنثى ، وإنما يجري وراء الذكر من الظباء .

سبحان الله !! لماذا ؟ لأن ذكر الظباء إذا جرى وراءه الكلب خاف ، وإذا خاف انحشر بوله فيه من شدة الخوف ، فلا يستطيع أن يواصل الجري ، فإذا ما جرى الكلب وراءه مدة طويلة وقف فأكله الكلب ، أما

الأنثى : لا يجري وراءها ، لأنها إذا خافت انسال بولها ، فإذا ما انسال خفت فجرت جريًا طويلًا لا يقدر الكلب على أن يواصل الجري معها !!!

أشياء كثيرة في الكون لو نظرْتَ إليها لوحَّدت الخالق ـ جَلَّ وَعَلَا ـ ، وصدق ربي إذ يقول :

﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات :٢١] .

تدبَّر إلى خلقك وشكلك ولونك ؛ فنظرك فيك يكفيك ؛ ففي الرأس فقط ترى العين والأنف والأذن والفم ، فماء العين مالح ، وهو الدموع ، لحفظ العين من الأتربة .

وماء الأنف حامض ، ليصبح فلترًا للتنقية !!!

وماء الأذُنِ مُرٌّ ، حتى لا تتسرب إلى أذُنِكَ الحشرات وأنت نائم !!!

وماء الفم حلو ؛ لتتذوق به ألوان الطعام والشراب ، وأصلُ كلِّ هذا الماء واحد ، وهو رأسك أيها الإنسان !!!

ففي كلِّ شيءٍ له آية تدلُّ على أنه الواحد!!!

*****



أركان الإيمان

ثانيًا

الإيمان بالملائكة

الركن الثاني من أركان الإيمان
الإيمان بالملائكة

الإيمانُ بالملائكة أصلٌ من أصول الاعتقاد ، لا يصح إيمان العبد إلا به ، معنى ذلك أن حديثنا عن الملائكة ليس من باب الترف العقلي ، ولا من باب الثقافة الذهنية الباردة التي لا تتعامل إلا مع العقول والأذهان فحسب ، بل لا بد أن تعلم أننا نتحدث عن ركن من أركان الإيمان ، لا يصح إيمانك واعتقادك إلا به .

فقد ذَكَرَ اللهُ الإيمانَ بالملائكة بعد الإيمان به في أكثر آي القرآن ، قال تعالى : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾[البقرة: ٢٨٥] ، وقال سبحانه : ﴿...وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾[البقرة :١٧٧] ، وبَيَّنَ الله كفر وضلال منْ كَفَرَ بهم ، فقال سبحانه : ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾[النساء : ١٣٦] ؛ بل ذكر الله أن من أهل الشرك من عبد الملائكة من دون الله ، قال سبحانه : ﴿ وَيَوۡمَ يَحۡشُرُهُمۡ جَمِيعٗا ثُمَّ يَقُولُ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ۝ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ أَكۡثَرُهُم بِهِم مُّؤۡمِنُونَ ﴾[سبأ: ٤٠ ، ٤١] .

والإيمان بالملائكة من الإيمان بالغيب ، إذ إننا لا نرى الملائكة ، ولا نعرف خلقهم ، ولا وصفهم ، ولا نعرف شيئًا عن صفاتهم الخِلقية والخُلقية إلا

من خلال ما أخبرنا به رب البرية وسيد البشرية محمد ﷺ؛ فالإيمان بالملائكة من الإيمان بالغيب، والإيمان بالغيب صفة من صفات المتقين الصادقين، قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[البقرة: ١-٣].

فكلَّما امتلأ القلبُ إيمانًا بالله وتصديقًا لرسول الله ﷺ صَدَّقَ كلَّ خبر جاء عن الله، وعن رسولِ الله ﷺ بالسندِ الصحيحِ.

والقرآن الكريم قد بَسَطَ الحديث عن الملائكة، وكذلك السُّنَّة النبوية الصحيحة قد تحدَّثت عن الملائكةِ حديثًا طويلاً تعدَّدت جوانبه، كما سنرى إن شاء الله تعالى، وما أطالت النُّصوص القرآنية والنبوية الحديث عن الملائكة إلا لأن العقل البشري لا يمكن على الإطلاق أن يتوصلَ إلى حقيقة الملائكة إلا من خلال وحيٍ جاء به الرسل عن الله ـ جلَّ وعلا.

فالإنسانُ لا يدرك كلَّ ما في الكون، ومن ثَمَّ أنزل اللهُ الكتبَ وأرسلَ الرسلَ ليخبروا الإنسان بما خَلَقَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في هذا الكون من المخلوقات الأخرى التي تخالف طبيعة هذا الإنسان، ومن هذه المخلوقات: الملائكة.

ولقد عاب الكفار والملحدون على أهل الإيمان أن يؤمنوا بالغيب ورَمَوْهُم بالسَّفَهِ والجهالةِ؛ لأنهم يعتقدون بما لا يرون، أو يسمعون، أو يحسُّون، أو يلمسون، أو يتذوَّقون، أو يشمُّون!!

يعني بما لا يقع تحت حواسهم الخمس التي هي السمع والبصر واللمس والشم والذوق. ونسارع بالرد على هؤلاء ونقول: إن الكون كُلَّهُ

ينقسم إلى غيب وشهادة :

فالغيب: ما غاب عن الموجودات وعن أعين الناظرين ، وإن كانت حقيقة مُسَلَّمًا بها .

والشهادة : خلاف الغيب ، وهي كل شيء من الموجودات يقع تحت حواس الإنسان .

وبذلك ؛ فإن الإنسان بحكم طبيعة الحياة ـ مقدر له الإيمان بالغيب ، ومفروض عليه ، لا يستطيع التخلص منه بحال ، اللَّهُمَّ إلا إذا سفه نفسه ، وأراد التخلي عن كرامته الآدمية ، وعن شرفه الإنساني ، ليصبح بعد ذلك حيوانًا هابطًا ، لا خير فيه ، أو آلة صماء لا وعي لها ولا إدراك .

وذلك ؛ لأن الإنسان ـ كائن متحيز ، متى وجد في مكان استحال عليه أن يوجد في مكان آخر مع بقائه في مكانه الذي هو فيه ، ومن هنا ستصبح سائر الأمكنة التي تخلو منه ببعده عنها غيبًا له ، وليست بشهادة عنده ، ولا بد له أن يؤمن بها ، وما فيها من أشياء ـ جواهر وأعراض ـ متى وُجدت آثار تدل على ذلك أو أخبار صادقة تنبئ به فهو يؤمن بالأشياء عن طريق أخبار صادقة أو آثار دالة ، ولا ينحصر إيمانه بالأشياء فيما يقع تحت حواسه ، خاصة وأن حواس الإنسان التي يحصل بها العلم محدودة القوة ، محصورة الإدراك في مجال معين لا تتعداه ، فسمعه مقيَّدٌ في السماع بالأصوات العالية ، فإذا انخفضت إلى درجة معينة تعذَّر عليه أن يسمع ، وبصره مقيَّدٌ برؤية الأجسام الكبيرة ، فإذا صغرت ودقت أو بلغت حدًا معينًا من الصغر والدقة عجزت عن

رؤيتها ، ولمسه كذلك ، فإنه يحس بالأجسام الكثيفة ، فإذا خفَّتْ انقطع إحساسه بها ، وشمه لا يدرك إلا عن قرب ، وتذوقه أقرب منه .

وحتى عقله ؛ فإنه يكِلُّ عن إدراك أشياء معقولة ، ويعيى عن تصورها تمامًا ، ومن هنا كان لابد للإنسان من الإيمان والتصديق بأشياء لم يشاهدها ولم يحس بها بأية حاسة ، ولم يدرك حتى تصورها بعقله ، ولا خيار له في ذلك إذا أراد أن يقيم لكرامته وزنًا ، ولقيمته البشرية قدرًا من الاحترام والتقدير .

ـ وكيف ننكر هذه الحقيقة ، ونحن نرى أن الإنسان يعيش في بلدٍ ما ، ولم يخرج منه أبدًا ، وهو يؤمن بعشراتِ البلاد ، ويصدق بوجودها ، وهو لم يرها ، ولم ير من رآها قط.

ـ كما نرى إنسانًا آخر لم ير الفيل طول حياته ، وهو يؤمن بوجود هذا الحيوان الذي لم يره ، ولم ير من رآه أبدًا . ونرى ثالثًا يؤمن بالجاذبية إيمانًا جازمًا ، ومن المعلوم أن الجاذبية مما لا يُرَى ولا يشاهد أبدًا ، ونجد رابعًا وُلِدَ ولم يعرف والده لموته قبل ولادته ، وهو مؤمن بأن له والدًا ولا ينكر ذلك بحال ، ولذا كان من المضحكات أن يدَّعي إنسان أنه لا يؤمن بالغيب أو أنه يستطيع أن يعيش في هذه الحياة بدون أن يؤمن بالغيب .

إن الإنسان يكتسب علمه بالموجودات عن طريق عقله وحواسه ، نعم ، ولكن لا سبيل له إلى معرفة الغيب إلا عن طريق آخر ، هو السماع به ، أو مشاهدة آثاره الدالة عليه ، فالمرءُ إذا أخبره أحد أن فلانًا مات ، أو سافر ، أو قدم من سفرٍ ، وكان بعيدًا عنه لا تمكنه رؤيته حصل له

العلم بحاله من موتٍ أو سفرٍ أو قدومٍ منه ، حصل له بواسطة الخبر الذي تلقاه عن غيره من عقلاء الناس .

ـ والمرء قد يمر بأرضٍ فيجد بها سيولًا تجري ، وشعابًا طافحة بالماء فيعلم فورًا أن مطرًا قد نزل فبلل الأرض ، وإن لم يشاهد نزوله ، ولم يخبره بنزوله أحد ، وإنما حصل له علم به بواسطة الأثر الذي دلَّ عليه ، وهو سيلان الأودية وامتلاء الشعاب بالماء مع عدم وجودها فيها قبل ذلك ، وقد يمر الإنسان بمكانٍ ما فيشم روائح طيبة فيعلم أن هناك عطارًا ، أو أشجارًا من ذوات الروائح الطيبة ، وإن لم ير ذلك بعينه ولم يخبره أحد من الناس .

ـ وهكذا يؤمن الإنسان بالغيب ، ويحصل فيه على اليقين الكامل بواسطة خبر الثقات ، أو آثار الأشياء التي آمن بها ، وصدق بوجودها لدلالة آثارها عليها .

ومن هنا كان الإيمان بوجود الملائكة أمرًا معقولاً ، ومطلبًا سهلاً ميسورًا ، فالملائكة وإن كانوا غيبًا ، فقد دلَّ على وجودهم الدليلُ الذي ثبتت به كل الموجودات الغيبية عند الإنسان والذي هو خبر الثقات ، وآثار الموجودات .

ونزيد هذه الحقيقة توضيحًا . فنقولُ : أليس الإنسان العاقل يخبره ذو صدق بحدوث كذا أو كذا من الممكنات فيصدقه في خبره ، ويعتقد صحة ما أخبره به ؟

ـ أليس الإنسان العاقل يسمع صوتًا بعيدًا عنه لم ير مصدره فيؤمن

بذي الصوت ويصدِّق بوجوده كأنه رآه أو شاهده ؟

ـ أليس الإنسان العاقل يجد كرسيًا قد وُضِعَ في غرفةٍ فيعلم أن هناك أحدًا قد وَضَعَ هذا الكرسَي وأعدَّه للجلوس عليه ، وإن لم يَرَ من فَعَلَ ذلك ؟

ـ أليس الإنسان العاقل إذا رأى كتابًا يعلم فورًا أن هناك أحدًا أمْلَى هذا الكتاب ، وأن آلة قد طبعته ، ولا يشك في هذا ولا يتردد أبدًا ؟ وحصول هذه اليقينيات له ، كانت كلها عن طريق الخبر أو الأثر ، وهما الدليل العقلي للإيمان بكل الغيوب ؛ ولهذا سوف نتكلَّم عن الملائكة بملء الفمِ ، ونقرر أن وجودهم يقينيٌّ ، وحقيقة ثابتة لا يقوى عاقل على إبطالها أو نفيها ، وأما الذين كفروا وتنكَّرُوا لعقولهم ، وهبطوا من سماء كرامة آدميتهم ، فأصبحوا لا يؤمنون بشيء حتَّى وجودهم ، فإنا لا نقيم لهم وزنًا ، آمنوا أو كفروا ، صدَّقوا أو كَذَّبوا !! وهذا هو دليل وجود الملائكة عليهم السلام ، وهو الدليل الذي ـ قدمنا أنه ـ بواسطته آمن العقلاء بكل غيب تعذَّر أن يكون من قسم الشهادة ، والدليل ـ كما سبق أن عرفناه ـ يتكون من عنصرين :

الأول : الأخبار.

والثاني : الآثار [١].

(١) « عقيدة المؤمن » لأبي بكر الجزائري (ص ١٨٢ـ ١٨٥) بتصرف .

من هم الملائكة ؟

الملائكة : لغة : «جمع مَلأك ، نقلت حركة الهمزة فيه إلى الساكن قبله ، ثـم حذفت الألـف تخفيفـا . فصـارت ملكـا ، وهـو مشـتق مـن كلمـة (الألوكة) التي هي الرسالة ، والجمع ملائك وملائكة »[1] .

قـال الفـيروز آبـادي[2] : « الملـك أصـله : آلـكَ ، والمألكـة ، والمألـك : الرسالة .ومنه اشتق الملائك ؛ لأنهم رسل الله . وقيـل : اشـتق مـن (لَ أ ك) والملائكة : الرسالة ، وألكني إلى فلان ، أي بلِّغْه عني ، والملأك : الملك ؛ لأنه يبلغ عن الله تعالى . وقال بعض المحققين : المَلَكَ مـن المُلـك . قـال : والمتولي من الملائكة شيئًا مـن السياسـات ، يقـال لـه مَلَـك ، ومـن البـشر مَلِك » .

واصطلاحًا : هم خلقٌ مـن خلـقِ الله ﷻ ، خَلَقَهُمْ الله ﷻ مـن نـور ، وجبلهم على الخير ، وعصمهم من الشر ، وفطرهم على عبادته وتسبيحه ، مع الخوف منه وتقديسه ، وهم من العظمـة بمكـان ، ولا يعلـم عـددهم إلا الواحد الديَّان .

أعطاهم الله قدرة على التشكيل بأشكال مختلفة .

وأتحدث في نقاط سريعة جدًا عن صفات الملائكة الخَلْقية والخُلُقِية .

*****

(١) « لسان العرب » (٦/ ٤٢٦٩) .

(٢) « بصائر ذوي التمييز » (٤/ ٥٢٤) .

أهم صفات الملائكة الخَلْقِيَّة [١]

السؤال الأول : من أي شيء خلَق اللهُ الملائكة ؟

الجواب : كما في الحديثِ الصَّحيح الذي رواه مسلمٌ [٢] من حديث عائشةَ رضي الله عنها أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : « خُلِقَتِ المَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ » .

قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾[المؤمنون :١٢] .

قرأت كلامًا طويلاً جدًّا لكثيرٍ من أهل العلم في صفحات طويلة تتكلَّم عن حقيقةِ هذا النُّور ، وعن كيفية هذا النور ؛ فقلت : سبحان الله ! ما هي الحكمة من وراء الخوض في هذه المسألة ؟! فهذا من العلم الذي لا ينفع ، ومن الجهلِ الذي لا يضر ، المهم أن تعلم أن النبيَّ ﷺ قد أخبر أن الملائكة قد خُلِقَتْ من نور ، وطبيعة النور وكيفيته وشكْلُه لا يعنينا أبدًا ، ولو كان في هذا فائدة لذكرها لنا المصطفى ﷺ .

فكلُّ شيء سكت عنه القرآن وسكت عنه النبيُّ ﷺ فلا تنقب عنه ولا ينبغي أن تبحث عنه ؛ فهذا من أسباب هلاك الأمم السابقة .

قال ﷺ : « ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ » [٣] .

---

(١) انظر لهذا المبحث : « عالم الملائكة » للأشقر . فقد أفادني كثيرًا .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، باب في أحاديث متفرقة (٢٩٩٦) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الاعتصام بالسنة ، باب الإقتداء بسنن رسول الله ﷺ (٧٢٨٨) ، و« مسلم » ، كتاب الحج ، باب فرض الحج مرة في العمر ، واللفظ لمسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواية البخاري مختصرة .

فالنبيُّ ﷺ يبين لنا أن الملائكة قد خَلَقَها اللهُ من النور ، والجان خُلِقَ من النار ، وآدم خَلَقَهُ الله من الطين أو التراب أو مما وصفه اللهُ ﷻ لنا ، ولا داعي أن نستطرد أو نطيل البحث في حقيقةِ هذا النور الذي خُلِقَت منه الملائكة الكرام عليهم السلام .

السؤال الثاني : متى خلقوا ؟

الجواب : لا ندري ، ولا يعلم أحدٌ ذلك ، إلا أننا نجزم أن الله تعالى قد خلَقَ الملائكة قبل خَلْقِ آدم عليه السلام ، لكن متى؟ لا يعلم ذلك أحد إلا خالق الملائكة ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٣٠] .

وهنا سؤال : لماذا حَكَمَت الملائكة على هذا الخليفة بالفساد ، وسفك الدماء مع أنهم لم يروا في الأرض خليفة قبل ؛ فمن أين استَقَتِ الملائكة هذا الحكم ؟

الجواب[1] : من أهل العلم من قال بأن الملائكة لا تعلم شيئًا إلا ما أعلمها الله إياه ؛ كما قال تعالى: ﴿ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ [البقرة:٣٢]

ومن أهل العلم من قال : قالت الملائكة ذلك ؛ لأن الملائكة رأت الجنَّ يسفك الدماء في الأرض ، فاعتقدت بأن ذلك الخليفة من جنس ما رأت على الأرض من الجن سيكون مُفْسِدًا مُسْفِكًا للدماء .

(١) انظر: « تفسير ابن كثير » و«القرطبي» وغيرهما .

والله أعلم بذلك، فإنه ليس عندنا دليل من الصادق المصدوق ﷺ.

ولكننا نجزم بأن الله خَلَقَ الملائكة قبل خلق آدم عليه السلام.

السؤال الثالث: ما هي صفة الملائكة؟

الملائكة مخلوقات عظيمة وصفها الله عز وجل في بعض آيات القرآن؛ فقال سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦].

وقال في وصف مَلَكٍ من هذه الملائكة: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير:١٩ـ٢١].

مَنْ هو؟

هو جبريل عليه السلام، وجبريل مطاع عند الله في الملأ الأعلى.

روى البخاريُّ ومسلمٌ من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه[١]: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ، وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ».

ألم أقل لكم إنه أمرٌ لا يدركه عقل، بل لا يُدْرَك إلا من خلال الوحي عن الصادق الذي لا ينطق عن الهَوَى ﷺ.

وقال في رواية أخرى: «رَأَى رَفْرَفًا أَخْضَرَ سَدَّ أُفُقَ السَّمَاءِ»[٢].

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب بدء الخلق، باب «إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه» (٣٢٣٢)، وانظر طرفيه هناك، ومسلم، كتاب الإيمان، باب «في ذكر سدرة المنتهى» (١٧٤).

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب، بدء الخلق، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه (٣٢٣٣)، وانظر أطرافه هناك.

وفي رواية عن عائشة ﷺ : « رَأَى جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ ، وَخَلْقُهُ سَادٌّ مَا بَيْنَ الأُفُقِ » .

وفي رواية مسلم : « سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ »[(١)] .

فهو خلقٌ عظيمٌ لا يتصوَّره عقل بشري ؛ وقال سبحانه : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٖ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴾ [فاطر:١] .

هذا وصفٌ من الله للملائكة في قرآنه ، فالملائكة لها أجنحة لا يعلم حقيقة هذه الأجنحة إلا الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ ، والملائكة ليسوا على درجة واحدة من الخلق ، ولا في المقدار أبدًا ؛ فبعض الملائكة له جناحان ، والآخر له ثلاثة ، وقد ذكر النبيُّ ﷺ : « أَنَّ جِبْرِيلَ لَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ » .

ولهم عند ربهم مقامات متفاوتة ؛ قال الله ـ تعالى ـ عنهم: ﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعْلُومٞ ﴾ [الصافات:١٦٤] ، هذا عن الملائكة ، يعني كل مَلك له مكانٌ ومقامٌ عند الله ﷻ ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ﴾ [التكوير :١٩ـ٢١] .

وفي « صَحِيح البخاريِّ »[(٢)] من حديثِ رفاعة بن رافع ﷺ قالَ : جَاءَ جِبْرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فَقَالَ : « مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ ؟» قَالَ : مِنْ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب « إذا قال أحدكم : آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه » (٣٢٣٤) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم كتاب الإيمان ، باب « في ذكر سدرة المنتهى » (١٧٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المغازي ، باب شهود الملائكة بدرًا (٣٩٩٢) .

أَفْضَلِ المسلِمِين ـ أو كلمة نحوها ـ قَالَ : « وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِنَ المَلائِكَةِ» .

ولذلك قالَ النَّبِيُّ ﷺ: « لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ ، فقَالَ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ، فقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ » [(١)].

فالملائكة التي شهدت بدرًا هم خيار الملائكة ؛ قال تعالى : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾[الأنفال :١٢] .

وفي عِظَمِ خَلْقِهِم ؛ يقول النَّبِيُّ ﷺ ؛ كما رَوَى أبو داود وغيره عن جابر رضي الله عنه أنَّه ﷺ قَالَ : « أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَك مَنْ مَلائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ » [(٢)].

ورَوَى الطبرانيُّ في «الأوسط» عن أنس رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ رِجْلاهُ فِي الأَرْضِ السُّفْلَى ، وَعَلَى قَرْنِهِ العَرْشُ ، وَبَيْنَ شحْمَةِ أُذُنَيْهِ وَعَاتِقِهِ خَفَقَانُ الطَّيْرِ سَبْعمائَةِ عَامٍ ، يَقُولُ ذَلِكَ المَلَكُ : سُبْحَانَكَ حَيْثُ كُنْتَ » [(٣)].

رابعًا : جمال الملائكة :

ومع عِظَمِ خَلْقِهِم فقد خلقهم الله سبحانه على صورةٍ جميلةٍ كريمةٍ ؛

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير باب الجاسوس (٣٠٠٧) وانظر أطرافه هناك ، ومسلم كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أهل بدر رضي الله عنهم وقصة حاطب بن أبي بلتعة (٢٤٩٤) .

(٢) أخرجه أبو داود ، كتاب السنة ، باب في الجهمية (٤٧٢٧) . قال الهيثمي في « المجمع » (١/ ٨٠) : « رواه أبو داود إلا قوله :«سبعين عامًا » ، ورواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح » ، وصحَّحه الألباني في « صحيح الجامع » (٨٥٤) و « الصحيحة » (١٥١) .

(٣) أخرجه الطبرانيُّ في « الأوسط » (٦ / ٣١٤) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٣ / ١٥٨) وقال الهيثمي في « المجمع » (١/ ٨٠) : «رواه الطبراني في الأوسط» وقال : تفرد به عبد الله بن المنكدر ، قلت هو وأبوه ضعيفان » وصحَّحه الألباني في « صحيح الجامع » (٨٥٣) و « الصحيحة » (١٥٠) .

كما قال سبحانه في جبريل : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ [النجم:٥، ٦]

قال ابن عباس : ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أي : « ذو منظر حسن »[١].

وقال قتادة : « ذو خلق طويل حسن »[٢]، فجبريل قوي، وحسن المنظر.

والناس يصفون الملائكة بالجمال كما يصفون الشياطين بالقبح، ولذلك يُشَبِّهون الجميل من البشر بالمَلَكِ كما قالت النِّسوة في يوسف الصدِّيق لما رأينه، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَـٰشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف :٣١].

ومع جمالهم ؛ لا يوصفون بالذُّكورة ولا بالأنوثة ؛ فلقد عاب الله علي الكفار مقالتهم التي قالوها في شأن الملائكة بأنهم إناث وأنهم بنات الله ؛ فقال تعالى : ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ۝ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ۝ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ أَمْ لَكُمْ سُلْطَـٰنٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصافات : ١٤٩-١٥٦]، وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف :١٩].

---

(١) أخرجه الطبري في « تفسيره » (٣٢٤٢٤) من طريق علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس ؛ وسنده منقطع.

(٢) أخرجه الطبري (٣٢٤٢٥) بسند صحيح.

خامسًا : الملائكةُ لا يأكُلُون ولا يَشْرَبُون ، ولا يَمَلُّون ، ولا يَفْتُرُون عنْ ذِكْرِ رَبِّ العَالَمِين .

قف مع هذه الصفة الجميلة : الملك لا يأكل ولا يشرب ؛ بل من يوم أن خَلَقَ الله الملائكة ما أكلوا ولا شربوا ـ سبحان الله ـ لقد قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٤ـ٢٧] .

هذا الضيف من الملائكة ، لما انطلق إبراهيم المِضْيَاف وذبح العجل السمين، وقرَّبه إلى الملائكة وَجَدَ الملائكة لم تأكل ، وفي آية أخرى قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٠] .

وقد نقل السيوطيُّ عن الفخر الرازي : «أنَّ العلماء اتفقوا على أن الملائكة لا يأكلون ، ولا يشربون ، ولا يتناكحون ، وكذلك لا ينامون» [(١)] .

فالملائكة لا تأكل ، ولا تشرب ، ولا تمل ، ولا تفتر عن ذكر الله ﷻ .

قال تعالى : ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠] ، وقال : ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾ [فصلت : ٣٨] ، لا يملُّون أبدًا من ذِكْرِ الله ولا من تسبيحه ﷻ وهذه خاصية كريمة من خصائص الملائكة .

ومنازلهم ومساكنهم السماء : قال تعالى : ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ

---

(١) « الحبائك في أخبار الملائك » (ص ٢٦٤) .

مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى :٥] ، وقال سبحانه : ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ [فصلت:٣٨] ، وينزلون إلى الأرض إذا أمرهم الله بذلك لتنفيذ أوامره سبحانه ، قال تعالى : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم :٦٤] ، ويكثر نزولهم في أوقات خاصة ، كلَيْلَة القدر ، قال سبحانه : ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر :٣، ٤] . وكتنزلهم عند القتال لمؤازرة الموحدين ، قال تعالى : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩] ، وقال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۝ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران : ١٢٣ـ ١٢٥] .

وغير ذلك مما سيأتي في بيان أعمالهم .

سادسًا : هل تعرف عدد الملائكة ؟

الجواب : لا يعرف عددهم إلا الذي خَلَقَهُم وأَوْجَدَهُم إلَّا أننا نكاد نجزم أن الملائكة خَلْقٌ كثيرٌ فَهُمْ من جُندِ الله ﷻ ، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر :٣١] وحتى تقف على كثرة عدد الملائكة ، تدبَّر هذه الأحاديث الجميلة التي يبين فيها المصطفى ﷺ كثرة ملائكة الله ﷻ .

ففي الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلمٌ[١] ـ في حديث المعراج أنَّ الرسولَ ﷺ قال : « فَرُفِعَ لِيَ البَيْتُ المَعْمُورُ ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ ، فَقَالَ : هَذَا البَيْتُ المَعْمُورُ ، يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ » .

ورَوَى الترمذيُّ وابن ماجة وأحمد والحاكم عن أبي ذر رضي الله عنه أنه ﷺ قالَ : « إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لاَ تَسْمَعُونَ ، أَطَّتْ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للهِ »[٢] .

وفي « صحيح مسلم »[٣] من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رسُولُ الله ﷺ : « يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا » .

وهناك رقيب وعتيد ، وملك موكل بالنطف ، وملك بالجبال ، وملك بالنار ، وملك بالجنان وبالأرزاق وملائكة يلتمسون حلق الذكر ... إلخ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة (٣٢٠٧) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات ، وفرض الصلوات (١٦٢) .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الزهد ، باب قول النبي ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً » (٢٣١٢) ، وقال : « حديث حسن غريب » ، وابن ماجه ، كتاب الزهد ، باب الحزن والبكاء (٤١٩٠) ، وأحمد (٢١٠٠٥) ط شاكر ، والبيهقي في « الشعب » (٧٨٣ ، ٧٨٤) ، والحاكم (٢ / ٥١٠) ، وحسنَّه الألباني في « صحيح الجامع » (٢٤٤٩) ، و « الصحيحة » (١٠٥٩ ، ١٠٦٠ ، ١٧٢٢) ، و « المشكاة » (٥٣٤٧) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الجنة ، وصفة نعيمها وأهلها ، باب في شدة حر نار جهنم ، وبُعد قعرها وما تأخذ من المعذبين (٢٨٤٢) ، ورجح أهل العلم وقفه ، وله حكم الرفع.

ملائكة عددهم لا يعلمه إلا الله ـ جَلَّ جَلاله .

سابعًا : بيان أسمائهم :

ذكر القرآن بعض أسماء الملائكة ، وذَكَرَ النبيُّ ﷺ بعضها كذلك ، كما سيأتي :

وأشهر أسماء الملائكة :

١ ، ٢ ـ جبريل وميكائيل عليهما السلام .

فجبريل هو أمين السماء الذي أنزله الله على جميع الأنبياء والمرسلين قبل سيدهم ولبنة تمامهم ، ومسك ختامهم محمد ﷺ .

وميكائيل موكَّلٌ بالقطر (المطر) والنبات ، وله أعوان يفعلون ما يأمرهم به بأمر ربه .

قال ـ تعالى ـ ذاكرًا جبريل وميكائيل في سورة البقرة في آية واحدة: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة :٩٧ ـ ٩٨] .

وجبريل هو الروح الأمين المذكور في قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء :١٩٣ ، ١٩٤] .

فالروح الأمين : اسم لجبريل عليه السلام . وهو الروح فقط في قوله :﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ [القدر : ٤] .

والروح هو : جبريل عليه السلام . والروح في قوله تعالى :﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ [مريم : ١٧] لمريم عليها السلام .

وروى أحمد والترمذي والنسائي [1] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ـ الطويل فيه ـ « قالوا : أَخْبِرْنَا مَا هَذَا الرَّعْدُ ؟ قَالَ : «مَلَكٌ مِنْ مَلائِكَةِ اللهِ عز وجل مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ ، بِيَدِهِ أَوْ فِي يَدِهِ مِخْرَاقٌ مِنْ نَارٍ ، يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ ، يَسُوقُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللهُ » قَالُوا : فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الذِي نَسْمَعُ؟ قَالَ : «صَوْتُهُ» ، قَالُوا : صَدَقْتَ ، إِنَّمَا بَقِيَتْ وَاحِدَةٌ وَهِيَ التِي نُبَايُعكَ إِنْ أَخْبَرْتَنَا بِهَا ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ لَهُ مَلَكٌ يَأْتِيهِ بِالخَبَرِ ، فَأَخْبِرْنَا مَنْ صَاحِبُكَ ! قَالَ : «جِبْرِيلُ عليه السلام» قَالُوا :جِبْرِيلُ ذَاكَ الذِي يَنْزِلُ بِالحَرْبِ وَالقِتَالِ وَالعَذَابِ عَدُوُّنَا ، لَوْ قُلْتَ مِيكَائِيلَ الذِي يَنْزِلُ بِالرَّحْمَةِ وَالنَّبَاتِ وَالقِطْرِ لَكَانَ ، فَأَنْزَلَ اللهُ عز وجل : ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

[البقرة :٩٧]

وكذلك من الملائكة التي بَيَّنَ الله أسماءهم وبَيَّنَ النبيُّ ﷺ أسْماءهم .

٣ـ إسرافيل عليه السلام :

ومعلومٌ أنه الموكَّلُ بالنفخ في الصُّورِ ، وكان النبيُّ ﷺ يستفتح في صلاته من الليل ؛ فيقول: « اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ... » الحديث [2] .

---

(١) أخرجه أحمد في « المسند » (١/ ٢٧٤) ، والترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، باب ومن سورة الرعد (٣١١٧) ، وقال : « حديث حسن غريب » ، والنسائي في « الكبرى » (٩٠٧٢) ، وصحَّحه الألباني في « صحيح الترمذي » ، و « الصحيحة » (١٨٧٢) و« صحيح الجامع » (٣٥٥٣) .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧٠) .

وهؤلاء الثلاثة الأملاك رؤساء الملائكة ، وهم الموكَّلون بالحياة ، ولذلك يُسَمَّوْنَ : ملائكة الحياة .

فجبريل : مُوَكَّلٌ بالوحيِ الذي به حياة القلوبِ والأرواحِ .

وميكائيل : مُوَكَّلٌ بالمطرِ الذي به حياة الأرضِ والنباتات والحيوان .

وإسرافيل : مُوَكَّلٌ بالنفخ في الصُّورِ الذي به حياة الخَلْقِ بعد مماتهم وخروجهم من قبورهم [(١)] .

ومن ذُكر في أسماء الملائكة :

٤ ـ رضوان :

فهو مذكورٌ في بعض النصوص ، فقال الحافظ ابن كثير [(٢)] : « خازن الجنة مَلك يقال له رضوان ، جاء مُصَرَّحًا به في بعض أحاديث النبيِّ ﷺ » .

ولم أقف على حديثٍ صحيحٍ في اسمه .

٥ ، ٦ ـ وكذلك منكر ونكير :

سمَّاهما النبيُّ ﷺ في أحاديث وردت في عذاب القبر .

فرَوَى الترمذيُّ وابن حبان [(٣)] وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ ـ أَوْ قَالَ : أَحَدُكُمْ ـ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقان يُقَالُ لأَحَدِهِمَا : المُنْكَرُ ، وَالآخَرُ : النَّكِيرِ ... » الحديث.

---

(١) « شرح العقيدة الطحاوية » (٣٣٦) ، و« زاد المعاد » (١/ ٤٣) .

(٢) « البداية والنهاية » (١/ ٥٣) .

(٣) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر (١٠٧١) ، وابن حبان في « صحيحه » كما في « الإحسان » (٣١١٧) وحسَّنه الترمذيُّ ، وحسَّنه الألبانيُّ في « صحيح الترمذي » ، وانظر : « الصحيحة » (١٣٩١) ، و« صحيح الجامع » (٧٢٤) .

وكذلك من الملائكة التي ذَكَرَهَا اللهُ ﷻ في قرآنه :

٧ ، ٨ ـ هاروت وماروت .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾[البقرة :١٠٢] .

ومنهم :

٩ ـ مالك :

وهو خازن النار ؛ قال سبحانه : ﴿ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴾[الزخرف :٧٧] .

وفي « صحيح مسلم » [(١)] عن أبي هريرة ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ فِي حديثٍ طويلٍ وفيه : « فَحَانَتِ الصَّلاَةُ فَأَمَمْتُهُمْ . فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنَ الصَّلاَةِ قَالَ قَائِلٌ : يَا مُحَمَّدُ ، هَذَا مَالِكٌ صَاحِبُ النَّارِ ، فَسَلِّمْ عَلَيْه ، فَالْتَفَتُّ إِلَيْهِ فَبَدَأَنِي بِالسَّلاَمِ » .

ورَوَى البخاريُّ [(٢)] عن سمرة بن جندب في الرؤيا التي رآها النبيُّ ﷺ وفيها قَالَ : « .. فَانطَلَقْنَا فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ كَرِيهِ الْمِرْآةِ كَأَكْرَهِ مَا أَنْتَ رَاءٍ رَجلاً مَرْآةً ، وَإِذَا عِنْدَهُ نَارٌ يَحُشُّهَا وَيَسْعَى حَوْلَهَا ، قَالَ : قُلْتَ لَهُمَا : مَا هَذَا ؟ .. » وفيه : « فَإِنَّهُ مَالِكٌ خَازِنُ جهَنَّمُ » .

وهناك اسمٌ يتردد على ألسنة الناس كثيرًا ؛ بل و ألسنة بعض الدعاة ؛

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال (١٧٢) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التعبير ، باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح (٧٠٤٧) .

ألا وهو عزرائيل ، على أنه اسمُ مَلَكِ الموت ، والحق أنه لم يثبت لا في القرآن ، ولا في السنة الصحيحة تسمية لملك الموت باسم عزرائيل ، لكنه نقل عن أشعث بن سليم [(١)] .

وكذلك من الأخطاء أن بعض الناسِ يظن بأن رقيبًا وعتيدًا من أسماء الملائكة ، والتحقيق أنَّ رقيبًا وعتيدًا من صفات المَلَكَيْنِ الذين أُمِرَا من الله ﷻ بتسجيل الحسنات والسيئات .

والسؤال الأخير في هذه الجزئية : هل تموت الملائكة ؟

الجواب : نعم تموت ؛ كما دلَّت النصوص على ذلك ؛ كما يلي :

قال تعالى ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾[الزمر:٦٨] ومعلوم أنَّ اللهَ ﷻ وحده في السماء الذي لا يفنى ، قال تعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾[القصص : ٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[الرحمن : ٢٦ ، ٢٧] فالملائكة تموت .

أما ؛ هل يموتون قبل النفخ في الصور أم لا ؟

فهذا مما لا نعلمه ولا نستطيع الخوض فيه ؛ لعدم وجود دليل يثبت هذا أو ينفيه .

قال الإمام البيهقي رحمه الله [(٢)]: « والإيمان بالملائكة ينتظم معاني :

أحدها : التصديق بوجودهم .

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في « العظمة » (٤٤٣) ، وراجع « البداية والنهاية » (١/ ٥٠) .

(٢) «شُعَب الإيمان» (١/ ١٦٣) .

والآخر : إنزالهم منازلهم وإثبات أنهم عباد الله وخلقه كالإنس والجن ، مأمورون مكلفون لا يقدرون إلا على ما يقدرهم الله تعالى عليه ، والموت جائز عليهم ، ولكن الله تعالى جعل لهم أمدًا بعيدًا ، فلا يتوفاهم حتى يبلغوه ، ولا يوصفون بشيء يؤدي وصفهم به إلى إشراكهم بالله تعالى وحده ، ولا يُدْعَون آلهة كما ادَّعَتهم الأوائل .

والثالث : الاعتراف بأن منهم رسل الله يرسلهم إلى من يشاء من البشر ، وقد يجوز أن يرسل بعضهم إلى بعض ويتبع ذلك الاعتراف بأن منهم حملة العرش ، ومنهم الصافون ، ومنهم خزنة جهنم ، ومنهم خزنة النار، ومنهم كتبة الأعمال ، ومنهم الذين يسوقون السحاب ، وقد ورد القرآن بذلك كلِّه أو بأكثره » .

*****

أهم صفات الملائكة الخُلُقية

١ ـ كِرامٌ بررةٌ :

أعظم صفة وَصَفَ اللهُ ﷻ بها الملائكة أنهم كرامٌ بررةٌ ؛ قال تعالى في حق الملائكة : ﴿ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس:١٥،١٦] .

ومعنى الآية : أن القرآن بأيدي سفرة ، أي : سفراء (جمع سفير) ، فالملائكة سفراء من الله إلى الأنبياء والرسل .

قال الإمام البخاريُّ [1] ـ رحمه الله تعالى : « سَفَرَة هم الملائكة » .

والمعنى اللغوي من السفر : أداء الأمر المكلف به الملك من قِبَلِ الله ﷻ إلى نبيٍّ من أنبياء الله ، أو إلى رسولٍ من رُسُلِ الله ـ عليهم جميعًا الصلاة والسلام .

وجُعلت الملائكة إذا نزلت بوحي الله تبارك وتعالى على الأنبياء والمرسلين وتأديتهم لهذا الغرض كالسفير الذي يُصْلِح بين القوم .

وكلمة : « سَفَرَة » تحمل معنى الإصلاح ؛ فمثلاً تقول : سفرت بين القوم أي أصلحت بينهم .

« كِرَام بَرَرَة » : كرام جمع كريم ، وبررة جمع بر ، أو بار ؛ أي : خُلُقُ الملائكة خُلقٌ كريم شريف وأفعالهم بارة طاهرة كاملة .

ولاحِظْ هذه اللطيفة الجميلة وهي أنَّ الله ﷻ قد وصف الملائكة بهذه

---

(١) في « الصحيح » ، كتاب التفسير ، باب سورة عبس (٨/ ٥٦٠ ـ فتح) .

الصفات وهم يحملون القرآن ، فقال عن القرآن : ﴿ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴾ .

فينبغي لحامل القرآن أن يتخلق بأخلاق الملائكة الذين يحملون القرآن ، وأن يكون بارًا طاهرًا كريمًا ، على خُلق ، وأن يعي قدر هذه النعمة !!

ففي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « المَاهِرُ بِالقُرآن مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَة ، وَالَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌ ، لَهُ أَجْرَانِ » .

٢ ـ ومن أجلّ صفات الملائكة : الحياء :

والحياءُ خُلُقٌ كريمٌ نبيلٌ يثمر كل الفضائل . وضياع الحياء شرٌ وبيل يثمر كل الرذائل ؛ ولذا قَالَ النبيُّ ﷺ : « إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ »[2] .

فمن أجلّ صفات الملائكة : الحياء .

ففي « صحيح مسلم »[3] من حديث عائشةَ رضي الله عنها تقول : كَانَ رَسُولُ الله ﷺ مُضْطَجِعًا فِي بَيْتِي كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ ، أَوْ سَاقَيْهِ . فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَأَذِنَ لَهُ وهُوَ عَلَى تِلْكَ الحَالِ فَتَحَدَّثَ ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ رضي الله عنه فَأَذِنَ لَهُ ، وَهُوَ كَذَلِكَ فَتَحَدَّثَ ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ رضي الله عنه فَجَلَسَ رَسُولُ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب سورة عبس برقم (٤٩٣٧) ، ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه ، برقم (٧٩٨) ، واللفظ لمسلم .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب (٥٤) ، برقم (٣٤٨٣، ٣٤٨٤) وانظر أطرافه هناك من حديث أبي مسعود عقبة بن عمرو . قال : قال النبيُّ ﷺ : « إنَّ مما أدْرَكَ النَاسُ مِنْ كَلامِ النُّبُوَّةِ : إذَا لَمْ تَستَحِ فاصْنَعْ مَا شِئْتَ » .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، بابا من فضائل عثمان بن عفان رضي الله عنه برقم (٢٤٠١) .

الله ﷺ وَسَوَّى ثِيَابَهُ فَدَخَلَ فَتحدَّث، فَلَمَّا خَرَجَ قَالَتْ عَائِشَةُ ﷺ: دَخَلَ أَبو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ! فَقَالَ: «أَلاَ أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ المَلاَئِكَةُ».

٣ ـ ومن أجلّ صفاتهم: تمام العبودية لربهم ﷻ:

فالملائكة لا يتقدمون أبدًا بين يدي الله ـ تبارك وتعالى ـ بقول أو بعمل، ولا باقتراح، ولا باعتراض؛ بل جُبِلُوا على الطاعة، وعلى التسبيح، وعلى العبادة.

وفي «صحيح البخاري»[1] من حديث ابن عباس ﷺ أن النبيَّ ﷺ قَالَ لجبريل ﷺ: «أَلاَ تَزُورُنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا»: فَنَزَلَ قَوْلُ الله ﷻ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾[مريم: ٦٤].

فمن أجلِّ صفاتهم تمام العبودية لله ﷻ؛ فَهُمْ لا يكفُّون عن التسبيح أبدًا، ولا عن الصلاة، ولا عن العبادة، ولا عن الطاعة؛ قال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[الأنبياء:٢٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾[غافر:٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾

[الصافات: ١٦٥، ١٦٦]

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم، برقم (٣٢١٨)، وانظر أطرافه هناك.

وفي « صحيح مسلم »[(١)] من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه أنه ﷺ قَالَ : « أَلاَ تَصفُّونَ كَمَا تَصُفُّ المَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا ؟» فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ الله ! وَكَيْفَ تَصُفُّ المَلاَئِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا ؟ قَالَ : « يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلَ ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ » .

ورَوَى مسلمٌ[(٢)] عن أبي ذرٍ رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ: أيُّ الكَلاَمِ أَفضَلُ؟ قَالَ : «مَا اصْطَفَى الله لِمَلاَئِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ : سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ» .

فالملائكة لا تكف عن تسبيح الله عز وجل ؛ وكذلك لا تكفُّ عن الصلاة ، قال تعالى : ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ أي : الذين يقفون صفوفًا يركعون ويسجدون لله رب العالمين .

ففي « مشكل الآثار » للطحاوي ، والطبراني في « المعجم الكبير »[(٣)] عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال : بَيْنَمَا رَسُولُ الله ﷺ في أصْحَابِهِ إِذْ قَالَ لَهُمْ : « أَتَسْمَعُونَ مَا أَسْمَعُ ؟ إِنِّي لأَسْمَعُ أَطِيطَ السَّمَاءِ وَمَا تُلاَمُ أَنْ تَئِطَّ ، وَمَا فِيهَا مَوْضِعُ شِبْرٍ إِلاَّ وعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ قَائِمٌ » .

وذكرت أنهم يحجُّون كلَّ يوم إلى البيت المعمور في السماء السابعة[(٤)] ؛ كما في الحديث الذي فيه : « يَدْخُلُ البَيْتَ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلفَ مَلَكٍ لَا

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الصلاة ، باب الأمر بالسكون في الصلاة والنهي عن الإشارة باليد ورفعها عند السلام (٤٣٠) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب فضل سبحان الله وبحمده (٢٧٣١) .

(٣) أخرجه الطحاويُّ في « مشكل الآثار » برقم (١١٣٤) ، والطبراني في « الكبير » (٣١٢٢) . وصحَّحه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (٨٥٢) و« صحيح الجامع » (٩٥) .

(٤) سبق في باب أعداد الملائكة .

يَخْرُجُونَ مِنْهُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ » .

فَهُمْ لا يفترون عن عبادة الله ولا عن طاعة الله ، وكلهم : خوف ووجل لله سبحانه مع هذه الطاعة والعبادة ! .

ورُوِيَ عند الطبرانيّ وابن خزيمة وابن أبي حاتم ـ واللفظ لابن أبي حاتم ـ من حديث [1] النواس بن سمعان ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « إِذَا أَرَادَا اللهُ أَنْ يُوحِيَ بِالأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالوَحْيِ ، فَإِذَا تَكَلَّمَ أَخَذَتِ السَّمَاوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً أَوْ رَعْدَةً شَدِيدَةً خَوْفًا مِنَ اللهِ تَعَالَى ، فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ صُعِقُوا وَخَرُّوا لله سُجَّدًا ، فَيَكُونُ أَوَّلُ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ ـ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ والسَّلاَمِ ـ فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى المَلاَئِكَةِ كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَمَاء سَأَلَهُ مَلاَئِكَتُهَا مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ ﷺ قَالَ الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ ، قَالَ : فَيَقُولُ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ ﷺ فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالوَحْيِ حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ »

فَهُمْ مَعَ طَاعَتِهِمْ وَعِبَادَاتِهِمْ يَخَافُونَ اللهَ وَيَخْشَوْنَ اللهَ ، فَلاَ يَخْشَى اللهَ ولا يهاب الله ﷻ إلا من عرف قدْر الله وعظمة الله وجلال الله .

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في « التوحيد » (ص ١٤٤) ، وابن أبي عاصم في « السنة » (٥١٥) ، وابن جرير في « تفسيره » (٢٨٨٤٩) ، والمروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٢١٦) ، وابن أبي حاتم في « التفسير » كما في تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥٨) ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٣٥) ، وانظر : « الدر المنثور » (٥/ ٤٤٢) .

قال ابن أبي حاتم : سمعت أبي يقول : « ليس هذا الحديث بالشام عن الوليد بن مسلم » .

وفي « الميزان » للذهبي (٤/ ٢٦٩) : عن دحيم قال : لا أصل له .

وضعَّفه الألباني في تحقيقه للسنة لابن أبي عاصم (٥١٥) .

وأصحُّ من هذا الحديث ما رواه البخاريُّ[١] عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ : « إِذَا قَضَى اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ المَلائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ ؛ فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ : الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ » .

ورَوَى مسلمٌ[٢] عن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « ... وَلَكِنْ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ ، إِذَا قَضَى أَمْرًا سَبَّحَ حَمَلَةُ العَرْشِ . ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا . ثُمَّ قَالَ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ العَرْشِ لِحَمَلَةِ العَرْشِ : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ . قَالَ : فَيَسْتَخْبِرُ بَعْضُ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ بَعْضًا . حَتَّى يَبْلُغَ الخَبَرُ هَذِهِ السَّمَاءَ الدُّنْيَا... » الحديث .

فهم معصومون ينفذون أوامر الله عز وجل ، قال تعالى : ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم:٦] ، وقال تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل : ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء:٢٧، ٢٨] .

أسأل الله أن يملأ قلوبنا إيمانًا بقدرته وعظمته وجلاله ، إنه وليُّ ذلك ومولاه .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [سبأ:٢٣] (٤٨٠٠) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب السلام ، باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٢٩) .

علاقة الملائكة بالإنسان

ولاشكَّ أنه ينبغي أن نستهلَّ الحديث بهذه الجزئية بعلاقة الملائكة بأبي البشر آدم عليه السلام.

أولاً : الملائكة وآدم :

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠].

لقد سألت الملائكةُ ربَّنا ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ عن الحكمةِ من إيجادِ هذا (الخليفة) ، وأخبروا بأن هذا الخليفة سيفسد في الأرض ويسفك الدماء ! ولكن من أين لهم هذا ؟ وكما سبق : أنَّ من أهلِ العلمِ مَنْ قال : بأن الملائكة قد حَكَمُوا على الخليفة الجديد بذلك ، قياسًا على ما رأوه من إفسادِ الجنِّ في الأرضِ .

والراجح عندي ـ والله أعلم : أنهم علموا ذلك لتعليم الله عز وجل لهم ذلك ، إذ أنهم قالوا بعد ذلك : ﴿ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ﴾ [البقرة:٣٢] ؛ وهذا دليلٌ على ذلك ، وهذا هو الذي يستريح له القلب .

ثم بعد ذلك أمرهم الله بالسجود لهذا الخليفة .

قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [ص:٧١ ـ ٧٤] .

وفي آيات أخر : قال تعالى للملائكة : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الكهف : ٥٠] ، فهذا دليلٌ قاطعٌ على أن إبليس ما كان من الملائكة طرفة عين ؛ فإبليس بنص القرآن من الجن : ﴿ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ﴾ [الكهف:٥٠] .

وقد يسألني الآن طالب علم ؛ فيقول : فلماذا طُرد إبليس إذًا من الرحمات ما دام إبليس من الجن ، وليس من الملائكة ، والأمر بالسجود من الله للملائكة فقط ؟

الجواب : إن إبليس كان يسترق السمع ، وهذا مما أذن الله به ، كما في قوله : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾ [الجن:٩] .

فكان إبليس في صفوف الملائكة ، فجاء الأمر من الله للملائكة دون إبليس ، فسجد الملائكة إلا إبليس ، لأن الأمر كان للملائكة ، وقد قلت : إن إبليس لم يكن من الملائكة ، والجواب : أنه إذا صدر الأمر من الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ للأعلَى وَجَبَ على الأدنى أن يمتثل .

نقول: إن مَنْ زَعَمَ أن إبليس كان من الملائكة فقد أبعد النزع ، وأخطأ الفهم، وضَلَّ الطريق ؛ وذلك لأن الله ﷻ فَصَلَ القضية بآيةٍ كريمةٍ في سورةِ الكهف ؛ فقال : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف:٥٠] .

فهل بعد هذا الحق الناصع ، والوضوح القاطع ، يقول أحدٌ بأن

إبليس من الملائكة ، أو يردد تلك الإسرائيليات بأن إبليس كان طاووس الملائكة ، وأعلم الملائكة ، وأعبد الملائكة [(١)] !! ونحو ذلك ؛ كيف !! وقد اختلف عنهم خَلْقًا وخُلُقًا ، وبداية ونهاية ، وحياة ومصيرًا !! أيُّ وجْهٍ للشبه بين إبليس والملائكة ؟! وهم مخلوقون من نور ، وقد خُلِقَ هو من نار ، وهم لا يَعْصُونَ الله ما أمرهم ، ويَفْعَلُون ما يُؤْمَرُونَ ، واعترض هو على حُكْمِ خَالِقِه ، وهم لا يتزوَّجون ولا يتناسلون ، وهو له أزواج وذرية على شاكلته أعداء لله رب العالمين ، وهم الذين لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، وهو الذي أَبَى واستكبر وكان من الكافرين ، وهم الذين يسبِّحون الليل والنهار لا يفترون ، وهو الذي لا يفتر ولا يتوانى في إضلال خَلْقِ الله بعد ما أقسم بعزَّةِ الله على إغواء الخَلْقِ أجمعين ، إلا من لا يستطيع الوصول إليه من المخلصين ، وهو الذي لا يدع وسيلة ولا بابًا إلى إغوائهم إلا سَلَكَه إليهم ، قال تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٦ ، ١٧] ، فكلُّ هذه فروق بين الملائكة وإبليس ، تَحُولُ دون أن يكون إبليس من الملائكة طرفة عين ، فضلاً عما حَكَمَ اللهُ ﷻ به عليه من مصير ، ﴿ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأعراف :١٨].

لكن يبقى هنا استفسار : ما وجْهُ الحكمة في استثناء إبليس من

(١) انظر « تفسير الطبري » (٦٨٦) ، (٦٨٩) ، (٨٩١) .

السجود مع أنه للملائكة ؟

نقول : وبالله التوفيق :

أولاً : هذا الاستثناء منقطع ؛ كما يقول أهل العلم ، يقال : جاء القوم إلا حمارًا ، وأكلت التفاح إلا برتقالة . وهنا يُقال : سَجَدَ الملائكة إلا إبليس .

كذلك يقال : صدر الأمر للملائكة بالسجود لآدم ، وإبليس كان معهم - ولم يكن منهم ، كما علمت فبِحُكْم مَعَيَّته للملائكة ، وهو فرد بين أمم الملائكة ، كان عليه أن يسجد ، ولكنه أَبَى ، لأنه خانه أَصْلُهُ الناريُّ ، وطبعه الفاسد ، إذ قاس وقارن ، فَضَلَّ وهلك ، فعليه لعنة الله والملائكة أجمعين [1] .

وصحَّ عن الحسن البصري - كما عند الطبري [2] - أنه قال : « ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس » .

والصواب: أن نعلم أن الله قال عنه أنه: ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾[الكهف :٥٠] .

فلا داعي للتطويل ، والخوض في المسألة بعد ما حسمها الله في القرآن .

*****

(١) « حقيقة الإيمان » (٢/ ٥٤، ٥٥) .

(٢) (برقم : ٦٩٦) بسند صحيح .

الملائكةُ تردُ السلامَ على آدم عليه السلام

رَوَى البُخَارِيُّ ومُسْلِمٌ [١] عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أَنَّهُ ﷺ قَـالَ : « خَلَـقَ اللهُ عز وجل آدَمَ عَلَى صُورَتِهِ . طُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا . فَلَمَّا خلَقَهُ قَـالَ : اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلَى أُولَئِكَ النَّفَرِ . وَهُمْ نَفَرٌ مِنَ المَلاَئِكَةِ جُلُوسٌ . فَاسْتَمِعْ مَا يُجِيبُونَكَ . فَإِنَّهَا تَحِيَّتُكَ وتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ . قَالَ : فَذَهَبَ فَقَالَ : السَّلاَمُ عَلَيْكُمْ . فَقَالُوا : السَّلاَمُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ الله . قَالَ : فَزَادُوهُ : وَرَحْمَةُ الله . قَالَ : فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ . وَطُولُهُ سِتُّونَ ذِرَاعًا . فَلَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدَهُ حَتَّى الآنَ » .

تغسيل الملائكة لآدم عند موته

عندما مات آدم قامت الملائكة بتغسيله وتكفينه ودفنه ؛ إذ عجز بَنُوه عن فهم ذلك .

ففي الحديث الذي رواه الحاكم في « المستدرك » والطبراني في « معجمه الأوسط » بسندٍ صحيح عن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قَالَ : « لَمَّا تُوفِّيَ آدَمُ غَسَّلَتْهُ المَلاَئِكَةُ بِالماءِ وِتْرًا ، وَأَلْحَدُوا لَهُ ، وَقَالُوا : هذِهِ سُنَّةُ آدَمَ فِي وَلَدِهِ » [٢] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته (٣٣٢٦) ، وانظر طرفه هناك ، و« مسلم » ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير (٢٨٤١) واللفظ له .

(٢) أخرجه الطبرانيُّ في « الأوسط » (٨٢٥٧) ، وصحَّحه الحاكم في « المستدرك » (٢/ ٥٤٥) ، وقال الهيثمي في « المجمع » (٣/ ٤٣) : « رواه الطبراني في « الأوسط » ورجاله موثقون وفي بعضهم كلام » ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٥٢٠٧) . وانظر « الضعيفة » (٢٨٧٢) .

إذًا لما توفي آدم عليه السلام هم الذين غَسَّلُوه وكَفَّنوه وألحدوا له ، وعلَّموه أن هذه هي السنة في ولد آدم إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها .

وثبت أيضًا أن الملائكة قد غَسَّلَتْ صحابيًّا جليلاً من أصحاب رسول الله ﷺ وهو (حنظلة بن أبي عامر) ـ رضوان الله عليه .

ثبت في السُّنَّة الصحيحة أن الملائكة قد قامت بتغسيله .

والحديث قد حَسَّنَه الشيخ الألباني ، بل حسَّنه كذلك الحافظ الكبير ابن عساكر رحمه الله [(١)] .

ثانيًا : دور الملائكة مع بني آدم :

عرفنا بعض صفات الملائكة مع آدم عليه السلام ، والملائكة لهم دور منذ أول لحظة في تكوين وخَلْقِ الإنسان :

أولًا: علاقة الملائكة بالإنسان منذ اللحظات الأولى لتكوينه في رَحِمِ الأم .

ففي «الصَّحِيحَيْنِ» [(٢)] من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه : أن النبيَّ ﷺ قَالَ : « وَكَّلَ اللهُ بِالرَّحِمِ ـ رحم المرأة ـ مَلَكًا فَيَقُولُ : أَيْ رَبِّ نُطْفَةٌ ، أَيْ رَبِّ عَلَقَةٌ ، أَيْ رَبِّ مُضْغَةٌ ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَقْضِيَ خَلْقَهَا قَالَ : أَيْ رَبِّ

---

(١) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٠٤) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٤/ ١٥) ، وأبو نعيم في « حلية الأولياء » (١/ ٣٥٧) ، وأبو يعلى (٥/ ٣٢٩) ، وحسَّنه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٣٢٦) ، وقبله ابن عساكر من وجه آخر ، وانظر « الصحيحة » .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الحيض ، باب (مخلقة وغير مخلقة) (٣١٨) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه ، وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٤٦) .

أذَكَرٌ أَمْ أُنْثَى ، أَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ ؟ فَمَا الرِزْقُ ، فَمَا الأَجَلُ ؟ فَيُكْتَبُ كَذَلِكَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ » .

وسوف نفصِّل إن شاء الله تعالى مراتب القَدَرِ الأربعة بإذن الله ، عند الحديث عن الإيمان بالقضاء والقدر .

وفي « الصَّحِيحَيْنِ » عن ابن مسعود ﷺ قَالَ : حَدَّثَنَا رَسُولُ الله ﷺ ـ وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ ـ قَالَ : « إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا يُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ وَيُقَالُ لَهُ : اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ . ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجَنَّةِ إِلاَّ ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلاَّ ذِرَاعٌ ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ »[1] .

الشاهد: أن الملك هاهنا يكتب كل شيء منذ اللحظات الأولى لتكوين الإنسان في رحم الأم .

ثانيًا : دور الملائكة مع بني الإنسان :

قال تعالى : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:١١] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة (٣٢٠٨) . وانظر أطرافه هناك ، و« صحيح مسلم » ، كتاب القدر ، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته (٢٦٤٣) .

فكلُّ إنسانٍ له ملائكة من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، فإذا قَدَّرَ الله ﷻ أمْرًا خَلُّوا بين العبد وبين قَدَرِ الله تعالى .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام : ٦١] .

ثالثًا : والملائكة كذلك سفراء الله إلى رُسُلِهِ وأنبيائه .

قال اللهُ ﷻ : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [البقرة:٩٧] ؛ إذًا وظيفة جبريل ، هي تبليغ الوحيِ للأنبياء والرسل [(١)] .

قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴾ [الشعراء : ١٩٣] .

وأودُّ أن أقول لكم : إنه قد ثبت في السنة الصحيحة : أنه قد يُبلِّغ الوحي للأنبياء والرسل مَلَكٌ غير جبريل ؛ إذ إن المتبادر إلى أذهان الكثيرين من طلاب العلم أن وظيفة جبريل فقط هي تبليغ الوحي للأنبياء والرسل دون غيره من الملائكة !!.

ثبت في صحيح السنة أن هناك من الملائكة من بَلَّغَ وَحْيًا لأنبياء الله ورسله .

---

(١) صور مجيء الوحي لرسول الله ﷺ :

قال الحافظ في « الفتح » (١/ ٢٧) : «إن الملك قد تمثل رجلاً في صور كثيرة ولم ينفلت منه ما أتاه به ، كما في قصة مجيئه في صورة دحية وفي صورة أعرابي وغير ذلك وكلها في « الصحيح » ، ثم قال : أما من صفة الوحي كمجيئه كدوي النحل ، والنفث في الروع ، والإلهام ، والرؤيا الصالحة ، والتكليم ليلة الإسراء بلا واسطة ، وإما من صفة حامل الوحي كمجيئه في صورته التي خلق عليها له ستمائة جناح ، ورؤيته على كرسي بين السماء والأرض ، وقد سد الأفق ، وقد يأتي مثل صلصلة الجرس ».

وهذه بعض الأدلة على ذلك :

١ ـ روى مُسْلِمٌ في « صحيحه » عن ابن عباس رضي الله عنهما[1] قال : بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا (صوتًا) مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ ، فَقَالَ : «هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ الْيَوْمَ ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ » فَقَالَ : « هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ . لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلاَّ الْيَوْمَ ، فَسَلَّمَ ، وَقَالَ : أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ : فَاتِحَةُ الكِتَابِ ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاَّ أُعْطِيتَهُ » .

وقد يظن ظان أن الملك نزل بالفاتحة ! وهذا فيه نظر ؛ فإن الملك نزل يبين فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة ، أما جبريل عليه السلام فقد نزل بالقرآن كلّه ؛ كما قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤] .

وأواخر سورة البقرة من قرأ بها في ليلة ؛ كفتاه كما قال ﷺ : « مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ »[2] .

وفي «مسند الإمام أحمد» و« سنن أبي داود » بإسنادٍ صحيح عن أبيٍّ بن كعب رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « أَتَانِي جِبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ ، فَقَعَدَ جِبْرِيلُ عَنْ يَمِينِي ، وَمِيكَائِيلُ عَنْ يَسَارِي ، فَقَالَ جِبْرِيلُ : اقْرَأْ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة (٨٠٦) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل القرآن ، باب فضل سورة البقرة (٥٠٠٨ـ٥٠٠٩) و«مسلم» ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة ، والحث على قراءة الآيتين من آخر سورة البقرة (٨٠٧)

وَاحِدٍ ، فَقَالَ مِيكَائِيلُ : اسْتَزِدْهُ ، قَالَ : اقْرَأْهُ عَلَى حَرْفَيْنِ ، قَالَ : اسْتَزِدْهُ ، حَتَّى بَلَغَ سَبْعَةَ أَحْرُفٍ . قَالَ : كُلٌّ شَافٍ كَافٍ »[1] .

فهذا من تيسير الله على هذه الأمة المرحومة ورفع المشقة والحرج .

الشاهد من هذا الحديث : أن ميكائيل مع جبريل عليهما السلام والملائكة أيضًا يبلِّغون الوحي للأنبياء والرسل.

وروى أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم عن حذيفة رضي الله عنه أنه ﷺ قَالَ : « أَمَا رَأَيْتَ العَارِضَ الَّذِي عَرَضَ لِي قُبَيْلُ ؟ » ، قَالَ : قُلْتُ : بَلَى ، قَالَ : « فَهُوَ مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ لَمْ يَهْبِطِ الأَرْضَ قَطُّ قَبْلَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ ، فَاسْتَأْذَنَ رَبَّهُ أَنْ يُسَلِّمَ عَلَيَّ ، وَيُبَشِّرَنِي أَنَّ الحَسَنَ وَالحُسَيْنَ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ ، وَأَنَّ فَاطِمَةَ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ رضي الله عنهم »[2] .

فثبت بذلك أنَّ من الملائكة من يأتي بالوحي غير جبريل عليه السلام ، ولا تقتصر مهمة جبريل على تبليغِ الوحي فقط ؛ بل لقد علَّم جبريلُ الأنبياءَ والرسل ، فَعَلَّمَ جبريل النبيَّ ﷺ كيفية الصلاة[3] ، وعَلَّمَ النبيَّ ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١١٤، ١٢٢، ١٢٤) ، وأبو داود كتاب الصلاة باب أنزل القرآن على سبعة أحرف (١٤٧٧) ، والنسائي كتاب الافتتاح ، باب جامع ما جاء في القرآن (٢/ ١٥٣ ، ١٥٤) ، وصحَّحه الألباني في « الصحيحة » (٨٤٣) .

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٣٩١) ، والترمذي ، كتاب المناقب ، باب (٣٠) (٣٧٨١) وقال : « حسن غريب » ، وابن خزيمة (١١٩٤) ، وابن حبان (٦٩٦٠ ، ٧١٢٦) والحاكم (٣/ ١٥١) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح سنن الترمذي » .

(٣) انظر البخاريَّ ، كتاب مواقيت الصلاة ، باب مواقيت الصلاة وفضلها (٥٢١) ، وانظر طرفيه هناك ، و(٣٢٢١) ، ومسلم ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب أوقات الصلوات الخمس (٦١٠) .

مواقيت الصلاة[1] ، وعَلَّمَه كيفية مناسك الحج ، وعَلَّمَه القرآن ، فلم تقتصر مهمته على التبليغ ؛ أي : تبليغ الآيات من الله فقط ، كلاً ، بل يعلم النبيَّ ﷺ كيف يصلِّي ؟ وكيف يحج ؟ .. كان جبريلُ عليه السلام أمام النبيِّ ﷺ يصلي ، والنبيُّ ﷺ يفعل كما يفعل جبريل في الصَّلاة ؛ كما يقول ﷺ للأمة : « صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي »[2] .

وفي الحج جبريل أمام النبيِّ ﷺ يعلمه كيفية المناسك ، ثم يقول النبيُّ ﷺ للأمة في الحج : « لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ »[3] ، أي: عنه ـ عليه الصلاة والسلام.

وفي « صحيح البخاري » ، « ومسلم » من حديث ابن عباس[4] قَالَ : « كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِيْنَ يَلْقَاهُ جِبْرِيْلُ ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُه الْقُرْآنَ ، فَلَرَسُولُ اللهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالخَيْرِ مِنَ الرِّيْحِ الْمُرْسَلَةِ » .

وكان جبريل ينزل إلى النبيِّ ﷺ في كل عام لِيُقْرِأَهُ القرآن وليدارسه القرآن ، ونَزَلَ على النبيِّ ﷺ مرَّتين في العام الذي قُبِضَ فيه بأبي هو

---

(١) أبو داود ، كتاب الصلاة ، باب المواقيت (٣٩٣) ، والترمذي ، كتاب الصلاة ، باب ما جاء في مواقيت الصلاة (١٤٩)، وقال : « حديث حسن » ، وأحمد (١/ ٣٣٣) ، والحاكم (١/ ١٩٣) ، وابن خزيمة (٣٢٥) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح سنن أبي داود والترمذي » .

(٢) أخرجه البخاريُّ كتاب الأذان ، باب الأذان للمسافرين إذا كانوا جماعة والإقامة وكذلك بعرفة وجمع (٦٣١) .

(٣) « صحيح مسلم » كتاب الحج ، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبًا (١٢٩٧) .

(٤) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الوحي ، باب (٥) رقم (٦) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب الفضائل ، باب كان النبيُّ ﷺ أجود الناس بالخير من الريح المرسلة (٢٣٠٨) .

وأمي ﷺ.

فكان جبريلُ يُقرِئ النبيَّ ﷺ القرآن، ويقرأ النبيُّ ﷺ خلفه القرآن.

الشاهد: أن جبريل عليه السلام كان يُعلِّم النبيَّ ﷺ القرآن والحج، وأحكام هذا الدين.

رابعًا: حفظ الملائكة لأعمال بني آدم:

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[الانفطار: ١٠ـ ١٢].

لقد وكَّل الله لكل إنسان مَلَكَيْنِ لا يفارقانه أبدًا.

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾[يونس: ٢١]، وقال: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ ﴾ [الزخرف: ٨٠]، وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾

[ق: ١٦ـ ١٨]

رَقِيبٌ: أي: مُرَاقِبٌ مُعَدٌّ لتلك المراقبة.

عَتِيدٌ: مَتَرَصِّدٌ مُوَكَّلٌ بهذا.

وهذا هو الراجح؛ فلقد قال بعض أهل العلم إنَّ: رَقِيبٌ: اسم مَلَك، وعَتِيدٌ: اسم ملك!!

ولكن الراجح أن هذه صفة رقيب وعتيد، أي: مراقب مستعد مهيأ

لهذه الوظيفة ، ولا يترك كلمة تفلِتُ إلا ويسجلها ، وهنا قد يتبادر إلى الذهن سؤال ، ألا وهو : هل الملائكةُ الموكَّلة بالإنسان تكتب كل ما يصدر عن الإنسان من قول وعمل حتى الحسنات والسيئات ؟!

رَوَى الطبرانيُّ في «الكبير» ، وأبو نعيم في «الحلية» ، والبيهقيُّ في «الشُّعب» عن أبي أمامة ﷺ أنه ﷺ قال : « إِنَّ صَاحِبَ الشِّمَالِ لَيَرْفَعُ القَلَمَ سِتَّ سَاعَاتٍ عَنْ العَبْدِ المسلم المخطِئ ، فَإِنْ نَدِمَ وَاسْتَغْفَرَ اللهَ مِنْهَا أَلْقَاهَا، وَإِلاَّ كُتِبَتْ وَاحِدَةً »[1] .

ولذلك ؛ فإن الإنسان يجد كتابه قد حوى كل شيء صدر منه ، فالكفار ينادي بعضهم بعضًا ، حينما يرى كل واحدٍ منهم كتاب أعماله يوم القيامة قائلين : ﴿ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] .

ذكر الحافظ ابن كثير عن الحسن البصري عند قول الله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ كِتَـٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴾ [الإسراء :١٣] .

قال الحسن[2] : « يا ابن آدم ! بسطت لك صحيفة ، ووكل لك ملكان

---

(١) أخرجه الطبرانيُّ في « الكبير » (٨/ ١٨٥) ، و« مسند الشاميين» (١ / ٣٠١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (٦ / ١٢٤) ، والبيهقي في « شعب الإيمان » (٥ / ٣٩١) ، وقال الهيثمي في « مجمع الزوائد » (١٠ / ٢٠٧) : « رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها وثقوا » . وحسَّنه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٢٠٩٧) ، و« الصحيحة » (١٢٠٩) .

(٢) أخرجه ابن جرير في « التفسير » (٢٢١٤٣) بسند فيه ضعف ، وانظر : « تفسير ابن كثير » (٣/ ٢٧) .

كريمان أحدهما : عن يمينك، والآخر عن يسارك ، فأما الذي عن يمينك فيحفظ الحسنات ، وأما الذي على يسارك فيحفظ السيئات ، فاعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر حتى إذا مت طويت صحيفتك وجُعلت في عنقك معك في قبرك حتى تخرج يوم القامة كتابًا تلقاه منشورًا ، يقول الله ﷻ : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء:١٤] .

ثمَّ يقول الحسن : « فقد عَدَلَ والله من جعلك حسيب نفسك » .

وقد يقال : نتفق معك على أن الملائكة تكتب كلَّ فعلٍ وكلَّ قول ؛ فهل تكتب الملائكة أعمال القلوب ؟

والراجح ـ أيضًا ـ أن الملائكة تكتب أعمال القلوب ، وهذا ما رجَّحه ابن أبي العز الحنفي رحمه الله في « شرحه للطحاوية »[1] يقولَ رحمه الله : إن الملائكة تكتب أفعال القلوب ، لقول الله تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار:١٢]

والآية شاملة للأفعال الظاهرة والباطنة [الحب ـ البغض ـ الولاء والبراء ـ الخوف ـ الذل ـ الإنابة ـ التفويض ـ والخشوع ـ الرجاء ـ التوكل] كل هذه أعمال للقلوب ، فيقول : هذه الأعمال للقلوب تعلمها الملائكة بنصِّ القرآن بقوله : ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الانفطار:١٢] .

واستدل على ذلك بحديث صريحٍ صحيحٍ في « البخاري ومسلم » يقول فيه النبيُّ ﷺ : «قَالَ اللهُ تَعَالَى : إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا

(١) « شرح العقيدة الطحاوية » (٣٧٨) .

كَتَبْتُهَا لَهُ حَسَنَةً ، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ ، وَإِذَا هَمَّ بِسَيِّئَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ أَكْتُبْهَا عَلَيْهِ . فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُهَا سَيِّئَةً وَاحِدَةً »[1] .

فهو لم يعملها فكيف يكتبوها حسنة ؟ إذا لم تكن الملائكة تعلم حقيقة الهم فإن عملها فاكتبوها له عشرًا .. لاحِظ الفضل !! .

فلو تصوَّرنا أن رجلاً هَمَّ أن لو رزقه الله ليتصدقنَّ بمائة جنيه تكتب له مائة جنيه ، وتأتي يوم القيامة لترى أنك في اليوم الفلاني قد تصدقت بمائة جنيه !! .

إنها النية الصادقة ؛ فإن نية المرء خير من عمله ؛ ففي « مسند الإمام أحمد » بسندٍ صحيح[2] من حديث أبي كبشة الأنماري ، وفيه أنه ﷺ قَالَ : « إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ » .

الرجل الثاني قال النبيُّ ﷺ فيه : « وَرَجُلٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ ، لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلاَنٍ » أي من أهل البر والخير والجُودِ والإنفاقِ ، قال النبيُّ ﷺ في ذلك : « فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [الفتح : ١٥] (٧٠٥١) ، ومسلم كتاب الإيمان باب إذا هم العبد بحسنة كتبت ، وإذا هم بسيئة لم تكتب (١٢٨) من حديث أبي هريرة ﷺ . وروى من حديث ابن عباس ﷺ ؛ أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب من هَمَّ بحسنة أو سيئة (٦٤٩١) ، ومسلم ، كتاب الإيمان باب إذا هَمَّ العبد بحسنة كتبت وإذا هَمَّ بسيئة لم تكتب (١٣١) .

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣١) ، والترمذي (٢٣٢٥) ، وصحَّحه الألباني في « صحيح الترمذي » (١٨٩٤) ، وقد تقدم .

تأتي يوم القيامة مع رجل من أهل الإحسان الكبار . نعم ، بصدق النيَّةِ .

والنبيُّ ﷺ يقول ؛ كما في حديث آخر في « صحيح مسلم » [(١)] : قالت الملائكة : « رَبِّ ذَاكَ عَبْدُكَ يَرِيْدُ أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً (وَهُوَ أَبْصَرُ بِهِ) ، فَقَالَ : ارْقُبُوهُ (انتظروا عليه ، ولاحظوا ما يفعله) فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ بِمِثْلِهَا ، وَإِنْ تَرَكَهَا فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً ، إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ » .

فهذا دليلٌ على أن الملائكة تعلم أفعال القلوب لأنها تكتبها .

قال النوويُّ رحمه الله في « شرح صحيح مسلم » [(٢)] : وقد تظاهرت نصوص الشرع بالمؤاخذة بعزم القلب المستقر ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:١٩] ، وقوله تعالى : ﴿ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢]

والآيات في هذا كثيرة ، وقد تظاهرت نصوص الشرع وإجماع العلماء على تحريمِ الحسدِ واحتقار المسلمين وإرادة المكروه بهم ، وغير ذلك من أعمال القلوب وعزمها . والله أعلم .

وهم يشهدون على العبد يوم القيامة .

روى مسلمٌ [(٣)] عن أنسٍ رضي الله عنه قَالَ : كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ فَضَحِكَ

---

(١) أخرجه مسلمٌ ، كتاب الإيمان ، باب إذا هَمَّ العبد بحسنة كتبت ، وإذا هَمَّ بسيئة لم تكتب (١٢٩) .

(٢) « صحيح مسلم » بشرح النووي (١/ ٤٢٩) ، وانظر : « فتح الباري » (١١/ ٣٣٥) فإنه مهم .

(٣) أخرجه مسلمٌ ، كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٩) .

فَقَالَ : «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالَ : قُلْنَا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : «مِنْ مُخَاطَبَةِ العَبْدِ رَبَّهُ . يَقُولُ : يَا رَبِّ ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ : يَقُولُ : بَلَى ، قَالَ : فَيَقُولُ : « فَإِنِّي لاَ أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي » . قَالَ : فَيَقُولُ : كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا ، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا ، قَالَ : فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ : انْطِقِي ، قَالَ : فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ ، قَالَ : ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الكَلاَمِ ، قَالَ : فَيَقُولُ : بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا ، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ » .

خامسًا : من وظيفة وعمل الملائكة : ابتلاءُ بني آدم .

فقد يرسل الله ﷻ بعض ملائكة لابتلاء ولاختبار بني آدم .

وسنكتفي في هذه الجزئية بسرد حديثٍ صحيحٍ طويلٍ ؛ رواه البخاريُّ ومسلمٌ [1] عن أبي هريرةَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ :

« إِنَّ ثَلاَثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ : أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى ، بَدَا للهِ ﷻ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا ، فَأَتَى الأَبْرَصَ فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ ، قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ ، فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا ، فَقَالَ : أَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الإِبِلُ ـ أو قَالَ : الْبَقَرُ ، هُوَ شَكَّ فِي ذَلِكَ : أَنَّ الأَبْرَصَ وَالأَقْرَعَ قَالَ أَحَدُهُمَا : الإِبِلَ : وَقَالَ الآخَرُ: البَقَرَ ـ فَأُعْطِيَ نَاقَةً عَشْرَاءَ ، فَقَالَ : يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا ، وَأَتَى الأَقْرَعَ فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : شَعْرٌ حَسَنٌ

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل (٣٤٦٤) ، كتاب الأيمان والنذور ، باب لا يقول ما شاء الله وشئت ، وهل يقول أنا بالله ثم بك (تعليقًا) (٦٦٥٣) ، ومسلم ، كتاب الزهد ، باب (١) (٢٩٦٤) .

وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا ، قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ ، قَالَ : فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ ، وَأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا، قَالَ : فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ الْبَقَرُ ، قَالَ : فَأَعْطَاهُ بَقَرَةً حَامِلاً ، وَقَالَ : يُبَارَكُ لَكَ فِيهَا . وَأَتَى الأَعْمَى ، فَقَالَ : أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : يَرُدُّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ ، قَالَ : فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللهُ إِلَيهِ بَصَرَهُ ، قَالَ : فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : الغَنَمُ ، فَأَعْطَاهُ شَاةً وَالِدًا ، فَأُنْتِجَ هَذَانِ وولَّدَ هَذَا ، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ ، ولِهَذَا وَادٍ مِنَ بَقَرٍ ولِهَذَا وادٍ مِنَ الْغَنَمِ ، ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ ، فَقَالَ : رَجُلٌ مِسْكِينٌ تَقَطَّعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي . فَلاَ بَلاَغَ الْيَوْمَ إِلاَّ بِاللهِ ثُمَّ بِكَ . أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الحَسَنَ وَالجِلْدَ الحَسَنَ وَالمَالَ ، بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّ الحُقُوقَ كَثِيرَةٌ ، فَقَالَ لَهُ : كَأَنِّي أَعْرِفُكَ ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ ؟ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللهُ ؟ فَقَالَ : « لَقَدْ وَرِثْتُ (هَذَا المَالَ كَابِرًا) ، وفِي لَفْظِ البُخَارِي : لِكَابِرٍ عَنْ كَابِرٍ[1] ، فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ

---

(١) نسي أصله وفقره .

ولله درُّ ابن القيم إذ يقول : (وهذا من أنفس ما قال ابن القيم في كتابه « طريق الهجرتين » (ص ٩ ، ١٠ بتصرف) .

الفقر نوعان : فقر اضطراري ، وفقر اختياري .

يقول : « أما الفقر الاضطراري فهو فقر الخلق جميعًا لا ينفك عنه أحد بحال» ، إذن كلُّ عبدٍ لله إنما هو فقير إلى الله ولنعم الله ، فَمنْ مِنْ ملوك الأرض ، ومن رؤساء الدنيا يستغنى عن نعمة الهواء؟ الهواء ملك لمن ؟ والله لو تملك الهواء رؤساء الأرض وملوك الدنيا لأذلوا خلق الله وعباد الله ، ولكن شاء الله أن يجعل هذه النعمة التي لا حياة للخلق إلا بها ، شاء أن يجعلها مِلْكًا له وحده سبحانه ، فكل عبدٍ فقير لله ، مَن مِن العباد في غنى عن نعمة الماء ؟

مَن مِن العباد في غنى عن نعمة الشمس ؟ أو في غنى عن نعمة القمر ؟

فلولا الشمس لتجمد كل حي على ظهر الأرض ، لو فارقت الشمس مدارها قدْر أُنملة إلى أعلى لتجمد كل حي على ظهر الأرض ، ولو فارقت الشمس مدارها إلى أسفل قدر أنملة لاحترق كل حي على ظهر الأرض ، ولو ترك القمر مداره إلى أعلى أو إلى أسفل قدر أنملة=

كَاذِبًا ، فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ ، وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا ، فَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا ، فَقَالَ : إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ ، وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ فَقَالَ : رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ وَتَقَطَّعَتْ بِي الحِبَالُ فِي سَفَرِي ، فَلاَ بَلاَغَ اليَوْمَ إِلاَّ بِاللهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي ، فَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ بَصَرِي ، وَفَقِيرًا فَقَدْ أَغْنَانِي ، فَخُذْ مَا شِئْتَ ، فَوَاللهِ لاَ أَجْهَدُكَ اليَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ للهِ ، فَقَالَ : أَمْسِكْ مَالَكَ ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ» فقد يرسل الله ملكًا بنص هذا الحديث من أجل

= لأغرق وأهلك الأحياء على ظهر الأرض بما يسميه العلماء المد والجزر ؛ كما قال تعالى : ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس:٤٠] بأمر الله العزيز الحكيم جل جلاله . الفقر الآخر : هو فقر عباد الله الموحدين ، فقر عباد الله المؤمنين ألا وهو الفقر الاختياري ، إذ يقول ابن القيم : وكلما ازداد العبد فقرًا لله ـ جلَّ وعلا ـ باختياره ازداد غنى .

فالذّل لله ﷻ والعبودية لله رفعة ، والذل لغير الله ذل ، والعبودية لغير الله ذل ومهانة ولكنك كلَّما ازددت ذلاً لله وعبودية له ازددت قربًا من الله ومكانة ورفعة عند الله .

لذا امتدح الله نبيه المصطفي ﷺ بصفة العبودية في أعلى المقامات ، في مقام الدعوة ، ومقام الإسراء ، ومقام التحدي لأهل الشرك امتدحه بصفة العبودية ، لأن العبودية لله شرف . في مقام الإسراء ؛ حيث قال سبحانه وتعالى : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء :١] وقال سبحانه : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ [البقرة :٢٣] ، وقال سبحانه: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن :١٩] بل وما حصل عليه المصطفى ﷺ وهو المقام المحمود عند الله العزيز الحميد إلا لأنه هو الذي حقق أعلى مراتب العبودية لله ـ جلَّ وعلا ـ من بين سائر الخلق ، والإنسان المغرور لو نسي أصله استعلى على الله بالكفر وعلى خلق الله بالرفعة والكبر ولكنك لو علمت أن الله هو الغني ، وأن الله هو القوي ، وأن الله هو العليم ، وأن الله هو العزيز .

عرفت قدر علمك ، وجهلك ، وغناك ، وفقرك ، فكلما عرف العبد ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق ، وكلما عرف ربه بالعلم التام عرف نفسه بالجهل التام ، وكلما عرف العبد ربه بالعز التام ، عرف العبد نفسه بالذل التام.

الابتلاء والاختيار .

سادسًا : نزع الملائكة لروح الإنسان :

فهذه وظيفة من أهم وظائف الملائكة ؛ لأن بعض الناس يظن أن ملك الموت فقط هو الذي يقوم بهذا الدور وهذا غير صحيح ؛ بل إن هناك لله ﷻ من الملائكة من يقوم بهذا الدور ، أي : نزع أرواح العباد والخلق . قال تعالى : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة :١١] ، وقال الله تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام : ٦١] .

والمراد بقوله : ﴿ رُسُلُنَا ﴾ من الملائكة .

فهذا دليلٌ قرآنيٌّ على أن من الملائكة من يقوم بقَبْضِ الأرواح كما يقوم ملك الموت بها ـ عليهم جميعًا السلام من الله ﷻ ـ وتنزع الملائكة ـ بنص القرآن ـ أرواح الكافرين والمجرمين نزعًا شديدًا بلا رفقٍ ولا هوادة ـ نسأل الله أن يُسلِّمنا وإياكم .

يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ ﴾ [الأنعام :٩٣] .

فهذا دليل آخر على أن الملائكة تنزع أرواح المجرمين والظالمين .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ

وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧].

أما أهل الإيمان اللهم اجعلنا وإياكم من أهل الإيمان، ونسأل الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ أن يختم لنا ولكم بالإيمان ـ إذًا ما جاءت الملائكة لتنزع أرواحهم تنزعها برفق بعد البشارة.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

وفي «الصَّحِيحَيْنِ»[1] من حديثِ أبي سعيد الخدري ﷺ في حديثِ القاتل التسعة والتسعين نفسًا.. وفيه: «فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ العَذَابِ».

أي: مَنْ الذي سيقبض روحه.

وفي «سنن ابن ماجه» بسندٍ صحيح[2] من حديثِ أبي هريرة ﷺ أن النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «المَيِّتُ تَحْضُرُهُ المَلاَئِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَالِحًا قَالُوا: اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّب، اخْرُجِي حَمِيدَةً

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ٥٤ (٣٤٧٠)، و«مسلم»، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كَثُرَ قتله (٢٧٦٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٦٢)، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، وأحمد (٢/ ٣٦٤)، (٦/ ١٣٩)، وحسَّنه الشيخ الألباني في «المشكاة» (١٦٢٧) وهو في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٣٧).

وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ ، فَلاَ يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ ، فَيُفْتَحُ لَهَا فَيُقَالُ: مَنْ هَذَا ؟ فَيَقُولُونَ : فُلاَنٌ ، فَيُقَالُ : مَرْحَبًا بِالنَّفْسِ الطَّيِّبَةِ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ ، ادْخُلِي حَمِيدَةً وَأَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ ، فَلاَ يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى يُنْتَهَى بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي فِيهَا اللهُ ﷻ ، وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ السُّوءُ قَالَ : اخْرُجِي أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الْخَبِيثِ ، اخْرُجِي ذَمِيمَةً ، وَأَبْشِرِي بِحَمِيمٍ وَغَسَّاقٍ ، وآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ ، فَلاَ يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ ، ثُمَّ يُعْرَجُ بِهَا إِلَى السَّمَاءِ فَلاَ يُفْتَحُ لَهَا ... » الحديث.

وكذلك في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الطويل ، وفيه : قالَ النبيُّ ﷺ : « إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلاَئِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ ، بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عليه السلام حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ ، قال : وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنْ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ إِلَى الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنْ السَّمَاءِ مَلاَئِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ مَعَهُمْ الْمُسُوحُ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ فَيَقُول... » الحديث [(١)].

إذن هذا نداء من الملائكة لأرواح المؤمنين الطيبين ، فالملائكة كما تنزع

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦) ، وأبو داود ، كتاب السنة ، باب في المسألة في القبر وعذاب القبر (٤٧٥٣) ، والطيالسي (٧٥٣) ، والحاكم (١/ ٣٧، ٤٠) ، والآجري في «الشريعة» (٣٦٧، ٣٧٠) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٧٦) ، و«الجنائز» (١٥٩) .

أرواح المجرمين الظالمين بعنفٍ وقسوةٍ ، وتضرب وجوههم وأدبارهم ، فكذلك في المقابل تقبض أرواح المؤمنين برفقٍ ورحمةٍ. إذن هذه وظيفة من وظائف الملائكة.

سابعًا :الملائكة يحبون المؤمنين .

نعم أنت أيها المؤمن معروف لدى الملائكة ، الملائكة تعرفك ، الملائكة تحبك ، الملائكة تستغفر لك، الملائكة تدعو الله لك، بالله عليك: لو استشعرت هذه المعاني التي لربما تكون على علم بها لكنك لا تذكرها في كثير من الأوقات . أقول : استشعر معي الآن أنك ـ يا من حقَّقت الإيمان ـ معروفٌ لملائكة الله ، جبريل يعرفك ، وإسرافيل يعرفك .. الملائكة تعرفك ! بل وتحبك ! بل ويأتي جبريل عليه السلام ليذكر اسمك بين الملائكة إن كنت محبوبًا لله ـ جَلَّ وَعَلاَ.

تَدَبَّر أيها المحبوب الكريم ؛ روى البخاريُّ [(١)] ومسلمٌ من حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قالَ : «إِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا ، دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ : إِنِّي أُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبَّهُ . قَالَ : فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ . ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيقُولُ :إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ . فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ . قَالَ : ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ. وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ ، فَيَقُولُ : إِنِّي أُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضْهُ . قَالَ : فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ. ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ : إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلاَنًا فَأَبْغِضُوهُ . قَالَ : فَيُبْغِضُونَهُ . ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ البَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ» .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التوحيد ، باب كلام الرب مع جبريل ، ونداء الله الملائكة (٧٤٨٥) ، ومسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، بابا : إذا أحب الله عبدًا حببه إلى عباده (٢٦٣٧) .

فإن أحبك الله أحبك جبريل ، وإن أحبك جبريل أَحَبَّتْك الملائكة ، وإن أصبحت محبوبًا للملأ الأعلى والملائكة أصبحت محبوبًا لأهل الأرض . وإن كنتُ أودُّ أن أضع قيدًا حتى لا يلتبس الأمر على بعض إخواننا ألا وهو : أنك ستصير محبوبًا من أهل الأرض ممن هم على الإسلام والإيمان ؛ لأن الكافر يبغض المؤمن ؛ فلا يبغض المؤمن إلا منافق ، ولا يحب المؤمنَ إلا مؤمن ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم : ٩٦] .

أي : محبة في قلوب عباده المؤمنين[1] ؛ لأن كثيرًا من الدعاة الصالحين المصلحين الآن يبغضهم كثير من أهل النفاق ، فلا ينبغي أن تضرب النصوص ببعضها البعض ، وإنما لابد من هذا الفهم ، ولابد من هذا التوضيح .

والله لو تفهَّمنا هذا الحديث وعلمنا علمًا يقينًا معناه ما عمل أحدٌ حِسَابًا لأَحَدٍ من أهل الأرض قط ، نعم .. إن كنت تعلم يقينًا أن قلوب العباد لن تُقبل عليك إلا بأمر علاَّم الغيوب ، فإن القلوب تُقبل وتُدبر بأمر الله ، فالخلق جميعًا لو اجتمعوا على لسان رجل واحد بالثناء عليك لن يقربك ثناؤهم من الله إن كنت بعيدًا عن الله ، ولو اجتمع الخلق جميعًا على لسانٍ وقلبِ رجل واحدٍ بالذَّم فيك لن يبعدك ذمهم عن الله

---

(١) ورد هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما كما عند الطبري في « التفسير » (٢٣٩٦٠) بسندٍ ضعيف . ومجاهد (برقم ٢٣٩٦٣) وهو صحيح . وقتادة (برقم ٢٣٩٦٧) بسند صحيح .
وقد ثبت عن ابن عباس أنه قال : « يحبهم ويحببهم » أخرجه الطبري (٢٣٩٦٥) ، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٣ / ٣٧٣) .

إن كنت قريبًا منه ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ فالأصل أن تكون محبوبًا لله ـ جَلَّ وَعَلاَ.

وأودُّ أن أنبه بعض إخواني من الدعاة، وطلبة العلم، لأمر خطير؛ فقد يقول أحدهم: لا بد أن أكون جادًا صارمًا عبوسًا بين الناس لأحمل الناس حملاً على احترام العلم، أو من أجل أن يهاب الناس العلم! وهذا مدخلٌ خطيرٌ، فالمهابة يلقيها الله ﷻ للعبد بين الناس على قدر هيبة العبد من رب الناس.

نعم، فعلى قدْرِ خوفِكَ منه على قدْرِ ما يُلْقِى الله ﷻ لكَ الهيبة في قلوب الناس، فمن أعزَّه الله فهو العزيز، يأبى الله إلا أن يكرم مَنْ أطاعه واتقاه، ويأبى الله إلا أن يذل ويهين من عصاه، وإن طقطقت بهم البغال وهملجت بهم البراذين، فإن ذُلَّ المعصية في قلوبهم، والله ما رأينا عزًا إلا في الطاعة، وما رأينا ذلاً إلا في المعصية.

نسأل الله أن يحفظنا وإياكم بطاعته، وألا يذلنا وإياكم بمعصيته، إنه على كل شيء قدير.

ثامنًا: صلاة الملائكة على المؤمنين.

الملائكة تصلِّي على أهل الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾[الأحزاب: ٥٦].

اللهم صلِّ على محمدٍ وعلى آلهِ وصحبِهِ وسَلِّم.

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمًا﴾[الأحزاب: ٤٣].

إذن الملائكة تُصلِّي على الرُّسُلِ ، ثم بَيَّن الله تعالى أن الملائكة تُصَلِّي على أهل الإيمان .

وقد يسأل بعض الناس ويقول : ما معنى الصلاة من الله على النبيِّ ﷺ وعلى أهل الإيمان ؟

والجواب : أنَّ أصحَّ ما ورد في ذلك ؛ ما ذكره الإمامُ البخاريُّ رحمه الله في « الصحيح » [١] معلَّقًا عن أبي العالية ، قال : « صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة » [٢] ؛ فالصَّلاة من الله على رسوله ﷺ هي ثناؤه عليه . ومن أهل العلم من قال : صلاة الله : الرحمة [٣] ، وقوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ ﴾ [الأحزاب : ٤٣] .

يثني عليكم ويرحمكم ، وكذلك الملائكة تثني عليكم وتستغفر لكم ، فالملائكة تستغفر لأهل الإيمان ، كما سأبين الآن ـ إن شاء اللهُ تعالى ـ في نقطة أخرى .

وسنأخذ بعض النماذج من دعاء الملائكة وصلاة الملائكة على أهل الإيمان:

فقد ورد في الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي [٤] ، وصحَّحه

---

(١) «الفتح» (٨/ ٣٩٢) .

(٢) وعزاه الحافظ في « الفتح » (٨/ ٣٩٣) ، وابن كثير في «التفسير» (١١ / ٢١٠ ط أولاد الشيخ) لابن أبي حاتم .

(٣) «تفسير ابن كثير» (١١/ ٢١٠) (تفسير سورة الأحزاب : ٥٦) .

(٤) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب العلم ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٥) ، وقال : « حديث حسن غريب صحيح » ، والدارمي في « المقدمة » (٢٨٩) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح الترمذي » (٢١٦١) ، و « صحيح الجامع » (١٨٣٨) ، و « صحيح الترغيب والترهيب » (٧٨) .

الشيخ الألبانيُّ من حديث أبي أمامة ﷺ أنه ﷺ قال: « إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ فِي الْبَحْرِ، لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ ».

فالله ـ جَلَّ جَلاَلَه ـ والملائكةُ، بل حتى النَّمل في الجحور، والأسماك في البحور يُصَلُّونَ على من يعلِّمون النَّاس الخير، ووالله محرومٌ مَنْ حَرَمَ نفسه من هذا الخير.

رَوَى مسلمٌ في « صحيحه» من حديث أبي هريرةَ أنه ﷺ قال: « إِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تُصَلِّي عَلَى أَحِدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ! اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ! ارْحَمْهُ مَا لَمْ يُحْدِثْ. وَأَحَدُكُمْ فِي صَلاَةٍ مَا كَانت الصَلاَةُ تَحْبِسُهُ ».

وفي رواية البخاري: «لَمْ تَزَلِ الْمَلاَئِكَةُ تُصَلِّي عَلَيْهِ مَا دَامَ فِي مُصَلاَّهُ: اللَّهُمَّ! صَلِّ عَلَيْهِ، اللَّهُمَّ! ارْحَمْهُ، وَلاَ يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلاَةٍ مَا انْتَظَرَ الصَّلاَةَ »[1].

واتفقنا على أن دعاء الملائكة مستجاب، ولذلك فإن الرجل المسلم الذكي هو الذي إن أراد أن يتقبل الله منه دعاءه انطلق ليدعوا لأخٍ من إخوانه ليقول له الملك: « وَلَكَ بِمِثْلٍ »؛ لأننا نرى حتى أنانية في الدعاء، فقد يشعر الإنسان بشيء من التردد أو الحرج إن انطلق ليدعوا لإخوانه، مع أن المسكين لو تدبَّر لعَلِمَ أن الذي سيُؤمِّن على دعوته مَلَكٌ من

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، وفضل المساجد (٦٥٩)، ومسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة (٦٤٩) (٢٧٣).

الملائكة يقول : « آمين .. آمين ، ولك بمثل »[(١)] .

فإن أردت أن يستجيب الله ـ عز وجل ـ دعوة لك فأخلص الدعوة لإخوانك ليقول الملك : « آمين ... آمين ولك بمثل » .

أسأل الله أن يرزقنا وإياكم الإخلاص في القول والعمل .

كذلك انظر إلى هذه الفضيلة : يقول النبيُّ ﷺ : « إنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصَّفِّ الأوَّلِ »[(٢)] . رواه أحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجه وغيره ، وصَحَّحَه الشيخ الألبانيُّ .

فما ظنك بمن يتهاون في التقدم إلى الصفِّ الأولِ مع وجود الأماكن .

وتدبَّروا هذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد في « مسنده » ، وابن ماجه في « سننه » ـ وهو حديث حسن ـ من حديث عائشة أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « إنَّ الله تَعَالَى وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الَّذِينَ يَصِلُونَ الصُّفُوفَ »[(٣)] .

كذلك إن صلَّيت على النبيِّ ﷺ وكَّل الله لك ملائكة لتصلي عليك ، اللَّهُمَّ صلِّ على النبيِّ محمد ﷺ .

---

(١) سيأتي .

(٢) أخرجه أبو داود ـ كتاب الصلاة ، باب تسوية الصفوف (٦٦٤)، والنسائي ، كتاب الإمامة ، باب كيف يُقَوِّمُ الإمام الصفوف (٨١٠) ، والدارمي (١٢٦٤) ، وأحمد (٤/ ٢٩٦) ، وابن خزيمة (١٥٥٦) ، وابن ماجه ، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب فضل الصف المقدم (٩٩٧) من حديث البراء ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح ابن ماجه » (٨١٦) ، وله شواهد ؛ انظرها في « صحيح الجامع » (١/ ٣٧٦) .

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ٦٧ـ٨٩ ـ ١٦٠)، وابن ماجه (٩٩٥) في كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب فضل الصف المقدم ، وصحَّحه الألباني في « الصحيحة » (٢٥٣٢) ، وفي «صحيح الجامع» (١٨٤٣) .

يقول النبيُّ ﷺ؛ كما في «مسند أحمد» وسنن ابن ماجه وصحَّحه الشيخ الألبانيُّ في «صحيح الجامع» من حديث عامر بن ربيعة ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَلِّي عَلَيَّ إِلاَّ صَلَّتْ عَلَيْهِ المَلاَئِكَةُ مَادَامَ يُصَلِّي عَلَيَّ، فَلْيُقِلَّ العَبْدُ مِنْ ذَلِكَ أَوْ لِيُكْثِرْ»[1].

اختر لنفسك إما أن تكون مُقلًا، وإما أن تكون مُكْثرًا.

اللهم صلِّ على النبيِّ محمد وعلى أزواجه أمهات المؤمنين وعلى آله وصحبه أجمعين، واحشرنا في زمرتهم برحمتك يا أرحم الراحمين.

كذلك الملائكة تُصَلِّي على الذين يعودون (يزورون) المرضى؛ ففي الحديث الذي رواه ابن حبان بسندٍ صحيح من حديث عليٍّ ﷺ أن النبيَّ ﷺ قال: «مَا مِنْ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا إِلاَّ ابْتَعَثَ اللهُ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ فِي أَيِّ سَاعَاتِ النَّهار كَانَ حَتَّى يُمْسِي، وَأَيِّ سَاعَاتِ اللَّيْلِ كَانَ حَتَّى يُصْبِحَ»[2].

وفي رواية لأبي داود: «مَا مِنْ رَجُلٍ يَعُودُ مَرِيضًا مُمْسِيًا إِلاَّ خَرَجَ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ حَتَّى يُصْبِحَ، وَمَنْ أَتَاهُ مُصْبِحًا خَرَجَ مَعَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَسْتَغْفِرُونَ لَهُ حَتَّى يُمْسِيَ وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الجَنَّةِ».

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤٥، ٤٤٦)، وابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب الصلاة على النبيِّ ﷺ (٩٠٧)، وحسَّنه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٧٣٩)، وفي «صحيح الجامع» (٥٧٤٤).

(٢) أخرجه ابن حبان؛ كما في «الإحسان» (٢٩٥٨) ورواية أبي داود المشار إليها في «السنن»، في كتاب الجنائز، باب فضل العيادة على وضوء (٣٠٩٨)، وابن ماجه، كتاب الجنائز، باب ما جاء في ثواب من عاد مريضًا (١٤٤٢)، وأحمد (١/ ١٢١)، والبيهقي في «السنن» (٣/ ٣٨١)، وصحَّحه الشيخ الألبانيُّ في «الصحيحة» (١٣٦٧)، و«صحيح الجامع» (٥٦٨٧، ٥٧١٧، ٥٧٦٧).

وكذلك تصلِّي الملائكة على الذين يتسحرون ؛ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ »(١) .

وكذلك تصلي الملائكة على من يطعم أخاه المسلم .

روى أحمد والطحاويُّ والبيهقيُّ وغيرهم عن أنس رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِسَعْدِ بنِ عُبَادَةَ لَمَّا فَرَغَ مِنَ الطَّعَامِ : « أَكَلَ طَعَامَكُمُ الأَبْرَارُ ، وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ المَلائِكَةُ ، وَأَفْطَرَ عِنْدَكُمُ الصَّائِمُونَ »(٢) .

وقد تسأل : فهل لصلاة الملائكة علينا من فضل ؟

والجواب : نعم ؛ كما في آيةٍ صريحةٍ ؛ كما مرَّ بنا في أول هذه الكلمات ؛ قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٣] .

اللهم أخرجنا من الظلمات إلى النور برحمتك يا عزيز يا غفور .

تاسعًا : التأمين على دعاء الذين يتضرَّعون إلى الله بالدعاء .

رَوَى مسلمٌ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيْبِ إِلاَّ قَالَ المَلَكُ : وَلَكَ بِمِثْلٍ »(٣) .

الملائكة تؤمِّن على دعاء الدَّاعين ؛ كما في « صحيح مسلم » من حديث أم سلمة أَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ : « لاَ تَدْعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ بِخَيْرٍ(*) ، فَإِنَّ

(١) سبق تخريجه في الصيام . (٢) عند أحمد (٣/ ١٣٨) وقد سبق تخريجه .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب (٢٧٣٢، ٢٧٣٣) .

(*) وهذا أمرٌ أودُّ أن أنبه الأمهات إليه ، فإن الأم ربما تغضب على ولدها ، وربما يكون طفلاً صغيرًا كسر مثلاً مرآة أو كوبًا أو طبقًا ، أو أساء إلى أثاثٍ من أثاث البيت ، فتستعجل الأم بالدعاء على ولدها ، وهذا خطأ كبير جدًّا ، يجب الحذر منه .

الْمَلاَئِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ »[(١)].

وفي لفظ آخر: « إِذَا حَضَرْتُمُ الْمَرِيضَ، أَوْ الْمَيِّت، فَقُولُوا خَيْرًا، فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلَى مَا تَقُولُونَ»[(٢)].

عاشرًا: استغفار الملائكة للمؤمنين.

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [غافر: ٧-٩]، وقال سبحانه: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشورى: ٥].

فالملائكة تستغفر الله وتدعو لأهل الإيمان كما في هذه الآية المباركة.

الحادي عشر: شهود الملائكة لمجالس العلم.

فهذه أعظم العلاقات التي تربط الملائكة بالمؤمنين من عباد الله - جلَّ وعلا.

تدبَّر معي هذا الحديث الصحيح الذي رواه البخاريُّ ومسلمٌ[(٣)] من

(١) أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حُضِر (٩٢٠).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المريض والميت (٩١٩).

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله ﷻ (٦٤٠٨)، وأخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل مجالس الذكر (٢٦٨٩).

حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال: «إِنَّ لله مَلائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ، قَالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنيَا ...» الحديث.

وفي «صحيح مسلم»[1] عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ إِلاَّ نَزَلَتْ عَلَيهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَحَفَّتْهُمُ المَلائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ».

أي: ذَكَرَهُم اللهُ عند الملائكة، ويباهي بهم الملائكة؛ كما في «صحيح مسلم» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خَرَجَ مُعَاوِيةُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي المَسْجِدِ، فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ فَقَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ. قَالَ: آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ؟ قَالُوا: وَاللهِ! مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ. قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي، وإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «مَا أَجْلَسَكُمْ؟» قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلاَمِ وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا، قَالَ: «آللهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ؟» قَالُوا: وَاللهِ! مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ. قَالَ: «أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللهَ عز وجل يُبَاهِي بِكُمُ المَلاَئِكَةَ»[2].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، والتوبة والاستغفار، باب فضل الاجتماع على قراءة القرآن والذكر (٢٦٩٩).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر (٢٧٠١).

انظر إلى فضل مجالسِ العلمِ وحلق الذكرِ ، فلقد كان الصحابة يجلسون حول النبيِّ ﷺ يذكرون الله ، أو يذكِّرهم النبيُّ بالله ﷻ ، وكأنَّ على رؤوسهم الطير لا تسمع صياحًا ولا صراخًا ، ولا تشهد رقصًا ، ولا تسمع طبلاً ولا زمرًا ، فإن هيئة الذاكر الخاشع أن تدمع عينه ، وأن يسكن ويخشع قلبه ، وأن تسكن وتخشع وتهدأ جوارحه .

هذه حالة الذكر التي تليق بجلال الله وكمال الله - جلَّ وعلا .

وفي مسند الإمام أحمد وسنن أبي داود الترمذيِّ وغيرهم عن أبي الدرداء ﷺ أنه ﷺ وعلى آله قال[1]: « إِنَّ المَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ » .

فالملائكة تحيط بك يا طالب العلم ، وتضع لك أجنحتها كناية عن الرحمة ، بل والتواضع ، فلقد عرَّف سلفنا التواضع ؛ فقالوا : هو انكسار القلب لله ، وخفض جناح الذل لخلق الله ، فالملائكة تخفض وتضع أجنحتها لطالب العلم تواضعًا منها لما هو عليه ورحمة من الله تبارك وتعالى لهذا الطالب ، ولهذا الخير ، ولهذا النور ، فإن أغلى وأعزَّ ما يُطلَب في هذه الدنيا هو العلم .

فكَمْ من أناس قد عرفوا ظاهرًا من الحياة الدنيا ، وهم عن الآخرة

(١) أخرجه أبو داود ، كتاب العلم ، باب الحث على طلب العلم (٣٦٤١) ، والترمذي ، كتاب العلم ، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٢) ، وابن ماجه في المقدمة ، باب فضل العلماء ، والحث على طلب العلم (٢٢٣) ، وأحمد (٥/ ١٩٦) ، والدارمي في المقدمة (٣٤٢) ، وصحّحه الشيخ الألباني في « صحيح أبي داود » (٣٠٩٦) ، وفي « صحيح ابن ماجه » (١٨٢) ، و« صحيح الترغيب » (٦٨) و « صحيح الجامع » (٦٢٩٧) .

وعلومها في غاية الجهل ، وربما لم ينتفع هذا بعلمه البتة ، بل ربما يقوده علمه إلى الهلاك وإلى الهاوية إذا ما اغتر بعلمه ، وجعل من العلم إلهًا يُعبَد في الأرض من دون الله ، كما نرى الآن الذين يعبدون العقل والعلم ، ونحن لا نقلِّل من شأن العقل ، ولا من شأن العلم ، بل إننا نعتقد اعتقادًا جازمًا أن نور الوحي لا يطمس نور العقل ، ولا يطمس نور العلم أبدًا ، بل يزكي نورُ الوحي نورَ العقل، ونور العلم ، شريطة أن يُذعِن العقل والعلم لله رب العالمين ، لا أن يتطاول العلماء بعقولهم وعلومهم على الله رب العالمين ، فإن أغلى ما يطلب في هذه الدنيا هو : العلم .

لذا رَوَى الإمام أحمد والطبرانيُّ ، واللفظ للطبراني بسندٍ حسنٍ من حديث [(١)] صفوان بن عسال المرادي رضي الله عنه ، قال : أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ فِي المَسْجِدِ مُتَّكِئٌ عَلَى بُرْدٍ لَهُ أَحْمَرَ ، فقُلْتُ : يا رسُولَ الله ، إِنِّي جِئْتُ أَطْلُبُ العِلْمَ ؛ فَقَالَ : « مَرْحَبًا بِطَالِبِ العِلْمِ ، إِنَّ طَالِبَ العِلْمِ لَتَحُفُّهُ المَلائِكَةُ وَتُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا ، ثُمَّ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا حَتَّى يَبْلُغُوا السَّمَاءَ الدُّنْيَا مِنْ حُبِّهِمْ لِمَا يَطْلُبُ » .

لو عرفت ذلك ووقفت على فضل هذا الحديث ؛ لبذلت الوقت والجهد ، بل والمال لتجثو ركبتُكَ بين يدي أهل العلم المتحققين به ، الذين يقولون : قال الله وقال رسوله ﷺ .

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣٩، ٢٤٠) ، والحاكم (١/ ١٠٠، ١٠١) ، والطبراني في « الكبير » بهذا اللفظ (٨ / ٥٤) (٧٣٤٧) ، وقال الهيثمي في « المجمع » (١/ ١٣١) : رواه الطبراني في « الكبير » ورجاله رجال الصحيح ، وحسنه شيخنا الألباني في « صحيح الترغيب والترهيب » (٦٩) ، (٨١) ، و« الصحيحة » (٣٣٩٧) .

أما يوم الجمعة ؛ فله شأن آخر ، فإن من أعظم أيامنا يوم الجمعة ، كما قال ﷺ ، والحديث رواه أبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ وأحمد[1] عن أبي هريرةَ ﷺ : قَالَ ﷺ : « خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ أُهْبِطَ مِنَ الجَنَّةِ ، وَفِيهِ تِيبَ عَلَيْهِ ، وَفِيهِ مَاتَ ، وَفِيهِ تَقُومُ السَّاعَةُ ، وَمَا مِنْ دَابَّةٍ إِلاَّ وَهِيَ مُصِيخَةٌ [مستمعة مصغية] يَوْمَ الجُمُعَةِ ، مِنْ حِينِ تُصْبِحُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ شَفَقًا مِنَ السَّاعَةِ إِلاَّ الجِنَّ والإِنْسَ ، وَفِيهِ سَاعَةٌ لاَ يُصادِفُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ وَهُوَ يُصَلِّي ، يَسْأَلُ اللهَ شَيْئًا إِلاَّ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ » .

في هذا اليوم الكريم تسعد الملائكة بمجالس العلم والذكر .

قال النبيُّ ﷺ كما في « صحيح البخاري ، ومسلم »[2] من حديث أبي هريرةَ ﷺ قالَ ﷺ : « إِذَا كانَ يَوْمُ الجُمُعَةِ كَانَ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوابِ المَسْجِدِ مَلاَئِكَةٌ يَكْتُبُونَ الأَوَّلَ فَالأَوَّلَ ، فَإِذَا جَلَسَ الإِمَامُ طَوَوْا الصُّحُفَ وَجَاءُوا يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ » .

فاحرص أن تسجَّل في صحف الملائكة .

---

(١) أخرجه مالك في « الموطأ » (١/ ١١١) والشافعي في « مسنده » (١ / ٣٧٨) وأبو داود ، كتاب الصلاة ، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة (١٠٤٦) والترمذي ، كتاب الصلاة باب في الساعة التي ترجى يوم الجمعة (٤٩١) وقال : «حديث حسن صحيح» ، والنسائي ، كتاب الجمعة ، باب ذكر فضل يوم الجمعة (١٣٧٣) ، وأحمد (٢/ ٤٨٦) ، وابن خزيمة (١٧٢٩) ، وابن حبان (١٠٢٤) ، والبيهقي (٣/ ٢٥٠) وصحَّحه الألباني في « صحيح الجامع » (٣٣٣٤) و « الإرواء » (٣/ ٢٢٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجمعة ، باب الاستماع إلى الخطبة يوم الجمعة (٩٢٩) ، وفيه في كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة عليهم السلام (٣٢١١) ، و « مسلم » ، كتاب الجمعة ، باب فضل التهجير يوم الجمعة (٨٥٠) .

اجعل هذا اليوم عيدًا كما حَسَدَنَا اليهود على ذلك ، احرص على أن تصلِّي الفجر في هذا اليوم ، وأن تجلس بعد صلاة الفجر ، ولو في بيتك لتذكُر الله ساعة ، ولتصلِّي على النبيِّ ساعة ، ولتقرأ سورة الكهف ولتسترح قليلاً بعد ذلك ساعة ، وقم واغتسل ، والبس أطيب ما عندك من الثياب وتطَّيب ، وانطلق إلى بيت من بيوت الله - جَلَّ وَعَلاَ - انشغل بصلاة النافلة ، وانشغل بقراءة القرآن ، وانشغل بالصلاة على النبيِّ ﷺ إن فعلت ذلك ؛ فلقد هيأت قلبك لكل خير .

وإنما تتفاضل الأعمال عند الله بتفاضل ما في القلوب ، لا بكثرة الأعمال وصورها ، بذلك قد جعلت لنفسك معسكرًا إيمانيًا على قلبك ، فإذا ما صعد الإمام المنبر قد هُيئت ، بل وهيأت قلبك بنفسك ، فسرعان ما تتلقى هذه الأرضُ الطيبةُ ، هذه البذرة الخيرة التي تتمثل في آيةٍ محكمةٍ من آيات الله ، وحديثٍ صحيحٍ لرسولِ الله ﷺ.

بل إذا قال العبد المؤمن كلمة طيبة أسرعت الملائكة لتسجيلها وتبييضها وكتابتها .

كما في «صحيح البخاري»[1] وغيره من حديث رفاعة بن رافع رضي الله عنه يقول : كُنَّا يَوْمًا نُصَلِّي وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ ، فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ قَالَ : « سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ »، قَالَ رَجُلٌ وَراءَهُ : «رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ »، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ : «مَنْ المُتَكَلِّمُ ؟» قَالَ : أَنَا ، قَالَ ﷺ : « رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلاثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ » .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأذان باب (١٢٦) ، (٧٩٩) .

سبحان ربي العظيم ، وهؤلاء الكتبة بخلاف الكتبة الذين ذكرت خبرهم سابقًا ، وهم الذين يكتبون عن اليمين وعن الشمال : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق:١٨] .

بدليل أن النبيَّ ﷺ قالَ : « بِضْعَةً وَثَلاثِينَ مَلَكًا » ، فهذا إنْ دلَّ إنما يدلُّ على أنَّ اللهَ له ملائكة غير هذين الملكين يكتبون الأعمال ، بنص الحديث ويرفعونها إلى الله ـ تبارك وتعالى.

فهذه ملائكة تكتب الحضور في حلقة الذكر ، وتحف الذاكرين في مجالس الذكر والعلم ، وهناك ملائكة تتعاقب فينا في وقتين من أوقات الصلاة في الفجر والعصر يتعاقبون ؛ كما في «الصَّحِيحَيْنِ»[(١)] في حديث أبي هريرةَ ﷺ أن النبيَّ ﷺ قالَ : « يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاةِ الفَجْرِ وَصَلاةِ العَصْرِ . ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ . فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ : كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي ؟ فَيَقُولُونَ : تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ » .

والله تعالى أعلم بالسرِّ وما هو أخْفى ، ولعل هذه الملائكة التي ترفع الأعمال إلى الله ؛ كما في «صحيح مسلم »[(٢)] من حديث أبي موسى

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب مواقيت الصلاة ، باب فضل صلاة العصر (٥٥٥) وفي كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة ﷺ (٣٢٢٣) ، وفي كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى : «تعرج الملائكة والروح إليه» ، وقوله جل ذكره: ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ (٧٤٢٩) و« مسلم » ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب فضل صلاة الصبح والعصر والمحافظة عليها (٦٣٢) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب في قوله ﷺ « إن الله لا ينام » (١٧٩) .

الأشعري رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « إِنَّ اللهَ عز وجل لاَ يَنَامُ وَلاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ ، يَخْفِضُ القِسْطَ وَيَرْفَعُهُ ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ » .

الثاني عشر : تنزل الملائكة عند قراءة القرآن .

هذه أيضًا من أعمال الملائكة أنهم يتنزلون لقراءة القرآن .

ففي الحديثِ الذي رواه البخاريُّ ومسلم [(١)] عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ أسيد بن حُضير رضي الله عنه ، بَيْنَمَا هُوَ لَيْلَةً يَقْرَأُ فِي مِرْبَدِهِ . إِذْ جَالَتْ فَرَسُهُ . فَقَرَأَ ، ثُمَّ جَالَتْ أُخْرَى . فَقَرَأَ ، ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا ، قَالَ أُسَيْدٌ : فَخَشِيتُ أَنْ تَطَأَ يَحْيَى . فَقُمْتُ إِلَيْهَا . فَإِذَا مِثْلُ الظُّلَّةِ فَوْقَ رَأْسِي . فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ . عَرَجَتْ فِي الجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا . قَالَ : فَغَدَوْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ! بَيْنَمَا أَنَا البَارِحَةَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ أَقْرَأُ فِي مِرْبَدِي إِذْ جَالَتْ فَرَسِي . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « اقْرَأْ ابْنَ حُضَيْرٍ! » . قَالَ : فَقَرَأْتُ ثُمَّ جَالَتْ أَيْضًا ـ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « اقْرَأْ ابْنَ حُضَيْرٍ! » قَالَ : فَانْصَرَفْتُ . وَكَانَ يَحْيَى قَرِيبًا مِنْهَا . خَشِيتُ أَنْ تَطَأَهُ . فَرَأَيْتُ مِثْلَ الظُّلَّةِ . فِيهَا أَمْثَالُ السُّرُجِ عَرَجَتْ فِي الجَوِّ حَتَّى مَا أَرَاهَا . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « تِلْكَ المَلاَئِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَرَاهَا النَّاسُ ، مَا تَسْتَتِرُ مِنْهُمْ » .

فالملائكة تتنزل لتلاوة القرآن ، ولذلك أعجب كثيرًا لبعض أحبابنا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل القرآن ، باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن (٥٠١٨) و« مسلم »، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب نزول السكينة لقراءة القرآن (٧٩٦) .

من أئمتنا في صلاة التراويح الذين يقرؤون القرآن كأنهم في سباق مع الزمن، كلٌّ همٍّ الواحد منهم أن يصل إلى نهاية السورة ، ليس هذا هو المراد منك يا أخي ، وإنما المراد أن تتدبر القرآن ؛ قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [النساء : ٨٢] ، وأن تعيش مع آيات القرآن .

إذا مرَّت عليك آية نعيم : توقف وسَلِ الله الجنة ، وإذا مرَّت عليك آية جحيم : توقفْ وسَلِ الله أن يقيك من الجحيم ، ومن العذاب الأليم ، وإذا مرَّت عليك آية عظة : قف واتعظ . آية ذكر : تذكر . قصة : تدبر .

هذا هو المراد ، أما أن تصل إلى آخر السورة دون تدبر ، فما أراد الله وما أراد رسوله ﷺ منا ذلك على الإطلاق .

يقول الله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ ﴾ [القمر:١٧] .

فلا يكن كلُّ همِّك أن تصل إلى آخر السورة !! .

نسأل الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يرزقنا وإياكم السمع والقلب اللذين قال الله فيهما : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] فالملائكة تتنزل لسماع القرآن .

الثالث عشر :قتال الملائكة مع المؤمنين .

ربما يسأل الآن شابٌّ متسرعٌ أو طالب علم متحمس ينظر إلى واقع الأمة الأليم ، فيصاب بدهشة واستغراب لما يستمع إليه الآن ، وللواقع الذي يحياه ويعيش فيه . أين الملائكة التي تزعم الآن أنها تتنزل للقتال مع المسلمين المؤمنين ؟!!

وها أنت ترى المسلمين يُضربون من أذلِّ وأخسِّ وأحقر أمم الأرض ، لماذا لم يُنزِّل الله الملائكة لتقاتل معهم ؟!!

والجواب في كلمة واحدة : أين المؤمنون ؟ .. الذين يقاتلون الآن - إلا مَنْ رَحِمَ رَبُّك - يرفعون شعاراتٍ مضللةً ، ففيهم من يقاتل من أجل العروبة ؟ أو من أجل القومية ، أو من أجل الوطنية ... إلخ ، شعارات كذابة ضيَّعت الأمة ، ووضعت رأسها في الوَحْل والتُّراب ، لكن حينما ترفع الراية لتكون كلمة الله هي العليا ، وحينما ترفع الراية لأهل الإيمان ، ورب الكعبة لا نشك لحظة في كلام الرحمن ، ولا في كلام سيد ولد عدنان ، حينئذٍ سترى ملائكة الرحمن ، سترى جبريل .

هل تصدَّقون الله ورسوله ؟ أَوْجِد المؤمنين لتتنزل عليهم في أرض المعركة ، ملائكةُ رب العالمين لكن أين المؤمنون ؟ هل نحن نستحق الآن أن تتنزل علينا الملائكة لتمدنا في قتالنا مع أعداء الله ؟! أين الموحدون الصادقون ؟ أين المؤمنون الصادقون الذين يستحقون نصرة رب العالمين بتنزل الملائكة عليهم؟!

قال تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم :٤٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون :٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [النور :٥٥] .

لن نرى عزة ، وتمكينًا ، واستخلافًا إلا إذا حققنا الإيمان ابتداءً ، وأوجدنا القاعدة الإيمانية التي تتحرك بعد ذلك ، وهي تحمل همَّ هذا الدين لتوصله إلى ربوع الأرض ، وهذا ما فعله النبيُّ ﷺ: فلقد رَبَّى

القاعدة المؤمنة الصادقة ـ أعني الصحابة الأخيار ـ ثم خرج مع هؤلاء الرجال الأطهار ليقيم للإسلام دولة من فتات متناثر وسط صحراء تموج بالكفر والجاهلية موجًا ، فإذا دولة الإسلام بناء شامخ لا يطاوله بناء ، لابد من تأصيل هذه السنة الربانية في القلوب .

قال تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾[الأنفال :٩] .

مددٌ إلهيٌّ من السماء من الملائكة ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾[آل عمران: ١٢٣ـ١٢٦] .

يا الله !! قواعدُ بيانية تثبت قواعد إيمانية في القلوب التقية ، ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾[آل عمران :١٢٦] .

وفي « السيرة لابن إسحاق » أنَّ رسولَ الله ﷺ لما كان يوم بدر صنعوا للنبيِّ ﷺ عريشًا ـ أي (خيمة) ـ وقف النبيُّ ﷺ قبل الغزوة ولم يكن مستعدًّا للقتال ، فوقف يستغيث الله ويتضرع إليه بالدعاء مع صاحبه الصادق الصديق أبي بكر ، فأخذت الرسول ﷺ سِنة من النوم ، ثم استيقظ النبي ﷺ مبتسمًا وهو يقول لأبي بكر ﷺ: « أَبْشِرْ يَا أَبَا بَكْرٍ أَتَاكَ

نَصْرُ الله ، هَذَا جِبْرِيْلُ آخِذٌ بِعَنَانِ فَرَسٍ يَقُودُهُ عَلَى ثَنَايَاهِ النَّقْعُ »[١].

ورَوَى أحمد [٢] عن عليٍّ رضي الله عنه قال : « قِيلَ لِعَلِيٍّ ، وَلأَبِي بَكْرٍ يَوْمَ بَدْرٍ: مَعَ أَحَدِكُمَا جِبْرِيْلُ ، وَمَعَ الآخَرِ مِيكَائِيْلُ ، وَإِسْرَافِيلُ مَلَكٌ عَظِيْمٌ يَشْهَدُ القِتَالَ ـ أَوْ قَالَ : يَشْهَدُ الصَّفَّ» .

وفي غزوة الخندق أرسل الله الملائكة ؛ قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾[الأحزاب :٩] .

الجنود التي لم تُرَ هي الملائكة ، إنما الجنود الأول في الآية هم أهل الشرك .

وثبت في « الصَّحِيحَيْنِ » [٣] من حديث عائشة رضي الله عنها أن جبريل جاء إلى رسولِ الله ﷺ بعد هذه الغزوة (الأحزاب) وعلى ثناياه النقع ، أي : الغبار ، وكان الرسول يغتسل ، وذلك بعدما أنهى المعركة ، والحمد لله ، نَصَرَ الله عبده ، وأعزَّ جنده ، وهَزَمَ الأحزاب وحده ـ جَلَّ جَلالُه ـ

---

(١) « السيرة النبوية » لابن هشام (١/ ٤١٦) وأصله في البخاري ، كتاب المغازي ، باب شهود الملائكة بدرًا (٣٩٩٥) ، وانظر طرفه هناك .

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (١ / ١٤٧) . وابن أبي شيبة في « مصنفه » (٦/ ٣٥١) ، (٧/ ٣٥٣) ، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٢١٧) ، والحاكم (٣/ ٧٢ ، ١٤٤) ، وصحَّحه ووافقه الذهبي وأبو يعلى في « مسنده » (٣٤٠) ، والبزار (٧٢٩) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٣٦٧) ، (٥/ ٦٣) ، و(٧/ ٢٢٤) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٣٢٤١).

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير ، باب الغسل بعد الحرب والغبار (٢٨٣١) وفي كتاب المغازي ، باب مرجع النبيِّ ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم (٤١١٧) ، وانظر رقم (٤٦٣) ، و « مسلم » في كتاب الجهاد والسير ، باب جواز قتال من نقض العهد ، وجواز إنزال أهل الحصن على حكم حاكم عدل أهل للحكم (١٧٦٩) .

فدخل النبيُّ ﷺ وخلع لباس الحرب واغتسل ، فنزل عليه جبريل ، وقال : « قَدْ وَضَعْتَ السِّلاحَ ! وَاللهِ مَا وَضَعْنَاه ، فَاخْرُجْ إِلَيْهِمْ ، قَالَ : فَإِلَى أَيْنَ؟ قَالَ : هَا هُنَا» ، وأَشَارَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ ، فَخَرَجَ النبيُّ ﷺ إِلَيْهِمْ » .

وروى البخاريُّ[1] عن أنسٍ ﷺ قالَ : « كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى الغُبَارِ سَاطِعًا فِي زُقَاقِ بَنِي غَنْمٍ ، مَوْكِبِ جِبْرِيلَ صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ حِيْنَ سَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ » .

وروى مسلمٌ[2] عن ابن عباسٍ ﷺ قَالَ : « بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ أَمَامَهُ ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ ، وَصَوْتَ الفَارِسِ يَقُولُ : أَقْدِمْ حَيْزُومُ ، فَنَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِيًا ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ ، وَشُقَّ وَجْهُهُ ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ ، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ ، فَجَاءَ الأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ : « صَدَقْتَ ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ » .

والله لو آمنا بالله وقدرته ، وبذلنا ما نستطيع من الأسباب لنصرنا الله ، وليس هذا بأن نجلس ونقول : يا رب وفقط ! ، بل نأخذ بالأسباب .

فقد قال الله ـ جَلَّ وَعَلاَ: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] .

وقال لك : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم ﴾ [الأنفال : ٦٠] .

فابذل ما استطعت واترك النتيجة لله ﷻ .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المغازي ، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب (٤١١٨) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر (١٧٦٣) .

الرابع عشر : حمايتهم للنبيِّ ﷺ والمؤمنين ، ونصرتهم وتأييدهم ، وتفريجهم الكرب عن الصالحين .

رَوَى مسلمٌ (١) عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ أَبُو جَهْلٍ : هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ ؟ ، قَالَ : فَقِيلَ : نَعَمْ ، فَقَالَ : وَاللاَّتِ والعُزَى! لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفعَلُ ذَلِكَ لأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ ، أَوْ لأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ ، قَالَ : فَأَتَى رَسُولَ الله ﷺ ، وَهُوَ يُصَلِّي زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ ، قَالَ : فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلاَّ وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ ، وَيَتَقِي بِيَدَيْهِ . قَالَ : فَقِيلَ لَهُ : مَالَكَ ؟ فَقَالَ : إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلاً وَأَجْنِحَةً . فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « لَوْ دَنَا مِنِّي لاخْتَطَفَتْهُ المَلائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا » .

وانظر إلى مَلَكِ الجبال وحديثه في «الصَّحِيحَيْنِ» (٢) من حديث عائشة رضي الله عنها : أَنَّهَا قَالَتْ لِرَسُولِ الله : يَا رَسُولَ الله ! هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ ؟ فَقَالَ : « لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ . وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقَبَةِ . إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَا لِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلاَلٍ . فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَانطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي . فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلاَّ وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ . فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي . فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ . فَنَادَانِي . فَقَالَ : إِنَّ الله عز وجل قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ . وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ . قَالَ :

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة النار ، باب قوله : ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾(٢٧٩٧) ورواه البخاريُّ عن ابن عباس (٤٩٥٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه (٣٢٣١)، وانظر طرفه هناك، ومسلم ، كتاب الجهاد، باب اشتد غضب الله على من قتله رسول الله ﷺ(١٧٩٥) .

فَنَادَانِي مَلَكُ الجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ . ثُمَّ قَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ . وَأَنَا مَلَكُ الجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ . فَمَا شِئْتَ ؟ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ» فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» .

وروى أحمد ، والبخاري في «الأدب المفرد» ، والطيالسي «مسنده» وابن حبان في «صحيحه»[1] عن هشام بن عامر رضي الله عنه أنه ﷺ قَالَ : « لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ مُسْلِمًا فَوْقَ ثَلاثِ لَيَالٍ، فَإِنَّهُمَا نَاكِبَانِ عَنِ الحَقِّ مَا دَامَا عَلَى صِرَامِهِمَا ، وَأَوَّلُهُمَا فَيْئًا يَكُونُ سَبْقُهُ بِالْفَيْءِ كَفَّارَةً لَهُ ، وَإِنْ سَلَّمَ فَلَمْ يَقْبَلْ سَلاَمَهُ ، وَرَدَّ عَلَيْهِ سَلاَمَهُ ، رَدَّتْ عَلَيْهِ المَلاَئِكَةُ ، وَرَدَّ على الآخَرِ الشَّيْطَانُ ، وَإِنْ مَاتَا عَلَى صِرَامِهِمَا لَمْ يَدْخُلاَ الجَنَّةَ جَمِيعًا أَبَدًا » .

وكذلك ما حدث في قصة هاجر وولدها إسماعيل[2] .

وكان ﷺ يدعو لحسَّان بن ثابت ؛ فيقول : « اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ القُدُسِ »[3] والملائكة يبشِّرون المؤمنين ، قال سبحانه : ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ [آل عمران : ٣٩] ، وقال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢] .

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٠) ، والبخاريُّ في « الأدب المفرد » (٤٠٢، ٤٠٧) والطيالسي (١٣١٩ط هجر) ، وابن حبان (١٩٨١) ، وصحَّحه الألباني بشواهده في « الإرواء» (٧/ ٩٥) .

(٢) انظر البخاريَّ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ [الصافات: ٩٤] (٣٣٦٤) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأدب ، باب هجاء المشركين (٦١٥٢) ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة باب فضائل حسان بن ثابت (٢٤٨٥) .

وفي «صحيح مسلم»[(١)] عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : «أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ، عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ : أَيْنَ تُرِيدُ ؟ قَالَ : أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ، قَالَ : هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا ؟ قَالَ : لاَ، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللهِ عز وجل قَالَ : فَإِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ، بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ» .

وهذه بُشرى من جبريل لخديجة رضي الله عنها كما في «الصَّحِيحَيْنِ»[(٢)] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ : «يَا رَسُولَ اللهِ ؛ هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ، مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي، وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ، لاَ صَخَبَ فِيهِ وَلاَ نَصَبَ» .

وكذلِكَ في حديث الأبرص والأقرع والأعمى فبشر الملك الأعمى برضى الله عنه .

وقال عمران بن حصين[(٣)] : «قَدْ كَانَ يُسَلَّمُ عَلَيَّ حَتَّى اكْتَوَيْتُ . فَتُرِكْتُ ثُمَّ تَرَكْتُ الكَيَّ فَعَادَ». أي: تسلم عليه الملائكة.

الخامس عشر : الملائكة تشهد جنائز الصالحين من المؤمنين .

إن مات عبد صالح لا يضره إن لم يخرج أحد في جنازته ؛ لأن الناس

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب في فضل الحب في الله (٢٥٦٧) .
أرصد : أي أقعد، مدرجته : طريقه .
(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها (٣٨٢٠، ٧٤٩٧)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة رضي الله عنها (٢٤٣٢) .
(٣) أخرجه مسلم، كتاب الحج (١٢٢٦) (١٦٧) .

للأسف الشديد اعتادوا أن لا يخرجوا في أعداد ضخمة إلا في جنائزِ وُجهاءِ القوْم ، وإذا كان فقيرًا لا يُؤْبَهُ له من ضعفاء الناس من فقراء المسلمين ، قد ترى في جنازته عددًا صغيرًا جدًا من أقرب الناس إليه لا يضره ذلك إذا كان صالحًا ، فإن الملائكة تشهد جنازته .

فلقد رَوَى النسائيُّ بسندٍ صحيح [(١)] عن ابن عمر ﷺ لما توفي سعد بن معاذ ﷺ قال ﷺ : « هَذَا الَّذِي تَحَرَّكَ لَهُ العَرْشُ ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ ، وَشَهِدَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا مِنَ المَلَائِكَةِ ، لَقَدْ ضُمَّ ضَمَّةً ، ثُمَّ فُرِّجَ عَنْهُ » .

وأخبر أنهم كانوا يحملونه [(٢)].

بل من الناسِ من تُغسِّله الملائكة بعد موته كحنظلة ﷺ .

رَوَى الحاكم [(٣)] وابن حبان والبيهقي عن عبد الله بن الزبير بن العوام ﷺ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ عِنْدَ قَتْلِ حَنْظَلَةَ بنِ أَبِي عَامِرٍ بَعْدَ أَنْ الْتَقَى هُوَ وَأَبُو سُفْيَانَ بنِ الحَارِثِ حِينَ عَلَاهُ شَدَّادُ بْنُ الأَسْوَدِ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ . فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « إِنَّ صَاحِبَكُمْ تُغَسِّلُهُ المَلَائِكَةُ » . فَسَأَلُوا صَاحِبَتَهُ عَنْهُ ؛ فَقَالَتْ : إِنَّهُ خَرَجَ لَمَّا سَمِعَ الهَائِعَةَ وَهُوَ جُنُبٌ ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « لِذَلِكَ غَسَّلَتْهُ المَلَائِكَةُ » .

وثبت أن الملائكة تشهد الجنائز ، فإن كان المتوفى من الشهداء لا تتركه

---

(١) أخرجه النسائيُّ في كتاب الجنائز ، باب ضمة القبر وضغطه (٢٠٥٥) ، وصَّححه شيخنا الألباني في « الصحيحة » (١٦٩٥) لمجموع طرقه وشواهده .

(٢) الترمذي ، كتاب المناقب ، باب مناقب سعد بن معاذ (٣٨٤٩) ، وقال : « حديث حسن صحيح غريب» ، وصحَّحه الألباني هناك .

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٢٠٤) ، وابن حبان (٧٠٢٥) ، والبيهقي في « السنن » (٤/ ١٥) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ٣٥٧) ، وصحَّحه الألباني في « الإرواء » (٣/ ١٦٧) .

الملائكة ، بل تظلل هذا الميت الشهيد بأجنحتها حتى يدفن .

ففي « الصحيحين »[(١)] من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : لَمَّا قُتِلَ أَبِي ، جَعَلْتُ أَكْشِفُ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ ، وَأَبْكِي وَيَنْهَوْنَنِي ، وَالنَّبِيُّ ﷺ لاَ يَنْهَانِي ، فَجَعَلَتْ عَمَّتِي فَاطِمَةُ تَبْكِي . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « تَبْكِينَ أَوْ لاَ تَبْكِينَ ، مَا زَالَتْ المَلاَئِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ» .

أخلاق كريمة ؛ لو وقفت عند قوله : «وَالنَّبِيُّ ﷺ لاَ يَنْهَانِي » .

ستری درسًا تربويًا بليغًا ، إذ أننا بكل أسف نتعجل في إصدار الأحكام على الناس إذا ما نزلت بهم مصيبة من غير أن نعلمهم الحكم قبل أن تحل بهم .

والبخاريُّ ـ طيَّب الله ثراه ـ عنون هذا الحديث الجميل ، وترجم له ترجمة بليغة فقيهه ، فرحم الله من قال : فقه البخاري في تراجمه ؛ فقال : (باب ظل الملائكة على الشهيد) .

أسأل الله أن يرزقنا الشهادة في سبيله ، وأن يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال .

السادس عشر : حمايةُ الملائكةِ لمكَّة والمدينة من الدجَّال .

فمن أعظم أعمال الملائكة أنها قد وكلت بحفظ مكة شرفها الله والمدينة زادها الله تشريفًا من فتنة آخر الزمان ، ألا وهي فتنة المسيح

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الجهاد والسير ، باب ظل الملائكة على الشهيد (٢٨١٦) ، وفي كتاب الجنائز ، باب الدخول على الميت بعد الموت إذا أدرج في أكفانه (١٢٤٤) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ (٢٤٧١) .

الدجال ؛ فلقد ثبت في « صحيح مسلم »[1] من حديث فاطمة بنت قيس من قصة تميم الداري . وهو حديث طويل ، وفيه : « ...وَإِنِّي مُخْبِرُكُمْ عَنِّي ، إِنِّي أَنَا المَسِيحُ ، وَإِنِّي أُوشِكُ أَنْ يُؤْذَنَ لِي فِي الخُرُوجِ ، فَأَخْرُجَ فَأَسِيرَ فِي الأَرْضِ ، فَلاَ أَدَعَ قَرْيَةً إِلاَّ هَبَطْتُهَا فِي أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، غَيْرَ مَكَّةَ وَطَيْبَةَ ، فَهُمَا مُحَرَّمَتَانِ عَلَيَّ ، كِلْتَاهُمَا ، كُلَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَدْخُلَ وَاحِدَةً ، أَوْ وَاحِدًا مِنْهُمَا ، اسْتَقْبَلَنِي مَلَكٌ بِيَدِهِ السَّيْفُ صَلْتًا ، يَصُدُّنِي عَنْهَا ، وَإِنَّ عَلَى كُلِّ نَقْبٍ مِنْهَا مَلاَئِكَةً يَحْرُسُونَهَا » ، قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ، وَطَعَنَ بِمِخْصَرَتِهِ فِي المِنْبَرِ : « هَذِهِ طَيْبَةُ ، هَذِهِ طَيْبَةُ ، هَذِهِ طَيْبَةُ » . يعني : المدينة .

وفي البخاري[2] من حديث أبي بكرة ﷺ أَنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ : « لاَ يَدْخُلُ المَدِينَةَ رُعْبُ المَسِيحِ الدَّجَّالِ ، لَهَا يَوْمَئِذٍ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ ، عَلَى كُلِّ بَابٍ مَلَكَانِ » .

فمن فضلِ الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ أن الله قد حرَّمَ على الدجَّال أن يدخل مكة والمدينة ، فما حال أهل النفاق في مكة والمدينة حينئذٍ ؟

حالهم أنهم سيخرجون إلى الدجال خارج مكة والمدينة ، ولا يبقى في مكة والمدينة إلا أهل الإيمان حينئذ ؛ كما سنبين في الإيمان باليوم الآخر .

ففي « الصَّحِيحَيْنِ » عن أنس ﷺ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « وَلَيْسَ مِنْ بَلَدٍ إِلَّا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ . إِلَّا مَكَّةَ وَالمَدِينَةَ . وَلَيْسَ نَقْبٌ مِنْ أَنْقَابِهَا إِلَّا عَلَيْهِ المَلاَئِكَةُ صَافِّينَ تَحْرُسُهَا فَيَنْزِلُ بِالسَّبْخَةِ . فَتَرْجُفُ المَدِينَةُ ثَلاَثَ رَجَفَاتٍ .

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب قصة الجساسة برقم (٢٩٤٢) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل المدينة ، باب لا يدخل الدجال المدينة برقم (١٨٧٩) ، وفي كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال برقم (٧١٢٥، ٧١٢٦) .

يَخْرُجُ إِلَيْهِ مِنْهَا كُلُّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ »[(١)].

السابع عشر: نزول عيسى بن مريم عليه السلام كعلامة من العلامات الكبرى في صحبة ملكين من السماء.

هذا عمل من أعمال الملائكة ؛ كما قال النبيُّ ﷺ: « .... فَيَنْزِلُ ـ أي (عيسى بن مريم في آخر الزمان) ـ عِنْدَ المَنَارَةِ البَيْضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ ، بَيْنَ مَهْرُودَتَيْنِ (أي : بين ثوبين مصبوغين يميل لونهما إلى الصفرة ، وهو لون من ألوان الزعفران) وَاضِعًا كَفَّيْهِ عَلَى أَجْنِحَةِ مَلَكَيْنِ »[(٢)].

إذًا الملائكة تصحب نبيَّ الله عيسى وتُنْزِلُ نبيَّ الله عيسى من السماء كعلامة كبرى من علامات الساعة ، فلقد زعم اليهود ـ عليهم لعائن الله المتوالية ـ أنهم قتلوا المسيح ، وزعم النصارى ـ بجهل فاضح ـ أنَّ المسيح قد صُلِبَ وقُتِلَ ودُفِنَ ، وبعد ثلاثة أيام رُفِعَ إلى السماء وجلس عن يمين أبيه ـ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا ـ ، وهو مستعدٌّ للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأحياء والأموات ، فكذَّب الله اليهود ، وكذَّب الله النصارى ؛ فقال سبحانه : ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل المدينة ، باب لا يدخل الدجال المدينة (١٨٨١) ، وانظر أطرافه هناك ، و « مسلم » ، كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب قصة الجساسة (٢٩٤٣) .

(٢) جزءٌ من حديث طويل أخرجه مسلم في كتاب الفتن ، باب ذكر الدجال وصفته وما معه ، برقم (٢٩٣٧) من حديث النواس بن سمعان .

حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾[النساء: ١٥٦-١٥٩]

وصرَّح الله ﷻ في آية هي أوضح بأنه سبحانه قد رَفَعَ عيسى إليه سبحانه وتعالى ؛ فقال ـ جَلَّ وَعَلاَ: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾[آل عمران: ٥٥].

يقول الله ﷻ: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال ـ جَلَّ وَعَلاَ: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾[المائدة: ٧٣].

هذا اعتقاد الموحِّدِين ؛ فعيسى ـ على نبينا وعليه الصلاة والسلام ـ قد تبرَّأ من هذه الدعوى التي يغني بطلانها عن إبطالها ، ويغني فسادها عن إفسادها .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾[المائدة: ١١٦، ١١٧].

فدعوة عيسى هي التوحيد ، ودعوة الأنبياء من قبله هي التوحيد ؛

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾[الأنبياء : ٢٥] .

فالله سبحانه يقول : ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾[آل عمران : ٥٥] .

ولفظ التوفي في الآية : ﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ ﴾[آل عمران : ٥٥] .

لا يقتضي هذا اللفظُ الموتَ للروح والبدن إلا بقرينة مستقلة ، وهي لا توجد على الإطلاق بل أنا أؤكد لك بقرائن أخرى من أدلة القرآن الصريحة أن لفظ التوفي في القرآن ليس بالضرورة أن يموت فيه البدن والروح ، قال الله ﷻ : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾[الزمر : ٤٢] ؛ فالله يتوفى الأنفس حين موتها ؛ فهل هذه الوفاة تقتضي الموت ؟ لا تقتضي الموت ؛ قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾[الأنعام : ٦٠] .

فالوفاة هنا : وفاة نوم .

وكان ﷺ إذا استيقظ من نومه يقول : « الْحَمْدُ لله الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ »[١] .

لو نظرت إلى رجلٍ نائم ؛ فنومه وفاة ومع ذلك القلب ينبض

---

(١) جزء من حديث حذيفة رضي الله عنه، أخرجه البخاريُّ في كتاب الدعوات ، باب ما يقول إذا نام برقم (٦٣١٢) ، وانظر أطرافه هناك .

والأجهزة تعمل إلا أن العين نامت ، وغاب عن الإدراك والحس لأي شيء من حوله ، فهذه وفاة تسمى بالوفاة الصغرى ، فإذا ذكر لفظ التوفي فلا يقتضي موت البدن والروح إلا بقرينة مستقلة ، ولا توجد في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران : ٥٥] .

قال المفسرون : أي: ألقى الله ﷻ عليه سِنةً من النوم ، ثم رفعه إليه ـ جَلَّ جَلاله ـ وما ذلك على الله بعزيز ، وكيفية حياة عيسى في هذا الملأ الأعلى لا نعلمها ، إذ إن الحكم على مثل هذه المغيبات يحتاج إلى دليل صريح من القرآن، أو دليل صحيح من السنة ، وما سكت الله ورسوله عنه ، فلا ينبغي لنا على الإطلاق أن ننقِّب أو أنْ نسأل أو أن نبحث عنه ؛ فلو علم الله ورسولُه الخير في ذكر هذا الشيء ، لذُكر ووضح لنا.

تدبَّر معي هذا الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم والنسائي في « الكبرى » بسندٍ صحَّحه الحافظ ابن كثير في تفسيره «لسورة النساء »[(١)] من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال : « لما أراد الله أن يرفع عيسى ابن مريم إلى السماء خرج عيسى على أصحابه ؛ فقال : إن منكم من سيكفر بي بعد أن آمن بي ، يقول : وكان في البيت اثنا عشر رجلاً من حوارييه وأصحابه ، فخرج عليهم عيسى ورأسه تقطر ، فقال لهم هذه المقولة ، ثم قال : أَيُّكُمْ يَقْبَل أن يُلْقى عليه شَبَهي ، فيُقْتَل دوني، ويكون معي في درجتي ، فسكتوا جميعًا

---

(١) أخرجه النسائيُّ في « الكبرى » (١١٥٩١) ، وهو في « تفسيره» (٦١١) ، والطبريُّ في « جامع البيان » (٣٤٠٦٦) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » (٦٢٣٣) وذكره السيوطي في « الدر المنثور » وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن مردويه .

قال ابن كثير في « تفسيره » (١/ ٤٩٣) : « هذا إسناد صحيح» .

فقام شابٌّ من أحدثهم سنًا ؛ فقال : أنا ، فقال له نبيُّ الله عيسى : اجلس ، فجلس ثم أعاد عيسى قولته مرة ثانية ، فقام نفس الشاب فقال له عيسى : اجلس ، فجلس ، ثم أعاد عيسى قوله للمرة الثالثة ، فقام نفس الشاب ، فقال عيسى : أنت هو ، فجاء الطلب من اليهود ـ أي من يريدون قتل نبي الله عليه السلام ، فأخذوا الشاب الذي ألقى الله عليه شبه عيسى عليه السلام فصلبوه وقتلوه ، فكفر به بعضهم كما أخبر عليه السلام وافترقوا منذ هذه اللحظة ثلاث فرق :

الفرقة الأولى قالت : كان الله فينا ما شاء أن يكون ، ثم صعد إلى السماء وهؤلاء هم اليعقوبية .

وقالت الفرقة الثانية : كان فينا ابن الله ما شاء أن يكون ثم صعد إلى أبيه ، وهؤلاء هم النسطورية .

وقالت فرقة ثالثة : كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء أن يكون ، ثم رفعه إليه ، ثم ينزله إذا شاء مرة أخرى ، وهؤلاء هم المسلمون .

يقول ابن عباس : فتظاهرت الفرقتان الأولى والثانية على الثالثة فقتلتها ، فلم يزل الإسلام طامسًا حتى بعث الله محمدًا ﷺ فتلى علينا الحق في نبي الله عيسى : ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ .

فعقيدة أهل السنة أن عيسى ما قتل وما صلب ، بل رُفع ، وسينزل حتمًا ، وسأفصل في ذلك عند الحديث عن العلامات الكبرى في الإيمان باليوم الآخر إن شاء الله ـ جَلَّ وَعَلاَ .

الثامن عشر : موافقة الملائكة في التأمين والعبادة تغفر الذنوب .

ففي «الصَّحِيحَيْنِ» [(١)] عن أبي هريرةَ ﷺ أنه ﷺ قَالَ : « إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمِّنُوا ، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ المَلاَئِكَةِ ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » .

وقال كذلك : « إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ : آمِينَ ، وَقَالَتِ المَلاَئِكَةُ فِي السَّمَاءِ : آمِينَ ، فَوَافَقَتْ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » .

وقال كذلك : « إِذَا قَالَ الإِمَامُ : سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ ، فَقُولُوا : اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ ، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ المَلاَئِكَةِ ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » .

التاسع عشر: الملائكةُ يبلِّغُونَ النبيَّ ﷺ سلام أمَّته عليه .

روى أحمد والنسائيُّ وابن حبان والحاكم [(٢)] عن ابن مسعود ﷺ أنه ﷺ قَالَ : « إِنَّ للهِ تَعَالَى مَلاَئِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الأَرْضِ ، يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي السَّلاَمَ » .

وعن أبي طلحة ﷺ أنه ﷺ قال : « إِنَّهُ أَتَانِي المَلَكُ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّهُ لاَ يُصَلِّي عَلَيْكَ أَحَدٌ إِلاَّ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا ، وَلاَ يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ إِلاَّ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا » [(٣)] .

العشرون : الملائكةُ تبسط أجنحتها على بلادِ الشَّام .

روى أحمد وابن حبان والحاكم عن زيد بن ثابت ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ

---

(١) سبق تخريجه ، وانظر: صحيح البخاريّ (٧٨١ ، ٧٨٢ ، ٧٩٦) ، و« مسلم» (٤٠٩ ، ٤١٠).

(٢) أخرجه النسائيُّ ، كتاب السهو ، باب السلام على النبي ﷺ (١٢٨١) ، وأحمد (١/ ٣٨٧ ، ٤٢١ ، ٤٥٢) ، وابن حبان (٢٣٩٢) ، والدارمي (٢٧٧٤) ، والحاكم (٢/ ٤٢١) ، وقال : « صحيح الإسناد ووافقه الذهبي » ، وعبد الرزاق في « مصنفه » (٢/ ٢١٥) ، والبغوي في « شرح السنة » (٣/ ١٩٧) ، والبيهقي في « الشعب » (٢/ ٢١٧ ، ٢١٨) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٢١٧٤) و « المشكاة » (٩٢٤) .

(٣) أخرجه النسائيُّ ، كتاب السهو ، باب فضل التسليم على النبي ﷺ (١٢٨٢) ، وأحمد (٤/ ٢٩ ، ٣٠) ، والدارمي (٢٧٧٣) ، وحسَّنه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٢١٩٨) .

الله ﷺ يَوْمًا وَنَحْنُ عِنْدَهُ : «طُوبَى لِلشَّامِ» قَالَ : «إِنَّ مَلائِكَةَ الرَّحْمَنِ لَبَاسِطَةٌ أَجْنِحَتَهَا عَلَيْهَا»(١) .

الحادي والعشرون : الملائكة يشفَعُون لأهل الإيمان عند ربهم وكذلك يُخرِجُونَ العصاة من النار يوم القيامة بأمر الله لهم .

ففي «الصَّحِيحَيْنِ» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : في الحديث الطويل وفيه : « .. حَتَّى إِذَا أَرَادَ اللهُ رَحْمَةَ مَنْ أَرَادَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَمَرَ اللهُ المَلائِكَةَ أَنْ يُخْرِجُوا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ ، فَيُخْرِجُونَهُمْ ، وَيَعْرِفُونَهُمْ بِآثَارِ السُّجُودِ ، وَحَرَّمَ اللهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجُودِ ، فَيَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ .. الحديث»(٢) .

وفي «الصَّحِيحَيْنِ» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال في الحديث الطويل : وفيه قال : «... فَيَشْفَعُ النَّبِيُّون وَالمَلائِكَةُ وَالمُؤْمِنُونَ .. » الحديث(٣) .

سؤال : هل نستطيع رؤية الملائكة ؟

والجواب : لا ؛ إلا إذا تمثل في صورة رجل كما ظهر لأصحاب النبيِّ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٨٤) ، والترمذي ، كتاب المناقب ، باب في فضل الشام واليمن (٣٩٥٤) ، وقال : «حديث غريب» ، وابن حبان (٧٣٠٤) ، والحاكم (٢ / ٢٢٩) ، وصحَّحه ، ووافقه الذهبي ، وابن أبي شيبة (١٢ / ١٩١ ، ١٩٢) ، والطبراني في «الكبير» (٤٩٣٥) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠ / ٦٠) : «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح» . وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأذان ، باب فضل السجود (٨٠٦) ، وانظر طرفيه هناك ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٢) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢، ٢٣] (٧٤٣٩) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤية (١٨٣) .

ﷺ ؛ كما في حديثنا هذا (حديث جبريل) . وقد طلب الكفار رؤية الملائكة كدليل على صدق الرسول ﷺ .

قال سبحانه : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٢١ ، ٢٢] ، وقال سبحانه : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : ٨، ٩] .

لكن هناك من الطيور من يرى الملائكة .

ففي « الصَّحِيحَيْنِ »[1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه ﷺ قال : « إِذَا سَمِعْتُمْ صِيَاحَ الدِّيَكَةِ فَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّهَا رَأَتْ مَلَكًا ، وَإِذَا سَمِعْتُمْ نَهِيقَ الحِمَارِ فَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ ، فَإِنَّهُ رَأَى شَيْطَانًا » .

علاقة الملائكة بالكفار والفساق:

فالملائكة تبغض الكفار والفساق وتلعن الملائكة الكفار والفساق ؛ تدبر قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [البقرة :١٦١] ، وقال سبحانه : ﴿ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال (٣٣٠٣) ، و« مسلم » ، كتاب الذكر والدعاء ، باب استحباب الدعاء عند صياح الديك (٢٧٢٩) .

ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [آل عمران :٨٦ ، ٨٧] .

فالله يلعنهم ، والملائكة تلعنهم ، والناس أجمعون من المؤمنين الصادقين.

والملائكة كذلك تنزل العذاب بالكفار أحيانًا وتهلكهم أحيانًا أخر ، فقد أهلكوا قوم لوط وغيرهم من الأمم السابقة ، وكذلك تلعن الملائكة أهل المعاصي والفسوق .

خذوا بعض الأدلة السريعة الصحيحة :

وأستهل الأحاديث بحديثٍ يؤلم القلب إذ أن كثيرًا من المسلمات قد وقعنَ في هذا الوعيد ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ففي « الصَّحِيحَيْنِ » [(١)] من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ ، فَأَبَتْ أَنْ تَجِيءَ لَعَنَتْهَا المَلائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ » .

وفي رواية : « حَتَّى تَرْجِعَ » .

فالمسلمة التي تخشى الله لا يجوز لها البتة أن تمتنع عن فراش زوجها إلا لعذر ؛ كأن تكون المرأة حائضًا ، أو أن تكون المرأة مريضة متعبة ، فيجب على الزوج في مثل هذه الحالة أن يعذر أهله ، أما إن لم يكن لها عذر وامتنعت عن فراش زوجها دون ضرورة لذلك ، وبات زوجها

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب النكاح ، باب إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها برقم (٥١٩٣) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم كتاب النكاح ـ باب تحريم امتناعها من فراش زوجها برقم (١٤٣٦) .

وهو غضبان عليها ، باتت الملائكة تلعنها ، فلا يجوز لمسلمة أن تفعل هذا ، بل من السنة أن تتزين المرأة وتتجمل وتتطيب وتلبس أفضل ما عندها من الثياب للنوم وَتَنْدَسُ إلى جوار زوجها ، في فراشه ، فإذا استحيت أن تعرض بفمها ، عرضت بفعلها ورائحتها ، فإن كان لزوجها حاجة قضاها ، و إلاَّ فجزاها الله خير ما جزى امرأة مسلمة صالحة عن زوجها ، هكذا كنَّ نساء السلف الصالح ـ رضوان الله عليهن .

لَعْنُ الملائِكة أيضًا لمن يشير إلى أخيه بحديدة ليتوعده ؛ فقد روى مسلم في « صحيحه » [(١)] من حديث أبي هريرةَ ﷺ أن النبيَّ ﷺ قَالَ: « مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيْدَةٍ ، فَإِنَّ المَلاَئِكَةَ تَلْعَنُهُ ، حَتَّى يَدَعَهُ ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ» .

فمن فَعَلَ ذلك تعرَّض للعن ملائكة الله ؛ لذلك من السنة والأدب النبوي أنه إذا أراد الرجل أن يدفع لأخيه آلة حادة كالسكين مثلاً أن يعطيه إياها بمؤخرتها .

لَعْنُ الملائكةِ لمن سبَّ أصحاب النبيِّ ﷺ؛ ففي «معجم الطبراني الكبير» [(٢)] من حديثِ ابن عباسٍ ﷺ ـ بسندٍ حسنٍ ـ أنه ﷺ قال : « مَنْ سَبَّ

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ، باب النهى عن الإشارة بالسلاح إلى مسلم برقم (٢٦١٦) .

(٢) أخرجه الطبراني في « الكبير » (١٢٧٠٩) وقال الهيثمي في « المجمع » (١٠/ ٢١) : « فيه عبد الله ابن خراش وهو ضعيف » . وصحَّحه الشيخ ناصر في « صحيح الجامع » (٦٢٨٥) وعزاه إلى « الصحيحة » (٢٣٤٠) .

أَصْحَابِي ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » .

لَعْنُ الملائكةِ للمُحْدثِينَ من أهل البدع ؛ ففي « الصَّحِيحَيْنِ »[(١)] عن عليِّ ابن أبي طالب رضي الله عنه أنه ﷺ قَالَ : « الْمَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَيْنَ عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ ، فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا ، أَو آوَى مُحْدِثًا ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَة وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لاَ يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلاَ عَدْلاً ، وَذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ ، يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلاَ عَدْلٌ ، وَمَنِ ادَّعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ أَوِ انْتَمَى إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لاَ يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلاَ عَدْلاً » .

وكذلك تدعُوا الملائكة على البخيلِ .

ففي « الصَّحِيحَيْنِ »[(٢)] من حديثِ أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ ، إِلاَّ مَلَكَانِ يَنْزِلاَنِ ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وَيَقُولُ الآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا » .

وأَخْتِمُ هذا المبحث وهذا الركن بهذا السؤال :

ما واجبنا تجاه الملائكة ؟

فأول واجب : عليك أن تؤمن بالملائكة عل التفصيل الذي ذكرنا .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل المدينة ، باب حرم المدينة (١٨٧٠) ، وانظر أطرافه في (١١١) ، و« مسلم » ، كتاب الحج ، باب فضل المدينة ودعاء النبيِّ ﷺ فيها بالبركة (١٣٧٠) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الزكاة ، باب قول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴾ [الليل : ٥] (١٤٤٢) ، ومسلم ، كتاب الزكاة ، باب في المنفق والممسك (١٠١٠) .

ثانيًا : أن تُوالي كل الملائكة لا تفرق بين مَلَكٍ ومَلَكٍ .

وهل هناك من فرَّقَ بين الملائكة ؟ نعم ! فَمَنْ هُمْ ؟ إنهم اليهود !

قال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٩٧ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾[البقرة :٩٧ ، ٩٨] .

فيجب علينا أن نؤمن بكل الملائكة لا نفرق بين مَلَكٍ ومَلَكٍ، فهناك من يحمل العرش ، ومنهم من يحمل الجبال ، ومنهم من يسير السحاب والرياح ومنهم من هو موكل بالأرزاق ، ومن هو موكل بالصور ... إلى آخره ؟

فلا نُفَرِّقُ بين مَلَكٍ وَمَلَكٍ .

ثالثًا : يجب على كل مؤمن أن يستحي من ملائكة الله إن خلا بنفسه ليبارز الله بالمعصية ، فاعلم أن معك من يراك من الملائكة ، ومن يسطر عليك ويسجل عليك ، ومعك من يكتب عليك .

قال تعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾[ق:١٨] ، قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[الانفطار : ١٢] .

قال ابن أبي العز الحنفي [(١)] : « قد ثبت بالنصوص المذكورة أن الملائكة تكتب القول والفعل ، وكذلك النية ، لأنها فعل القلب فدخلت في عموم

---

(١) « شرح الطحاوية » (٣٩٠) ط المكتب الإسلامي .

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار : ١٢] .

فقوله : ﴿مَا تَفْعَلُونَ﴾ : يدل على أنهم يعلمون فعل الجوارح وفعل القلب ؛ فعليك أن تستحي من ملائكة الله فهم معك ، فإن زلت قدمك لبشريتك فأسرع واستغفر ، وأسمعه الاستغفار ، ليكتب لك هذه التوبة ، وهذا الاستغفار ، وهذا الخير ، وهذا الفضل .

فالملائكة تترك موطن المعصية ولا تأتيه .

ففي « الصَّحِيحَيْنِ » [(١)] من حديث أبي طلحة رضي الله عنه أنه ﷺ قَالَ : « لاَ تَدْخُلُ المَلاَئِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلاَ صُورَةٌ » .

وفي رواية : « وَلاَ صُورَةُ تَمَاثِيْلَ » .

وفي « صحيح مسلم » [(٢)] عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « لاَ تَصْحَبُ المَلاَئِكَةُ رُفْقَةً فِيهَا كَلْبٌ وَلاَ جَرَسٌ » .

وروى أبو داود [(٣)] عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنه ﷺ قَالَ : « لاَ تَصْحَبُ المَلاَئِكَةُ رُفْقَةً فِيهَا جِلْدُ نَمِرٍ » .

وروى أبو داود [(٤)] عن عمار بن ياسر رضي الله عنه أنه ﷺ قَالَ : « ثَلاَثَةٌ لاَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب بدء الخلق ، باب إذا قال أحدكم آمين والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه (٣٢٢٥) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب اللباس والزينة ، باب تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة بالفرش ونحوه (٢١٠٦) .

(٢) أخرجه مسلم ، كتاب اللباس ، باب كراهة الكلب والجرس في السفر (٢١١٣) .

(٣) أخرجه أبو داود ، كتاب اللباس ، باب في جلود النمور والسباع (٤١٣٠) ، وحسَّن إسناده الشيخ الألباني في « صحيح الجامع » (٧٣٤٥) ، و« المشكاة » (٣٩٢٤) .

(٤) أخرجه أبو داود ، كتاب الترجل ، باب الخلوق للرجال (٤١٧٦ ، ٤١٨٠) ، والترمذي ، كتاب

تَقْرَبُهُمُ المَلائِكَةُ : جِيفَةُ الكَافِرِ ، وَالمُتَضَمِّخُ بِالخَلُوقِ ، وَالجُنُبُ إِلاَّ أَنْ يَتَوَضَّأ » .

وفي رواية عن بريدة ﷺ : «ثَلاَثَةٌ لاَ تَقْرَبُهُمُ المَلاَئِكَةُ : السَّكْرَانُ ، وَالمُتَضَمِّخُ بِالزَّعْفَرَانِ ... ، وَالجُنُبُ».

رابعًا : يجبُ عليك ألا تؤذي الملائكة بالرائحة المتنة ؛ فإن الملائكة تكره الرائحة الخبيثة .

وأتألم كثيرًا حينما أدخل مسجدًا من المساجد فأرى بعض المسلمين لا يطيق الساجدُ خلف قدمه أن يضع جبينه على الأرض من رائحة قدمه ! لماذا ؟ فهذه الرائحة المؤذية تؤذي الملائكة ، فيجب على المسلم أن يحرص على أن تكون رائحة فمه طيبة ، فلقد نهى النبيُّ ﷺ عن ذلك ؛ ففي « الصَّحِيحَيْنِ » (1) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ:

= الصلاة ، باب ما ذكر في الرخصة للجنب (٦١٣) ، وقال : «حديث حسن صحيح» ، وأحمد (٤/ ٣٢٠) ، والبيهقي في « السنن الكبرى» (٥/ ٣٦) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « صحيح الجامع» (٣٠٦٠، ٣٠٦١) و « الصحيحة » (١٨٠٤) و « صحيح الترغيب والترهيب » (١٦٨) .

(1) أخرجه البخاريُّ في كتاب الأذان ، باب ما جاء في الثُّوم النيء والبصل والكرات برقم (٨٥٤ ، ٨٥٥) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب نهي من أكل ثومًا أو بصلاً أو كراثًا أو نحوها برقم (٥٦٤) ، واللفظ لمسلم من حديث جابر بن عبد الله ﷺ .

ودونك ـ أخي ـ بعض النصائح للإقلاع عن الدخان .

فأقول: لا تقلع عن الدخان على أنه عادة ، وإنما أقلِعْ عنه على أنه معصية ، وهناك من أهل العلم من قال : بالكراهة ، ومن أهل العلم من قال : بالحرمة ، وما وصل إليه الطبُّ الحديث يلزم أهل الفتاوى أن يقولوا بالحرمة ؛ فلقد أثبت العلم الحديث أن السرطان ـ أعاذنا الله وإياكم من شره ـ من أخطر أسبابه : الدخان ؛ فالرجل الذي كان يعلن عن المارلبورو الكاوبوي مات أو هلك ، فوجدوا أنه قد كتب وصية غريبة جدًّا ، الوصية يحذر فيها العالم كله =

« مَنْ أَكَلَ الْبَصَلَ وَالثُّومَ وَالْكُرَّاثَ فَلاَ يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا ؛ فَإِنَّ الْمَلاَئِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ » .

والدخان تتأذى منه الملائكة ؛ لأنه يؤذي المؤمنين بنص حديث النبيِّ ﷺ؛ فنسأل الله ﷻ أن يرفع البلاء عن إخواننا المدخنين ، وأن يبغض إليهم الدخان ، وكل المعاصي ، بمنِّه وكرمه ، إنه على كل شيء قدير .

النهيُ عن البصاقِ عن يمينك أو بين يديك . فهذه ملاحظة نبوية رائعة .

يقول النبيُّ ﷺ كما في « الصحيحين » [1] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَلاَ يَبْصُقْ أَمَامَهُ ، فَإِنَّمَا يُنَاجِي اللهَ مَا دَامَ فِي مُصَلاَّهُ ، وَلاَ عَنْ يَمِينِهِ فَإِنَّ عَنْ يَمِينِهِ مَلَكًا ، وَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ

= من الدخان ، ويقول : أحببت أن أنصح العالم بهذه النصيحة ، لأكفِّر عن بعض ما قدَّمت ، فأنا أقر بأنني قد قتلتُ نصف العالم !! فالدخان في غاية الخطورة ! فأقلِعْ عن الدخان على أنه معصية لله.. فيه حرمة ثابتة بالبدن ، وضرر في المال ، وضرر للملائكة ، فماذا تريد بعد ذلك؟! والنبي ﷺ قال : « لا تزولُ قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع ؛ عن عمره فيما أفناه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه . وفيما أنفقه وعن عمله ماذا عمل فيه» أخرجه الترمذيُّ ، كتاب صفة القيامة ، باب رقم (١) . (٢٤١٧) ، وقال الترمذي : « هذا حديث حسن صحيح » ، وصحَّحه شيخنا الألباني في «صحيح الجامع» (٧٣٠٠) ، وفي « الصحيحة » (٩٤٦) بشواهده في بحثٍ له .

فهي ضرر للبدن ، وضرر للمال ، وضرر للأخوة المحيطين بجوارك ، فقد أثبت العلم أن المحيطين بجوارك أكثر ضررًا من المدخن ذاته ! ثم إيذاء للملائكة !! أسأل الله ﷻ أن يعافينا وإياكم جميعًا ؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه .

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الصلاة ، باب حك المخاط بالعصا من المسجد ، باب دفن النخامة في المسجد بأرقام (٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٦) ، وأخرجه مسلم من طريق آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها (٥٥٠) .

قَدَمِهِ فَيَدْفِنُهَا ».

وأكتفي بهذا القدر عن الركن الثاني من أركان الإيمان ، لنشرع في الحديث عن الركن الثالث ألا وهو : الإيمان بالكتب.

اسأل الله ﷻ أن يتقبل منا ومنكم صالح الأعمال

*****



أركان الإيمان

ثالثا

الإيمان بالكتب

الركن الثالث من أركان الإيمان
الإيمان بالكتب

الكُتب جمع كتاب، والكتاب: مصدر كَتَبَ يَكْتُبُ كَتْبًا وَكِتَابًا وَكِتَابَةً، إذا جمع الحروف وألف بينها، فكانت كلمات ذات معان خاصة، ثم كوَّن من تلك الكلمات ذات المعاني جملًا مفيدة، تسمَّى كلامًا.

فالكتاب هو ما يكتب فيه، وقيل: الصحف المجموعة[1].

والكتاب هو: ما حوى كلامًا مفيدًا، ذا أغراض متعددة.

وكُتُبُ الله تعالى التي يجب الإيمان بها، هي: الصحف التي حوت كلام الله ﷻ الذي أوحاه إلى رسله عليهم السلام فكوَّنت كتبًا. أو بقيت صحفًا لم تجمع، ولم يتكون منها كتاب خاص[2].

أولًا: حقيقة الإيمان بالكتب:

إن معنى الإيمان بالكتب الإلهية ـ الذي هو جزءٌ من عقيدة المؤمن ـ التصديق الجازم بما أوحى الله تعالى من كلامه الخاص إلى من اصطفى من رسله عليهم السلام، فَجُمِعَ وَدُوِّنَ، فكان صحُفًا مطهَّرة وكتبًا قيمة؛ فما عُرِفَ منها آمن به المؤمنُ تفصيلاً، وما لم يُعرف آمن به إجمالاً.

والإيمانُ بالكتبِ ركنٌ من أركانِ الإيمانِ الستة التي لا يصحُّ إيمان العبد إلا إذا آمن بها كلها على الكَمالِ والتَّمامِ.

---

(١) انظر: «المعجم الوسيط» (٢/ ٨٠٦)، و«القاموس المحيط» (١/ ٢١٨)، و«لسان العرب» (٦/ ٣٨١٦) و«الصحاح» للجوهري (١/ ٢٠٨).

(٢) «حقيقة الإيمان» (٢/ ٦٣).

والإيمان بالكتب - كما ذكرت - معناه : التصديق الجازم بأن الكُتب جميعها من الله - جَلَّ وَعَلاَ - مُنزَّلة من عنده سبحانه ، وأن الله قد تكلَّم بها حقيقةً لا على سبيل المجاز ، وأنها نور وهدى ، وأن ما تضمنته حقٌّ وصدقٌ ، ولا يعلم عددها إلا الله ﷻ ، منها : ما ذَكَرَه الله إجمالاً ، ومنها : ما ذَكَرَه الله على سبيل التفصيل .

وأعظم هذه الكتب منزلة على الإطلاق هو القرآن الكريم ، وهو المهيمن عليها ، والناسخ لجميع شرائعها وأحكامها ، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : ٤٨]

أما الكتب والصحف التي فُصِّلت في كتاب الله فهي :

أولاً : صحفُ إبراهيم عليه السلام .

ثانيًا : صحفُ موسى عليه السلام .

ثالثًا : التوراة ؛ أنزلها الله على موسى عليه السلام .

رابعًا : الزبور ؛ أنزله الله على داود عليه السلام .

خامسًا : الإنجيل ؛ أنزله الله على عيسى عليه السلام .

سادسًا وأخيرًا : القرآن العظيم ، أنزله الله على نبينا العظيم محمد ﷺ .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ [البقرة :٨٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَـٰرُونَ وَزِيرًا ﴾ [الفرقان:٣٥] .

والمراد بالكتاب هنا ؛ التوراة .

فالله ـ سبحانه ـ يخاطب نبيه محمدًا ﷺ فيقول: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ ﴾ [المائدة: ٤٣]، وهي: التوراة التي نَزَّلَهَا الله على موسى عليه السلام وليست التوراة المحرَّفة التي سنتعرض لها الآن: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ ﴾[المائدة: ٤٣، ٤٤].

فالله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ يخبر بأنه أنزل التوراة وجعلها هُدى، وجعلها نورًا لبني إسرائيل إن استسلموا وأذعنوا لله وانقادوا لحكم الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ ولكننا سنرى الآن أن الربَّانيين والأحبار الذين استحفظهم وأمَّنهم ربُّنا على التوراة لم يكونوا أهلاً لحمل هذه الأمانة؛ بل حرَّفوها وبَدَّلُوها وغَيَّرُوها، ومن ثَمَّ شاء الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ ألا يدع حفظ الكتاب لأحدٍ من الخلقِ؛ بل تكفَّلَ وتولى حفظه بنفسه؛ فقال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩] وها هو القرآن الكريم يثبت تحريف القوم للكتاب الذي نزله الله ـ جلَّ وعلا ـ على موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾ [المائدة: ٤١]، وبعدها قال سبحانه: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥]، وبعدها قال سبحانه: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة: ٧٨]، وقال سبحانه: ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ﴾ [الحديد: ٢٧].

فهذا دليلٌ صريحٌ من القرآن على أنَّ الكتاب الذي أنزله الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ على نبيه عيسى هو الإنجيل.

وقال سبحانه في شأن الزبور : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء : ٥٥] .

وقال في شأن الصحف : ﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى : ١٨ـ ١٩] ، وقال سبحانه : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٦ ، ٣٧] .

هذه آياتٌ صريحةٌ يُبيِّن لنا فيها الحقُّ ـ تبارك وتعالى ـ أنَّ التوراةَ هي كتاب موسى ، وأن الإنجيل هو كتاب عيسى ، وأن الزبور هو كتاب داود ، وأن الصحف لإبراهيم ولموسى ، وأن القرآن لنبينا محمد ﷺ .

هذا هو الذكر المفصل للكتب في القرآن ، فنحن نؤمن بهذه الكتب على هذا التفصيل . نؤمن بما ذَكَرَه الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ مُجْمَلاً ، قال تعالى : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ [البقرة :٢١٣] .

فما من رسولٍ ولا نبيٍّ إلا وأنزلَ الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ معه كتابًا ليُحكِّمه في هذه الأمة التي بُعِثَ فيها هذا النبيُّ :

وهذه الكتب كلُّها بلا استثناء قد اتَّفَقَت في أصولٍ عامةٍ ؛ فما من كتابٍ ـ كما سأبين الآن ـ إلا وقد ركَّز أول ما ركَّزَ في دعوةِ هؤلاء القوم إلى توحيدِ الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ وعبادة الله لا شريك له .

قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾ [الحديد : ٢٥] ؛ فهذه آية مجملة : ﴿ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ ﴾ أي : أنزلنا مع كلِّ نبيٍّ كتابًا ضمَّنه اللهُ ـ جَلَّ وَعَلا ـ العقيدة والعبادة والشريعة والأخلاق التي ألزم بها هذه الأمة التي أرسل لها هذا النبيَّ بهذا الكتاب المخصوص المعلوم ، فنحن نؤمن بهذه الكتب بهذا التفصيل الذي ذكره الله ﷻ ، ونؤمن بكتبٍ أخرى على سبيل الإجمال لم يفصِّلْها لنا ربنا ولا نبينا محمد ﷺ ، هذه هي صفة الإيمان بالكتبِ على سبيل التفصيل أو على سبيل الإجمال .

فما عرفنا من الكتب مفصلاً آمنا به مفصَّلًا .

وما ذَكَرَه الله منها مُجْمَلاً آمنا به مُجْمَلاً ؛ بل ولا يجوز لنا أن نؤمن ببعضها ونكفر ببعضها الآخر ، بمعنى : أنه إذا قال لي الآن مسلم : أنا أؤمن بالقرآن ، ولا أؤمن بالإنجيل الذي أنزله الله على عيسى ؛ نقول له : قد كفرت بجميع الكتب .

كفرت بالقرآن وبالنبيِّ ﷺ ؛ لأنه يجب عليك أن تؤمن بكل الكتب ، ولا ينبغي أن تفرِّق بين أحدٍ منها ، ويجب عليك أن تؤمن بكل الرسل فلا تفرق بين أحد من رسل الله ـ عليهم جميعًا صلوات الله وسلامه ـ فلا ينبغي أن نؤمن ببعض الكتب ، وأن نكفر ببعضها ، كما فعل اليهود والنصارى ، فلقد آمن اليهود والنَّصارى بالتوراة المحرَّفة والإنجيل

المحَرَّف المبَدَّل ، وكفروا بالوحيِ الثابت الذي تولَّى الله حفظه ؛ لقد كفروا بالقرآن!!! .

والقرآن هو الحقُّ الذي تولَّى الله حفظه ، ونحن نتحدى به أهل الأرض أن تكون حُرِّفت فيه كلمة ، أو بُدِّل فيه حرف ، أو طُمس فيه حُكْم ؛ لأن الذي تولَّى حفظه هو الله ربُّ العالمين ، وما تولَّى الله حفظه لا يضيِّعه ، بل ولا يضيِّعه أحدٌ على وجه هذه الأرض !!!

ومن رحمةِ الله أن أودع القرآن في الصُّدور ، فلو حَرَّف أعداء الإسلام كل المصاحف ؛ فهل يزول القرآن ؟! لا .

بل من هذا الإعجاز في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ أن نرى الآن أطفالاً صغارًا في سن الخامسة أو السادسة يحفظون كتاب الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ عن ظهرِ قلب !!

ومنذُ عدَّة سنوات حضرتُ مؤتمرًا إسلاميًا في مدينة «تورنتو» بكندا ، وتعجبتُ حينما أدْخَلَ عليَّ الإخوة في المركز الإسلامي ثمانية من الأطفال الصغار لا يزيد عمر الواحدِ منهم عن عشرِ سنوات ، كلهم يحفظ كتاب الله ﷻ.

قلتُ : أشهد أن القائل : ﴿ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] هو الله رب العالمين .

قال الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ تَدَبَّر معي هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن

قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء :١٣٦] .

وقد وَقَفَتْ جاهلةٌ عند هذه الآية وادَّعَت التناقض في القرآنِ ، والتكرار الممل !! فقالت : لقد كرَّرَ اللهُ الكلمة في آيةٍ واحدةٍ مرتين بدون داع ، فلما سُئِلَتْ ما هذه الكلمة المكرَّرة ؟! قالت : «آمَنُوا آمنُوا» انظر إلى هذا الجهل الفاضح ؛ فالله سبحانه وتعالى يقول :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ ﴾ فأثبت الله لهم عقد الإيمان ابتداءً ، ومع ذلك يأمرهم ربنا بالإيمان . لماذا ؟ وهذه من أعظم الأدلة التي نحتجُّ بها على من يَغْضَب علينا إذا ذَكَّرْنا بالتوحيد ، وإذا أكثرنا الحديث عن التوحيد ، وإذا دَنْدَنَّا في كل مناسبة على التوحيد .

أقول : إنَّ هذه الآية من الأدلة التي نحتج بها على هؤلاء ؛ فلقد أثبت الله للمؤمنين عقد الإيمان ابتداءً؛ ومع ذلك فهو يأمرهم بالإيمان ؛ فيقول سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ ﴾ لماذا ؟ ليظلَّ الإيمانُ عقيدةً حيةً في قلوبهم ، راسخةً في ضمائرهم ، عاملةً في واقع حياتهم ؛ فإن الإيمان ليس كلمة تقال باللسان فحسب ، ولكن الإيمان حقيقة كبيرة ذات تكاليف ، وأمانة عظيمة ذات أعباء ؛ فهو قولٌ وتصديقٌ وعملٌ ؛ فالله ـ جَلَّ وَعَلا ـ يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ [النساء : ١٣٦] الذي هو القرآن : ﴿ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ﴾ [النساء: ١٣٦] . أي : والكتاب

الذي أنزله من قبل على الأنبياء والمرسلين قبل بعثة النبيِّ محمد ﷺ، ثم قال سبحانه: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾

[البقرة: ٢٨٥]

إذن؛ الإيمان بالكتب كلِّها ركنٌ من أركانِ الإيمانِ لا يصح إلا به.

وقد سُئِل أحد علمائنا؛ فقيل له: أيدخل الجنَّةَ اليهوديُّ أم النصرانيُّ أم المسلم؟ فقال لو دخل الجنةَ اليهود لمنعوا المسلمين والنَّصارى، ولو دخل النَّصارى الجنةَ لمنعوا اليهود والمسلمين، مصداق قول الله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ [البقرة: ١١٣] ليسوا تبعًا لنا: ﴿ وَقَالَتِ النَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ إذن لن يقبل هؤلاء ولن يقبل هؤلاء. ثم التفت إليهم؛ وقال: أما لو دخل المسلمون، فَسَيُدْخِلُون معهم كلَّ يهوديٍّ ونصرانيٍّ آمن بموسى وعيسى ومحمد - صلوات الله عليهم جميعًا.

فاليَهوديُّ الذي آمن بموسى وبالتوراةِ المنزَّلةِ على قلبِ موسى، والقرآن المنزَّلِ علي قلبِ محمدٍ هو من أهلِ الجنة، والنَّصرَانِيُّ الذي آمن بالإنجيل الذي نَزَّلَ الله على عيسى وآمن بنبيِّ الله عيسى وبنبيِّ الله محمد ﷺ؛ فهو موحِّدٌ من أهلِ الجنةِ.

ففي « صحيح مسلم »[(١)] من حديث أبي هريرةَ ﷺ أنه ﷺ قَالَ : «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ! لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ أَوْ نَصْرَانِيٌّ ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ» .

فنحن المَوَحِّدِين نؤمنُ بجميعِ الكتبِ ، بالتوراةِ المنزَّلة على موسى والإنجيل المُنَزَّل على عيسى ، والزَّبُورِ على داود ، والصحف المنزَّلة على إبراهيم ، وموسى ، وبالقرآن المنزَّل على قلبِ محمدٍ ﷺ وعلى جميع إخوانه من النَّبيين والمرسلين .

ثانيًا : مصدر هذه الكتب والغاية منها جميعًا :

قال تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ ﴾ [آل عمران : ١-٤] .

إذًا ؛ فالذي أنزل القرآن والتوراة والإنجيل والزبور والصحف هو الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ والفرقان في الآية هو : القرآن .

إذًا مصدر هذه الكتب والصحف واحدٌ وهو الله ـ جلَّ في عليائه.

ولذلك حين تقف مع مصادرِ الكتبِ الأصلية ترى أنه لا خلاف في الأصول . لكنَّ الشرائع قد تختلف ، لأن كلَّ نبيٍّ قد يُبْعَثُ بشريعةٍ تصلح لزمانه ولمكانه ؛ أما العقيدة فهي ثابتةٌ لا تتغير أبدًا ؛ كما قال النجاشيُّ يوم أرسلت إليه قريش وإلي بطارقته بالهدايا الثمينة ؛ ليرد

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس ، ونسخ الملل بملته (١٥٣).

النجاشيُّ الموحدين إلى قومهم في مكة ليفعلوا بهم ما أرادوا ، فَأبى هذا الرجل - النجاشي ـ الذي قال عنه النبيُّ ﷺ : « إِنَّ بِهَا مَلِكًا لا يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ »[1] أبى إلا أن يسمع من المسلمين .

فقام جعفر بن أبي طالب ليعرض عليه الإسلام ببلاغةٍ وفصاحةٍ وقوةٍ ويقينٍ ، وتلى عليه صدر سورة مريم ، فبَكَى النجاشيُّ حتى اخضلَّت لحيته ، وقال كلمةً عجيبةً ؛ قال : « والله إنَّ هذا الذي سمعتُ ، والذي جاء به عيسى لَيَخْرُجُ من مشكاةٍ واحدةٍ » .

فنورُ التوحيدِ مصدَرُه : الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ فالذي نزَّل الكتب والصحف كُلَّها هو الله .

إذًا ؛ فما هي الغاية من نزولِ الكتب والصُّحف ؟.

لماذا نزّل الله الكتب والصحف ؟

والغاية ـ بإيجاز شديد ـ أنَّ الله تعالى ما أنزل الكتب إلا ليُسْعِدَ عباده في الدنيا قبل الآخرة ، فلو التزم الخلقُ بمنهجِ الله وبكتابِ الله المنزَّل على قَلْبِ النبيِّ المرسل إليهم لسعِدُوا في الدنيا والآخرة ، قال سبحانه : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[طه : ١٢٣، ١٢٤]

---

(١) حديثٌ حسنٌ : وهو حديث الهجرة في قصة طويلة ؛ أخرجه أحمد في « المسند » (١/ ٢٠١ ـ ٢٠٣) ، (٥/ ٢٩٠) وابن إسحاق كما في « السيرة النبوية » (١/ ٢٨٩ ، ٢٩٢) ، والبيهقي في « الدلائل » (٢/ ٣٠١) ، و« السنن » (٩/ ٩) ، و« الاعتقاد » (٤٠) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١/ ١١٥، ١١٦) ، و« الدلائل » (١٩٤) من حديث أم سلمة رضي الله عنها . قال الهيثمي في « المجمع » (٦/ ٢٤) « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير ابن إسحاق ، وقد صرَّح بالسماع » .

انظر إلى التاريخ عبر القرآن إلى تاريخ الأمم ، ما من أمة آمنت بنبيها والكتاب المنزَّل عليه إلا وسَعِدَت في الدنيا قبل الآخرة ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة :٦٦] .

فما من أمةٍ تقيم كتاب الله ، وتقيم شرع الله ، وتقيم حدود الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ إلا وسَعِدَت في الدنيا قبل الآخرة ؛ فالهدف إذن من هذه الكتب : تعبيدُ الناس لله وحده لا شريك له .. أن يمتثلوا أمره ، وأن يجتنبوا نهيه ، وأن يقفوا عند حَدِّه ، ومحالٌ أن يَقْبلَ أحدٌ أن يستأجر عاملًا وأن يمنحه المال والتجارة ، وأن يقول له : هذه ثمنها كذا وهذه ثمنها كذا ، فإذا ما حصَّلَ العامل المال الوفير خرج وأعطى هذا المال لرجل آخر !!! لن يقبل أحدٌ ذلك أبدًا !!! لن تقبل أن تستأجر عاملاً ليتاجر لك ويبيع ، ثم يعطي هذا المال لغيرك !!! فأنت عبدٌ لمن ؟ وخَلْقٌ لمن ؟ .

أنت مخلوقٌ لله ، وعبدٌ لله ، ومِلكٌ لسيدك وخالقك، قال سبحانه : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢، ١٦٣] .

فليس للإنسان من نفسه شيء ، بل أنت عبد لله ، ويجب عليك أن تحقق العبودية ، وأن تذعن لأمره ، وأن تجتنب نهيه ، وأن تقف عند حدوده التي حدَّها لك ، قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ

نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾[نوح : ١ـ ٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾[هود : ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾[هود : ٦١] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ [هود : ٨٤] . هذا هو الأصل الأول .

ما من نبيٍّ من الأنبياء إلا وقد أصَّل لقومه هذا الأصل الأول : ﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾.

فدينهم جميعًا واحد وهو الإسلام ، أي : إسلام الوجه لله تعالى ؛ كما قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[آل عمران : ١٩] فما من نبيٍّ إلاَّ وقد دعا قومه إلى الإسلام ، قال الله ﷻ حكاية عن نبيه نوح : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[يونس : ٧٢] ، وقال تعالى حكاية عن خليل الله إبراهيم : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[البقرة: ١٣٠ـ١٣٢] .

وقال تعالى حكاية عن نبيِّ الله موسى : ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[يونس:٨٤] .

وقال تعالى حكاية عن نبيِّ الله عيسى : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ

قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٥٢] .

وقال تعالى حكاية عن الجن : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴾ [الجن : ١٤] .

بل إن دين سليمان هو الإسلام ؛ قالت بلقيس لما أرادت أن تدخل دين الله مع نبيِّ الله سليمان : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [النمل : ٤٤] .

إذًا ؛ كلُّ هذه الكتب جاءت بدينِ الإسلام ، بدينِ الاستسلام والإذعان والانقياد لأمر الله تبارك وتعالى ؛ فما من كتابٍ أنزله الله إلا ودَعَا هذا الكتاب القوم إلى التوحيد .. إلى إفرادِ الله بالعبادة وحده لا شريك له .

رَوَى مسلمٌ [(١)] عن أبي هريرةَ ﷺ أنه ﷺ قَالَ : « أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ . فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ » قَالُوا : كَيْفَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ : « الأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلاَّتٍ ، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى ، وَدِينُهُم وَاحِدٌ ، فَلَيْسَ بَيْنَنَا نَبِيٌّ » .

ولم تكتفِ الكتبُ بدعوة الأمم إلى إفراد الله تبارك وتعالى بالعبادة فحسبْ ، بل أصَّلت كلها الأصول الجامعة لدين الإسلام ، وإن

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل ، باب فضائل عيسى ﷺ (٢٣٦٥) .

قال النوويُّ رحمه الله : « قال جمهور العلماء : معنى الحديث أصل إيمانهم واحد ، وشرائعهم مختلفة ، فإنهم متفقون في أصول التوحيد ، وأما فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف ، أما قوله ﷺ : « ودينهم واحد » فالمراد به أصول التوحيد ، وأصل الطاعة طاعة الله تعالى ا.هـ.

اختلفت الشرائع من كتاب إلى آخر ؛ لأن كلَّ نبيٍّ يُبْعَثُ بشريعةٍ تُصْلِح زمانه ومكانه .

تدَبَّر معي قول الله تعالى حكايةً عن نبيِّ الله نوح وهو يقيم الحجَّة على قومه ليفردوا الله بالتوحيد ؛ فيقول : ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾ [نوح : ١٣ـ ٢٠]

وتدَّبر قول ربنا ـ جَلَّ وَعَلاَ: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ﴾ [النمل : ٦٠] ، ثمَّ يقول سبحانه : ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ [النمل : ٦٠]

أإله مع الله يستحق أن يعبد ؟!! أإله مع الله الذي خَلَقَ هذا الكون بما فيه من آياتٍ تدلُّ على كمالِ قدرته وتمام عظمته ... أإله مع الله ؟ .. وهكذا.

وهذا المعنى يتردد أيضًا في صحف إبراهيم وموسى ؛ كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ۝ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۝ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ۝ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ

ﵟٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰﵞ [النجم : ٣٦ ـ ٤٥].

تدبَّر معي قول الله ـ تبارك وتعالى ـ في صحف إبراهيم وصحف موسى : ﵟقَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ١٤ وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ١٥ بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰﵞ [الأعلى:١٤ـ ١٩] ، وقال تعالى : ﵟوَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَﵞ [الأنبياء : ١٠٥] .

وقال ـ تعالى ـ حكاية عن سحرة فرعون بعد أن شرح الله صدورهم للإيمان : ﵟإِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَﵞ [طه : ٧٤] ، ثم بعد ذلك أصَّلوا اعتقادهم بالجنةِ : ﵟوَمَن يَأۡتِهِۦ مُؤۡمِنٗا قَدۡ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلۡعُلَىٰﵞ [طه : ٧٥] .

هذه أصولٌ عامَّةٌ جاءت بها وأرستها كلُّ الكتب والصُّحف التي أنزلها الله ـ تبارك وتعالى ـ على أنبيائه ورُسُلِه ؛ كالإيمان بالله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ وإفراده وحده بالعبادة ، والإيمان بالبعث، واليوم الآخر ، والجنة والنار .

وفي حديثٍ جميلِ المتن جدًّا ؛ لكنه ضعيف الإسناد ، والحديث رواه ابن حبان في «صحيحه» والحاكم في « المستدرك» [1] من حديث أبي ذر ﷺ (ومدار تضعيفه على إبراهيم بن هشام بن يحيى الغساني .

قال فيه الذهبيُّ : متروك .

---

(١) أخرجه ابن حبان كما في « الإحسان » (٣٦١) ، و « المجروحين » (١/ ١٣٠) ، وأبو نعيم في « الحلية» (١/ ١٦٦ـ ١٦٨) ، وأخرجه الحاكم (٢/ ٥٩٧) ، وأبو نعيم (١/ ٦٩) من طريق أخرى فيها ضعف ، وراجع : « المسند » (٢٢٢٨٨) .

وقال فيه أبو زُرعة وأبو حاتم : كذَّاب).

قال أبو ذر رضي الله عنه : يَا رَسُولَ الله ! مَا كَانَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « كَانَتْ أَمْثَالًا كُلُّهَا . وكان فِيهَا : يَا أَيُّهَا المَلِكُ المُسَلَّطُ المُبْتَلى المَغْرُورُ ، إِنِّي لَمْ أَبْعَثْكَ لِتَجْمَعَ الدُّنْيَا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ ، وَإِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِتَرُدَّ عَنِّي دَعْوَةَ المَظْلُومِ ، فَإِنِّي لاَ أَرُدُّهَا وَلَوْ كَانَتْ مِنْ كَافِرٍ ، وَعَلَى العَاقِلِ مَالَمْ يَكُنْ مَغلوبًا عَلَى عَقْلِهِ أَنْ تَكُونَ لَهُ سَاعَاتٌ : سَاعَةٌ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ ، وَسَاعَةٌ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ ، وَسَاعَةٌ يَتَفَكَّرُ فِيهَا مِنْ صُنْعِ الله ، وسَاعَةٌ يَخْلُو فِيهَا لِحَاجَتِهِ مِنَ المَطْعَمِ وَالمَشْرَبِ ، وَعَلَى العَاقِلِ أَنْ يَكُونَ بَصِيرًا بِزَمَانِهِ ، مُقبِلاً عَلَى شَانِهِ ، حَافِظًا لِلِسَانِه ، وَمَنْ حَسَبَ كَلاَمَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلاَمُهُ إلاَّ فِيمَا يَعْنِيهِ » ، قُلْتُ (والقائل أبو ذر) : يَا رَسُولَ الله ! فَمَا كَانَتْ صُحُفُ مُوسَى ؟ ، فَقَالَ ﷺ : « كَانَتْ عِبَرًا كُلُّها » .

« وَمِمَّا كَانَ فِيهَا : عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالموتِ ، ثُمَّ هُوَ يَفْرَحُ ، وَعجبتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالنَّارِ ، ثُمَّ هُوَ يَضْحَكُ ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْقَدَرِ ، ثُمَّ هُوَ يَنْصَبُ ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ رَأى الدُّنيَا وَتَقَلُّبهَا بِأَهْلِهَا ، ثُمَّ اطمَأَنَّ إِلَيْهَا ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالحِسَاب غَدًا ، ثُمَّ لاَ يَعْمَلُ » .

إذًا : فنحنُ نؤمن بالتوراة التي أنزلها الله على موسى ، وبالإنجيل الذي أنزله الله على عيسى ، وأما توراة اليوم فإنها محرَّفة ، وأما إنجيل اليوم فإنه مبدَّلٌ .

كما سأبين إن شاء الله .

*****

التحريف الذي أصاب التوراة والإنجيل

نحن ـ أولًا ـ نؤمن بالكتب التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله .أما الكتب الموجودة اليوم بين أيدي اليهود والنصارى ؛ فهي كتبٌ مُحرَّفةٌ مُغيَّرةٌ مُبدَّلةٌ ؛ كما قال الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ في قرآنه : ﴿ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥ـ٧٩] .

فالله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ قد أخبرنا أن اليهود والنصارى قد حرَّفوا الكتب وبدَّلوا وغيَّروا ؛ وهذا ما سنبينه إن شاء الله تعالى .

أقول : إن الناظر بحقٍّ وعدلٍ وإنصافٍ في التوراة والإنجيل وأسفار العهد القديم والجديد يقطع بالتحريف ، والتغيير ، والتبديل ؛ كما أقر بذلك كثير من مجتهديهم ، وسنضرب الأمثلة على ذلك ، التي تبين صدق القرآن الذي أنزله الله على قلب محمد ﷺ منذ مئاتِ السنين وفيه قوله تعالى : ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ﴾ [المائدة : ٤١] .

يقولُ شيخ الإسلام ابن تيمية ـ طيَّب الله ثراه ـ في كتابه « الجواب الصحيح » بأنه لما راجع النُّسخَ والطبعاتِ للتوراة وللإنجيل وللزَّبور ؛ يقول : « لا يستشكل على ذي ناظر للوهلة الأولى أن يقف على مقدارِ التحريفِ والتبديلِ والتغييرِ في النسخة الواحدة من طبعة إلى أخرى » .

ويقول : « بل وجدنا النسخ المعرَّبة يخالف بعضها بعضًا في الترجمة مخالفة شديدة تمنع الثقة ببعضها ، وقد رأيت أنا بالزبور عدة نسخ معرَّبة بينها من الاختلاف مالا يكاد ينضبط ، وما يشهد بأنها مبدَّلة مغيَّرة لا يوثق بها ، ورأيت من التوراة المعرَّبة من النسخ ما يُكَذِّبُ بكثير من ترجمتها طائفة من أهل الكتاب » [١] .

ويقول أيضًا [٢]: « وقد رأيت أنا من نسخ الزبور ما فيه تصريح بنبوة محمد باسمه ، ورأيت نسخة أخرى بالزبور فلم أر فيها ذلك ، وحينئذٍ فلا يمتنع أن يكون في بعض النسخ من صفات النبيِّ ما ليس في أخرى » .

وقد ضرب الشيخُ رحمت الله الهندي في كتابه الممتع «إظهار الحق» [٣] أمثلة عديدة للاختلاف بين نسخ التوراة الثلاث ، فأنتم تعرفون أن التوراة لها عندهم ثلاث نسخ : النسخة الأولى ، التوراة العبرانية ، والنسخة الثانية التوراة اليونانية ، والنسخة الثالثة التوراة السامرية ، أو توراة السامرة .

هذه نسخ التوراة الرئيسة .

---

(١) « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢/ ٩١) .

(٢) المصدر نفسه (٣/ ٥٠، ٥١) .

(٣) « إظهار الحق » لرحمت الله الهندي (٢/ ٤٣١) وما بعدها بتصرف .

فيقول الشيخ رحمت الله الهندي ـ رحمه الله تعالى:

الاختلاف الأول : الاختلاف في الزمان من خلق آدم إلى زمن الطوفان في عهد نوح : اختلفت نسخ التوراة الثلاثة في تحديد هذه المدة ـ وهذه مسائل حسابية ـ يقول : التوراة العبرانية قالت : بأن المسافة بين خلق آدم والطوفان ١٦٥٦ سنة .

والتوراة اليونانية التي هي النسخة الثانية الأصلية من نسخ التوراة عند اليهود قالت بأن المدة ٢٢٦٢ سنة . وتوراة السامرة أو السامرية قالت : بأن المدة ١٣٠٧ سنة .

الاختلاف واضح جدًّا في تحديد تاريخ معلوم بين نسخ التوراة الثلاثة .

الاختلاف الثاني[1] : الزمان من الطوفان إلى ولادة إبراهيم عليه السلام .

فالتوراة العبرانية قالت : ٢٩٢ سنة .

والتوراة اليونانية قالت ١٠٧٢ سنة .

والتوراة السامرية قالت ٩٤٢ سنة .

انظر حجم الخلاف في الكتب الثلاثة التي هي أصل التوراة عند اليهود .

اختلاف ثالث[2] : يقول : إن موضع بناء الهيكل ـ أعني المسجد ـ باعتبار التوراة العبرانية « جبل عيبال » وباعتبار التوراة السامرية « جبل جرزيم » اختلاف أيضًا في الكتابين الرئيسيين عند اليهود .

---

(١) المصدر السابق (٢/ ٤٣٣) وما بعدها .

(٢) نفس المصدر (٢/ ٤٣٨) .

اختلاف رابع : يقول : إن الزمن من خلق آدم إلى ميلاد المسيح باعتبار التوراة العبرانية ٤٤٠٠ سنة .

وباعتبار التوراة اليونانية ٥٨٧٢ سنة .

وباعتبار التوراة السامرية ٤٧٠٠ سنة .

اختلاف ملحوظ في نسخ التوراة الأصلية عند اليهود ، والجدير بالذكر - يا إخوة - أن اليهود والنصارى يعترفون بصحة النسختين : العبرانية واليونانية .

وأنت ترى الآن الاختلاف الواضح البيِّن في أرقام دقيقة حسابية ، ناهيك عما ذكر بعد ذلك من تأصيل نظري على سبيل المثال - عياذًا بالله .

يقولون : إن الله تعالى قد صارع يعقوب - والعياذ بالله - إلى طلوع الفجر ، فلم يقْدر الله على صرعه ، وتعلق به يعقوب فلم يطلقه ، ولم يتمكن الرب من الخلاص منه حتى باركه !!! انظر إلى الكذب ! حتى يكون النسل بعد ذلك ليعقوب ؛ الذي هو نسل اليهود ؛ نسلاً مباركًا !! .

ويقولون ؛ كما في سِفْر التكوين والإصحاح الثاني ؛ ولن أطيل في هذه الجزئية ؛ لأنه لا يعنينا الوقوف على هذا الكلام ، ولكن أنا أريد أن أبين لكم مدى التحريف ، والتغيير ، والتبديل ، ومدى الشناعة والفظاعة لهؤلاء المجرمين الوقحاء فيما نسبوه إلى الله ، وإلى الأنبياء ، وسأبين فساد العقيدة بالتفصيل لهؤلاء الكذابين .

يقولون ؛ كما في سفر التكوين الإصحاح رقم (٢) : وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل ، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله

الذي عمله ، وبارك الله اليوم السابع وقدَّسه ؛ لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي هو يوم السبت !!

وتدبَّر قول الله ﷻ عندما يردُّ على هذا الكذب في آيةٍ جميلةٍ من قرآنه ، ويقول : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾[ق:٣٨] .

أي : ما مسَّهُ من نصبٍ ، ولا من تعب ، ليستريح في سبت ولا في أحد !! بل إن أمره إذا أراد شيئًا ، فإنما يقول له كنْ فيكون ـ جَلَّ جَلالُ الله .

وقد وقفتُ على كتابٍ دفعه لي طالب من طلابنا ـ جزاه الله خيرًا ـ ، وهذا الكتاب بعنوان : (على هامش الحواريين القرآن واليهود) ، للأستاذ حسني يوسف الأطبر ، وقد ذكر مؤلف الكتاب أن التوراة هي ذلك الكتاب المنزَّل على موسى الجامع لأسفار موسى ؛ ، وكذلك يحتوي كتاب التوراة على الوحي والبيان الذي أوحاه الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ لأنبياء بني إسرائيل من بعد موسى إلى ما قبل عيسى بخمسة قرون ، هذا ما ذهب إليه الكاتب في بحثه ؛ إلا أنني وجدتُ كلَّ من تكلَّم عن التحريف والتبديل قد ذكروا أن التوراة التي تتكون من أسفار موسى الخمسة ـ التي سأبينها الآن ـ هي الكتاب الذي أنزله الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ على نبيِّ الله موسى ، وقد أجمع جمهور المفسرين على أن لفظة « الكتاب » في القرآن ، يشار بها إلى التوراة التي أنزلها الله على موسى ، والتوراة في نظر اليهود تشتمل على الأسفار الخمسة ، وهي أسفار موسى .

هذه الأسفار هي سفر التكوين[١] وسفر العدد، وسفر التثنية، وسفر اللاون أو اللاويين[٢]، وسفر الخروج.

هذه الأسفار الخمسة تمثل التوراة في نظر اليهود.

١ـ سفر التكوين: يقصُّ تاريخ العالم من تكوين السماوات وتكوين الأرض والأشجار والبحار والأنهار، إلى استقرار أولاد يعقوب في أرض مصر، مع تفصيل في قصة آدم عليه السلام، وحواء، ونوح، وقصة الطوفان، ونسل سام الذي هو أحد أبناء نبي الله نوح، وهو الذي انحدر من شعب بني إسرائيل.

هذا ملخَّصُ سفر التكوين.

فسفر التكوين يتكلَّم عن تكوين الخلق.

٢ـ سفر الخروج: يتكلَّم عن تاريخ بني إسرائيل في مصر، وقصة موسى عليه السلام، وكيف خرج مع بني إسرائيل، ويتكلَّم عن تاريخ بني إسرائيل في مرحلة التيه، وفي مرحلة التيه قال تعالى: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة:٢٦].

وبجانب هذه الأمور يتكلَّم عن بعض القصص التي تشتمل على الخروج على طائفة من أحكام الشريعة اليهودية في العبادات والمعاملات والعقوبات، يعني بعض القصص التي تبين عقوبة من خرج عن أحكام الشريعة اليهودية.

---

(١) ويسمى سفر التكوين أو سفر الخليقة. انظر: «إظهار الحق» (١/ ٩٩).

(٢) ويسمى سفر الأحبار ـ المصدر السابق.

٣ـ سفر التثنية : شُغل معظمه بأحكام الشريعة ، يعني : سُمِّيَ بالتثنية على اعتبار أن الله ﷻ قد أمر موسى بهذه الأوامر ، فثنى موسى ببني إسرائيل .

التثنية أو أمر موسى ، ثم أمر ثانية بني إسرائيل .

يتكلَّم عن أحكام الشريعة الخاصة باليهود ، والخاصة بالحروب والسياسة وشئون الاقتصاد والمعاملات .. إلى آخره .

٤ـ سفر اللاون أو اللاويين : سُمِّيَ بهذا الاسم ؛ لأنه يُنْسَب إلى نسل لاوي، وهؤلاء هم سجنة الهيكل عند اليهود ، ويتكلَّم عن القَرَابين والأضحيات والمحرم من الحيوانات ، والطيور على بني إسرائيل .. إلى آخره .

٥ـ سفر العدد : هذا كلُّه عبارة عن إحصائيات رقمية وعددية ، ولذلك سُمِّيَ بسفر العدد ، وهو يتضمن إحصائية عن قبائل بني إسرائيل ، وعن جيوش بني إسرائيل وأموالهم ... إلى آخر ذلك .

هذه الأسفار الخمسة تمثل عند اليهود القسم الأول من أقسام العهد القديم ؛ لأن العهد القديم عند اليهود ينقسم إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : عرفناه ؛ وهو الذي يتكون من الأسفار .

القسم الثاني : يُسمَّى بالأسفار التاريخية .

هذا القسم الثاني من أقسام العهد القديم والأقسام التاريخية يتكوَّن من اثنى عشر سِفْرًا ، هذه تعرض تاريخ بني إسرائيل بالتفصيل إلى استيلائهم على بلاد الكنعانيين في فلسطين .

القسم الثالث : يُسَمَّى بأسفار الأناشيد والأسفار الشعرية ، وهي أناشيد مواعظ ورقائق .

والقسم الرابع : يُسَمَّى بأسفار الأنبياء وهو ١٧ سفر ، ويعرض كلَّ سِفْرٍ منها تاريخَ نبيٍّ من أنبياء بني إسرائيل .

أقول : لم يتعرض باحث قديمًا أوحديثًا لموضوع مقارنة الأديان إلا وأثبت أن التوراة التي هي بأيدي اليهود الآن ، إنما هي توراة محرَّفة ، وفي مقدمة من فَحَصَ هذه الأسفار : علماء الكنيسة الكاثولوكية ، يعني هم أول من وقف عند هذا التحريف ، حيث بَحَثَ المجْمع المسكوني الثاني للفاتيكان سنة ١٩٦٢ ، ١٩٦٥ المشكلة ، ووصل إلى وجود أخطاء في بعض نصوص أسفار العهد القديم ، وأصدر المجمع صيغة تشير إلى وجود هذه الشوائب ؛ فقال : غير أن هذه الكتب تحتوي على شوائب ، وعلى شيء من البطلان ، ومع ذلك ففيها شهادة عن تعليم إلهي .

إذن أثبت المجمع أن هذه الأسفار فيها شوائب وشيء من البطلان ، وأعتقد بأن كتابًا يُشير إليه أهلُهُ بأن فيه من البطلان يكون لا وجود له بالمرة ؛ لأنه يمحو الثقة المطلقة في هذا الكتاب !! .

وتقولُ دائرةُ المعارفِ الأمريكية : « لقد كان هناك نشاط أدبي بين الإسرائيليين في عهد مبكر فسجَّلوا تقاليدهم القبلية ، وقوانين الجماعة الإسرائيلية ، هذا بجانب الأغاني الشعبية وترانيم العبادة ، وما ينطق به الكهنة والأنبياء من كهانة ووصايا ، وبعد أن استقرت حياة الطائفة الإسرائيلية ، بدأت تظهر بالتدريج ، وعن غير قصد عناصر من هذه

الآداب اعتبرتها الطائفة ركائز لحياتها العقائدية ، وبهذا أعطيت هذه العناصر وقارًا خاصًا تفرَّدت به وتحوَّلت بذلك إلى كتابات مقدسة ، ولا شك أن الكُتَّاب الأصليين لهذه الكتب لم يَدُرْ بعقولهم أنَّ ما كتبوه وسجَّلوه سيكون له مثل هذه القداسة في حياة الطائفة الإسرائيلية في يوم من الأيام » .

نفهم من هذه الفقرة التي ذكرتها دائرة المعارف الأمريكية أن الترانيم والأغاني والأشعار وبعض العناصر - كما ذكرت - التي كتبها العلماء والأحبار والرهبان بعد مضي الأعوام والسنوات أصبح لها قداسة مثل قداسة الكتاب الأصلي !! .

والشيخ أحمد ديدات وقف في دراسةٍ جميلةٍ وأثبت أن الأسفار ليست من عند الله ، ولا من كتابة موسى، وأنها تناقض بعضها .

وقف عند بعض الأسفار ؛ كسفر الخروج مثلاً يقول : « وقال الرب لموسى » ، وفي سفر الأحبار في نفس الفقرة : « وكلَّم الرَّبُّ موسى ، وكلَّم الرَّبُّ موسى » !

وفي سفر الخروج : « فتكلَّم موسى بين يدي الرب » .

وفي سفر العدد : « فقال موسى للرب » .

وفي سفر التثنية : « ثم قال الربُّ لموسى » .

فحين تقف على هذه الكلمات لا هي كلمات الرب ، ولا هي كلمات موسى ؛ لأن هناك وسيطًا ثالثًا : ثم قال الربُّ لموسى ، ثم قال موسى للرب ، فمن الذي يتكلم ؟! فَرْدٌ آخر ! . أليس كذلك ؟! أما لو كان هذا

الكلام كلام موسى لقال : وقال لي الرب ، وقلت للرب . ولكن قال موسى للرب ، ثم قال الرب لموسى !! وهذا دليل على وجود الوسائط الذين كتبوا هذه الكتب ونسبوها إلى موسى ، قال تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾ [البقرة : ٧٨ ، ٧٩] .

والإمام ابن حزم هو أول من أصَّلَ منهجَ مقارنة الأديان ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه المدهش « الفِصَل في المللِ والأهواء والنِّحَلِ » فقد انتقد هذه العقيدة وبيَّن أنها حُرِّفت ؛ فقَالَ: « نذكر إن شاء الله تعالى ما في الكتب المذكورة من الكذب ، الذي لا يشك كلُّ ذي مسكة تمييز في أنه كذب على الله تعالى ، وعلى الملائكة عليهم السلام ، وعلى الأنبياء عليهم السلام ، إلى أخبار أوردوها ، لا يخفى الكذب فيها على أحدٍ ، كما لا يخفى ضوء النهار على ذي بصر.

ثم يقُولُ : نحمد الله كثيرًا على ما هدانا له من الإسلام ونحِلة السنة ، وإتباع الآثار الثابتة ، ونسأله تثبيتنا على ذلك ، وأن يجعلنا من الدعاة إليه حتى يدعونا إلى رحمته ورضوانه عند لقائه . آمين » .

ويطرح الإمام ابن حزم بعض الأقوال التي يبين من خلالها الكذب والتحريف في التوراة .

فيقول : « وأول ذلك أن التوراة التي بأيدي السامرية غير التوراة التي بأيدي سائر اليهود ، يقولون : إن التي بأيدي السامرية هي المحرَّفة

والمبدَّلة . كل فريق يشكك في التوراة الأخرى »[1].

وكم توراة أنزل ربنا ؟ واحدة فقط ؛ لكن هي الآن التوراة العبرانية ، التوراة اليونانية ، التوراة السامرية أو توراة السامرة .

يقول ابن حزم في النص الذي يتناول لوطًا عليه السلام وعلاقته بابنتيه ، ويروى الإمام القصة بالتفصيل ، ويعلق عليها بوصفها فضائح وسوءات تقشعر من سمعها جلود المؤمنين بالله تعالى ، العارفين حقوق الأنبياء عليهم السلام[2]، وكذلك وصفه لإطلاقهم على نبي الله يعقوب عليه السلام أنه خدع أباه وغشَّه ، يقول بأن هذا أيضًا من الفضائح والأكذوبات[3] .

محالٌ أن يكون هذا من كلام الله أو من كلام نبيٍّ الله موسى ، ثم يقول كأن هذا التصرف مبعد عن من فيه خير من الناس العاديين ، فكيف يكون ذلك من نبيٍّ مع أبيه النبيِّ أيضًا . لا يمكن !

ويلْحق نقده للتوراة لسائر الكتب التي يضيفونها إلى الأنبياء منها كتاب يوشع ؛ ففيه براهين قاطعة أن بعض متأخريهم ألَّفه عنه حيث يتضمن نصًّا يفيد أن سليمان بن داود عليهما السلام بنى بيت المقدس ، لماذا ؟

يوشع عليه السلام كان قبل سيدنا سليمان بن داود بنحو ٦٠٠ سنة ، ثم توقف الإمام ابن حزم عند بعض المزامير المنسوبة التي نسبها اليهود لنبي الله داود عليه السلام . توقف عند المزمور الرابع والأربعين ، ونقل إلينا نصًّا فقال : « يقول المزمور عَرْشُك يا الله في العالم ، وفي الأبد قضيت

(١)« الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحَلِ » (١/ ١٣٨ ، ١٣٩) .

(٢)نفس المصدر (١ / ١٦٠) .

(٣)المصدر السابق (١/ ١٦٧) وما بعدها بتصرف .

العدل ، قضيت ملكك ، أحببت الصلاح وأبغضت المكروه ، من أجل ذلك دَهَنَكَ إلهك بزيت القرح بيِّن إشراكك »[١] .

ويقول في نص آخر : «وقفت زوجتك عن يمينك وعقاصها من ذهب» .

أيتها الابنة : « اسمعي وميلي بأذنيك وأبصري وآنسي عشيرتك وبيت أبيك ، فيهواك الملك وهو الربُّ والله فاسجدي له طوعًا » .

وهذا شرك ؛ لأنه نسب زوجة لله ؛ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا .

يقول : « وهذه سوءة الأبد ، ومضيعة الدهر ، وقاصمة الظهر ، وإثبات إلهٍ آخر على الله تعالى دهنه بالزيت إكرامًا له ، ومجازاة على محبته الصلاح ، وإثبات أشراك لله تعالى ، وهذا دين النصارى بلا مُؤنة» .

ثم يعلِّق ابن حزم ـ رحمه الله تعالى ـ ويقول على سبيل السخرية والاستهزاء : « ما شاء الله كنا أنكرنا الأولاد على النصارى فأتانا اليهود بالزوجة والأختان تبارك الله ؛ فما نرى لهم على النصارى فضلًا أصلًا ، ونعوذ بالله من الخذلان »[٢].

ومن أخطر الدراسات الحديثة لإثبات تحريف التوراة والإنجيل ؛ ما كتبه « موريس بكاي » وهو العالم الفرنسي الشهير في كتابه المترجم من مدةٍ قريبة، قارن فيه بين القرآن والتوراة والإنجيل في ضوء العلم .

خلاصة هذه الدراسة يقول بأن التوراة والإنجيل قد حُرِّفا . ويقول :

---

(١) نفس المصدر (١/ ٢٣١) .

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٣١) بتصرف .

لقد ظلَّت اليهودية والمسيحية لقرونٍ طويلة تعتبران أن موسى ﷺ هو كاتب التوراة اعتمادًا على ما ورد فيها من أقوال، مثل قول الرب: « أكتب هذا تذكارًا في الكتاب » أو ما ورد في سفر العدد، وكتب موسى مخارجهم برحلاتهم حسب قول الرب أو الآية الواردة في سفر التثنية، وكتب موسى هذه التوراة.

يقول موريس بُكاي: وابتداءً من القرن الأول قبل الميلاد كان هناك دفاعٌ عن الرأي القائل بأن موسى قد كتب الأسفار الخمسة كلها، أما اليوم فقد هجر هذا الفرض - الذي هو فرض أن موسى كتب التوراة - تمامًا، وبدأ العلماء يشككون فيه حيث رأى أحدهم استحالة أن يكون موسى قد كتب بنفسه كيف مات !!.

ويكفي هذا؛ لأني لا أحب التأصيل الذي هو بعيد عن آيات القرآن والسنة، لكنى كنتُ مضطرًا لهذه المقدمة لأبين مِنْ كُتبِهم أنهم قد حرَّفوا كثيرًا، وانحرفوا عن منهج الحق.

وهذه أدلة من القرآن على تحريف اليهود للتوراة، ويظهر هذا التحريف في الآتي ذكره.

أولاً: فساد اعتقادهم في الله ﷻ وإشراكهم مع الله غيره في العبادة !!:

هذا تحريف أم ليس تحريفًا ؟

هل هناك نبيٌّ يؤصل لقومه أن يشركوا مع الله إلهًا آخر ؟

مستحيل !!.

يقول اللهُ - تبارك وتعالى - في قصة السامري: ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً

جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴾ [طه : ٨٨] .

فقال لهم هارون : ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ۝ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾ [طه :٩٠ ، ٩١] . انظر إلى هذا الإصرار على الكفر ـ عياذًا بالله ـ نسبوا الابن لله تعالى !!.

قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة ٣٠] ، وقال سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾ [المائدة : ١٨] ، والله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ يقول : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص : ١-٤] ، وقال سبحانه : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ [المائدة : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الجمعة : ٦ ،٧] ، انظر إلى التحريف في قولهم : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ [آل عمران :١٨١] ، وكذلك اتهامهم لله بالبُخْلِ : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [المائدة : ٦٤] .

سبحان الله ! انظر إلى ما أنفق الله منذ خلق السماوات والأرض ، إنه

يد الله لا تغيضها النفقة ـ جلَّ جَلالُ الله[(١)] .

وكذلك قولهم لموسى : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ [البقرة : ٥٥] ، وزعمهم أن الله تعب من خلق السماوات والأرض ، فاستراح يوم السبت ـ عياذًا بالله ـ فردَّ عليهم بقوله : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] .أي : ما مسَّنا من تعبٍ ولا نصبٍ : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس:٨٢] .

ثانيًا : ومن ذلك فساد اعتقادِهم في وحي الله وكُتُبِهِ .

كما قَال الله ﷻ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : ٩١]. أعوذ بالله ! كُفْرٌ بكلِّ الكتبِ ، قالوا : ما مِنْ كتاب أُنزِل من الله على بَشرَ؟!!

وانتبه : فَهُمُ الذين قالوا بأنَّ التوراة كتاب موسى الذي أملاه عليه الله ! انظر إلى هذا التناقض .

ثالثًا : فسادُ اعتقادِهم في النبوة والأنبياء :

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران : ٢١]

---

(١) وفي صحيح البخاريِّ عن أبي هريرة ﷺ أنه ﷺ قَالَ : قَالَ اللهُ ﷻ : أَنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ ، وَقَالَ : يَدُ الله مَلأَى لا تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ ، سَحَّاءُ اللَّيْلِ وَالنَهَارِ . وَقَالَ : أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِض مَا فِي يَدِهِ» . البخاري ، كتاب التفسير ، باب ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود :٧] (٤٦٨٤) ، وانظر أطرافه هناك .

ومنه ـ أيضًا : فساد اعتقادهم في نُبُوَّةِ النبيِّ محمد ﷺ قال سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

[البقرة : ١٤٦ـ١٤٧]

وهم الذين بَشَّرُوا به أصلاً ، وهم الذين افتخروا به على قبيلتي الأوس والخزرج في المدينة ، ولما بعث من العرب من غير نسل اليهود كذَّبوه ، ولذلك عبد الله بن سلام حبر اليهود لما آمن بالنبيِّ ﷺ قال [١] : يا رسولَ الله ، اكْتُم خبر إيماني ، وسَلْ بطون يهود ، فجمع رسول الله بطون اليهود ؛ وقال: «ما تقولون في عبد الله بن سلام ؟ ».

قالوا : سيدنا وابن سيدنا ، وحَبْرنا وابن حبرنا ، فقام عبد الله بن سلام وقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا رسول الله . فردَّ اليهود في نفس المجلس على لسان رجل واحد : هو سفيهنا وابن سفيهنا، لقد كان الآن الحَبْر والعَالِم .

فالكفر ملةٌ واحدةٌ .

وما أحلى هذه الكلمات حينما قال ابن سلام [٢] : « والله إني لأقرُّ لمحمدٍ بالنبوة أكثر مما أُقِرُّ لابني بالبنوة!!» لأن الذي شهد بنبوة محمد هو

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته (٣٣٢٩) ، وانظر أطرافه هناك . وقد سبق الحديث.

(٢) انظر: « أسباب النزول » للواحدي (رقم ٧٥) ولفظه : « لأنا كنتُ أشدُّ معرفةً برسول الله ﷺ مني بابنى » وعزاه في « الدر المنثور » (في سورة البقرة / ١٤٦) للثعلبي في « تفسيره » من طريق السدى الصغير عن الكلبي عن ابن عباس . وراجع « العجاب في بيان الأسباب » لابن حجر (١/ ٣٩٩ ط ابن الجوزي) .

الله ؛ قال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة :١٤٦] .

قالوا [(١)]: لو أنَّ مَلَكًا غير جبريل يتنزل بالوحيِ على محمد لآمنَّا به ، لماذا ؟ قالوا : لأن جبريل هذا عدونا ؛ فنزل قول الله تعالى : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٩٧] إلى غير ذلك من الاعتقادات الفاسدة في الملائكة ؛ كما سبق بيانه في الإيمان بالملائكة .

خامسًا : فساد اعتقادهم في اليوم الآخر :

قال سبحانه : ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[البقرة : ١١١] ، وقال عن تحريفهم الكتب : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾[النساء : ١٥٥ ـ ١٥٧] ، وقال سبحانه : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾[النساء:١٦٠، ١٦١].

آياتٌ كثيرةٌ جدًّا في القرآن تُبيِّنُ تحريف هؤلاء المجرمين لكتاب الله ؛

---

(١) سبق في الإيمان بالملائكة .

بل ولكلِّ كتب الله التي أنزلها الله ﷻ على أنبيائه ورسله عليهم السلام ، فهذه الأمة أمة مُحرِّفة مُغيِّرة مُبدِّلة لا تثبت أبدًا على عهد ولا على ميثاق ، كما قال الله ﷻ ، ولكن بكل أسف نحن لا نتدبر القرآن ، فقرآن الله بين أيدينا ، يبين لنا أخلاق وطبائع اليهود ، وغدر وخيانة وتحريف اليهود ؛ فاليهود أهل غدر وخيانة وتحريف !! هؤلاء حَرَّفُوا التوراة والإنجيل والأسفار ، وحَرَّفُوا الزبور ، وحَرَّفُوا كتب العزيز الغفور ، أفلا يُحَرِّفُونَ ما كتبه الزعماء والقادة في « أوسلو » وفي غيرها .

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة : ٥١] ، وقال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٠٩] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [آل عمران:١١٨].

ولله درُّ ابن القيم حين قال :

أَتُحِبُّ أَعْـدَاءَ الحَبِيـبِ وَتَـدَّعِي ... حبًّـا لَـهُ مَـا ذَاكَ فِي الإِمْكَـانِ

وَكَـذَا تُعَـادِي جَاهِـدًا أَحْبَابَـهُ ... أَيْـنَ المَحَبَّـةُ يَـا أَخَـا الشَّـيْطَانِ

إِنَّ المَحَبَّـةَ أَنْ تُوَافِـقَ مَـنْ تُحِـبُّ ... عَـلَى مَحَبَّتِــهِ بِــلَا نُقْصَــانِ

فَإِنِ ادَّعَيْتَ لَهُ المَحَبَّةَ مَعَ خِلَافِكَ ... مَا يُحِبُّ فَأَنْتَ ذُو بُطْلَانِ[1]

*****

لَوْ صَدَقْتَ اللهَ فِيمَا زَعَمْتَهُ ... لَعَادَيْتَ مَنْ بِاللهِ وَيْحَكَ يَكْفُرُ

وَوَالَيْتَ أَهْلَ الحَقِّ سِرًّا وَجَهْرَةً ... وَلَمَا تُعَادِيهِمْ وَلِلْكُفْرِ تَنْصُرُ

فَمَا كُلُّ مَنْ قَدْ قَالَ مَا قُلْتَ مُسْلِمٌ ... وَلَكِنْ بِأَشْرَاطٍ هُنَالِكَ تُذْكَرُ

مُبَايَنَةُ الْكُفَّارِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ ... بِذَا جَاءَنَا النَّصُّ الصَّحِيحُ الْمُقَرَّرُ

وَتَصْدَعُ بِالتَّوْحِيدِ بَيْنَ ظُهُورِهِمْ ... وَتَدْعُوهُمُو سِرًّا لِذَاكَ وَتَجْهَرُ

هَذَا هُوَ الدِّينُ الحَنِيفِيُّ وَالْهُدَى ... وَمِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ لَوْ كُنْتَ تَشْعُرُ

*****

(١) «نونية ابن القيم» (١٧١).

تحريف الإنجيل

إنَّ الإنجيل الذي أنْزَلَه الله على نبيه عيسى كان إنجيلاً واحدًا ، أما الآن فأقلُّ عددٍ معترفٍ به من الأناجيل أربعة ، وهم :

إنجيل متَّى ، وإنجيل مُرْقص ، وإنجيل لوقا ، وإنجيل يوحنا . ودَعْنا من إنجيل برنابا ؛ لأنهم لا يعترفون به ـ كما سأبين الآن إن شاء الله ـ لأن إنجيل برنابا هو الذي بَيَّنَ ألوهية الله ، ونبوة عيسى عليه السلام فاستبعدوه ، وهذا التعدد في الأناجيل يبين لك كيف حَرَّفَ النَّصارى الإنجيل ، وتعرِفُ قَدْرَ هذا التحريف .

أمَّا النصرانية : وهذا هو المسمَّى الصحيحُ الذي ذُكر في القرآن والسنة .

ففي القرآن ؛ قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ ﴾ [المائدة : ٨٢] .

وكما قال النبيُّ ﷺ : « لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ » (١) .

والنصرانية في الأصل دينٌ أنزله الله على نبيه عيسى عليه السلام ليدعو إلى وحدانية الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ وكتابها الإنجيل ، ويجبُ على كلِّ مسلمٍ أن يؤمن بنبيِّ الله عيسى ، وبالإنجيل الذي أنزله الله عليه .

إذن فالإيمان بعيسى عليه السلام والإيمان بالإنجيل الذي أنزله الله عليه من أركان الإيمان ، لا يمكن أن يصحَّ إيمانُ المؤمن بدونهما .

والنصرانية في طورها الأول في عهد عيسى عليه السلام دين توحيد يدعو إلى

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ ﴾ [مريم : ١٦] (٣٤٤٥) .

توحيد الله ﷻ ، وكذلك أنصار عيسى في هذا الطور الأول هم من أهل التوحيد وأهل الجنة.

الطور الثاني : استمر قرابة نصف قرن ، وكان عبارة عن حملات ضارية جدًّا من اليهود على أتباع المسيح ﷺ ؛ فهو يمثلُ مرحلةَ الاضطهاد القاسية للمتبعين لدين نبي الله عيسى ﷺ على أيدي اليهود .

أما الطور الثالث : فيبدأ في النصف الثاني من القرن الأول الميلادي ، وهو عهد كتابة الأناجيل الضالة المحَرَّفة المبتدعة وكُتَّابُها لا يمتون إلى المسيح بصلة ، وهي عبارة عن اجتهاداتٍ وأقوال لا تمت لوحي الله بصلة .

أما الطور الرابع : وهو أخطر أطوار النصرانية ـ يسمَّى بمجتمع نيقية سنة ٣٢٥م ، وهذا هو أول مجتمعٍ للنَّصارى ، وقد جُمِعَ فيه حوالي ٣٠٠ من كبار القساوسة في العالم حتَّى يختاروا الأناجيل الأربعة بصورة مضحكة جدًا ، حيث وضعوا كل هذه الأناجيل تحت طاولة ، وقالوا : إن هذه الطاولة اسمها طاولة العشاء المقدَّس ، وقالوا : الأناجيل التي تقفز فوق سطح الطاولة تكون هي الصحيحة .

تصور.. كيف تُقَرَّر عقيدة بهذا الشكل ؟! هذا هو تاريخهم !! ويقولون: إنه قد قفزت أربعة أناجيل فوق الطاولة ! كيف؟ لا ندري .

ولكنهم يقولون هذا . وهذه الأناجيل هي الأربعة السابق ذكرها ، ثم أصدر الملك قسطنطين فَرَمَانًا بحرق باقي الأناجيل ، وإعدام كل من يعتنق غير ما في هذه الأربعة أناجيل .

وهذه الأناجيل الأربعة تعتبر بمثابة القطب والعماد في النصرانية ، وهي

الذي تمثل كُلَّ معتقدهم ؛ وسوف نلقي نظرة مبسطة على هذه الأناجيل .

أولهم إنجيل متى :

يوصف بأنه يشغل المكانة الأولى بين الأناجيل الأربعة في ترتيب كتب العهد القديم ، وكُتِبَ ليُعْرف بأن عيسى عليه السلام يكمل تاريخ بني إسرائيل ، كما يقول « موريس بوكاي » في كتابه القيم (التوراة والإنجيل والقرآن والعلم) : لذلك فقد كتب متَّى إنجيله بالعبرانية ليبشر اليهود بالمسيحية ، أما عن تاريخ إنجيل متى ، ومدى صحة نسبة الإنجيل حتى إلى متى (حتى إنه يوجد شك في كون هذا الإنجيل منسوبًا إلى متى ، وليس لعيسى عليه السلام ، ولاحظ قوله [كَتَبَ متَّى] دليل أن الكاتب هو متَّى ، وليس عيسى عليه السلام ، ولم يُمْل عيسى عليه السلام متَّى ؛ كما كان النبيُّ ﷺ يملي أصحابه .

فإن بعض العلماء والنقاد يميلون إلى القول بأن هذا الإنجيل من تأليف أتباع متى ، وأكثر العلماء يرجعون به بين الفترة ما بين عامي (٨٥ ، ٩٠) .

ويقرر هذه الحقيقة كذلك الكاهن جيمس كلسن ؛ فيقولُ : إن التعاليم القديمة تعزو هذا الإنجيل إلى الحواري متَّى (الحواري : أي من تلاميذ عيسى عليه السلام) هذا ما يقوله الناس ، لكن العلماء في عصرنا الحاضر يرفض معظمهم وجهة النظر هذه . هذا كلام علمائهم .

وربما استند كلسن في رأيه إلى ما رواه بعض الباحثين المسيحيين الذين قالوا : إن الجزء الذي ألَّفه متَّى الحواري قد ضاع في زمانه ، أما الذي هو موجود الآن فلم يصرح متَّى بأنه قد ألَّفه . ولو صَرَّحَ بأنه قد ألَّفَه ؛ فهل هذا يدلُّ على أن هذا الإنجيل وحيٌ من عند الله ؟!

لذلك تساءل الشيخ (أحمد ديدات) قائلًا: فإذا لم ينسب هذا الكتاب إلى متَّى ، فكيف نقبله كلامًا لله ؟ وهو يستند إلى رأي عالم اللاهوت الشهير فيلبيس ؛ حيث قال : لقد اعتمد الكاتب (يقصد كاتب إنجيل متى) على المصادر الغامضة التي ربما كانت مجموعة من التراث الشفهي .. إلخ .

الإنجيل الثاني : إنجيل مرقص :

ومن الثابت تاريخيًا أن مرقصًا لم ير المسيح عليه السلام ! ويكفي هذا .

يقول عبد الله الترجمان ، الذي كان نصرانيًّا كبيرًا ، ثم شَرَحَ الله صدره ، فأسلم وألَّف كتابًا فنَّد فيه عقيدة النَّصارى ، وسمَّى نفسه عبد الله الترجمان . وكتابه هذا رائع جدًّا ، وأنصح كلَّ طالب علم يجد هذا الكتاب أن يقوم بدراسته ، وهو «تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب» .

يقول : أما مرقص فلم ير عيسى عليه السلام قط ، وكان تَنَصُّرُهُ على يد بطرس الحواري . واختلف الباحثون حول إنجيل مرقص ؛ فمنهم من قال : إن كاتبه هو بطرس رئيس الحواريين ، ويقول : لا ندري تحديدًا من كاتب هذا الإنجيل ، هل هو بطرس أم مرقص ؟!

يقول « كولمان» ــ من علماء النصارى : إن مخطوطات يونانية أكثر حداثة ، وبعض النصوص أضافت إلى هذا القسم خلاصة رؤى ليست لمرقص ؛ بل هي مأخوذة من أناجيل أخرى .

ويرى الأب كينغر أنه بعد انتشار الكتابات المتقاربة لمتَّى ولُوقا ويوحنا ، خلص العلماء لنتيجة هامة من مرقص ، وهي أنه يأخذ المواد من يمين وشمال من الإنجيلين الآخرين ، و يتضح من هذا الحرية التي

كان يمارس بها الأسلوب الأدبي للسرد الإنجيلي حتى بداية القرن الثاني .

هذا كلام أعلامهم !!

وعندئذ يعلِّق موريس بوكاي ـ العالم الفرنسي الشهير ـ ويقول : « يا له من اعتراف لا عوج فيه على وجود الممارسات البشرية في نصوص الكتابات المقدسة !!».

الإنجيل الثالث : إنجيل لوقا :

اتفق المؤرخون والباحثون المحدثون على أن لوقا لم يدرك عيسى ولا رآه أبدًا إنما تَنَصَّرَ بعد رفع عيسى ، وكان ممن تَنَصَّرَ على يد بولس الذي لم يدركه هو الآخر ، وبمراجعة الصفحات الأولى لإنجيل لوقا يتضح أنه يروي عن آخرين ، بينما لم يكن هو من الشهود المعاينين ؛ فقد قال ما يأتي : إذا كان كثيرون قد أخذوا في ترتيب قصص الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إليهم الذين كانوا معاينين منذ البدء ، وخادمين للكلمة ، رأيت أنا أيضًا ـ بعد أن أدركت جميع الأشياء من الأول بتدقيق ـ أن أكتبها لك بحسن ترتيبها أيها العزيز نقولس .

أرى أنه جَمَّعَ ثم صاغ بطريقته في إنجيله . يعلق موريس بُوكاي على ذلك ؛ ويقول : « وهذا مثل رهيب من كثير من الأمثال على أن الإنْجِيلِيِّينَ كانوا يقوِّلون عن المسيح ما يرونه مناسبًا لآرائهم الشخصية ؛ فيقدِّمون لنا بحسن نية أكيدة وبقناعة شخصية من كلمات المسيح النص الذي يتفق مع وجهة نظر الطائفة التي ينتمون إليها» .

الإنجيل الرابع : إنجيل يوحنا :

يصف الشيخ أبو زهرة رحمه الله الإنجيل بقوله : ولهذا الإنجيل شأن

وخطر أكثر من غيره في نظر الباحث ؛ لأنه الإنجيل الذي تضمنت فقراته ذكرٌ صريحٌ لألوهية عيسى ﷺ ، وكان الرأي المعتبر في العصور الماضية هو اعتبار يوحنا ابن خالة عيسى ، ويزعم النصارى أن عيسى حضر في عُرْسِ يوحنا ، وإنه حَوَّلَ الماء خمرًا في هذا العُرْسِ ، وهذه أول معجزة لعيسى ، وأن يوحنا لما رأى ذلك ترك زوجته وتبع عيسى على دينه ، وفي سياحته في الأرض .

ولكنَّ هذا الرأي لم يعد مُسَلَّمًا به في العصر الحديث بعد إجراء الأبحاث والدراسات في الكتب المقدَّسة ، حيث صَحَّحَت كثيرًا من المعتقدات الخاطئة ، وبدأ البعض يسأل من هو الكاتب ، واختلفت الآراء حول من كتب إنجيل يوحنا .

يقول « موريس بوكاي » : أما عن إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك أنه كتابٌ مُزَوَّرٌ ادَّعى صَاحِبُهُ أن هذا الكتاب المزوَّر هو للحواري «يوحنا الصياد» الذي كان يحبه عيسى ﷺ ، فأخذت الكنيسة هذه الجملة على عِلَّاتها ، وجزمت أن الكتاب هو يوحنا الحواري ، وكتبت ذلك على الكتاب نصًا مع أن صاحبه يختلف عن يوحنا الذي كان من الحواريين ، ولا يخرج هذا الكتاب عن كونه مثل بعض كتب التوراة التي لا رابطة بينها وبين من نسبت إليه .

أما إنجيل برنابا : فهو إنجيل غير معترف به ؛ لأن برنابا هو الذي فَضَحَ بولس اليهودي المتنصِّر ، وبيَّنَ مما أدخله على النصرانية من كفرٍ وضلالٍ ، وبيَّنَ أنه جاء ليحذِّر النَّصارى من هذا الدس الخطير ؛ يقول :

« وهو السبب الذي لأجله أسطر هذا الحق الذي رأيته وسمعته أثناء معاشرتي لليسوع لكي تخلصوا ولا يضلكم الشيطان فتهلكوا في دينونة الله ، وعليه فاحذروا ، فكل شخص يبشركم بتعليم جديد مضاد لما أكتبه ، احذروا منه لتخلصوا خلاصًا أبديًا .

وكان إنجيل برنابا أكثر اتساقًا في عرض الحقيقة الألوهية مع شريعة عيسى عليه السلام ، وما جاءت به التوراة وكان برنابا شاهد صدق على أن عيسى عليه السلام جاء متممًا للنَّاموس ، أي الذي جاء به موسى عليه السلام ، وليس ناقضًا له ؛ وبذلك يكون قد اسْتُبْعِدَ ؛ لأنه نَادَى بألوهية الله وبنبوَّة عيسى عليه السلام وبالتالي بعد هذا يتضح لنا أنه لم يسلم إنجيل من أوجه الطعن والتشكيك والاتهام !

أما عن المضمون فهو سيءٌ جدًّا جدًّا .

ونستشهد فقط بعبارة « برنارد شو » : « الكتاب المقدس من أخطر الكتب الموجودة على ظهر الأرض احفظوه في خزانة مغلقة بالمفتاح !! ».

وذكر أحمد ديدات للقس سواجرت : أن هيئة الرقابة بحكومة جنوب إفريقيا قد أصدرت أمرًا بحظْرِ تداول عدة صفحات من الكتاب المقدس دون أن تدري أنه جزء من سفر حزقيال من الإصحاح الثالث والعشرين .

ويحكي العقَّاد عن إحدى القصص الجنسية الفاضحة التي رفضتها الرقابة الأمريكية بحجة إفساد الأخلاقيات العامة ، فاحتكم المحامي للكتاب المقدَّس الذي يحتوي على قصص مخجلة ومهينة للإنسان ، وقال : كيف تضعون كتابًا مثل هذا في أيدي الأطفال والفتيان ، بينما الرواية

ليست كتابًا مقدسًا ، ولا يمكن أن تكون منتشرة مثله كي تصادرونها ؟ فإما أن تفرجوا عن الرواية أو تصادروا الكتاب المقدَّس ، فأفْرَجُوا عن الرواية!!

والمناظرة التي كانت بين ديدات وسواجرت فيها عبارة تقول : إن قراءة قصص الكتاب المقدَّس للأطفال يفتح الباب لغرض مناقشة العبرة وراء الجنس ، وإن الكتاب المقدَّس إذا لم يهَذَّبْ ويُنَقَّح قد تعتبره مجالس الرقابة صالحًا للكبار فقط ممن جاوزوا الثامنة عشرة من العمر .

بعد هذا المختصر الشديد جدًّا ، لك أن ترفع رأسك أن كتابك هو القرآن ، وأنَّ نبيَّك هو محمد ﷺ ، مع أننا نؤمن بنبيِّ الله عيسى ؑ لا نفرِّق بينه وبين كل النبيِّين بما فيهم المصطفى ﷺ .

أما عن التحريف الموجود فيه ؛ فنبينه من خلال أصل معتقدهم الذي بَيَّنَهُ كتاب الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ يقول الله سبحانه : ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة : ٧٣] .

فمعتقد النصارى : التثليث .

فهم يزعمون أن الله ـ تعالى عما يقولون ـ له ثلاث حالات ، وتسمَّى عندهم الأقانيم .

فالله عندهم ثلاثة ، وهم :

الأول : الإله : الآب له خصائص اللاهوت ـ الإلهية.

الثاني : الإله : الابن له خصائص الناسوت ـ البشرية.

الثالث : رُوحُ القدس : له خصائص الازدواجية بين اللاهوت

والناسوت ، أي بين الإلهية والبشرية ، وهو الروح التي حلَّت في مريم عليها السلام !!!

وكل طوائف النصرانية تؤمن بهذا التثليث ، وبالتالي فمَنْ قال بالتثليث فهو من أكْفَرِ أهل الأرض ؛ كما أنه من قال بأن المسيح عليه السلام إله ؛ فهو كافر بنص القرآن : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : ٧٢] .

ومَنْ قال من النَّصارى بأنه يكفر بالتثليث ، ويعتقد أن الله واحد لا شريك له ، وبأن محمدًا ﷺ هو عبد الله ورسوله ؛ فهو من أهل الجنان بموعود رب العالمين ، قال تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة : ٨٢ ـ ٨٣]

أما عن سبب نزولها ؛ فقد نزلت في النجاشي وأصحابه ، ذلك الملك العادل الذي قال عنه النبيُّ ﷺ عندما أمر بالهجرة للحبشة : « إِنَّ بِهَا مَلِكًا لاَ يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ »[1] .

وعلى ذلك فمن مات كافرًا بالتثليث ومؤمنًا بوحدانية الله وبرسوله ﷺ فهو على الحق المبين ، يقول النبيُّ ﷺ ؛ كما في حديث عبادة بن

---

(١) مرَّ قريبًا ؛ وهو حديث حسن .

الصامت[١] ﷺ : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ، وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ ، وَالنَّارُ حَقٌّ ، أَدْخَلَهُ الله الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ ».

وفي رواية عتبان بن مالك[٢] : « فَإِنَّ الله حَرَّمَ عَلَى النَّار مَنْ قَالَ : لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله يَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ الله » .

ونحن نأمر المؤمنين بالإيمان بالإنجيل الذي نزَّله الله على عيسى ، وبالتوراة التي نَزَّلَهَا الله على موسى ، وبجميع الأنبياء والمرسلين ، وأن يؤمنوا كذلك بالقرآن وبسيد النبيين ﷺ .

ونسأل الله أن يثبتنا على الحق حتى نلقاه .

ونكتفي بهذا القدر حول التحريف .

*****

---

(١) أخرجه البخاري ، كتاب الأنبياء (٣٤٣٥) ، باب قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ﴾ [المائدة:٧٧] ومسلم كتاب الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٢٨، ٤٦) .

(٢) هذا جزء من حديث عتبان بن مالك ؛ أخرجه البخاريُّ في كتاب الصلاة ، باب المساجد في البيوت ، وصلى البراء بن عازب في مسجده في داره جماعة (٤٢٥) ، وانظر أطرافه في (٤٢٤) ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا (٣٣) ، وفي كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب الرخصة في التخلف عن الصلاة بعذر (٢٦٣) .

القرآن وحفظ الله له

لقد تولَّى اللهُ حفظ القرآن الكريم ، فلم تُستبدل منه آية ، ولم تتغير منه كلمة ، ولم يُحْذَف منه حرف ، وجعل الله القرآن معجزة النبيِّ ﷺ الخالدة التي سيظل التحدي بها قائمًا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وإذا أردنا أن نُبين أن هذا القرآن حقٌّ من عند الله ، فعلينا أن نبحث في موضوعين كبيرين :

الأول : صحة السند .

الثاني : الاتساق الذاتي لموضوعات هذا الكتاب الكريم .

بيَّنا أن اتصال السند من حيث الكتابة لا أصل له البتة ؛ لا في التوراة ولا في الإنجيل ؛ فضلاً عن عدم وجود الاتساق الذاتي ؛ كما ضربت مثالاً ببعض الفقرات الفاضحة التي لا ينبغي أن تكون إلا في بطون الكتب الخليعة .

ومن المعلوم بداهة أن الكتابة لا يمكن أن تكون إلا بمثابة المرحلة الثانية من مراحل الحفظ ؛ أي أن النبي ﷺ يتنزل عليه الوحي فيحفظ ويستوعب ، ويجمع كُتَّاب الوحي من الصحابة فيملي عليهم ما أملاه عليه جبريل عن ربِّ العزة ـ جَلَّ وَعَلا ـ هذا هو اتصال السند .

أما عن الاتساق الرائع في كتاب الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ فنحن نتحدى أبلغَ بُلغاء أهل الأرض ، وأفصح فصحاء الدنيا بما آتاهم الله من علمٍ حديثٍ أن يُظهروا خللاً واحدًا من ناحية السند أو من ناحية المتن .

فقد تحدَّى الله ﷻ بكتابه البشرية ، وسيظلُّ التحدي قائمًا إلى أن يرث

الله الأرض ومن عليها !!!!

وقبل أن أشْرَعَ في الحديث عن اتصالِ السندِ وعن الاتساق الموضوعي والدقة المُحْكَمة لكلمات وآيات القرآن ، وكيف أن القرآن قد احتوى على الإعجازِ العلمي ، والإعجاز البلاغي ، والإعجاز الفكري ، والإعجاز التشريعي ؛ فالقرآن كلُّه إعجاز ، وقد آن لمن مَنَّ الله عليه بالإسلام أن تعانق رأسُه كواكبَ الجوزاء ؛ ليفخر بأنه من الموحدين ، وأنه من أمة سيد النبيين ، وأن كتابه هو القرآن الكريم ؛ قبل كلِّ ذلك أستهلُّ بهذه المقدمة الموجزة عن القرآن الكريم .

القرآن لغةً : هو مصدر مرادف لمعنى القراءة ؛ ومنه قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾[القيامة : ١٧، ١٨] .

ثم نُقل من هذا المعنى المصدري ، وجُعل اسمًا للكلام المعجز الذي نزَّله الله على قلب محمد ﷺ المتعبد بتلاوته ، المتحدَّى بأقصر سورة منه ، من باب إطلاق المصدر على مفعوله ، كما يقول علماء اللغة .

قال الزركشيُّ في « البرهان »[١] : « وأما القرآن ؛ فقد اختلفوا فيه ؛ فقيل : هو اسم غير مشتق من شيء ، بل هو اسم خاص بكلام الله ، وقيل : مشتق من القَرْي ، وهو الجمع ، ومنه قَرَيْتُ الماء في الحوض أي جمعته . قاله الجوهري وغيره »[٢] .

وقال الرَّاغب : لا يقال لكل جمع . قرآن . ولا لجمع كل كلام : قرآن ،

---

(١) « البرهان » (١/ ٢٧٧) .

(٢) « لسان العرب » مادة (قرأ) . و « الصحاح » للجوهري .

ولعل مراده بذلك في العرف والاستعمال لا أصل اللغة .

وقال الهروي : كل شيء جمعته فقد قرأته .

قال أبو عبيد : سمِّيَ القرآن قرآنًا ؛ لأنه جمع السور بعضها إلى بعض .

وقال الراغب : سمِّيَ قرآنًا لكونه جمع ثمرات الكتب المنزلة السابقة .

وقيل : لأنه جمع أنواع العلوم كلها بمعان ؛ كما قال سبحانه : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

وقال بعض المتأخرين : « لا يكون القرآن وقرأ مادته بمعنى جمع ؛ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٧] فغاير بينهما ، وإنما مادته (قرأ) بمعنى أظهر وبيَّنَ ، والقاري يظهر القرآن ويخرجه » .

أما أسماء القرآن ؛ فكثيرة ، ولكني أعترف بأن بعض شيوخنا وعلمائنا ـ رحمهم الله تعالى ـ قد بالغوا في ذكر أسماء كثيرة للقرآن ، فخلطوا بين الاسم والوصف ؛ فعلى سبيل المثال : ذكر الإمام الزركشي في كتاب «البرهان» خمسة وخمسين اسمًا للقرآن ، وذكر الإمام ابن القيم في «التبيان» أكثر من تسعين اسمًا للقرآن ، فلمَّا دققت في الأسماء وجدت دمجًا بين الاسم والوصف .

فعند الوقوف عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة : ٧٧] ذكر بعض شيوخنا أن من أسماء القرآن : كريم .

وكما هو واضح ومعلوم أن « كريم » صفة للقرآن وليس اسمًا ، وكذلك ـ مثلاً ـ قول الله : ﴿ وَهَـٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَـٰهُ ﴾ [الأنبياء: ٥٠] .

قال بعض أهل العلم : إن من أسماء القرآن « ذكر ومبارك » ، ومن المعروف أن « مبارك » ، وصف لذكر ... وهكذا .

ومن أشهر الأسماء الدقيقة للقرآن : القرآن ؛ قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، وقال سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ [الواقعة : ٧٧] فهذا أشهر أسمائه .

والفرقان ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

والكتاب ؛ لقوله ﷻ : ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ﴾ [البقرة :١] .

والذكر ؛ كما في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر :٩] ، وقال سبحانه : ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ [الأنبياء : ٥٠] .

والتنزيل ؛ كما في قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء:١٩٢] .
وهذه أشهر أسماء القرآن الدقيقة (١) .

عدد سوره ١١٤ سورة ؛ وهذا قول جمهور أهل العلم ، ومنهم من قال (١١٣ سورة) على اعتبار أن سورة براءة متممة لسورة الأنفال ، فمن قال (١١٤ سورة) فرَّق بين سورة براءة والأنفال ، ومن قال: (١١٣) لم يفرق بينهما ، واستدلوا بأنه لم يفصل بين السورتين بالبسملة ؛ كما هو الشأن في بقية سور القرآن .

---

(١) انظر : «البرهان في علوم القرآن» للزركشي (١ / ٢٧٣) وما بعدها ، و«الإتقان في علوم القرآن» للسيوطي (٦٩) .

ولكن الراجح أن سورة براءة سورة مستقلة ، وكذلك سورة الأنفال ولم يفصل بينهما بالبسملة ؛ لأن سورة براءة نزلت بالسيف ـ هذا هو قول جمهور المفسرين ، فلم يكن من الحكمة أن تستفتح السورة التي نزلت بالوعيد والبراءة من المشركين بالبسملة .. بالرحمة . هذا من أروع ما قيل في عدم بدئها بالبسملة ، ومنهم من قال : لأنها متممة لسورة الأنفال [(١)].

أما عدد الآيات فمختلف فيه .

قال السيوطي [(٢)] رحمه الله : « قال الداني : أجمعوا على أن عدد آيات القرآن ستة آلاف آية ، ثم اختلفوا فيما زاد على ذلك ، فمنهم من لم يزد ، ومنهم من قال : ومئتا آية وأربع آيات ، وقيل : وأربع عشرة ، وقيل : وتسع عشرة ، وقيل : وخمس وعشرون ، وقيل : وست وثلاثون » .

والذي يبدو أن عدد آياته ٦٢٣٦ وهو قول الجمهور .

عدد الكلمات ٧٧٩٣٤ كلمة . وقيل : ٧٧٤٣٧ ، وقيل : ٧٧٢٧٧ .

وقيل غير ذلك .

قال الإمام السيوطيُّ [(٣)] : وسبب الاختلاف في عدِّ الكلمات : أن الكلمة لها حقيقة ومجاز ، ولفظ ورسم ، واعتبار كل منها جائز .

وعدد الحروف ٣٢٣٦٧١ حرفًا .

---

(١) انظر : « البرهان في علوم القرآن » (١/ ٢٤٩) وما بعدها ، و « الإتقان » (٨٩) .

(٢) « الإتقان » (٩٢) ، و « البرهان » (١/ ٢٤٩) وانظر : سبب اختلاف العلماء في عد الآي فيهما .

(٣) « الإتقان » (٩٦) ، و« البرهان » (١/ ٢٤٩) وما بعدها.

لغة القرآن :

هي اللغة العربية ـ ولله الحمد والمنة ـ فهي اللغة التي نزل بها القرآن ، وهي اللغة التي تكلَّم بها النبيُّ ﷺ ، قال تعالى : ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾ [الزمر : ٢٨] ، وقال تعالى : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٥] .

فاللغة التي تكلَّم بها المصطفى ﷺ هي اللغة العربية ، وهي التي نزل بها القرآن ، وهي التي كتب بها القرآن في عهد النبي ﷺ ، وما أحوج الأمة إلى أن تعود من جديد إلى هذه اللغة ، فقد يسَّر الله تعالى لغة القرآن ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧] .

ولكن بكلِّ أسف أهملت اللغة ، وضاعت بين العرب أهلِ اللغة ! ؛ بل إننا نرى كثيرًا ممن يتصدر للدعوة إلى الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ لا يتقن اللغة ؛ بل تسمع العجب العجاب من اللحن المستبشع ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

محتويات القرآن :

قسَّم علماؤنا القرآن إلى أربعة أقسام :

١ ـ الطوال . ٢ ـ المئون .

٣ ـ المثاني . ٤ ـ المفصل .

السبع الطوال : أولها البقرة ولا خلاف ، وهناك خلاف في نهايتها ، قال مجاهد وسعيد بن جبير[1]: السبع الطوال (البقرة وآل عمران والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ، ويونس) وسميت كذلك ؛

(١) أخرجه أبو عبيد في « فضائل القرآن » (ص ١٢٠) ، والطبري في « التفسير» (لسورة الحجر / ٨٧) ، وانظر : تفسير ابن كثير » (٢/ ٤٥ ط ابن الجوزي) (لسورة البقرة / ذكر ما ورد في فضل السبع الطوال) .

لأن السورة تزيد عن المائة آية .

والقسم الثاني هو المثون :لأن كلَّ سورةٍ تزيد عن مائة آية أو تقارب ذلك ، وهي من أول يونس أو أول هود على اعتبار سورة براءة والأنفال إلى آخر سورة السجدة .

القسم الثالث : المثاني .

قال السيوطي : سمِّيت بالمثاني ؛ لأنها ثنتها ، أي : جاءت الثانية لقسم المثين . أقول لك مثلاً هذا الأول وثَنِ بكذا أي وَلِيهُ ، وهي السور التي تقل آياتها عن مائة آية .

القسم الرابع : هو المفصل . وهو قصار السور ، وهناك خلاف على بدايته ، والراجح [١] أن أوله سورة «ق» إلى آخر سورة «الناس» ، وسُمِّي بذلك ؛ لكثرة الفصول التي بين السور بالبسملة . وقيل : لقلة المنسوخ منه [٢].

وبعد هذه المقدمة عن القرآن الكريم نتعرف على :

اتصال السند:

هذا السند الذي يجب على الأمة أن تعتز به اعتزازًا كبيرًا ؛ حيث أننا لم نر كتابًا من الكتب التي سبقت القرآن متصلَ السند لا من ناحية الكتابة ولا من ناحية الحفظ .

والمشهور عند العلماء أن القرآن مرَّ بمرحلتين :

---

(١) وقد رجَّح هذا القول الحافظ ابن كثير في « تفسيره » لسورة (ق) .

(٢) «الإتقان» للسيوطي (٨٧) و « البرهان » للزركشي (١ / ٢٤٤) وما بعدها .

المرحلة الأولى : نزوله دُفعة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ؛ يقول تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : ٢١، ٢٢]

فالآيتان الكريمتان تشيران إلى أن القرآن الكريم كان موجودًا في اللوح المحفوظ ، وكان هذا التنزيل منه إلى بيت العزة في السماء الدنيا في شهر رمضان في ليلة القدر التي وصفها الله بأنها خير من ألف شهر ؛ كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر : ١-٣] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ [الدخان : ٣] .

المرحلة الثانية : نزول القرآن منجّمًا (أي مفرقًا) على قلب المصطفي ﷺ من السماء الدنيا بحسب الحوادث والأحوال .

قال تعالى : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٠٦] . ومُكْثٍ : أي مهل .

وذكر الإمام الزُرقاني في كتابه « مناهل العرفان » : أن القرآن نزل على ثلاث مراحل ؛ قال : المرحلة الأولى : هي مرحلة اللوح المحفوظ ، والمرحلة الثانية : هي التنزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، والتنزل الثالث على قلب سيدنا محمد ﷺ ، وأعتقد أنه لا خلاف بين هذا التقسيم والتقسيم السابق [١] .

---

(١) «الإتقان» (٥٥) وما بعدها . و « البرهان » (١ / ٢٢٨) وما بعدها . و « مناهل العرفان » (١ / ٣٢) وما بعدها .

أخرج النسائي والحاكم والبيهقي [(١)] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا ليلة القدر ، ثم أنزل بعد ذلك في عشرين سنة » ، ثم قرأ : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان : ٣٣] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٠٦] .

وروى البخاريُّ [(٢)] عن عائشةَ وابن عباس رضي الله عنهم قالا : «لَبِثَ النَّبيُّ ﷺ بِمَكَّةَ عَشْرَ سِنِينَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ القُرآنُ ، وَبِالْمَدِينَةِ عَشْرَ سِنِيْنَ» .

فنصُّ رواية البخاري أن الله أنزل القرآن على نبيه ﷺ في عشرين سنة .

وهناك لأهل العلم قول آخر ، ولكني أُثبتُ وأَكْتَفِي برواية البخاري الصريحة في هذا الباب ؛ والله أعلم [(٣)] .

نزول القرآن على سبعة أحرف :

روى البخاريُّ ومسلم في [(٤)] «صحيحيهما» عن ابن عباس رضي الله عنهما أن

---

(١) أخرجه النسائيُّ في « الكبرى» (١١٦٨٩) وهو في تفسيره » (٧٠٩) ، والطبريُّ في تفسيره » (٢٢٧٧٨) ، وابن أبي حاتم في « تفسيره » كما في «الدر المنثور » (٤ / ٣٧١) ، والحاكم في «مستدركه» (٢/ ٢٢٢ ، ٥٣٠) ، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٧/ ١٣١) .

قال الحاكم : « هذا حديث صحيح على شرطها ولم يخرجاه » .

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب المغازي ، باب وفاة النبي ﷺ برقم (٤٤٦٤ ، ٤٤٦٥) وفي كتاب فضائل القرآن ، باب كيف نزل الوحي ، وأول ما نزل برقم (٤٩٧٨ ، ٤٩٧٩) .

وقد روى البخاريُّ عن ابن عباس قال : أُنزِلَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ ابْنُ أَرْبَعِينَ ، فَمَكَثَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً ، ثُمَّ أُمِرَ بِالهِجْرَةِ ، فَهَاجَرَ إِلَى المَدِيْنَةِ ، فَمَكَثَ بِهَا عَشْرَ سِنِيْنَ ثُمَّ تُوُفِّيَ ﷺ » كتاب مناقب الأنصار باب مبعث النبي ﷺ (٣٨٥١).

(٣) انظر : « فتح الباري » (٨/ ٦٢٠ـ ٦٢١) .

(٤) أخرجه البخاريُّ في كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم برقم (٣٢١٩) ، وفي كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف ، برقم (٤٩٩١) ، ومسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه (٨١٩) .

رسولَ الله ﷺ قَالَ : «أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَلَى حَرْفٍ فَرَاجَعْتُهُ فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ وَيَزِيدُنِي حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ».

وهذه رحمة من الله لهذه الأمة .

وروى البخاريُّ ومسلم [(١)] كذلك عن عبد الرحمن بن عبد القاري أنه قال : سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ يَقُولُ سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ الله ﷺ فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِهِ ، فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يُقْرِئْنِيهَا رَسُولُ الله ﷺ ، فَكِدْتُ أُسَاوِرُهُ فِي الصَّلاَةِ فَتَصَبَّرْتُ حَتَّى سَلَّمَ فَلَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ فَقُلْتُ : مَنْ أَقْرَأَكَ هَذِهِ السُّورَةَ الَّتِي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ؟ قَالَ : أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ الله ﷺ فَقُلْتُ : كَذَبْتَ فَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَدْ أَقْرَأَنِيهَا عَلَى غَيْرِ مَا قَرَأْتَ ، فَانْطَلَقْتُ بِهِ أَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقُلْتُ : إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ بِسُورَةِ الْفُرْقَانِ عَلَى حُرُوفٍ لَمْ تُقْرِئْنِيهَا ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « أَرْسِلْهُ ، اقْرَأْ يَا هِشَامُ ». فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ ؛ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ « كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ ». ثُمَّ قَالَ : « اقْرَأْ يَا عُمَرُ ». فَقَرَأْتُ الْقِرَاءَةَ الَّتِي أَقْرَأَنِي . فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ ، فَاقْرَؤُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ».

واختلف في تأويل نزول القرآن على سبعة أحرف على نحو أربعين

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل القرآن ، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف (٤٩٩٢) ، وأطرافه في رقم (٢٤١٩) ، ومسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه (٨١٨) .

قولاً ؛ كما قال السيوطيُّ رحمه الله [(١)] .

وقال الزركشيُّ : قال أبو حاتم ابن حبان البُسْتيُّ : اختلف الناس فيها على خمس وثلاثين قولاً [(٢)] .

عَرْضُ القرآنِ على النبيِّ ﷺ :

قال البخاريُّ باب : كان جبريل يعرض القرآن على النبيِّ ﷺ .

ثم روى [(٣)] في هذا الباب حديثًا عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ أنها قالت : « أَسَرَّ إِلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً ، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ وَلاَ أُرَاهُ إِلاَّ حَضَرَ أَجَلِي » .

وهذا الحديث دليلٌ على أن القرآن كلَّه مما هو موجودٌ عليه الآن كان موجودًا بنفس الترتيب والتوقيف أيام النبيِّ ﷺ ؛ لأن جبريل كان ينزل على الرسول ﷺ ، ويقول له : اجعل سورة كذا مع سورة كذا ، والآية كذا مع كذا ، يقول جبريلُ للنبيِّ ﷺ بوحي من الله ، ثم يقول النبيُّ ﷺ لكتبة الوحي فيكتبون وهكذا ، فالقرآن بسورِهِ وآياته توقيفيٌّ على النبيِّ ﷺ ؛ فكيف يترك النبيُّ ﷺ القرآن وهو معجزتُه الأولى ؟! فسورُ القرآن وآياتُه توقيفية على النبيِّ ﷺ .

فالعام الذي قُبِضَ فيه المصطفى ﷺ عارَضَ جبريلُ النبيَّ ﷺ مرتين ، أي : أن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن على جبريل في كل عام مرة ، وفي العام

---

(١) « الإتقان » (٦٣) .

(٢) « البرهان » (١/ ٢١٢) وراجع «فتح الباري» (٨/ ٦٤٢) وما بعدها .

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام برقم (٣٦٢٤) ، وانظر إلى أطرافه هناك .

الذي قُبِضَ فيه قرأه مرتين ، وكان النبيُّ ﷺ أميًا لا يقرأ ولا يكتب ، ولذا كان جبريل ينزل بالقرآن على النبيِّ ﷺ فيحفظ النبيُّ ﷺ القرآن عن ظهر قلب ، وربنا سبحانه وتعالى وعد النبيَّ ﷺ بأنه لن ينسى آية من كتاب الله ، ووعده بأن يجمع له القرآن في صدره ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٧-١٩] . أي : قرأناه على لسان جبريل .

قال ابنُ كثير [(١)]: « أي : إذا تلاه عليك الملك عن الله تعالى » .

وسوف نوضحه ونفسره ونبينه لك ، فالنبيُّ ﷺ كان يحفظ الآياتِ عن ظهر قلب ، ويجمع كُتَّابَ الوحيِ من الصحب الكرام ، كلما نزل عليه شيءٌ من القرآن ، أملى عليهم مما حفظه في قلبه فيكتبون ، ومنهم : أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية وغيرهم .

وكان النبيُّ ﷺ يدل الصحابة على موضع الآيات في سورة وعلى موضع السورة من السور .

فعن زيد بن ثابت قال : «كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ نُؤَلِّفُ الْقُرْآنَ مِنَ الرِّقَاعِ» [(٢)].

أي : نرتب .

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٤) لسورة القيامة / ١٨ .

(٢) أخرجه الترمذيُّ ، كتاب المناقب ، باب في فضل الشام واليمن (٣٩٥٤) وقال : « حديث غريب» ، وأحمد (٥/ ١٨٤)، وابن حبان (١١٤) ، والحاكم (٢/ ٢٤٩، ٦٦٨) وقال : « صحيح علي شرط الشيخين ولم يخرجاه » ، والطبراني في « المعجم الكبير » (٤٩٣٣) ، وابن أبي شيبة (٤/ ٢١٨) ، (٦/ ٤٠٩) ، والبيهقي في «الشعب» (٢٣١١) ، وصححه الألباني في «الترمذي» .

فالتأليف بمعنى الترتيب حسب توجيه النبيِّ ﷺ .

فإذَن ترتيب المصحف والآيات توقيفيٌّ على النبيِّ ﷺ .

ما هي الوسائل التي كان يكتبُ فيها أصحاب النبيِّ ﷺ آيات القرآن ؟

كان أصحابُ النبيِّ ﷺ يكتبون آيات القرآن على العُسب (أي جريد النخيل) ، واللِخاف (أي الحجارة الرقيقة) ، والرقاع (أي الجلود) وقطع الأديم (أي الجلد) ، وعظام الأكتاف والأضلاع [١] ، ثم يوضع ما كتب في بيت الرسول ﷺ ، فهذه أول بدايات السند الكتابي .

فمرحلةُ الكتابة في المصاحف لابد أن تسبقها مرحلةُ الحفظ والوعي ، إذن المرحلةُ الأولى هي حفظُ واستظهارُ القرآن في القلوب والصدور .

يقول الزُّرقانيُّ [٢] : « إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على خط المصاحف والكتب » .

وأنا أقول : الأدق والأصوب أن نقول : إنه يجب أن يُحفظَ القرآنُ في الصدور والسطور معًا ، فلا ثقة لنا في حفظِ حافظٍ للقرآن حتى يوافق حفظُه الرسمَ الكتابي الذي اتفق عليه أصحاب النبيِّ ﷺ ، ولا ثقة لنا في كتابة كاتب إلا إذا وافق ما أُجْمِعَ عليه في صدور أصحاب النبي ﷺ ؛ لأن كلمة الجمع يراد منها تارة الحفظ والاستظهار في الصدر ، ويراد منها تارة كتابة أحرف وكلمات القرآن .

*****

---

(١) سيأتي الحديث بذلك .

(٢) « مناهل العرفان » (١/ ١٦٩) نقله عن ابن الجوزي .

مراحل جمع القرآن

ولاشك أن مرحلة الجمع في القلوب والصدور مرَّت بعدة مراحل :

أولاً : جمعه في قلب النبيِّ ﷺ

والجمع هنا بمعنى الحفظ والاستظهار . ونزلت الآيات على النبيِّ ﷺ تحثه على التلاوة والقراءة وليس الكتابة لأنه نبيٌّ أميٌّ ، قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ ﴾ [الجمعة : ٢] .

ونزل قوله تعالى : ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل : ٤] .

فهذا أمرٌ بالترتيل ، فالنبيُّ ﷺ حَفَظَ عن جبريل ، وجبريل حَفَظَ عن ربِّ العزَّة ، وكانت هِمَّةُ النبيِّ ﷺ في أول الأمر أن يحفظ ، ثم كُتَّاب الوحي من الصحابة ﷺ .

يقول الشيخ الزرقانيُّ(١) : « نزل القرآن على النبي ﷺ فكانت همته بادئ ذي بدء منصرفة إلى أن يحفظ القرآن ويستظهره ، ثم يقرأه على الناس على مكث ليحفظوه ويستظهروه ، ضرورة أنه نبي أمي بُعث في الأميين ، ومن شأن الأمي أن يُعَوِّل على حافظته فيما يهمه أمره ، ويعنيه استحضاره وجمعه خصوصًا إذا أوتي من قوة الحفظ والاستظهار ما يُيسر له هذا الجمع والاستحضار ، وكذلك كانت الأمة العربية على عهد نزول القرآن وهي متمتعة بخصائص العروبة الكاملة التي منها سُرعة الحفظ وسيلان الأذهان ، حتى كانت قُلوبهم وعقولهم سِجلاتِ أنسابهم

---

(١) « مناهل العرفان » (١/ ١٦٧) وما بعدها بتصرف يسير .

وأيامهم ، وحوافظُهم دواوينَ أشعارهم ومفاخرهم ؛ حتى جاء القرآن فبهرهم بقوة بيانه وأخذ عليهم مشاعرهم بسطوة سلطانه ، واستأثر بكريم مواهبهم في لفظه ومعناه ، فخلعوا عليه حياتهم حين علموا أنه روح الحياة » .

يعلق دكتور دراز على هذه المعاني الرقراقة ؛ فيقول : تقرأ في القرآن ذاته أنه ليس من عمل صاحبه ، وإنما هو قول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثَمَّ أمين ، ذلكم هو جبريل تلقاه من لدن حكيم عليم ، ثم أنزله بلسان عربي مبين على قلب محمد الأمين ، فتلقنه محمد ﷺ كما يتلقن التلميذ عن أستاذه نصًا من النصوص ، ولم يكن للنبي ﷺ فيه عمل بعد ذلك ، إلا أن يعيه ويحفظه ثم يبلِّغه ويبينه ويفسِّره ، ثم يطبِّقه وينفِّذه ، ثم يدعو غيره إلى تطبيقه ، وتنفيذه ، فالآيات كما ذكرت نجد أنها تحث النبيَّ ﷺ على القراءة والترتيب والتبليغ : ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾[العلق : ١] أمرٌ بالقراءة ، ﴿ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ﴾[المزمل:٤] أمر بالترتيل ، وقال تعالى : ﴿ وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾[الكهف:٢٧] .

أمرٌ بالتلاوة . قراءة . ترتيل . تلاوة . بل إن الله وعد النبيَّ ﷺ بأنه لن ينسى آيةً من القرآن ، ووعده بأنه سيجمع له القرآن في صدره ، وأنه سيعلمه قراءة القرآن [1] ، قال تعالى : ﴿ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾[الأعلى :٦] .

---
(١) انظر : البخاري ، كتاب بدء الوحي ، باب (٤) حديث (٥) وانظر أطرافه هناك .

قد يقول قائل : فلقد ثبت أن النبيَّ ﷺ قد نسي يومًا في الصلاة [(١)]، فليس هناك تعارض بين النص والآية ، والنبيُّ ﷺ نُسِّيَ بأمر الله ، ليبين للأمة حكمًا شرعيًّا في كيفية رد المأموم على الإمام إن لُبِّسَتْ عليه القراءة ، وقد صلَّى النبيُّ ﷺ الظهر أو العصر - في رواية - ركعتين ، ولما أنهى الصَّلاة ، جلس على سلم المنبر مغضبًا ، وجلس الصحابة ، فسأله رجلٌ : « أَقَصُرَتِ الصَّلاَةُ أَمْ نَسِيتَ ؟ » [(٢)].

فالنبيُّ ﷺ وعده الله بعدم النسيان ، فالقرآن كلُّه في قلبه لن ينساه ، ولكن من الممكن أن ينسى في التلاوة ، نعم .. أمرٌ بشريٌّ يعتريه ما يعتري البشر ، ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٦ ، ١٧] .

أي : جَمْعه في صدره : وقرآنه بمعنى قراءته .

يقول الزرقانيُّ [(٣)] : بلغ من حرص النبيِّ ﷺ وشدة حبه لحفظ القرآن أنه كان يحرك به لسانه ، وهو في أشد حالات شدته ، وهو يعاني ما يعانيه

---

(١) روى أبو داود وغيره عن المسور بن يزيد الأسدي المالكي ، قال : شَهِدْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقْرَأُ فِي الصَّلاةِ فَتَرَكَ شَيْئًا لَمْ يَقْرَأْهُ ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : يا رسول الله ! تَرَكْتَ آيَةَ كَذَا وكَذَا ، فقال ﷺ : « هَلاَّ أَذْكَرْتَنِيهَا » ، وعن ابن عمر أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى صَلاةً فَقَرَأَ مِنها فَلُبِسَ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ لأُبَيٍّ : « أَصَلَّيْتَ مَعَنَا ؟ » قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : « فَمَا مَنَعَكَ ؟ » .

أخرجه أبو داود كتاب الصلاة باب الفتح على الإمام في الصلاة (٩٠٧) والبخاري في القرأة خلف الإمام (١٩٤) وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند (٤/ ٧٤) وابن خزيمة (١٦٤٨) وابن حبان (١/ ٣١٦) وصحَّحه الشيخ العلامة الألباني في « صحيح سنن أبي داود » .

(٢) قصة ذي اليدين ؛ أخرجها البخاريُّ ، كتاب الصلاة ، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره برقم (٤٨٢) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب السهو في الصلاة والسجود له ، برقم (٥٧٣) من حديث أبي هريرة .

(٣) « مناهل العرفان » (١/ ١٦٨) وما بعدها .

من الوحي ، فقد كان الوحي شديدًا على سيدنا محمد ﷺ حتى أنه كان يتصبب عرقًا في الأيام شديدة البرودة ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ [المزمل : ٥] .

فالوحي ثقيلٌ ، ففي هذه المعاناة كان الرسول ﷺ يحرك لسانه بسرعة ليحفظ عن جبريل عن رب العزة، يفعل النبيُّ ﷺ ذلك استعجالاً ليحفظ القرآن في صدره مخافة أن تفوته كلمة أو يُفلت منه حرف ، ومازال الرسول ﷺ كذلك حتى طمأنه الله بأنه سيجمع له القرآن في صدره ويسهل له قراءة لفظه وفهم معناه ؛ فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] .

إذًا جمع النبيُّ ﷺ القرآن في قلبه الطاهر ، وكان سيِّد الحفاظ في عصره ، ومرجع المسلمين في كل ما يعنيهم من أمور القرآن وغير القرآن ، وكان يُحيي الليل بالقرآن .

وكان جبريل يعاود النبيَّ ﷺ في كل عام مرة ، يقرأ النبيُّ ﷺ عليه القرآن ، وفي العام الذي توفِّي فيه ، قرأ النبيُّ ﷺ القرآن على جبريل مرتين ؛ كما سبق في حديث فاطمة رضي الله عنها .

إذن ؛ المرحلة الأولى: هي مرحلة جمع القرآن في صدر النبيِّ ﷺ ، ثم قام النبيُّ ﷺ ليبلغ القرآن لأصحابه .

ثانيًا : حفظ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ للقرآن .

وقبل أن نتكلَّم عن حفظ الصحابة ؛ أقول : من الأمور البديهية أن

العرب كانوا يعتمدون في نقل علومهم على الرواية والحفظ ، وهذا أمر مقرر بصفة خاصة عند دارسي الشعر والأدب والجاهلي ، فهل تصدق أن منهم من كان يحفظ المعلقة وهي لا تقل عن ألف بيت من الشعر إذا قُرئت أمامه مرة واحدة !! .

ولا تستعجب فإن أمامنا الآن من الآلات ما يحفظ ملايين الأبيات في لحظة .

والله ـ تعالى ـ الذي خلق الإنسان ليصنع هذه الآلات هو الذي وهبه العقل القادر على تصنيع هذه الآلات ، ولكن الإنسان دائمًا ينسى ، ويتعجب من حافظة الكمبيوتر التي تحفظ ملايين المعلومات ، ويتغافل عن أن الذي صنَّع هذا الجهاز أيضًا مِنْ خَلْقِ الله ؛ هو عقلك ، وقد وعد الله الإنسان بأن يحيط بشيء من علم الله بالقدر الذي يريده الله في الوقت الذي يريده الله .

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾[البقرة : ٢٥٥] .

نعم ؛ وكانوا لا يعتمدون إلا على هذه القرائح الصافية بسبب صفاء البيئة التي كانوا يعيشونها .

يقول الدكتور شوقي ضيف : ومن يرجع إلى شعرهم يجد شعراءهم يذكرون دائمًا الرواية ، وأنها وسيلة انتشاره في القبائل ؛ فهي الوسيلة التي كانوا يعرفونها ، وهكذا كان الخلف دائمًا ينقلون عن السلف ، حتى صار الحفظ والنقل عندهم مَلَكَة وسجية لا تتوفر لغيرهم .

وقد وردت آثار غريبة عن شدة حفظ الشافعي وغيره من العلماء كما هو معلوم من سيرهم .

ويقول أبو عبد الله بن سلام الجمحي البصري : إذا اختلف الرواة وقالوا بآرائهم ، وقالت العشائر بأهوائها فلا تضع الناس في ذلك إلا الرواية عمن تقدم ، أي: أن الناس يقدمون الرواية عن القول بالأهواء؛ لأن الرواية كانت عندهم من أصول النقل ، يقول : هذا دينهم وتلك هي سجيتهم بالنسبة للشعر والأدب ؛ فماذا عسى أن يكون حالهم بالنسبة لكتابٍ يعلمون أنه دستور حياتهم ، ومركز دينهم ، وفيه سعادةُ الدنيا والآخرة ، ماذا عساهم أن يتلقوا هذا الكتاب لاشك أنه سينال من العناية بحفظه و استظهاره ونقله ما لم ينله فن من فنون علومهم من قبل .

وقد قدمت للصحابة بالذات بهذه المقدمة حتى نعلم أن مسألة الحفظ والنقل والرواية ما هي إلا طبيعة ، لازمت العرب قبل الإسلام وامتدت معهم بعد الإسلام ؛ فالصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كان كتاب الله في المحل الأول من عنايتهم ، يتنافسون فيما بينهم على ما يحفظون من كتاب الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ وربما كانت قرة عين المرأة من نساء الصحابة أن تتزوج برجل يحفظ القرآن ، بل كانت المرأة تطلب مهرها

القرآن ، وإذا مررت بالليل على منازل أصحاب النبيِّ ﷺ سمعت لها دويًا بالقرآن .

وكان الرسولُ ﷺ يحثُّ الصحابة على تعلم القرآن .

وكان يُزوِّج الرجل بما يحفظ من القرآن .

روى البخاريُّ ومسلم[1] من حديث سهل بن سعد ﷺ قال :جَاءَتْ امْرَأَةٌ إلى رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ الله! جِئْتُ أَهَبُ لَكَ نَفْسِي . فَنَظَرَ إِلَيْهَا رَسُولُ الله ﷺ فَصَعَّدَ النَّظَرَ إِلَيْهَا وَصَوَّبَهُ . ثُمَّ طَأْطَأَ رَسُولُ الله ﷺ رَأْسَهُ . فَلَمَّا رَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّهُ لَمْ يَقْضِ فِيهَا شَيْئًا . جَلَسَتْ . فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ ؛ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ! إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكَ بِهَا حَاجَةٌ فَزَوِّجْنِيهَا. فَقَالَ : « هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ ؟ ». فَقَالَ : لاَ . وَالله يَا رَسُولَ الله ! فَقَالَ : « اذْهَبْ إِلَى أَهْلِكَ فَانْظُرْ هَلْ تَجِدُ شَيْئًا ». فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ : لاَ . وَالله ! مَا وَجَدْتُ شَيْئًا. فَقَالَ رَسُولَ الله ﷺ : « انْظُرْ وَلَوْ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ ». فَذَهَبَ ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ لاَ . وَالله ! يَا رَسُولَ الله ! وَلاَ خَاتَمًا مِنْ حَدِيدٍ . وَلَكِنْ هَذَا إِزَارِي . قَالَ سَهْلٌ : « مَا لَهُ رِدَاءٌ » فَلَهَا نِصْفُهُ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ : « مَا تَصْنَعُ بِإِزَارِكَ ؟ إِنْ لَبِسْتَهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا مِنْهُ شَيْءٌ . وَإِنْ لَبِسَتْهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ مِنْهُ شَيْءٌ ». فَجَلَسَ الرَّجُلُ حَتَّى إِذَا طَالَ مَجْلِسُهُ قَامَ، فَرَآهُ رَسُولُ الله ﷺ مُوَلِّيًا فَأَمَرَ بِهِ فَدُعِيَ . فَلَمَّا جَاءَ قَالَ:

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الوكالة ، باب وكالة المرأة الإمام في النكاح (٢٣١٠) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب النكاح ، باب الصداق وجواز كونه تعليم القرآن وخاتم حديد ، وغير ذلك من قليل وكثير ، واستجاب كونه خمسمائة درهم لمن لا يجحف به (١٤٢٥) ، واللفظ لمسلم .

« مَاذَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ ؟ » قَالَ : مَعِي سُورَةُ كَذَا وَسُورَةُ كَذَا (عَدَّدَهَا) فَقَالَ: « تَقْرَؤُهُنَّ عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ ؟ ». قَالَ: نَعَمْ. قَالَ : « اذْهَبْ فَقَدْ مُلِّكْتَهَا بِمَا مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ ».

وفي رواية لمسلم : « انْطَلِقْ فَقَدْ زَوَّجْتُكَهَا فَعَلِّمْهَا مِنَ الْقُرْآنِ » .

وحَفِظَ القرآنَ من أصحابِ النبيِّ ﷺ جمعٌ غفيرٌ :

فمن الرجال : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الله بن مسعود ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وأبو هريرة ، وابن عمر ، وابن عباس ، وعمرو بن العاص ، وعبد الله بن عمرو ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن السائب .

ومن النساء : عائشة ، وحفصة ، وأم سلمة ـ رَضِيَ الله عنهن أجمعين ـ كل هؤلاء كانوا يحفظون كتاب الله كلَّه ، وكلُّهم حفظوا القرآن في سنٍّ متأخرة إلا قليلًا منهم ، مثل : ابن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعائشة ، لكن معظم الصحابة كانوا في سنٍّ متأخرة ، وهؤلاء من المهاجرين .

ومن الأنصار : أُبيُّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن حارثة ، وأبو الدرداء ، وأنس بن مالك ، وغيرهم ؛ فالذين حفظوا القرآن من أصحاب النبي ﷺ كثيرون ؛ حتى كان عددُ القتلى منهم ببئرِ معونة وفي يوم اليمامة مائة وأربعين .

واستدل القرطبي على ذلك بأنه : قد قُتل يوم اليمامة [1] سبعون من

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب المغازي ، باب من قُتل من المسلمين يوم أحد (٤٠٧٨) عن أنس ، قال : « قتل منهم ـ من الأنصار ـ يوم أحد سبعون ـ ويوم بئر معونة سبعون ، ويوم اليمامة=

القراء ، وقُتل في عهد رسول الله ﷺ في بئر معونة مثل هذا العدد[1] .

وقد خصَّ النبيُّ ﷺ من هذا الجمع الغفير أربعة من أصحابه ؛ فقال ﷺ كما في «صحيح البخاري ومسلم»[2]: « اسْتَقْرِئُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ : مِنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ فَبَدَأَ بِهِ ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ ، وَأُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ » .

فبدأ النبيُّ ﷺ بعبد الله بن مسعود ؛ فقد منَّ الله ﷻ عليه بالقرآن حتى قال : « وَالله الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ ، مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ الله إِلاَّ أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنزِلَتْ ، وَلاَ أُنزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ الله إِلاَّ أَنَا أَعْلَمُ فِيمَنْ أُنزِلَتْ ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ الله تَبْلُغُهُ الإِبِلُ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ »[3] .

فبدأ النبيُّ ﷺ بعبد الله بن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة ، ليس من أشراف القوم .. ليس من وجهاء القوم ، ولكن رفعة الله بالقرآن ؛ كما في « صحيح مسلم »[4] من حديث عامر بن واثلة : أَنَّ نَافِعَ بْنَ عَبْدِ الْحَارِثِ لَقِيَ عُمَرَ بِعُسْفَانَ وَكَانَ عُمَرُ يَسْتَعْمِلُهُ عَلَى مَكَّةَ . فَقَالَ : مَنِ

= سبعون ، قال : وكان بئر معونة على عهد رسول الله ﷺ ، ويوم اليمامة على عهد أبي بكر يوم مسيلمة الكذاب » .

(١) انظر : « تفسير القرطبي » (لسورة آل عمران : ١٤٠) وانظر : « الإتقان » ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩) ، و« مناهل العرفان » ، و« فتح الباري » (٨/ ٦٦٨) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل الصحابة / باب مناقب سالم مولى أبي حذيفة ﷺ (٣٧٥٨) ، وانظر طرفه هناك ، وأخرجه مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب ـ من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه ـ رضي الله تعالى عنهما ـ (٢٤٦٤) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل القرآن ، باب القراء من أصحاب النبيِّ ﷺ (٥٠٠٢) ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه ـ رضي الله تعالى عنهما ـ ٢٤٦٣) .

(٤) تقدم . وهو في « صحيح مسلم » (٨١٧) .

اسْتَعْمَلْتَ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي ؟ فَقَالَ : ابْنَ أَبْزَى. قَالَ : وَمَنِ ابْنُ أَبْزَى ؟ قَالَ: مَوْلًى مِنْ مَوَالِينَا. قَالَ: فَاسْتَخْلَفْتَ عَلَيْهِمْ مَوْلًى ؟ قَالَ: إِنَّهُ قَارِئٌ لِكِتَابِ الله ﷻ . وَإِنَّهُ عَالِمٌ بِالْفَرَائِضِ. قَالَ عُمَرُ. أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ : «إِنَّ اللهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ».

فالقرآن يرفع أهله ، ويعز أصحابه في الدنيا والآخرة .

أسأله الله ﷻ أن يرفعنا وينفعنا بالقرآن الكريم ، وأن يجعلَه حجةً لنا لا علينا ، إنه على كل شيء قدير .

أما أُبَيُّ بن كعب رضي الله عنه . ففي صحيح البخاريِّ عن أُبَيِّ بن كعب رضي الله عنه يقولِ : «أَخَذْتُهُ ـ أي (القرآن) ـ مِنْ فِيِّ رَسُولِ الله ﷺ فَلاَ أَتْرُكُهُ لِشَيْءٍ»[1] .

وهذا أعلى درجات السند ؛ أنْ يأخذ القرآن من فِيِّ النبيِّ ﷺ .

أما عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول : « والله ، لَقَدْ أَخَذْتُ مِنْ فِي رَسُولِ الله ﷺ بِضْعًا وَسَبْعِينَ سُورَةً»[2] .

وهو الذي قَالَ : « فَأَخَذْتُ مِنْ فِيهِ سَبْعِينَ سُورَةً لاَ يُنَازِعُنِي فِيهَا أَحَدٌ »[3] .

بهذا نكون قد وقفنا على بداية الطريق الحق لحفظ كتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ ؛ وهذه البداية هي الأساس الذي يقوم عليه الجمع في

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل القرآن ، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ (٥٠٠٥) .

(٢) أخرجه البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب القراء من أصحاب النبي ﷺ (٥٠٠٠) ، ومسلم ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه ـ رضي الله تعالى عنهما ـ ٢٤٦٢) .

(٣) أخرجه ابن سعد في « الطبقات » (٣ / ١١١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١ / ١٢٥) ، وأحمد (١/ ٤٦٢) ، والطبراني في «الكبير» (٩ / ٧٦ ، ٧٧) و (٨٤٤٢ ، ٨٤٥٥ ، ٨٤٥٦ ، ٨٤٥٧) ، وأبو يعلى (٥٣١١) وحسَّن إسناده الشيخ الأرناؤوط .

الصحائف والسطور ؛ فالقرآن حُفظ في صدر النبيِّ ﷺ ، ثم في صدر أصحابه ﷺ ، ثم انتقل بعد ذلك إلى الصحائف والسطور .

وهذه هي المرحلة الثانية من مراحل جمع القرآن ، ونبدأ هذه المرحلة بجمع أبي بكر - رَضِيَ الله عَنْهُ وأرضاه.

*****

جَمْعُ أبي بكر رضي الله عنه للقرآن

فالقرآن كان مكتوبًا في الرقاع، وعلى الحجارة، وفي الجلود في عهد النبي ﷺ، فجمع في الصدور والسطور؛ ولكنه كان مفرقًا في هذه الجلود والرقاعِ والعُسُبِ واللخاف؛ فجاءت المرحلة الخطيرة التي مات فيها جمع كبير من قُرَّاء القرآن الكريم في عهد أبي بكر رضي الله عنه في موقعة اليمامة التي كانت مع الكذاب مسيلمة[1].

فجاء عمر بن الخطاب الملهم إلى أبي بكر رضي الله عنه وأشار عليه أن يجمع القرآن في مصحفٍ واحد؛ لأن القتل قد استحرَّ بالقراء الذين يحفظون القرآن في صدورهم، فخشي الصديق ذلكم الرجل الذي ضرب أروع المثل في الإتباع، خشي أن يفعل شيئًا ما فعله رسول الله ﷺ، فقال: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فظل عمر بن الخطاب يدندن بهذا الأمر، ويتكلَّم فيه، ويحثُّ الصديق عليه، حتى شرح الله صدر أبي بكر رضي الله عنه لجمع القرآن الكريم.

ففي «صحيح البخاري»[2] ـ في باب (جمع القرآن) ـ أنَّ زَيْدَ بنَ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ: أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكرٍ الصِدِّيق مَقْتَلَ[3] أَهْلِ اليَمَامَةِ، فَإِذَا عُمرُ بنُ الخَطَّابِ عِنْدَهُ. قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي فَقَالَ: إِنَّ الْقَتْلَ قَدِ

---

(١) سبق.

(٢) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن (٤٩٨٦).

(٣) أي: عقب قتل أهل اليمامة؛ وقال الحافظ: «والمراد بأهل اليمامة هنا من قتل بها من الصحابة في الوقعة مع مسيلمة الكذاب ...» (الفتح ٨/ ٦٢٧).

اسْتَحَرَّ(١) يَوْمَ الْيَمَامَةِ بِقُرَّاءِ الْقُرْآنِ، وَإِنِّي أَخْشَى إِنْ اسْتَحَرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ بِالْمَوَاطِنِ(٢) فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْقُرْآنِ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَأْمُرَ بِجَمْعِ الْقُرْآنِ. قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ تَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ عُمَرُ: هَذَا وَاللهِ خَيْرٌ. فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي حَتَّى شَرَحَ اللهُ صَدْرِي لِذَلِكَ، وَرَأَيْتُ فِي ذَلِكَ الَّذِي رَأَى عُمَرُ. قَالَ زَيْدٌ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ عَاقِلٌ لاَ نَتَّهِمُكَ، وَقَدْ كُنْتَ تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَتَتَبَّعِ الْقُرْآنَ فَاجْمَعْهُ. فَوَاللهِ لَوْ كَلَّفُونِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ الْقُرْآنِ. قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلُونَ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: هُوَ وَاللهِ خَيْرٌ. لَمْ يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ يُرَاجِعُنِي حَتَّى شَرَحَ اللهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ﷺ، فَتَتَبَّعْتُ الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الْعُسُبِ وَاللِّخَافِ وَصُدُورِ الرِّجَالِ، حَتَّى وَجَدْتُ آخِرَ سُورَةِ التَّوْبَةِ مَعَ أَبِي خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِيِّ لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] حَتَّى خَاتِمَةِ بَرَاءَةَ، فَكَانَتِ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَيَاتَهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ ».

ويتضح لنا من الحديث أمور:

أولًا: الحديث في أصح الكتب بعد كتاب الله؛ فهو في «صحيح البخاري».

ثانيًا: إن الدافع - كما فهمنا من الحديث - لجمع القرآن الكريم،

---

(١) أي: اشتد وكثر، وهو استفعل من الحر، لأن المكروه غالبا يضاف إلى الحر؛ كما أن المحبوب يضاف إلى البرد، يقولون: أسخن الله عينه، وأقر عينه (الفتح ٨/ ٦٢٧).

(٢) أي: في المواطن التي يقع فيها القتال مع الكفار.

والذي من أجله انطلق عمر لأبي بكر رضي الله عنه، كان هو قَتْلُ القراء في معركة اليمامة ، وإن دلَّ ذلك ، فإنما يدلُّ على حرص الصحابة على كتاب الله عز وجل

ثالثًا : توقُّفُ أبي بكر حتى شرح الله صدره ، ثم توقف زيد حتى شرح الله صدره ، وقوْلَةُ الصدِّيق : « كيف أفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ » تدل على أمرين :

الأول : شدة الاتباع وشدة الحرص على اقتفاء أثر النبيِّ ﷺ.

والأمر الآخر : الشورى ، فلقد توقف الصِّديق حتى استشار زيد بن ثابت ، وعمر بن الخطاب أشار على أبي بكر وهو الخليفة .

مبدأ الشورى : وهو المبدأ الذي علَّمهم إياه أستاذهم ومعلِّمهم ونبيهم محمد ﷺ؛ فهو الذي كان يستشير في أيِّ أمر من أمور هذه الدنيا لم ينزل عليه فيه وحي من عند الله ـ جَلَّ وَعَلا.

رابعًا : المؤهلات التي ذكرناها لزيد بن ثابت : رجل وشاب وعمره قرابة العشرين ، وعاقل ، وغير متهم ، وكونه كان كاتبًا للوحي ، فهو ذو خبرة سابقة في هذا الأمر، وكذلك فهو أحد الأربعة الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ [(١)].

هذه هي المؤهلات التي يجب أن تتوفر لأي إنسان يقوم بمثل هذه المهمة الكبيرة ، والشباب فيه القدرة والحيوية والقوة والطاقة على العمل ، وعلى البذل ، وعلى العطاء ، والعقل ، فالتهوُّر يفسد ، والجبن والخور

(١) انظر : « سير أعلام النبلاء » (٢/ ٤٣١) ، و« صحيح البخاري » (٥٠٠٤) .

يفسد ، لكنَّ الرجل العاقل هو الذي يزن الأمور ، وغير متهم ، أي : ليس بمجروح ، ولكن هو رجل ثقة ، رجل عدل ؛ فقام زيدٌ ﷺ ، بهذه المهمة خير قيام وجمع القرآن الكريم من صدور أصحاب النبيِّ ﷺ ، ومن اللخاف ، ومن الحجارة الرقيقة ، ومن العُسُب ، في عدَّة صحف ، وظلّت هذه الصحف في بيت أبي بكر ﷺ وأرضاه ، وبهذا يكون الصدِّيق قد اعتمد في جمع القرآن الكريم على مصدرين :

الأول : صدور أصحاب النبيِّ ﷺ .

والثاني : ما كُتب في عهد النبيِّ ﷺ فجُمع بين الصدور والسطور ، وبلغ من الحيطة والحذر أنه لم يقبل شيئًا من المكتوب حتى يشهد شاهدان عدلان أن هذا قد كُتب بين يدي رسول الله ﷺ .

مزايا صحف أبي بكر :

١ـ أنها جمعت القرآن الكريم في صحف مجتمعة .

٢ـ أنه اعتمد على الصدور وعلى السطور .

٣ـ أنه أمر على مكتوب منسوخ أن يشهد عليه شاهدان من أصحاب النبيِّ ﷺ ، ولم ينسخ آية من كتاب الله إلا ما اتفق عليه أصحاب النبيِّ ﷺ أن هذه التلاوة كانت تمثل العرضة الأخيرة من جبريل للنبي ﷺ أو من النبيِّ على جبريل .

٤ـ أنها نالت إجماع أصحاب النبيِّ ﷺ [١] .

قال عليٌّ ﷺ : « يرحم الله أبا بكر هو أول من جمع بين اللوحين » [٢] .

---

(١) انظر: تعليق البغوي على الحديث السابق شرح السنة (٤ / ٥٢٢) .

(٢) أخرجه عبد الله في زوائد «فضائل الصحابة» (٢٨٠) ، (٥١٣) وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ١٩٦) ، وقال ابن كثير في « فضائل القرآن » (٣٢) : « هذا إسناد صحيح » ، وقال الذهبي في «تاريخ الإسلام » (١/ ٣٨٤) : « إسناده حسن» .

جَمْعُ القرآنِ في عهدِ عثمان

توفي عمر ـ رضوان الله عليه ـ والصحف كما هي في عهد أبي بكر انتقلت من بيت أبي بكر إلى بيت عمر، ثم من بيت عمر إلى بيت حفصة، وتولى الخلافة بعد عمر عثمانُ بن عفان ﷺ، فلماذا جمع عثمان القرآن في مصحف واحد، وما الفرق بين جمع الصديق وجمع عثمان ؟ .

مرَّ بنا فيما رواه الإمام البخاريُّ أن عمر بن الخطاب قد اقترح على الصديق بعد مقتل أهل اليمامة أن يجمع القرآن، وكذلك جاء حذيفة بن اليمان ﷺ ليقترح على عثمان أن يجمع القرآن كله في مصحف واحد، لأن الصحابة قد اختلفوا في قراءة القرآن الكريم باختلاف القراءات خشية أن تختلف الأمة على دستورها، وعلى كتاب ربها ـ جَلَّ وَعَلا.

انظر إلى هذا الفهم الدقيق، وقفْ مع هذا الحديث :

رَوَى البخاريُّ أن النبيَّ ﷺ قالَ : «أُنزِلَ القُرآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ»[1] .

وهذا من باب التيسير على الأمة في أول الأمر لاختلاف لهجات العرب في أرض الجزيرة المترامية . ثم اتَّسعت الأمصار، وكثرت الفتوحات جدًا في عهد عثمان ﷺ، وانتشر الصحابة في البلدان ؛ فأهل الشام يقرؤون بقراءة أُبَيِّ بن كعب، وأهل الكوفة يقرؤن بقراءة عبد الله ابن مسعود، وهؤلاء هم أصحابُ النبيِّ ﷺ الذين سمعوا رسول الله ﷺ، ويعلمون أن هذه القراءات خرجت من فم النبيِّ ﷺ، فلما رحلُوا

---

(١) سبق تخريجه .

إلى الأمصار وسمع الناسُ من صحابيٍّ؛ كعبد الله بن مسعود، وقوم يسمعون لأبيٍّ بن كعب، وقوم يسمعون لمعاذ، وقوم يسمعون من أبي موسى الأشعري قراءة، وهم لم يسمعوا من فم النبيِّ ﷺ، فالتقت هذه الجموع في المعارك والحروب، فسمع بعضُهم البعضَ يقرأ بقراءات غير التي حفظها وسمعها، فإذا سمع الواحد منهم حرفًا لا يحفظه قام على هذا القارئ وأراد أن يفتك به حرصًا منه على كتاب الله، وظنًّا أنه قد ألحن وجاء بجديد في القرآن.

قفْ على هذا الدافع للجمع؛ لأن هناك فرقًا كبيرًا بين الجمع في مرحلة الصدِّيق، والجمع في مرحلة عثمان؛ لأن عثمان أضاف شيئًا جديدًا جدًّا؛ فعثمان ﷺ جمع القرآن بحرفٍ واحد، بقراءة واحدةٍ بلُغَةِ قريش، وألغى كُلَّ هذه القراءات؛ حتى لا تختلف الأمة في كتاب الله، وثبت في المصحف آخر عرضَةٍ للنبيِّ ﷺ على جبريل بلُغَةِ النبيِّ ﷺ .. بلُغَةِ قريشٍ؛ لأنه بلسانها نزل القرآن.

يقول أنس بن مالك ﷺ؛ كما في «صحيح البخاري»[(١)]: قَدِمَ حُذَيْفَةُ بنُ اليمان عَلَى عُثْمَانَ ﷺ؛ وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشَّامِ فِي فُتْحِ أَرْمِينِيَّةَ وَأَذْرِبِيجَانَ مَعَ أَهْلِ العِرَاقِ، فَأَفْزَعَ حُذَيْفَةَ اخْتِلاَفُهُمْ فِي القِرَاءَةِ؛ فَقَالَ حُذَيْفَةُ لِعُثْمَانَ: يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ، أَدْرِكْ هَذِهِ الأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الكِتَابِ اخْتِلاَفَ اليَهُودِ والنَّصَارَى، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى حَفْصَةَ ﷺ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي المَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ، فَأَرْسَلَتْ بِهَا

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن (٤٩٨٧).

حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ ، فَأَمَرَ زَيْدَ ابْنَ ثَابِتٍ وَعَبْدَ الله بنَ الزُّبَيْرِ وَسَعِيْدَ بنَ العَاصِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ الحَارِثَ ابنَ هِشَامِ فَنَسَخُوهَا فِي المَصَاحِفِ ، وَقَالَ عُثْمَانُ لِلرَّهْطِ القُرَشِيِّينَ الثَلاَثَة : إِذَا اختَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنَ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ القُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ ، فَإِنَّمَا نَزَلَ القُرْآنُ بِلِسَانِهِمْ ، فَفَعَلُوا . حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُحُفَ فِي المَصَاحِفِ رَدَّ عُثْمَانُ الصُحُفَ إِلَى حَفْصَةَ فَأَرْسَلَ إِلَى كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِمَّا نَسَخُوا ، وَأَمَرَ بِمَا سِوَاهُ مِنَ القُرْآنِ فِي كُلِ صَحِيْفَةٍ أَو مُصْحَفٍ أَنْ يُحْرَقَ » .

وكما نرى في الحديث أن عثمان لم يتحرك لجمع القرآن من تلقاء نفسه ، وإنما تحرك لجمع القرآن بعدما جاءه حذيفة وأخبره ما كان من الناس في أرمينية وأذربيجان من أهل الشام وأهل العراق ، فتحرك عثمان لجمع القرآن وعهد به إلي زيد بن ثابت مع خيرة أصحاب النبيِّ ﷺ، بل من كتَّاب الوحي في عهد النبيِّ ﷺ.

وقد قال عليٌّ رضي الله عنه: « يا أيها النَّاس لا تَغْلوا في عثْمَان ، ولا تَقُولُوا لهُ إلا خَيْرًا - أو قولوا خيرًا - فَوَالله مَا فَعَلَ الذي فَعَلَ - أي في المصاحف - إلاَّ عَنْ مَلإٍ منا جمِيعًا - أي الصحابة - والله لَوْ وُلِّيْتُ لَعَمِلْتُ بِالمَصَاحِفِ عَمَلَ عُثْمَانَ بِهَا» [(١)].

ردًّا على هؤلاء الذين اتهموا عثمان بأنه حرق المصاحف !!!

هل حرَّق عثمان كتاب الله ؟! لا ؛ والله ؛ بل لقد حفظه عثمان رضي الله عنه بأن جمعه كله بلُغَة قريش كما قرأه النبيُّ ﷺ في مصحف واحد إمام.

---

(١) انظر: « فتح الباري » (٨/ ٦٣٤) ، وعزاه لابن أبي داود ، وصحَّحَ إسناده الحافظ رحمه الله.

واختلف أهل العلم في عدد المصاحف التي نُسخت في عهد عثمان ؛ فمنهم من قال: إنها أربعة ، ومنهم من قال : خمسة ، ومنهم من قال : ستة ، وقيل : سبعة ، وقيل : ثمانية ، والذيَ أطمئن إليه بعد قراءة طويلة متأنية جدًا أن عثمان بن عفان ﷺ قد أرسل إلى كل أفق ، وإلى كل مصر من الأمصار بمصحف إمام [1] .

أفهم ذلك من حديث أنس الذي سبق في « صحيح البخاري » [2] وفيه يقول أنس : « حتى إذا نسخوا الصحفَ في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة وأرسل إلى كلِّ أفق بمصحف مما نسخوا » أعتقد أن الحديث صريحٌ جدًّا ، وأمر بما سواه في كل صحيفة أو مصحف أن يحرّق ، فكلمة : « أفق» تدل بعمومها على أنه أرسل بلا شك إلى جميع الأمصار لا إلى بعضها دون البعض ، ورضيَ الله عن عثمان بن عفان فقد أرضى ربه ـ جَلَّ وَعَلا ـ بذلك العمل الجليل ، وحافظ على القرآن ، وجمع كلمة الله ، وأغلق باب الفتنة ، ولا يبرح المسلمون يقطفون ثمار صنيعه هذا إلى الآن ، وأما حَرْقُه للصحف التي جُمعت قبل ذلك ، فما فعل ذلك إلا في حضور جميع أصحاب النبيِّ ﷺ وبموافقتهم ـ رضوان الله عليهم جميعًا ـ وبهذا يتضح لنا أن عثمان قد أضاف شيئًا جديدًا ألا وهو :

أولاً : أنه جمع الصحف في مصحف ثم نسخ منه عدة نسخ .

الأمر الثاني : أنه ألغى جميع القراءات واكتفى بقراءة قريش التي بلسانها

---

(١) انظر: « الإتقان » (٨٣) ، و « البرهان » (١/ ٢٤٠) ، « أضواء البيان في تاريخ القرآن » (ص ٧٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل القرآن ، باب جمع القرآن (٤٩٨٧) .

نزل القرآن الكريم .

قال ابن التين : « الفرق بين جمع أبي بكر وبين جمع عثمان أن جمع أبي بكر كان لخشية أن يذهب شيء من القرآن بذهاب حَمَلَتِه ، لأنه لم يكن مجموعًا في موضع واحد ، فجمعه في صحائف مرتبًا لآيات سورِهِ على ما وقفهم عليه النبيُّ ﷺ ، وجمعُ عثمان كان لما كثر الاختلاف في وجوه القرآن ، حين قرءوه بلغاتهم على اتساع اللغات ، فأدى ذلك ببعضهم إلى تخطئة بعض ، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك ، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتبًا لسُوَرِه ، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش محتجًا بأنه نزل بلغتهم ، وإن كان قد وسع في قراءته بلغة غيرهم ، رفعًا للحرج والمشقة في ابتداء الأمر ، فرأى أن الحاجة إلى ذلك انتهت ، فاقتصر على لغة واحدة ، وكانت لغة قريش أرجح اللغات ، فاقتصر عليها »[(١)] .

إذن ؛ الفرق بين مرات الجمع في عهد النبيِّ ﷺ وعهد أبي بكر ، وفي عهد عثمان أن :

المرحلة الأولى : التي تمَّت في العهد النبوي جمعت ما بين الصدور والسطور ، صدور أصحاب النبيِّ ﷺ وما كُتب .

المرحلة الثانية : كانت في عهد أبي بكر رضي الله عنه وكانت في صحف عدة .

المرحلة الثالثة : كانت في عهد عثمان رضي الله عنه كما بينت وفصَّلت .

وقد يسأل سائلٌ سؤالاً : ما هي أقدم نسخةٍ من المصحف الشريف ؟ وأين تكون ؟ (يعني مصحف عثمان) .

---

(١) « فتح الباري » (٨ / ٦٣٧) وانظر : « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (١ / ٨٧) .

بدايةً أودُّ أن أقول : من المستحيل إذا طالبنا أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن يُطَلِعونا على نسخة من الإنجيل أو التوراة .. على نسخة واحدة أصلية فمحال أن يفعلوا ؛ فإننا نعتقد أن الله ما أنزل على موسى إلا توراة واحدة ، وما أنزل على عيسى إلا إنجيلاً واحدًا ، ومع ذلك فإننا نرى اليوم أكثر من توراة ، وأكثر من إنجيل ، وهذا دليل على التحريف لكنك لو أمسكت كتابًا من كتاب الله ﷻ وأخذته من مصر وذهبت به إلى روسيا ، ووقفت على كتاب الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ لن تجد المصحف في يدك يخالف المصحف هنالك في آية أو في كلمة أو في حرف ؛ بل لو جمعت ملايين النسخ لوجدت القرآن نسخة واحدة ما تحرفت فيه كلمة ، وما ضاعت منه آية ؛ لأن الذي تولَّى حفظه هو الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ قال سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

يقول الإمام ابن كثير ـ طيب الله ثراه [(١)] : «وأما المصاحف العثمانية الأئمة ؛ فأشهرها اليوم الذي بالشام بجامع دمشق عند الركن شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله ، وقد كانت قديمًا بمدينة طبرية ، ثم نقل منها إلى دمشق في حدود ثمان عشرة وخمسمائة ، وقد رأيته كتابًا عزيزًا جليلاً عظيمًا ضخمًا بخط حسن مبين قوي ، بحبرٍ محكم في رق أظنه من جلود الإبل ـ والله أعلم ـ زاده الله تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا » .

وهكذا ؛ فإن القرآن الموجود في العالم كلِّه اليوم هو النسخة الصحيحة من القرآن الذي أصدر أبو بكر أمره بجمعه ، والذي أرسل منه عثمان

---

(١) مقدمة تفسير ابن كثير في «فضائل القرآن» (١/ ٤٥) .

رسميًّا نسخًا عديدة منه إلى أماكن مختلفة من العالم ، ومن به شك في صون القرآن وبقائه حصينًا ضد التغيير والتبديل ، فليقارن أيا من النسخ بالنسخة القديمة ليطمئن قلبه إلى جانب أنه لو ابتاع نسخة من القرآن من مكتبات في الجزائر من غرب إفريقيا مثلاً ، وقارنها بنسخة يحصل عليها من دار للكتب في جاوة في أقصى الشرق لوجد النسختين متطابقتين تمامًا على بعضهما وعلى النسخ التي كُتبت ودُوِّنت في عهد عثمان بن عفان ، ولو كان الشك لا يزال في قلبه فليأخذ نسخة من القرآن من أي بقعة في العالم ويطلب إلى واحد من الملايين المملينة التي تحفظ كتاب الله أن يتلو القرآن عليه ليسمع منه القرآن كلمة كلمة من الألف إلى الياء ، وسيجد أنَّ التلاوة لابد أن تكون مطابقة للنص المكتوب بحذافيره ، وهذا دليلٌ على أنه لا يأتيه الباطل مِنْ بين يديه ولا مِنْ خَلْفِه ، على أن القرآن الذي بين أيدينا اليوم هو نفس القرآن الذي جاء به مُحَمَّدُ بن عبد الله ﷺ إلى العالم ، إذ ليس في تاريخ الإنسانية شيء أصح وأصدق من أن القرآن الذي معنا هو بعينه الذي أتى به محمد ﷺ من عند الله ـ جَلَّ وَعَلاَ.

*****

الاتساقُ الذاتيُ للقرآنِ الكريم

نستهلُّ هذا المبحث بهذه المقدمة الموجزة :

مما لا خلافَ عليه أنَّ النبي ﷺ كان من العرب ، وكان لا يتكلَّم إلا بالعربية.، وما أنزل الله ﷻ هذا القرآن إلا باللغة العربية ، لغة النبيِّ العربيِّ ، وهذه من المسائل التي لا خلاف عليها البتة ، نصَّ على ذلك القرآن ، قال الله ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ﴾ [النحل: ١٠٣] .

فهم يتهمون النبيَّ ﷺ أن الذي يعلمه هذا القرآن كاهن من البشر ، فردَّ الله تعالى بقوله : ﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل : ١٠٣] ، وقال ﷻ : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف :٢] .

ولا يزالُ القرآن يقرأ إلى الآن بهذه اللغة ، وسيظلُّ هكذا ، ولا شك أنَّ كل نسخ القرآن على وجه الأرض لو طابقتها لوجدت كل هذه النسخ تنطق بلغة واحدة ، وهذا من أعظم الأدلة على اتساق القرآن في ذاته ، وهذا يدلُّ على أن الأصل واحدٌ ، بخلاف النسخ الموجودة للتوراة والإنجيل ، لو طابقت بين نسختين لن تجد اتساقًا على الإطلاق ! وهذا يدل على أن الأصل غُيِّر وحرِّف وبُدِّل .

أما ملايين نسخ القرآن الموجودة في مشارق الأرض ومغاربها لو طابقت بين نسختين ؛ بل لو طابقت بين قارئين ، لوجدت اتساقًا ذاتيًا في كتاب الله ، دلَّ ذلك على أن الأصل الذي نسخت منه كل هذه الملايين

كان أصلاً واحدًا ، ولا شك أن نسخة القرآن التي لا تقبل الجدل تعطي النص القرآني مكانة خاصة بين جميع نصوص الكتب المقدسة كما يزعمون ، ولا يشترك مع نص القرآن في هذه الصحة لا العهد القديم ولا الجديد ؛ فالقرآن الكريم لم يتعرض البتة لأي تحريف ؛ لا في آية ، ولا في كلمة ، ولا في حرفٍ من يوم أن أنزله الله على قلب محمد ﷺ إلى يومنا هذا .

فإن جميع نسخ القرآن الكريم الموجودة بين أيدينا الآن بلغة واحدة ، دليلٌ بليغٌ على الدقة والأمانة التي نقل إلينا بها كتاب الله ﷻ مصداقًا لقوله سبحانه : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[الحجر : ٩].

ليتضح لنا ذلك ؛ تعالوا بنا نقف على هذا الاتساق الذاتي في كتاب الله ـ جَلَّ وَعَلاَ.

أولاً : الاتساق في ترتيب القرآن :

أي (من حديث النزول على قلب النبيِّ ﷺ) ، ولا شك أن القرآن الكريم من حيث النزول يختلف عن ترتيب وجوده في المصحف .

فمثلاً : أول ما نزل على قلب المصطفى ﷺ سورة العلق [(١)] ، ولكنك لو نظرت إلى ترتيبها في المصحف الذي بين أيدينا ، ستجدها ليست أول سورة في المصحف .

ومنشأ هذا الاختلاف ؛ هو الهدف المقصود من كلا الترتيبين ، ومعلوم أن القرآن الكريم نزل منجمًا ومفرَّقًا على قلب النبيِّ ﷺ منذ

---

(١) انظر : البخاريّ ، كتاب بدء الوحي ، باب (٣) حديث (٣) .

بعثته، وحتى وافته المنية، وتقدَّر هذه المدة بحوالي ثلاثة وعشرين سنة .

وأودُّ أن أوضح أن الترتيب النزولي للقرآن له هدف مقصود، وكذلك الترتيب في المصحف له هدف مقصود، وكلاهما توقيفيٌّ من النبيِّ ﷺ، وهذا ما اتفق عليه جمهور أهل العلم، فالقرآن هو المعجزة الكبرى للنبيِّ ﷺ، وهو دستور الأمة ومنهاج حياتها ـ فكيف يتركه النبي ﷺ مهملاً من حيث الترتيب، ولا يجعله في أحسن الوجوه .

قد يسأل سائل : ما دليلك على أن القرآن الكريم قد نزل منجمًا ومفرقًا على قلب النبيِّ ﷺ ؟ والدليل على ذلك : من القرآن، في قوله تعالى : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٠٦] .

فهو لم ينزل جملة واحدة على قلب النبي ﷺ .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان : ٣٢] .

وأخذ بعض أهل العلم من هذه الآية أن التوراة والإنجيل والكتب السابقة قد نزلت جملة واحدة ! والحقُّ أنه لا يوجد دليل من النبيِّ ﷺ على ذلك، حيث أن مثل هذه الأمور من الغيبيات، ولا يجزم فيها برأي إلا بدليلٍ صريح من القرآن أو السنة .

وهذه الآية تبين لنا أن القرآن كان ينزل بحسب الحاجة كأن تنزل خمس آيات أو عشر آيات أو أكثر أو أقل حسب الحاجة .

وقد صحَّ نزول العشر آيات الخاصة بحادثة الإفك دفعة واحدة .

وقد صحَّ نزول عشر آيات من أول سورة المؤمنون دفعة واحدة .

وقد صحَّ نزول بعض آية ؛ كما في قوله تعالى : ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾[النساء:٩٥] ..

يقول السيوطيُّ [(١)]: «والكتب السماوية من قبله قد نزلت جملة واحدة».

وذلك ما لم أقف على دليل صحيح عليه .

إذن ؛ ما هي الحكمة التي من أجلها أنزل الله القرآن منجَّمًا مفرَّقًا ؟

أولاً : لمراعاة حاجة الدعوة للدين الجديد من الناحية التربوية الإلهية ، والتدرج بالناس شيئًا فشيئًا ، حتى يتم الغرض بإكمال الدين ، وتمام النعمة ، دون أن تكون هناك عوائق نفسية تعوق الإنسان السوي عن متابعة الوحي وتدبر معانيه ، والاقتناع بمراميه والعمل بما تضمنه من أحكام .

ومن حكمة الله سبحانه وتعالى في نواحي التشريع كلها : التدرج ؛ وهو سنة كونية ثابتة .

فالقرآن نزل منجَّمًا ؛ ليوافق حاجة الدعوة الجديدة ، وليتدرج بالناس شيئًا فشيئًا ؛ فلو نظرت إلى آيات القرآن الأولى ، لوجدت فعلاً أنها مناسبة جدًا وجديرة بأن تكون أول ما نزل ، وسنضرب على ذلك أمثلة إن شاء الله ؛ فالله هو الحكيم الخبير العليم بحاجة الناس وحاجة الدعوة ، فأنزل من القرآن ما يناسب كل مرحلة من مراحل الدعوة والبناء لهذه الدولة التي تنشأ في صحراء تموج بالكفر موجًا .

ففي أول الأمر نزلت آيات شديدة الجرس ـ قصيرة ـ تهزُّ القلوب مثل سورة المدثر ؛ حيث آيات الوعد والوعيد ، والنهي عن المنكر ، والأمر بالمعروف ، مثل قوله تعالى : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ

(١) « الإتقان » (٥٦) بتصرف .

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ٢ ـ ٧].

ومع أول هذه الآيات: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨ ـ ١٠].

ثم تهديد ووعيد: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ [المدثر ١١ ـ ٢٧].

آيات تخلع القلب، قصيرة، شديدة، قوية، لتحرك القلوب، فالآيات القرآنية في البداية ترغيب وترهيب؛ لحكمة يعلمها الله تعالى وعلمها لنا رسول الله ﷺ.

رَوَى البخاريُّ عن عائشة رضي الله عنها أنه جاءها عراقيٌّ، فَقَالَ: أَيُّ الكَفَنِ خَيْرٌ؟ قَالَتْ: وَيْحَكَ وَمَا يَضُرُّكَ؟ قَالَ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، أَرِينِي مُصْحَفَكِ، قَالَتْ: لِمَ؟ قَالَ: لَعَلِّي أُؤَلِّفُ القُرْآنَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُقْرَأُ غَيْرَ مُؤَلَّفٍ، قَالَتْ: وَمَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأْتَ قَبْلُ؟ إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ الْمُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلامِ نَزَلَ الحَلالُ وَالحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لا تَشْرَبُوا الخَمْرَ لَقَالُوا: لا نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ لا تَزْنُوا، لَقَالُوا: لا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا»[1].

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن رقم (٤٩٩٣).

فالخمر كان بالنسبة لهم مثل الماء ، لَكِنَّ النبيَّ ﷺ ظَلَّ يعلمهم ثلاث عشرة سنة يؤصِّلُ العقيدة والإيمان في قلوبهم ، ثم نزل الحلال والحرام ، فانتهوا عن الحرام وفعلوا الحلال .

وذلك نتيجة العقيدة والإيمان ، والقلوب الحية المرهفة ، والضمائر الحساسة ، ويدلُّ على ذلك أيضًا : أن الفترة المكية على طولها لم تكن التعاليم القرآنية فيها متجهةً إلا لبناء العقيدة وترسيخها ، وليس ذلك إلا لأن العقيدة هي قوة الدفع للإنسان المؤمن لطاعة الله ﷻ .

فالإسلامُ عقيدة ، تنبثق منها شريعة ، تنظم كل شئون الحياة ، ولا يقبل الله من قوم شريعتَهم إلا إذا صحت عقيدتهم .

إذن فعندما تمكَّنتْ العقيدة من قلوب الصحابة وتأصَّلتِ ، نتج عن ذلك جيلٌ من الصحابة ما عرفت البشرية له مثيلا !! .

الهدف الثاني : تثبيت فؤاد المصطفى ﷺ قال سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان : ٣٢] .

يقول الإمام السيوطيُّ [(١)] رحمه الله : إن الوحي إذا كان يتجدد في كلِّ حادثةٍ كان أقوى بالقلب ، وأشد عناية بالمرسل إليه ، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليه ، ويتجدد العهد به وبما معه من الرسالة الواردة من ذلك الجناب العزيز ، فيحدث له من السرور ما تقصر عنه العبارة ، ولهذا كان النبيُّ ﷺ أجود ما يكون في رمضان نظرًا [(٢)] لكثرة لقاءاته مع

---

(١) « الإتقان » (٥٧ ، ٥٨) بتصرف يسير .

(٢) سبق تخريجه .

جبريل وهو يدارسه الوحي .

فذلك يسر فؤاد النبي ﷺ، ويربط النبيَّ ﷺ دائمًا بمن أرسل جبريل بالوحي.

رَوَى البخاريُّ ومسلمٌ [(١)] عن جندب بن سفيان ﷺ قَالَ : «اشْتَكَى رَسُولُ الله ﷺ ، فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ ، لَمْ أَرَهُ قَرِبَكَ مُنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ ، فَأَنْزَلَ الله ﷻ : ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ [الضحى: ١-٣] .

ورَوَى البخاريُّ [(٢)] عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ الله ﷺ لِجِبْرِيلَ : مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا فنزلت : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم : ٦٤]» .

كأنه يسعد ويأنس بلقاء جبريل ؛ لأنه لقاء الأرض بالسماء .

ويذكر الشيخ الزُّرقانيُّ [(٣)] في ذلك عدة وجوه جميلة من تثبيت قلب النبيِّ ﷺ ؛ فيقول : « في التنجيم تيسير عليه من الله في حفظه ، وفهمه ، ومعرفة أحكامه ، وحِكمه ، وذلك مطمئن له على وعى ما يوحى إليه حفظًا وفهمًا وإحكامًا وحِكمًا ، كما أن فيه تقوية لنفسه الشريفة على ضبط ذلك كله .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ (٤٩٥٠) ، ومسلم ، كتاب الجهاد ، باب ما لقي النبيُّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين (١٧٩٧) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير ، باب ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ (٤٧٣١) .

(٣) « مناهل العرفان » (١/ ٣٩ ، ٤٠) بتصرف يسير .

ومنها أيضًا : أنه في كل نوبة من نوبات هذا النزول المنجم معجزة جديدة غالبًا ، حيث تحداهم كل مرة أن يأتوا بنوبة مثل نوبات التنزيل ، فتظهر عجزهم عن المعارضة وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، ولا شك أن المعجزة تشد أزر النبي ﷺ .

ومنها أيضًا : تَعهُّد الله للنبيِّ ﷺ عند اشتداد الخصوم عليه ، فالشدائد بالنسبة للرسول ﷺ كانت تحدث في أوقات مختلفة يحتاج فيها الرسول ﷺ إلى تسلية ، وإلى أن يوحي إليه الحق تبارك وتعالى ، فكلَّما أحرجه خصم من الخصوم نزل عليه القرآن للتسلية والتثبيت ، وتجيء هذه التسلية تارة عن طريق قصص الأنبياء والمرسلين ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود : ١٢٠] .

هذه بعض الحِكَم في نزول القرآن منَجَّمًا على قلب النبيِّ ﷺ ؛ فقد يضيق الحال بالمصطفي ﷺ في مكة، ويشتد الكرب ويتعرض للإيذاء ؛ بل ويأمر النبيُّ ﷺ أصحابه بالهجرة للحبشة ، ويبحث عن أرض أخرى كالطائف ، ويعود منها طريدًا يبحث في الخيام في وفود العرب المقبلة للحج عن قلب يحمل لا إله إلا الله . وضع شديد ! صاحب الدعوة والأصحاب كلهم مطاردون ، تركوا كل أموالهِم من أجل العقيدة. يا لها من مظلمة حقيقية ! .

فهذا القلب يحتاج لتسلية وتثبيت ، فيُنزل الحقُّ تبارك وتعالى سورةَ يوسف بها قصة للتسلية والتثبيت . والمعنى كأنَّ الله تعالى أراد أن يقول للنبيِّ ﷺ لا تغضب ولا تحزن ؛ فإن نبيًا من قبلك قد تعرَّض لمثل هذا

وترك أهله وترك بلده ، ولكنَّ الله مكَّن له ، وأعاده لأهله مرة أخرى ، فأبشر يا ابن عبد الله ، فإن خرجت من أهلك فسيردك الله وأنت في غاية العز والتمكين ؛ ثم يقول له : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[يوسف : ١١٠] .

ويقول الله له : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف: ٣٥] ، وكذا يقول : ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴾[القلم : ٤٨] ، ويقول : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ﴾ [يوسف : ١١١] ؛ إلى آخر الآيات القرآنية التي نزلت لتثبيت قلب النبيِّ ﷺ وفؤاده ؛ بل ويقول له : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ [الطور : ٤٨] ، ويقول الله له : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾[المائدة:٦٧]. ونزلت هذه الآية لتُثبِّتَهُ حالَ الشدةِ والكربِ.

وأقول : إذا كان قلب النبيِّ ﷺ المجتبى يحتاج في طريق الدعوة والأزمات إلى تثبيت ، فقلوب من سلك طريقه وسار على دربه تحتاج هي الأخرى لتثبيت .

الهدف الثالث : تثبيت أفئدة المؤمنين مع فؤاد النبيِّ ﷺ .

فكان القرآن يتنزل بحسب الوقائع والأحداث التي كان يتعرض لها فينزل القرآن ليعلم أصحاب النبيِّ ﷺ .

إذن ؛ فلترتيب النزول أسرار وحِكَم ، ومعاني عظيمة .

وسنقف على بعض هذه الحكم والأسرار بالتوقُّف مع بعض آيات القرآن الكريم بإذن الله ـ جَلَّ وَعَلاَ .

أسباب نزول الآيات

ذكرت أن القرآن نزل منجَّمًا لمراعاةِ حاجةِ الدعوةِ الجديدةِ وللتدرج بالناس شيئًا فشيئًا ، لحِلِّ مشكلاتهم ، وللإجابة على أسئلتهم واستفساراتهم ، فكان لزامًا أن يكون الترتيب هكذا . لا كما نراه الآن في المصحف بين أيدينا .

فالقرآن يساير الحوادث والوقائع والأزمات والمشكلات المستجدة ، فكلَّما جدَّ جديد نزل من القرآن ما يناسبه ، وما يُدلي بالحكم فيه .

والنبيُّ ﷺ يحفظ ويقرأ ويفسر ويبين ، ويُعَلِّم أحكام هذه الآيات ، فلا مناص إذًا من أن يتنزل القرآن كما تنزل بالكيفية التي أنزله الله بها ، وهذا لا يُلْزِم بأن يكون هذا الترتيب النزولي هو الترتيب المصحفي .

خذوا لذلك مثلاً : ما ذكره كلُّ أئمة التفسير في تفسير صدر سورة المجادلة ، فالمجَادِلَة هي خولة بنت مالك بن ثعلبة بن خزامة الخزرجية ، ـ ويقال خويلة ـ قالت : ظَاهَرَ مِنِّي زَوْجِي أَوْسُ بْنُ الصَّامِتِ ، فَجِئْتُ رَسُولَ الله ﷺ أَشْكُو إِلَيْهِ ، وَرَسُولُ الله ﷺ يُجَادِلُنِي فِيهِ ، وَيَقُولُ: «اتَّقِي الله ، فَإِنَّهُ ابْنُ عَمِّكِ» فَمَا بَرِحْتُ حَتَّى نَزَلَ الْقُرْآنُ : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ﴾ [المجادلة:١].

إِلَى الْفَرْضِ ؛ فَقَالَ : «يُعْتِقُ رَقَبَةً» قَالَتْ : لَا يَجِدُ . قَالَ : «فَيَصُومُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ» قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله ﷺ إِنَّهُ شَيْخٌ كَبِيرٌ مَا بِهِ مِنْ صِيَامٍ ، قَالَ : «فَلْيُطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِينًا» قَالَتْ: مَا عِنْدَهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَصَدَّقُ بِهِ، قَالَتْ : فَأُتِيَ سَاعَتَئِذٍ بِعَرَقٍ مِنْ تَمْرٍ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله فَإِنِّي أُعِينُهُ بِعَرَقٍ آخَرَ قَالَ :

«قَدْ أَحْسَنْتِ اذْهَبِي فَأَطْعِمِي بِهَا عَنْهُ سِتِّينَ مِسْكِينًا، وَارْجِعِي إِلَى ابْنِ عَمِّكِ»[(١)].

وهذا الحديث عند أحمد وأبي داود وغيرهما من حديث خولة بنت ثعلبة.

تقول عائشة، والحديث في «صحيح البخاري» معلقًا: الْحَمْدُ لله الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لقد جاءت الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وأنا في نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، وَمَا أَسْمَعُ مَا تقولُ فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة:١، ٢][(٢)]. إلى آخر هذه الآيات. فأنزل الله ﷻ الحُكْمَ في هذه القضية.

فهذا بيان من الله ـ تبارك وتعالى ـ الذي وَسِعَ سمعُه الأصوات، فالله يسمع ويرى؛ بل ويعلم السرَّ وأخفى، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتشتكي المرأة ـ وهي لا تدري حكمًا ـ وأجابها الرسول بشيء فأنزل الله ﷻ تصحيحًا للجواب وبيانًا للحكم صدر سورة المجادلة.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٢١٤) في كتاب الطلاق، باب في الظهار، وأحمد (٦ / ٤١٠) وابن حبان (١٣٣٤)، والبيهقي (٧/ ٣٨٩)، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (٢٠٨٧) بشواهده.

(٢) أخرجه البخاريُّ معلقًا في كتاب التوحيد، باب وكان الله سميعًا بصيرًا، ووصله أحمد في «مسنده» (٦/ ٤٦)، وابن ماجة (١٨٨) واللفظ له، والنسائي (٦/ ١٦٨)، وصحَّحه الحافظ ابن حجر في «تغليق التعليق» (٥/ ٣٣٩)، وصحَّحه الألباني في تعليقه على «السنة» لابن أبي عاصم (٦٢٥).

مثال آخر :

رَوَى البخاريُّ[(١)] عن ابن أبي مليكة قال : كَادَ الخَيِّرَانِ أَنْ يَهْلِكَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ (سبحان ربي ! كيف ذلك ؟!) رَفَعَا أَصْوَاتَهُمَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِ رَكْبُ بَنِي تَمِيمٍ ، فَأَشَارَ أَحَدُهُمَا بِالأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ أَخِي بَنِي مُجَاشِعٍ ، وَأَشَارَ الآخَرُ بِرَجُلٍ آخَرَ . فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ : مَا أَرَدْتَ إِلَّا خِلَافِي ، قَالَ : مَا أَرَدْتُ خِلَافَكَ ، فَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمَا فِي ذَلِكَ ، فَأَنْزَلَ الله :﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات : ٢] .

هذا هو كلُّ ما نطق به أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فقط ، فنزل القرآنُ يربِّي ويؤدب ؛ بل إن شئت فقل : نزل القرآن ليبين لأصحابه وللأمة من بعدهم قدْرَ رسول الله ﷺ عند الله تعالى .

انظر إلى الوعيد الذي يخلع القلب ، يُحذر الله من مجرَّد رفع الصوت على النبيِّ ﷺ وإلا حبط العمل ، وضاع العمل كلُّه ، ولك أن تتصور الآن ـ إلا من رحم ربي من أفرادٍ ـ لا أقول ترفع صوتها على صوت النبيِّ ﷺ بل على أمره ونهيه وحَدِّه وشرعه !!! لا ـ بل تتهم شرع رسول الله ﷺ بالجمود والرجعية والتخلف والتأخر ، وعدم قدرة هذا الشرع على مسايرة مدنية القرن الحادي والعشرين .

يقول ابن القيم : «فإذا كان رفع أصواتهم فوق صوته سببًا لحبوط أعمالهم ؛

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، في كتاب التفسير ، باب برقم﴿ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ﴾ (٤٨٤٥) .

فكيف تقديم آرائهم وعقولهم وأذواقهم وسياستهم ومعارفهم على ما جاء به ورفعها عليه ؟! أليس هذا أولى أن يكون محبطًا لأعمالهم »[١] .

هذا قول ابن القيم رحمه الله في زمانه ! وأنا أقول لابن القيم فكيف إذا عشت زماننا ؟!!

لما نزلت الآية ، وسمعها الصدِّيق وعمر رضي الله عنهما ، ماذا كان منهما ؟

انظر إلى رد الفعل الذي ينمُّ عن إيمان راسخ في القلوب ، ماذا كانت النتيجة لما نزل القرآن ؟ امتثلوا الأمر ، بل إن شئت فقل : انخلعت قلوبهم ، فالصدِّيق يقول للنبيِّ ﷺ : والذي بعثك بالحق لا أكلمك بعد اليوم إلا كأخي السرار ، يعني : كالذي يقول لأخيه سرًا من الأسرار ، وكان عمر لا يسمعُ النبيُّ ﷺ كلامَه بعد هذه الآية حتى يستفهمَه رسولُ الله ﷺ ، أي : حتى يستوضح منه ما يقول[٢] .

إنه الأدب ، إنه الانصياع ، إنه الانقياد للقرآن .

وها هو القرآن الذي أدَّبَ الله به الصحابة لا زال موجودًا بيننا يتلى علينا في الليل والنهار .

لكن الفرق كبير ، والبون شاسع بين ما كان الصحابة عليه وما صرنا إليه .

ترى الأعرابي البسيط يسمع القارئ يقرأ قولَ الله تعالى :﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ

(١) انظر : « إعلام الموقعين » لابن القيم (١ / ٥٦) .
(٢) انظر: البخاريَّ (٤٨٤٥) ، « فتح الباري » (٨ / ٤٥٦) .

تَنطِقُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٢، ٢٣] .

فماذا قال الأعرابيُّ؟ قال : يا سبحان الله ! مَنْ ذَا الذي أغضب الجليل حتى يقسم[1] .

انظر إلى فهمهم للقرآن .

وسمع آخر القارئ يقرأ قول الله تعالى : ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٨] ؛ فقرأها : والله غفور رحيم !! فقال الأعرابيُّ : أهكذا أنزلت ؟ قال : نعم ، قال : لا والله ، فعاد إلى القرآن ، فوجد الآية هكذا : ﴿ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ . فقال الأعرابيُّ : أشهد أن الذي أنزل هذا القرآن هو الله .. فطرة عجيبة جدًّا !!

وهذا الأصمعيُّ ـ عالمٌ من علماء اللغة : سمع أعرابية تنشد أبياتًا رائعة تقول فيها :

أَسْتَغْفِرُ اللهَ لِذَنْبِي كُلِّهِ   قَبَّلْتُ إِنْسَانًا بِغَيْرِ حِلِّهِ
مِثْلُ الغَزَالِ نَاعِمٌ فِي دَلِّهِ   فَانْتَصَفَ اللَّيْلُ وَلَمْ أُصَلِّهِ

فقال لها الأصمعيُّ : ما أفصحكِ ! أيتها الفتاة ، فقالت : يا هذا وهل بعد قول الله فصاحة .قال : ماذا تقصدين ؟ قالت : أقصد قول الله ـ جَلَّ وعَلاَ ـ لأم موسى: ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ

(١) أخرجه ابن قدامة المقدسي في «التوَّابين» (٢٧٣ ، ٢٧٤ ط الكتب) تعليقًا عن الأصمعي قوله . انظر : « الكشاف » للزمخشري (٤ / ١٧) . و« القرطبي » في تفسير الآية .

إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٧] .

قال : وما وجه البلاغة في الآية ؟ قالت : يا هذا ! آية واحدة اشتملت على أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين[١] .

سبحان من رزق هذه العقول هذا الفهم !!

فنزل القرآن ليؤدب وليربي الصحابة ﷺ حتى خاف الواحدُ منهم أن يسأل رسولَ الله ﷺ ؛ والحديث في «صحيح مسلم» من حديث أنس، يقول: « نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسولَ الله ﷺ عَن شَيْءٍ فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ البَادِيَةِ . العَاقِلُ . فَيَسْأَلُهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ»[٢] .

وبلغ حبُّهم وإجلالهم لرسول الله ﷺ مبلغًا تخجلُ أمامه كلماتُ اللغة ، حتى كان النبيُّ ﷺ يسألهم بعد ذلك عن الشيء المعلوم لهم فيخشى الواحدُ منهم أن يجيب.

ففي الحج في مكة وهم معه ؛ يقول لهم ـ كما في البخاريِّ ومسلم[٣] من حديث أبي بكرة ﷺ أنه ﷺ قال : «أَيُّ يَوْمٍ هَذَا ؟» فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيه سِوىَ اسْمه ، قَالَ: « أَلَيْس يَوْمَ النَّحْرِ؟ » قُلْنَا : بَلَى ! قَالَ: « فَأَيُّ شَهْرٍ هَذَا ؟» فَسَكَتْنَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيه بِغَيْرِ اسْمه، فَقَالَ: « أَلَيْس ذا الحِجَّةِ؟» قُلْنَا : بَلَى . قَالَ: « فَأَيُّ بَلَدٍ هَذَا ؟» قُلْنَا: الله وَرَسُولُه

---

(١) انظر : « تفسير القرطبي » (١٣ / ٢٠٣) (لسورة القصص :٧) .

(٢) تقدم تخريجه . وهو في مسلم (١٢) .

(٣) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العلم ، باب قول النبيِّ ﷺ : «رُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ» (٦٧) ، وانظر أطرافه هناك . وبرقم (١٦٥٤) ، ومسلم ، كتاب القسامة ، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال (١٦٧٩) .

أَعْلَمُ ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيه بِغيْرِ اسْمه، فَقَالَ: « أَلَيْس البَلَدَ الحَرَامَ ؟» قُلْنَا : بَلَى. قَالَ:« فَإِنَّ دمَاءَكُمْ وَأَمْوالَكُمْ وَأَعْراضَكُمْ بَيْنَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَومِكُمْ هَذَا ، فِي شَهرِكُمْ هَذَا ، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا » .

انظر إلى هذا الشعور المرهف بالاتباع العالي الدقيق للنبيِّ ﷺ .

ومن هذه الأمثلة أيضًا ؛ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾[النور:١١] إلى آخر عشر آيات من أول سورة النور، نزلت هذه الآيات تعالج قضيةً من أخطر القضايا ؛ بل إنها أعصفُ قضية واجهت رسول الله ﷺ ؛ لأن الرسول ﷺ هنا يتهم في عرضه ، وفي شرفه ، وفي صيانة حرمة بيته ، وهو القائم على صيانة الحرمات كلها في أمته ، وتتهم زوجتُه الحبيبةُ والقريبةُ إلى قلبه بالخيانة تُتَّهم عائشة رضي الله عنها !!! وتُتَّهم بصحابيٍّ عَلَمٍ مثالٍ للطهر والعفة ؛ إنه صفوان بن المعطل السلمي رضي الله عنه.

وهذا الحديث أخرجه البخاريُّ ومسلمٌ [(١)] من حديث الزهري عن سعيد بن المسيب ، وعُروةَ بن الزبيرِ ، وعلْقَمَةَ بن وقَّاصٍ ، وعُبيْدِ الله بنِ عبدِ الله بنِ مَسْعُودٍ عَنْ عَائشَةَ ، زَوْجِ النَّبيِّ ﷺ حينَ قالَ أهلُ الإفكِ ما قالوا ، فَبَرَّأها الله مِمَّا قالوا، قال الزهريُّ : وكُلُّهم حَدَّثني طائفةً من حدِيثها، وبعضهم كان أَوْعى لحديثها منْ بعْضٍ وأثبتَ اقْتِصاصًا ، وقد وَعَيْتُ عنْ كلِّ واحدٍ منهم الحديثَ الذِي حدَّثني ، وبعضُ حديثهم

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب الشهادات ، باب تعديل النساء ، بعضهن بعضًا ، برقم (٢٦٦١) ، ومسلم في كتاب التوبة ، باب في حديث الإفك ، وقبول توبة القاذف برقم (٢٧٧٠) .

يُصدِّقُ بعضًا . ذكروا أنَّ عائشَةَ ، زوجَ النبيِّ ﷺ قالتْ : كان الرسولُ الله ﷺ إذا أرادَ أنْ يَخرجَ سفَرًا أقْرَعَ بينَ نِسائِهِ فأيَّتُهُنَّ خرجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بها رسولُ الله ﷺ مَعَهُ .

قالتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْننا في غَزْوَةٍ غَزاها فَخَرَجَ فيها سَهْمِي فَخَرَجْتُ مع رسولِ الله ﷺ، وذلكَ بعدَ ما أُنزِلَ الحِجَابُ فأنا أُحمَلُ في هوْدَجِي وأُنزَلُ فيه مَسِيرَنَا حَتَّى إذا فَرَغَ رسولُ الله ﷺ من غَزْوِه وَقَفَلَ ، وَدَنَوْنا من المدينة آذَنَ لَيْلَةً بالرَّحِيلِ ، فقُمتُ حِينَ آذَنوا بالرَّحِيلِ فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوزْتُ الجَيْشَ فلمَا قَضَيْتُ من شَأني أقْبَلْتُ إلى الرَّحْلِ ، فلَمَسْتُ صَدرِي فإذا عِقْدِي من جَزْعِ أظْفَارٍ قدْ انقَطَعَ فرَجَعْتُ فَالتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتغَاؤُه فَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الذين كانوا يرْحَلُونَ لِي فَحَمَلُوا هَوْدَجِي فرَحَلُوهُ على بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أرْكَبُ وهُم يَحْسَبُون أنِّي فِيهِ .

قالت : وَكَانَتِ النِّسَاءُ إذْ ذاك خِفَافًا لم يُهَبَّلْنَ ولم يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ ، وَإِنَّما يَأكلْنَ العُلْقَةَ منَ الطَّعامِ ، فلم يَستَنْكِرِ القومُ ثِقَلَ الهَوْدَجِ حين رَحَلُوهُ ورَفَعُوهُ ، وكنتُ جاريةً حديثةَ السِّنِّ ، فَبعثُوا الجَمَلَ وسَارُوا ، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بعدَ ما استَمَرَّ الجَيْشُ ، فجئتُ منازِلَهُمْ وليْسَ بها داعٍ ولا مُجِيبٌ ، فَتيَمَّمْتُ منزِلِي الذي كُنتُ فيه ، وظَنَنْتُ أنَّ القومَ سَيَفْقِدوني فيَرجعون إلي ، فبينا أنا جالسَةٌ في منزلي غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمتُ ، وكان صَفْوانٌ بنُ المعطَّل السُّلَمِيُّ ، ثم الذَّكْوَانِيُّ قدْ عَرَّسَ من وَراءِ الجَيْشِ فادَّلَج ، فأصبحَ عندَ منزِلي ، فَرَأى سَوَادَ إنسانٍ نائِمٍ ، فأتَانِي فَعرَفَني حينَ رآني ، وقَدْ كَانَ

يَرانِي قبلَ أنْ يُضربَ الحجابُ عَلَيَّ ؛ فاسْتَيْقَظْتُ باسترْجاعِهِ حينَ عرفَني ، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بجِلْبَابِي ، وواللهِ ما يُكَلِّمُنِي كَلِمةً وَلا سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ حَتَّى أَنَاخَ رَاحلتَهُ ، فَوَطِأَ عَلَى يَدِهَا فَرَكِبْتُهَا ، فانْطَلَقَ يَقُودُ بِيَ الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الجَيْشَ بعدَ ما نَزَلُوا مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرةَ فَهَلَكَ مَنْ هَلكَ فِي شَأْنِي ، وكان الذي تَوَلَّى كِبْرَهُ عبدُ الله بنُ أُبَيِّ بن سَلُولَ ، فَقَدِمْنَا المدينَةَ ، فَاشْتَكَيْتُ حينَ قَدمْنَا المدينَةَ شَهْرًا ، والنَّاسُ يُفيضُونَ في قَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ ، وَلا أَشْعُرُ بِشَيْءٍ منْ ذَلكَ ، وهُوَ يَرِيبُنِي في وَجَعي ، أنِّي لا أَعْرِفُ مِنْ رسُول الله ﷺ اللُّطْفَ الذي كنتُ أَرَى مِنْهُ حينَ أَشْتَكي ، إنَّما يَدْخُلُ رسولُ الله ﷺ فيُسَلِّمُ ، ثمَّ يَقُولُ : «كيفَ تِيكُمْ ؟» فذاكَ يَرِيبُنِي ، ولا أَشْعُرُ بالشَّرِّ ، حتَّى خَرَجْتُ بعدَ ما نَقَهْتُ وخَرَجَتْ معي أُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ ، وَهُوَ مُتَبَرَّزُنَا . وَلاَ نَخْرُجُ إلاَّ لَيْلًا إِلَى لَيْلٍ . وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ الكُنُفَ قَرِيبًا مِنْ بُيُوتِنَا ، وَأَمْرُنَا أَمْرُ العَرَبِ الأُوَلِ فِي التَّنَزُّهِ ، وَكُنَّا نَتَأَذَّى بِالكُنُفِ أَنْ نَتَّخِذَها عندَ بُيُوتِنَا فانْطَلَقْتُ أَنَا وأُمُّ مِسطَحٍ ، وَهِيَ بنتُ أَبِي رُهْمٍ بنِ المُطَّلِبِ بنِ عبدِ مَنَافٍ . وَأُمُّهَا ابْنَةُ صَخْرِ بنِ عَامِرٍ ، خَالَةُ أَبِي بكرٍ الصدِّيقِ ، وابْنُها مِسطَحُ بنُ أُثَاثَةَ بنِ عَبَّادِ بنِ المطَّلبِ ، فَأَقْبَلْتُ أنا وبنتُ أَبِي رُهْمٍ قِبَلَ بَيْتِي ، حينَ فَرَغْنا منْ شَأْنِنا فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسطَحٍ فِي مِرْطِها ، فقالَتْ : تَعِسَ مِسْطَحٌ ، فقُلْتُ لها : بِئْسَ ما قُلْتِ. أَتَسُبِّينَ رَجُلًا قَدْ شَهِدَ بَدْرًا ! قالَتْ : أَيْ هَنْتَاه ! أَولَمْ تَسْمَعِي ما قال ؟ قُلْتُ : وَمَاذَا قَالَ ؟ قَالَتْ : فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ ، فازْدَدْتُ مَرَضًا إِلَى مَرضِي . فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي ، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ الله فَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ : «كَيْفَ تِيكُمْ ؟» قُلْتُ :

أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ ؟ قالَتْ : وَأَنا حِينَئِذٍ أُرِيدُ أَنْ أَتَيَقَّنَ الخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا فَأَذِنَ لِي رَسُولُ الله ﷺ ، فَجِئْتُ أَبَوَيَّ فَقُلْتُ لأُمِّي : يَا أُمَّتَاهُ ! مَا يَتَحدَّثُ النَّاسُ ؟ فقالَتْ : يَا بُنَيَّةُ ! هَوِّنِي عَلَيْكِ ، فوَالله ! لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةٌ عندَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا ، ولها ضَرَائِرُ إلاَّ كَثَّرنَ عَلَيْها ، قالتْ : قلت : سُبْحَانَ الله !! وَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا ؟ قَالَتْ : فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حتَّى أَصْبَحْتُ لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ ولا أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ ، ثمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي ، وَدَعَا رسولُ الله ﷺ عَلِيَّ بنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسامَةَ بنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الوَحْيُ . يَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ ، قالَتْ : فَأَمَّا أُسَامَةُ بن زَيْدٍ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ بالذِي يَعْلَمُ منْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ ، وبالذِي يعلَمُ فِي نَفْسِهِ لهمْ منَ الوُدِّ فقالَ : يَا رسولَ الله ! هُمْ أَهْلُكَ ولا نَعْلَمُ إلاَّ خَيْرًا ، وأَمَّا عليُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ فقالَ : لمْ يُضَيِّقِ الله عَلَيْكَ . والنِّسَاءُ سِوَاها كَثِيرٌ . وإِنْ تَسْأَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ . قالَتْ : فَدَعا رسولُ الله ﷺ بَرِيرَةَ فقالَ : «أَيْ بَرِيرَةُ ! هلْ رَأَيْتِ مِنْ شيءٍ يَرِيبُكِ منْ عَائِشَةَ ؟ » ، قالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ : والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ ! إنْ رَأَيْتُ عليْها أَمْرًا قطُّ أَغْمِصُهُ عَلَيْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنَّها جارِيَةٌ حديثَةُ السِّنِّ ، تَنَامُ عن عَجِينِ أَهْلِها فتَأْتِي الدَّاجِنُ فتَأْكُلُهُ ، قَالَتْ : فَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ على المِنْبَرِ ، فاسْتَعْذَرَ مِنْ عبدِ الله بْنِ أُبَيِّ بن سَلُول ، قالتْ : فقالَ رَسُولُ الله ﷺ وَهُوَ عَلى المِنْبَرِ : «يَا مَعْشَرَ المُسْلِمينَ ! مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قدْ بَلَغَ أَذَاهُ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، فوالله ! مَا عَلِمْتُ على أَهْلِي إلاَّ خَيْرًا ، ولقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا ما عَلِمْتُ عَلَيْهِ إلاَّ خَيْرًا ، وَمَا كَانَ يَدْخُلُ علَى أَهْلِي إلاَّ مَعِي » . فقامَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ الأنصارِيُّ فقالَ : أَنا أَعْذِرُكَ مِنْهُ يا رسولَ

الله !! إنْ كَانَ منَ الأوْسِ ضَرَبْنَا عُنُقَهُ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إخْوَانِنَا الخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ .

قَالَتْ : فقامَ سعدُ بنُ عُبَادَةَ ، وهُو سيِّدُ الخَزْرَجِ . وكانَ رَجُلًا صالحًا ، ولكنِ اجْتَهَلَتْهُ الحَمِيَّةُ ، فقالَ لسَعْدِ بنِ مُعاذٍ : كَذَبْتَ ، لَعَمْرُ الله ! لا تَقْتُلُهُ ولا تَقْدِرُ على قَتْلِهِ ، فقَامَ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْرٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ ، فقالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ : كَذَبْتَ . لَعَمْرُ الله ! لَنَقْتُلَنَّهُ . فَإِنَّكَ مُنافِقٌ تُجادِلُ عنِ المُنَافِقِينَ ، فَثَارَ الحَيَّانِ الأَوْسُ والخَزْرَجُ ، حتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا وَرَسُولُ الله ﷺ قَائِمٌ عَلَى المِنْبَرِ ، فَلَمْ يَزلْ رَسُولُ الله ﷺ يُخَفِّضُهُمْ حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ .

قالتْ : وَبكَيْتُ يَوْمِي ذلكَ ، لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ ، ولا أَكْتَحِلُ بنوم ، ثُمَّ بَكَيْتُ لَيْلَتِي المُقْبِلَةَ . لا يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ ولا أَكْتحِلُ بنوم ، وَأَبَوَايَ يَظُنَّانِ أَنَّ البُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي ، فَبَيْنَمَا هُما جَالِسَانِ عِنْدِي ، وَأَنا أَبْكِي ، اسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ فَأَذِنتُ لها ، فَجَلَسَتْ تَبْكِي ، قالتْ : فَبَيْنَا نحنُ عَلَى ذَلِكَ دخَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ الله ﷺ فسلَّمَ ثمَّ جَلَسَ .

قَالَتْ : ولمْ يَجْلِسْ عِنْدِي منذُ قِيلَ لِي مَا قِيلَ . وَقدْ لَبِثَ شَهْرًا لا يُوحَى إِلَيهِ فِي شَأْنِي بِشَيءٍ ، قالتْ : فَتَشَهَّدَ رَسُولُ الله ﷺ حينَ جَلَسَ ثمَّ قالَ : «أَمّا بَعْدُ . يَا عَائِشَةُ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذاَ وَكَذاَ ، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ الله ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْـمَمْتِ بِذَنْبٍ ، فاسْتَغْفِرِي الله وتُوبِي إِلَيْهِ ؛ فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبٍ ثمَّ تَابَ ، تَابَ الله عَلَيْه».

قَالَتْ : فلمَّا قَضَى رَسُولُ الله ﷺ مَقَالَتَهُ ، قَلَصَ دَمْعِي حتَّى ما أُحِسُّ

مِنْهُ قَطْرَةً ، فقلْتُ لأَبِي : أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ الله ﷺ فِيمَا قَالَ ، فَقَالَ : وَالله ! مَا أَدْرِي مَا أقولُ لِرَسُولِ الله ﷺ ، فقلْتُ لأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ الله ﷺ .

فقالتْ : والله !مَا أَدْرِي مَا أقولُ لِرَسُولِ الله ﷺ .

فَقُلْتُ ، وَأَنَا جارِيَةٌ حدِيثَةُ السِّنِّ ، لا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ القُرآن : إنِّي والله ! لَقَدْ عَرَفْتُ أَنَّكُمْ قدْ سَمِعْتُم بهذَا حتَّى اسْتَقَرَّ فِي نُفُوسِكُمْ وصَدَّقْتُمْ بِهِ ، فَإِنْ قلتُ لكمْ إنِّي بَرِيئَةٌ ، والله يعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ ،لا تُصَدِّقُونِي بذَلِكَ ، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ ، واللهُ يعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ ، لَتُصَدِّقُونَنِي.. وَإِنِّي ، والله ! مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إلاَّ كَمَا قَالَ أَبُو يُوسُفَ :﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف :١٨] .

قالتْ : ثمَّ تَحَوَّلْتُ فاضْطَجَعْتُ علَى فِرَاشِي ، قالتْ : وَأنا ، والله ! حِينئذٍ أَعْلَمُ أنِّي بَرِيئَةٌ . وَأَنَّ الله مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي . ولكنْ ، والله ! ما كُنْتُ أَظُنُّ أَنْ يُنْزَلَ فِي شَأْنِي وَحْيٌ يُتْلَى ، وَلَشَأْنِي كَانَ أَحْقَرَ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يَتكَلَّمَ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ فِيَّ بأَمْرٍ يُتْلَى ، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ الله ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيا يُبَرِّئُنِي الله بِهَا ، قالتْ : فوالله ! ما رَامَ رسولُ الله ﷺ مَجْلِسَهُ ، ولا خَرَجَ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ أحدٌ ، حتَّى أَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ على نبيِّهِ ﷺ فَأَخَذَهُ ما كانَ يَأْخُذُهُ منَ البُرَحَاء عندَ الوحيِ ، حتى إنَّه لَيَتَحَدَّرُ منهُ مِثْلُ الجُمَانِ مِنَ العَرَقِ ، فِي اليَوْمِ الشَّاتِ ، منْ ثِقَلِ القَوْلِ الذي أُنزِلَ عليْهِ .

قَالَتْ: فلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رسولِ الله ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ ، فَكَانَ أَوَّلَ كلِمَةٍ تكلَّمَ بها أَنْ قالَ : « أَبْشِري . يا عائِشَةُ ! أَمَّا الله فَقَدْ بَرَّأَكِ » .

فقالتْ لي أمِّي : قُومِي إِلَيْهِ .

فقلتُ : والله ! لَا أَقومُ إليهِ ، وَلَا أَحْمَدُ إلَّا الله ، هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ بَرَاءَتِي ، قَالَتْ : فأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[النور : ١١] ، عَشْرَ آيَاتٍ ، فَأَنْزَلَ الله ﷻ هَؤُلاءِ الآياتِ بَرَاءَتِي .

قالتْ : فقالَ أبو بكرٍ ، وكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ لِقَرَابَتِهِ منهُ وَفَقْرِهِ : والله لا أُنفِقُ عَلَيْهِ شَيْئًا أَبدًا بعدَ الَّذي قَالَ لعَائِشَةَ ؛ فَأَنْزَلَ الله ﷻ ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[النور : ٢٢] .

قالَ حِبَّانُ بنُ مُوسى : قَالَ : عبدُ الله بنُ الْمُبَارَكِ : هذِه أَرْجَى آيَةٍ فِي كتابِ الله .

فقالَ أبـو بكرٍ : والله ! إنِّي لأحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ الله لي ، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ التي كانَ يُنْفِقُ عليهِ ، وقال : لا أَنْزِعُهَا مِنْهُ أبدًا .

قالتْ عائِشَةُ : وكانَ رَسُولُ الله ﷺ سَأَلَ زَيْنَبَ بنتَ جَحْشٍ . زَوْجَ النبيِّ ﷺ عَنْ أَمْرِي : « ما عَلِمْتِ ؟ أَوْ مَا رَأَيْتِ ؟» قالتْ : يا رسولَ الله ! أَحْمِي سَمْعِي وَبَصَرِي ، والله! مَا عَلِمْتُ إلاَّ خَيْرًا» .

قالـتْ عائشَـةُ : وهـي التـي كانـتْ تُسَـامِينِي مِـنْ أَزْوَاجِ النبـيِّ ﷺ

فَعَصَمَهَا الله بالوَرَعِ ، وَطَفِقَتْ أُخْتُهَا حَمْنَةُ بنتُ جَحْشٍ تُحَارِبُ لها ، فَهَلَكَتْ فِيمَنْ هَلَكَ .

أيها الأفاضل : والأمثلة تطول ؛ فلو وقفت مع كلِّ آيةٍ لرأيت لها سبب نزول ، وهذا علم مستقل يُسمَّى علم أسباب النزول ، يتنزل فيها القرآن بحسب الوقائع والأزمات والمشكلات ، بل ويتنزل ليجيب عن أسئلتهم .

تدبَّر معنى هذه الآيات ؛ كقول الله ﷻ: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ [البقرة:٢٢٠] ، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩] ، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ [البقرة:٢٢٢] ، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ ﴾ [البقرة : ٢١٥] ، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة٢١٧] ، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ [البقرة : ٢١٩] ، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ﴾ [المائدة : ٤] ، ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء : ٨٥] ، ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال : ١].

وروى الإمام البخاريُّ ومسلم (١) عن علقمة عن عبد الله قال :

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العلم ، باب قول الله تعالى : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] (١٢٥) وانظر أطرافه هناك ، ومسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب سؤال اليهود النبيَّ ﷺ عن الروح (٢٧٩٤) .

« بَيْنَما أنا أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ في خِرَبِ المدِينَةِ ، وهو يَتَوَكَّأُ عَلَى عَسِيبٍ معَهُ ، فَمَرَّ بنَا نَفَرٌ منَ اليَهُودِ ، فقالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : سلُوهُ عنِ الرُّوحِ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لا تَسْأَلُوهُ لا يَجِيءُ فيهِ بِشَيءٍ تكْرَهُونَ : فقالَ بَعْضُهُمْ : لَنَسْأَلَنَّهُ ، فقامَ رَجُلٌ منهمْ فقالَ : يا أبَا القَاسِمَ ! ما الرُّوحُ ؟ فَسَكَتَ . فقلتُ : إِنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ ، فَقُمْتُ مَكَانِي . فلَمَّا انْجَلَى عنْهُ ، فقالَ تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء:٨٥] .

ومن ذلك أيضًا ؛ سؤالهم عن فتية فُقِدُوا في أول الزمان (هم أصحاب الكهف) .

وسألوه عن رجلٍ بَلَغ مشرق الشمس ومغربها فأنزل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ سورة الكهف ، فقصَّ الله فيها قصة أهل الكهف ، وقصة ذي القرنين [(١)].

أيضًا ينزل القرآن الكريم ليُلفت أنظار المسلمين إلى أخطائهم ليربيهم ويوجههم :

أخرج البيهقي في «الدلائل» [(٢)] عن الرَّبيع بن أنس ـ مرسلا ـ أن رجلًا قال يوم حنين : لن نغلب اليوم من قلة ـ وكانوا اثنا عشر ألفًا!

---

(١) «السيرة» لابن هشام (١/ ١٨٦ ، ١٨٧) ، وابن جرير في « التفسير » (١٥/ ١٩١ ، ١٩٢) و« ابن كثير» (٩/ ١٠٣ ، ١٠٤) .

(٢) أخرجه البيهقي في « الدلائل» (٥/ ١٢٣-١٢٤) عن الربيع مرسلا ، ويونس بن بكير في المغازي ؛ كما في « الفتح » لابن حجر (٨/ ٢٧) ، وأخرجه الطبري في (« تفسيره» لسورة التوبة: ٢٥) عن السدي قوله . وبنحوه عند البزار ؛ كما في « مجمع الزوائد» بسندٍ ضعيف عن أنس رضي الله عنه

فأعجبوا بكثرتهم ، واعتمدوا على عَددهم وَعُدَّتِهم ـ فشقَّ ذلك على النبيِّ ﷺ فأنزل الله تعالى :﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥].

حينما اغترت القلوب بالكثرة والعدد وضعف التوكل واليقين في علام الغيوب ، كانت الكرة على المسلمين فلما أفاءوا وعادت القلوب إلى الله ولجأوا إلى الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ وتخلَّصوا من حولهم وطَوْلهم وقوتهم كان النصر من عند الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ ليعلم كل مؤمن على ظهر الأرض كلها بأن الله لن ينصرنا بكثرة عتاد أو عدد ، لا تفهم أن هذا الأمر تضييع لقانون الأخذ بالأسباب ، لا ! بل خذ بالأسباب ، لكن المؤمن يأخذ بالأسباب وقلبه لا يتعلق بالأسباب ، ولكنه يتعلق بمسبب الأسباب .

وقال تعالى في سورة آل عمران مؤدِّبًا أصحاب النبيِّ ﷺ ومعلِّمًا لهم في غزوة أحد :﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران : ١٢١ـ ١٢٥] .

هذه الآيات تعلِّم أصحابَ النبيِّ ﷺ ، وتهذِّب النفوس ، وتربِّي

القلوب ، وتربطها بعلام الغيوب ـ جَلَّ وَتَعَالَى ـ وفي ربط الوجدان والعقل بالوحي على هذه الصورة ، قمة التثبيت للعقيدة ، وهذا أبلغ من كلِّ كلام في موازين التربية التعليمية الحديثة التي تشاهدها الآن ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ [الفرقان:٣٣].

وهكذا يتبين لنا أن القرآن كان يتنزل ليربِّي ، ويعالج وفق الأزمات والمشكلات والأقضيات والحوادث ، والغرض من هذا كلِّه أن يثبت الله بالقرآن فؤاد النبيِّ ﷺ وأفئدة المؤمنين معه ، وكذلك الآيات التي كانت تتنزل لتثبت المؤمنين ، وتبشرهم بالنصر وتبشر النبيَّ ﷺ بالنصر ، وتبشر المؤمنين بالتمكين .

كقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ﴾ [النور:٥٥] ، وقوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ﴾ [يوسف : ١١٠] ، وكقولة ﷻ : ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة : ٢١] ، وكقوله ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ [النساء : ١٢٢] ، ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء : ٨٧] .

ومن الحِكَمِ الكثيرة أيضًا في نزول القرآن منجَّمًا : تيسيرُ حفظِ القرآن على المسلمين ؛ فلو نزل القرآنُ جملةً واحدة لعجزوا في أول الأمر عن حفظه إلا إذا شاء الله تعالى ؛ فشاء سبحانه وتعالى أن يُنزل القرآن إليهم مفرَّقًا ليسهل عليهم حفظه ، وليتهيأَ لهم استظهاره ، خاصة أنهم كانوا مشغولين في أول الأمر بنشر الدعوة ، وبالتحرك ، وبالجهاد ، والقتال ضد المشركين ، فكان يَلزَمُهُمْ أن تنزل آيات القرآن هكذا مفرقة ليتيسر عليهم حفظ كتاب الله ـ جَلَّ وَعَلا ، وليسهل عليهم فهم القرآن ، وتدبر القرآن ، وليبلغ بهم القرآن مبلغ الكمال في التحلي بعقيدة التوحيد وبأخلاق هذا الدين ؛ فكلَّما شرد شاردٌ نزل القرآن يعلِّم ، وكلَّما أخطأ مخطئ نزل القرآن يربي ، ثم انتقل بهم بعد ذلك بعد مرحلة تثبيت العقيدة ، إلى مرحلة العبادات فبدأهم بفرضية الصلاة قبل الهجرة ، وثنَّى بالزكاة والصوم في السنة الثانية من الهجرة ، وختم بالحج في السنة السادسة من الهجرة ، وكذلك كان الشأن في العادات زجرهم عن الكبائر ، ثم نهاهم عن الصغائر .. وتدرج بهم في تحريم ما كان مستأصلًا فيهم ـ كالخمر ـ تدرجًا حكيمًا ، حقَّق الغاية ، وأنقذهم من كابوسها في النهاية ، وكان الإسلام في انتهاج هذه الخطة المثلى أبعد نظرًا ، وأهدى سبيلًا ، وأنجح تشريعًا ، وأنجح سياسة من تلكم الأمم المتمدينة المتحضرة التي أفلست في تحريم الخمر على شعوبها أفظع إفلاس ، وفشلت نهاية الفشل ، وما عهدُ أمريكا في مهزلة تحريم الخمر ببعيد ، وهى الأمة التي يشار إليها الآن بالبنان ، فهي ما زالت إلى يومنا هذا عاجزة عن تحريم الخمر .

لقد استطاع الإسلام بأوامره ونواهيه وحدوده أن يحرم الخمر على أناس كانت الخمر بالنسبة إليهم ماءً لا يستغنى عن شرابه في لحظة من ليل أو نهار ، لنعلم يقينًا أن هذا القرآن من عند الله الذي خلق النفس ويعلم دروبها ومداخلها .

قال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] .

وهكذا يتضح لنا أن ترتيب النزول القرآني الذي يخالف ترتيبه في المصحف ـ كما بينا ـ يتفق مع حاجة وأطوار الدعوة الجديدة ؛ فلقد كان القرآن يتنزل بحسب الوقائع والأزمات والأحداث .. هذا المنهج الذي اتجه به القرآن أولًا إلى تثبيت العقيدة ، والتي يتسق معها الآيات الأولى في كتاب الله ﷻ تلك الآيات القصيرة القوية التي ألهبت المشاعر ، ورسَّخت العقائد في أعماق الوجدان ؛ كما كان القرآنُ متَّسقًا عندما كان ينزل ليرد على أسئلة السائلين ، وهو متسق أيضًا في ترتيبه النزولي عندما كان يتنزل ليلفت أنظارَ المسلمينِ إلى خطأ معين وقعوا فيه في سِلْمٍ أو حرب ، وأدى نزوله بهذه الطريقة في الأخير إلى تثبيت قلب النبيِّ ﷺ وإلى تثبيت قلوب المؤمنين معه .

هذا هو الاتساق الذاتي في ترتيب القرآن من حيث النزول على قلب النبيِّ ﷺ.

النوع الثاني من أنواعِ الاتساق في كتابِ الله ﷻ ألا وهو الاتساق المصحفي :

من ناحية الآيات والسور في كتابِ الله ﷻ، فالاتساق في ترتيب

المصحف من ناحية السور والآيات توقيفي على الحبيب النبيِّ ﷺ؛ فما كان لكتاب الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ الذي هو معجزة النبي ﷺ الخالدة أن يُتْرَكَ أو أَنْ يُهْمَلَ ! مُحَالٌ أن يَترِكَ النبيُّ ﷺ القرآن الكريم بترتيب آياته وترتيب سُوَرِهِ لاجتهاد أصحابه من بعده، لا ! فأنتم تعلمون أن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ قد اختلفوا، واختلافهم كان لعدة أسباب : من بين هذه الأسباب :

أولًا : عدم بلوغ الدليل لصحابيٍّ من أصحاب رسول الله ﷺ، فإذا بلغهم الدليلُ قالوا به على الفور، فهم أهل اتباع، وأهل اقتفاء لأثر النبيِّ ﷺ، وأهلٌ لامتثال أمره ونهيه، فإذا بلغ أحدهم دليلٌ أو أمرٌ عن رسولِ الله ﷺ امتثل . فإذا لم يبلغ أحدَهُم الدليلُ ربما خالف الصحابيَّ الذي بَلَغَه الدليلُ، فعدم بلوغِ الدليل كان من أهم الأسباب التي وقع الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ في الخلافِ لأجلها، وأضرب لذلك مثالًا :

ما رواه البخاري ومسلمٌ [(١)] عن عبدِ الله بنِ عبَّاسٍ أنَّ عمرَ بن الخطابِ خرجَ إلى الشَّامِ حتَّى إذا كان بِسَرْغَ لَقِيَهُ أَهْلُ الأَجنادِ أبو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الوَبَاءَ قَدْ وقعَ بالشامِ .

قالَ ابنُ عباسٍ : فقالَ عمرُ : ادْعُ لِي المُهَاجِرينَ الأَوَّلِينَ فَدَعَوْتُهُمْ؛ فاسْتَشَارَهُمْ وأَخبرَهُم أَنَّ الوباءَ قد وقعَ بالشامِ، فاخْتَلفوا . فقالَ بعضُهُمْ : قدْ خَرَجْتَ لأمْرٍ ولا نرى أن تَرْجِعَ عنهُ، وقالَ بعضُهُمْ :

---

(١) أخرجه البخاريُّ، في كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، برقم (٥٧٢٩)، وانظر أطرافه هناك، ومسلم في كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها، برقم (٢٢١٩) .

معكَ بَقِيَّةُ الناسِ وَأصحابُ رسولِ الله ﷺ، ولا نرى أن تُقدِمَهُمْ على هذا الوباءِ . فقالَ : ارْتَفعوا عَنِّي . ثم قالَ : ادْعُ لي الأنْصارَ فَدَعَوْتُهُمْ لهُ ؛ فاسْتَشَارَهُمْ فسَلَكوا سبيلَ المهاجرينَ ، واختلفوا كاختلافهم ، فقالَ : ارْتَفعوا عَنِّي . ثم قالَ : ادْعُ لي مَنْ كانَ هَاهُنا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الفَتْحِ ، فَدَعَوْتُهم فلَمْ يَختلِفْ عَلَيْه رجُلان . فقالُوا : نرى أنْ تَرْجِعَ بالنَّاسِ ولا تُقْدِمَهُمْ على هذَا الوَباءِ ، فنادَى عُمَرُ في النَّاسِ : إنِّي مُصْبِحٌ على ظَهْرٍ، فأَصْبَحُوا عليْهِ ، فقالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بنُ الجَرَّاحِ : أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ الله ؟ فقالَ عمرُ : لوْ غَيْرُكَ قالها يا أَبَا عُبَيْدَةَ ! (وكان عمرُ يَكْرَهُ خِلاَفَهُ) نَعَمْ ، نَفِرُّ منْ قَدَرِ الله إلَى قَدَرِ الله ، أَرَأَيْتَ لو كانَتْ لكَ إبِلٌ فَهَبَطَتْ واديًا لهُ عُدْوَتَانِ ، إحْدَاهُما خَصْبَةٌ والأُخْرَى جَدْبَةٌ ، أليسَ إنْ رَعَيْتَ الخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بقدرِ الله ، وإنْ رَعَيْتَ الجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بقدرِ الله ؟ قالَ : فَجَاءَ عبدُ الرّحمنِ بنُ عَوْفٍ ، وكان مُتَغَيباً في بعضِ حاجتِهِ ، فقالَ : إنَّ عِنْدِي مِنْ هذا عِلْمًا ، سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ : « إذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بأَرْضٍ ، فلا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ، وإذَا وَقعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بها ، فلا تَخْرُجوا فِرارًا منهُ » . قالَ : فَحَمِدَ اللهَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ ثمَّ انْصَرَفَ .

فلما سمع الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ الدليل انتهى الخلاف ، فعدم بلوغ الدليل كان سببًا من أسباب الخلاف .

وكذلك ما حدث لأبي موسى الأشعري مع عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

ففي « الصَّحِيحَيْنِ » عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قَالَ كُنتُ فِي مَجْلِسٍ مِنْ مَجَالِسِ الأَنْصَارِ إذْ جاءَ أَبو مُوسَى كأَنَّهُ مَذْعورٌ ، فقالَ : اسْتأْذَنْتُ عَلَى

عُمرَ ثلاثًا فلَمْ يُؤْذَنْ لي فَرَجَعْتُ ، فقالَ : مَا مَنَعَكَ ؟ قلتُ : اسْتأْذَنْتُ ثَلاثًا فلَمْ يُؤْذَنْ لِي فَرَجَعْتُ ، وقالَ رسولُ الله ﷺ : « إذَا اسْتَأْذَنَ أَحَدُكُمْ ثَلاثًا فلَمْ يُؤْذَنْ لهُ فَلْيَرْجِعْ » ، فقالَ : والله لَتُقِيمَنَّ عليْه بِبَيِّنَة ، أَمِنْكُمْ أَحَدٌ سَمِعَهُ منَ النَّبِيِّ ﷺ ؟ فقالَ أُبَيُّ ابن كَعْب : والله لاَ يَقُومُ مَعَكَ إلاَّ أَصْغَرُ القَوْمِ ، فكُنْتُ أَصْغَرَ القَوْمِ ، فقُمْتُ معهُ فَأَخْبَرْتُ عُمَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ ذلكَ »[1] .

وغير ذلك من الأدلة الكثير مما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب « رفع الملام عن الأئمة الأعلام » .

ثانيًا: النسيان: لقد نسي عمرُ بن الخطاب حديث النبيِّ ﷺ في التيمم[2] ؛ فاختلف مع الصحابي الجليل عمار بن ياسر .

ثالثًا : عدم فهم الدليل : فمع أنه ﷺ وحده المعلم ؛ فقد اختلف الصحابة ؛ فقال ﷺ بعد غزوة الأحزاب :« لاَ يُصَلِّيَنَّ أَحَدُكُمُ العَصْرَ إلاَّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ» .

فَأدركَ بعضَهُمُ العَصْرُ في الطريقِ ؛ فقال بعضُهُم : لا نُصَلِّي حَتى نأتِيَهَا ؛ وقال بعضُهُم : بل نُصَلِّي ، لم يُرَدْ منَّا ذلكَ ، فذُكِرَ للنبيِّ ﷺ فلم يُعَنِّفْ واحدًا منهم[3] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الاستئذان ، باب التسليم والاستئذان ثلاثا (٦٢٤٥) ، ومسلم كتاب الآداب ، باب الاستئذان (٢١٥٣) .

(٢) أخرج القصة البخاريُّ في كتاب التيمم ، باب المتيمم هل ينفخ فيهما ، برقم(٣٣٨) ، وانظر أطرافه هناك ، ومسلم في كتاب الحيض ، باب التيمم ، برقم (٣٦٨) مكرر .

(٣) أخرجه البخاريُّ في كتاب الخوف ، باب صلاة الطالب والمطلوب راكبًا وإيماءً ، برقم (٩٤٦) ، ومسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب المبادرة بالغزو ، وتقديم أهم الأمرين المتعارضين ، برقم (١٧٧٠) ، واللفظ للبخاري .

فاختلف الصحابة إلى فريقين :

الأول : حينما أُذِّن للعصر صَلَّى الفريق الأول في الطريق .

والفريق الآخر : أخَّر الصلاة إلى أن يصل إلى بني قريظة ؛ فاختلف الصحابة في فهمهم للمراد من كلام رسول الله ﷺ .

ولكني أودُّ أن أركز في هذه الجزئية على أن النبيَّ ﷺ ما أنكر على فريق من الفريقين ، بل ضم النبيُّ ﷺ الفريقين إلى بعضهم البعض ، وقاتل بهما بني قريظة ، ولم يأمر النبيُّ ﷺ فريقًا من الفريقين بإعادة الصلاة ليحكم ببطلانها .

والذي أودُّ أن أقولَهُ بعد هذه المقولة الموجزة : أن الصحابة اختلفوا فيما لم يبلغهم فيه نصٌّ صحيحٌ عن رسولِ الله ﷺ .

إذًا لو ترك النبيّ ﷺ القرآن لاجتهاد الصحابة ليرتبوا آياته ، وليرتبوا سورَهُ ، دون أمر صريح منه لاختلفوا ، وأعظمُ دليلٍ على أن النبيَّ ﷺ أوقف الترتيب للآيات والسور ، أنّك لا ترى خلافًا البتة على مصحفين على وجهِ الأرض في ترتيب آية أو ترتيب سورة ، إذًا ترتيب الآيات في السورة الواحدة وترتيب السور في القرآن كلّه هذا أمر توقيفيٌّ من النبيِّ ﷺ .

فكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يقول : ضعوا آية كذا بعد آية كذا ، أو في السورة التي فيها كذا وكذا ، ثم ضعوا هذه السورة قبل هذه السورة أو بعد هذه السورة ، ورتَّب النبيُّ ﷺ الآيات والسور بهذا الترتيب الذي نراه عليه الآن في كتاب الله ـ جَلَّ وَعَلا .

قال الزركشيُّ في « البرهان»[1] : « وأما ما يتعلق بترتيبه : فأما الآيات في كلِّ سورة ووضع البسملة في أوائلها ، فترتيبها توقيفيٌّ بلا شك ، ولا خلاف فيه ، ولهذا لا يجوز تعكيسها . قال مكيٌّ وغيره : ترتيب الآيات في السورِ هو من عند النبيِّ ﷺ ، ولما لم يأمر بذلك في أول براءة تُرِكَت بلا بسملة . وقال القاضي أبو بكر : ترتيب الآيات أمر واجب ، وحكم لازم ، فقد كان جبريل يقول : ضعوا آية كذا في موضع كذا » انتهى .

وقال الإمام السيوطيُّ في « الإتقان»[2] : « قال ابن الحصَّار : ترتيب السورة ، ووضع الآيات مواضعها ، إنما كان بالوحي ، كان رسول الله ﷺ يقول : « ضَعُوا آيَةَ كَذَا فِي مَوْضِعَ كَذَا» ،

وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول الله ﷺ ، ومما أجمع الصحابة على وضعه هكذا في المصحف » اهـ .

وقال أبو بكر بن الأنباري[3] : « أنزل الله القرآن كلَّه إلى سماء الدنيا ، ثم فرَّقه في بضعٍ وعشرين سنة ؛ فكانت السورة تنزل لأمرٍ يحدث ، والآية جوابًا لمستخبر ، ويوقف جبريل النبي ﷺ على موضع الآية والسورة ؛ فاتساقُ السور كاتساق الآيات والحروف ، كله عن النبيِّ ﷺ ؛ فمَنْ قدَّمَ سورة أو أَخَّرَها ؛ فقد أفسد نظم الآيات .

ومما هو معلوم أن المصطفى ﷺ : « كَانَ يَعْرِضُ الْقُرْآنَ كُلَّهُ عَلَى

---

(١) « البرهان » (١/ ٢٥٦)

(٢) « الإتقان » (٨٥ ، ٨٦) .

(٣) كما في « البرهان » للزركشي (١ / ٢٦٠) ، و« الإتقان » (١/ ١٧١) .

جِبْرِيلَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً ، فَلَمَّا كَانَ العَامُ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ عرَضَ فِيهِ القرآنَ عَلَى جِبْرِيلَ مَرَّتَيْنِ »[1] .

ففي « صحيح مسلم »[2] من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ : البَقَرَةَ ، وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ » .

فهذا ترتيب ما بين السورتين البقرة وآل عمران ، وقد يستدلُّ بعضهم بحديث حذيفة رضي الله عنه الذي قرأ فيه النبيُّ ﷺ البقرة ، والنساء ، وآل عمران[3] فقدَّم النبيُّ ﷺ سورة النساء على آل عمران ، وكان هذا في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه .

وقد قال أبو بكر الباقلاني : « والذي نقوله : إن ترتيب السور ليس بواجب في الكتابة ، ولا في الصلاة ، ولا في الدرس ، ولا في التلقين ، والتعليم ، وأنه لم يكن من النبيِّ ﷺ في ذلك نصٌّ ، ولا حدٌّ تحرم مخالفته ، ولذلك اختلف ترتيب المصاحف قبل مصحف عثمان . قال : واستجاز النبيُّ ﷺ والأمة بعده في جميع الأمصار ترك ترتيب السور في الصلاة والدرس والتلقين .

قال : وأما على قول من يقول من أهل العلم : إن ذلك بتوقيف من النبيِّ ﷺ حدده لهم كما استقر في مصحف عثمان ، وإنما اختلفت المصاحف

---

(١) تقدم .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة ، برقم (٨٠٤) .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل ، برقم (٧٧٢) .

قبل أن يبلغهم التوقيف والعرض الأخير، فيتأول قراءته ﷺ النساء أولًا، ثم آل عمران هنا على أنه كان قبل التوقيف والترتيب »[1] .

وعن ابن مسعود ﷺ؛ كما في « صحيح البخاري » قال[2] : « فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء. هنَّ من العتاقِ[3] الأُوَلِ، وهُنَّ من تِلادِي[4] »

وهكذا إذا كنا قد أكدنا أن ترتيب الآيات في السورة الواحدة، وأن ترتيب السور في القرآن كلّه إنما هو أمر توقيفيٌّ على الحبيب النبيِّ ﷺ - لا اجتهاد فيه لأحد - بوحي السماء؛ فإن هذا الترتيب مخالفٌ لترتيب نزول الآي على قلب النبي ﷺ، فنجد آيات قد نزلت قبل آيات في الترتيب المصحفي أو بعد آيات، ومع ذلك تراها مترابطة مع بعضها البعض؛ فلو وقفت مع سورة الزمر مثلا، وهي سورة مكية سترى فيها بعض الآيات المدنية؛ كقوله تعالى: ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

---

(١) «شرح مسلم» للنووي (٣ / ٣٢٠)، و«فتح الباري» (٩ / ٤٠).

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب التفسير، باب سورة بنى إسرائيل (١)، برقم (٤٧٠٨)، وفي كتاب فضائل القرآن، باب سورة الأنبياء برقم (٤٧٣٩)، وفيه أيضًا، باب تأليف القرآن، برقم (٤٩٩٤).

(٣) العتاق: القديم، وله معنى عند أهل اللغة، وهو كلُّ ما بلغ مبلغًا عظيمًا من الدقة، والمعنى المشهور القديم.

(٤) تلادي: القديم أيضًا، ويقصد بهذا القول أن هذه السورة من أوائل السور التي حفظها عن رسول الله .

ومع ذلك وضعت في ترتيب محكمٍ دقيقٍ جميلٍ في سورة الزمر التي هي مكية ؛ فهذا لا يكون إلا بوحي إلى الصادق الصدوق الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ.

إنَّ عقلًا بشريًا مهمًا أوتي من القوة والحفظ والإحكام لا يستطيع أن يذكر فوضوع فقرة من كلام سابق مضى عليه سنوات ، فيضع هذه الفقرة في مكانها بحيث تلتحم مع سابقتها ولاحقتها في اللفظ والمعنى والسياق ، ولو أن عقلًا أتقن ذلك في حالة واحدة فلن يستطيع أن يُحكم ذلك في حالات كثيرة ، وفي سور كثيرة بحيث لا تَشذُّ حالة واحدة عن قاعدةِ الإحكامِ المشهورة في كتاب الله المحكم .

لقد حدثت تلك التجزئة في النزول باستثناء آية أو آيات ، فتنزل سورة ولا يتنزل من هذه السورة آية أو آيتان أو أكثر ، ثم بعد ذلك يضع النبيُّ ﷺ هذه الآية من السورة في موضعها ؛ بل وبعد مضي سنة أو اثنتين أو خمسة أو عشرة ، فإن دلَّ هذا ؛ فإنما يدل على أن هذا الترتيب للآيات التي لم تنزل أو أنزلت بعد نزول السورة بسنوات ؛ إنما هو بأمر الله ﷻ عن طريق الوحي لرسوله ﷺ.

لقد حدث ذلك في سورة البقرة والأنعام ؛ فنزلت آياتٌ من سورة البقرة ، ثم نزلت آيات كثيرة جدًا من سور أخرى من القرآن ، ثم نزلت آيات من سورة البقرة ؛ فأمر النبيُّ ﷺ بهذه الآية التي نزلت بعد سنوات أن تنضم إلى الآية في سورة البقرة سواء قبل أو بعد .

إذًا ؛ فالترتيب بوضع النبيِّ ﷺ حدث في البقرة وآل عمران والأنعام ،

والنمل ، والحجر ، والإسراء ؛ فكلُّ السور الكبيرة حدث فيها هذا ؛ لنتأكد أن كلَّ آية إنما وضعت بأمر النبيِّ ﷺ، وأن كلَّ سورة وُضِعت بعلمِ النبيِّ ﷺ. وهكذا تتلاحم الآيات مع بعضها البعض تلاحمًا عجيبًا لا يكون أبدًا إلا عن توقيفٍ من الوحي .

ولهذا الاتساق والدقة في البناء القرآني تأثيرٌ كبيرٌ جدًّا على العرب ؛ لأنهم كانوا أهل بلاغة ؛ فجاء القرآن ببلاغته وتنسيقه واتساقه ودقته وإبداعه ونظمه وإتقانه وجلاله فأذهل عقولهم ، وصدع عناد الكبر في قلوبهم ؛ بل وكانوا يخشون على أنفسهم من سماعه !!! .

وأنتم تعلمون ماذا صنعوا بأبي بكرٍ الصديق ﷺ، لما خرج خارج بيته ليصلي ، وليرفع صوته بقراءة القرآن ، وكان أبو بكر رجلًا رقيقًا جدًّا ، إذا قرأ القرآن بكى [(١)] ـ أسأل الله ﷻ أن يرزقنا وإياكم الخشوع والإخلاص ـ فخاف المشركون على نسائهم وأطفالهم وصبيانهم من قراءة أبي بكر ؛ كما قال الله ﷻ عنهم : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[فصلت : ٢٦] لأن القرآن لو وصل إلى القلوب ، لابد وأن تتحول ؛ فالقرآن لو نزل بذاته على جبل لتصدَّع ، لتعلم يقينًا أن من قلوب البشر ما هو أقسى من الحجارة !! كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾[البقرة : ٧٤] ، هذه الحجارة قال الله في حقها : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا

---

(١) تقدم تخريجه .

مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

وموقف أبي الوليد عتبة بن ربيعة خَيرٌ شاهد على ذلك: فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه[1] قال: «اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ للنَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا، فقالُوا: انظُرُوا أَعْلَمَكُمْ بالسِّحْرِ والكَهَانَةِ والشِّعْرِ. فَلْيَأْتِ هَذَا الرَّجُل الذي قد فَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَشَتَّتَ أَمْرَنَا، وَعَابَ دِينَنَا فَلْيُكَلِّمْهُ، وَلْيَنْظُرْ مَا يَرُدُّ عَلَيْهِ، قَالُوا: مَا نعلَمُ أَحَدًا غَيْرَ عُتْبَةَ بنِ رِبِيعَةَ، قَالُوا: أَنْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ، فَأَتَاهُ عُتْبَةُ.

وفي لفظ: أَنَ عُتْبَةَ بنَ رَبِيعَةَ ـ وكان سيدًا ـ قالَ يَوْمًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ، وَرَسُولُ الله جَالِسٌ في المَسْجِدِ وَحْدَهُ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! أَلاَ أَقُومُ إِلَى مُحَمَّدٍ فَأُكَلِّمَهُ وأَعْرِضُ عَلَيْهِ أُمُورًا لَعَلَّهُ يَقْبَلُ بَعْضَهَا فَنُعْطِيهِ أَيَّهَا شَاءَ وَيَكُفُّ عَنَّا، وَذَلِكَ حِينَ أَسْلَمَ حَمْزَةُ، ورَأَوْا أَصْحَابَ رسولِ الله يَزِيدُونَ وَيَكْثُرُونَ فَقَالُوا: بَلَى، يَا أَبَا الوَلِيدِ، قُمْ إِلَيْهِ فَكَلِّمْهُ، فَقَامَ إِلَيْهِ عُتْبَةُ بنُ رَبِيعَةَ حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، إِنَّكَ مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتَ مِنَ السطَةِ فِي العَشِيرة (أي من الشرف والكرم) والمَكانِ فِي النَّسَبِ، وإِنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ قَوْمَك بِأَمْرٍ عَظِيمٍ فَرَّقْتَ بِهِ جَمَاعَتَهُمْ، وَسَفَّهْتَ بِهِ أَحْلاَمَهُمْ، وَعِبْتَ بِهِ آلِهَتَهُمْ وَدِينَهُمْ، وَكَفَّرْتَ بِهِ مَنْ مَضَى مِنْ

---

(١) أخرجه ابن إسحاق؛ كما في «السيرة النبوية» لابن هشام (١ / ١٨١، ١٨٢)، والبيهقي في «الاعتقاد» (٣٥٦ ط الفضيلة) عن محمد بن كعب القرظي مرسلًا، ورواه ابن أبي شيبة (٣٦٥٦٠) موصولًا من حديث جابر، وأبو نعيم في الدلائل (١٨٢)، والحاكم (٢ / ٢٥٣) وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، والبيهقي في «الدلائل» (٢ / ٢٠٢)، وحسَّنه الشيخ الألباني في تخريج «فقه السيرة» للغزالي (١٠٦).

آبَائِهِمْ ، فَاسْمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عَلَيْكَ أُمُورًا تَنْظُرُ فِيهَا لَعَلَّكَ أَنْ تَقْبَلَ مِنْهَا بَعْضَهَا ؛ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ : « قُلْ يَا أَبَا الوَلِيدِ أَسْمَعْ » قَالَ : يَا ابْنَ أَخِي إِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ بِمَا جِئْتَ بِهِ مِنْ هَذَا الأَمْرِ مَالًا ؛ جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا حَتَّى تَكُونَ أَكْثَرَنَا مَالًا ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ شَرَفًا شَرَّفْنَاكَ عَلَيْنَا حَتَّى لا نَقْطَعَ أَمْرًا دُونَكَ ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ بِهِ مُلْكًا مَلَّكْنَاكَ عَلَيْنَا ، وَإِنْ كَانَ هَذَا الذي يَأْتِيكَ رِئْيًا تَرَاهُ لا تَسْتَطِيعُ رَدَّهُ عَنْ نَفْسِكَ ، طَلَبْنَا لَكَ الطِبَّ ، وَبَذَلْنَا فِيهِ أَمْوَالَنَا حَتَّى نُبْرِئَكَ مِنْهُ ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا غَلَبَ التَّابِعُ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُدَاوَى مِنْهُ ، وَلَعَلَّ هَذَا الذِي بِهِ شِعْرٌ جَاشَ بِهِ صَدْرُكَ فَإِنَّكُمْ لَعَمْرِي يَا بَنِي عَبْدِ المُطَّلِبِ تَقْدِرُونَ مِنْهُ عَلَى مَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ ؛ حَتَّى إِذَا فَرَغَ عُتْبَةُ وَرَسُولُ الله ﷺ يَسْتَمِعُ مِنْهُ ، قَال : « أَقَدْ فَرَغْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ ؟ » قال : نَعَمْ ، قالَ : « فَاسْمَعْ مِنِّي » ، قَالَ : أَفْعَلُ ، فَقَالَ :« بِسْمِ الله الرَّحمَنِ الرَّحِيم ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ [فصلت:١ ـ ٥] ، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ الله ﷺ فِيهَا يَقْرَؤُهَا عَلَيْهِ ،فَلَمَّا سَمِعَهَا مِنْهُ عُتْبَةُ أَنْصَتَ لَهَا ، وَأَلْقَى يَدَيْهِ خَلْفَ ظَهْرِهِ مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا يَسْمَعُ مِنْهُ ، ثُمَّ انْتَهَى رَسُولُ الله ﷺ إِلَى السَّجْدَةِ مِنْهَا فَسَجَدَ ، ثُمَّ قَالَ : «قَدْ سَمِعْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ مَا سَمِعْتَ فَأَنْتَ وَذَاكَ ».

فَقَامَ عُتْبَةُ إِلَى أَصْحَابِهِ ؛ فَقَالَ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ : نَحْلِفُ بِالله لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الوليد بِغَيْرِ الوَجْهِ الذِي ذَهَبَ بِهِ ، فَلَمَّا جَلَسَ إِلَيْهِمْ قالُوا : مَا وَرَاءَكَ

يَا أَبَا الوليدِ ؟قَالَ: وَرَائِي أَنِّي وَاللهِ قَدْ سَمِعْتُ قَوْلا مَا سَمِعْتُ مِثْلَهُ قَطُّ، والله ما هُوَ بِالشِّعْرِ ولا بِالسِّحْرِ ولا بِالكَهَانَةِ ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ ، أَطِيعُونِي واجْعَلُوهَا بِي ، وَخَلُّوا بَيْنَ هَذَا الرَّجُلَ وَبَيْنَ مَا هُوَ فيه فَاعْتَزِلُوه ، فوالله لَيَكُونَنَّ لِقَوْلِهِ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْهُ نَبأٌ عَظِيمٌ ، فَإِنْ تُصِبْهُ العَرَبُ فَقَدْ كُفِيتُمُوهُ بِغَيْرِكُمْ ، وإِنْ يَظْهَرْ عَلَى العَرَبِ ، فَمُلْكُهُ مُلْكُكُم ، وَعِزُّه عِزُّكُمْ ، وَكُنْتُمْ أَسْعَدَ النَّاسِ بِهِ ، قَالُوا : سَحَرَكَ والله يَا أَبَا الوليدِ بِلِسَانِهِ، قَالَ: هَذَا رَأْيِي لَكُمْ فَاصْنَعُوا مَا بَدَا لَكُمْ».

فهذه شهادة خصم للقرآن ؛ ومع ذلك لما عرف هذا الحق أعرض عنه وأنكره ، قال تعالى :﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا ۝ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝ ثُمَّ نَظَرَ ۝ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر : ١١ـ ٣٠] .

وكذلك في قصة الوليد بن المغيرة[١] ؛ كما في « المستدرك » للحاكم ،

(١) أخرجه الحاكم (٢/ ٥٠٦ ، ٥٠٧) ، والبيهقي في « الدلائل » (٢ / ١٩٨ ، ٢٠٠) وفي « الشعب » (١٣٤) ، وأبو نعيم في « الدلائل » (١ / ٣٠٦) والواحدي في «أسباب النزول» (٨٩٩) ، وإسحاق بن راهويه ؛ كما في « البداية والنهاية » (٣/ ٦٠ ، ٦١) . وقال الحاكم : «هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه» ، ورواه الطبري في «التفسير» (١٤ / ٢٩ ، ١٥٢) ، وعبد الرزاق في « تفسيره» (٣ / ٣٢٨) والبيهقي في « الدلائل » (٢ / ١٩٩) عن عكرمة مرسلًا . وانظر : « صحيح السيرة النبوية » (١٥٨) .

و« الدلائل » للبيهقي ، وأبي نعيم ، والواحديّ في « أسباب النزول » عن ابن عباس قال : جاء الوليد بن المغيرة إلى النبيّ ﷺ، فقرأ عليه القرآن ، فكأنه رَقَّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه ؛ فقال : يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالًا ، قال : لِمَ ؟ قَالَ : ليعطوكه ، فإنك أتيت محمدًا لتعرضَ لما قِبَلَهُ ، قال : قد علمت قريش أني من أكثرها مالًا ، قال : فقُلْ فيه قولًا يبلغ قومك أنك منكر له وكاره ، قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزها ولا بقصيدها مني ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يُشْبه الذي يقول شيئًا من هذا ، ووالله إنَّ لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وإنه ليحطم ما تحته ، قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ، قال : فدعني حتى أفكر ؛ فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر يأثره عن غيره ؛ فنزلت : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾[المدثر : ١١]».

هذا هو جلال القرآن الذي صدع عناد الكبر في قلوب المشركين بإبداعه البلاغي ، وجماله البياني ؛ بل لقد أخذهم جمال القرآن وجلالُه حتى سجدوا جميعًا في يوم من الأيام خلف رسول الله ﷺ، وذلك في السنة الخامسة من البعثة حين خرج النبيُّ ﷺإلى بيت الله الحرام ، وقد تجمع سادةُ قريش وكبراؤها ؛ فقام النبيُّ ﷺيقرأ عليهم القرآن ، وافتتح التلاوة الكريمة بسورة النجم ، وقرع آذان المشركين كلامٌ إلهيٌّ رائعٌ خلَّاب لا يحيط بروعته وجلالته البيان ، فأنصتوا جميعًا لرسول الله ﷺ، وكأنما على رؤوسهم الطير ، وفي آخر السورة قرأ النبيُّ ﷺآيات جليلة

تطير لها القلوب ، ويهتز لها الوجدان : ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ۝ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ۝ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ۝ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ [النجم : ٥٦ - ٦٢] وخرَّ النبيُّ ﷺ ساجدًا لله - جَلَّ وَعَلا - فلم يتمالك أحدٌ من المشركين نفسه حتى خرَّ ساجدًا لله - جَلَّ وَعَلا - خلف رسول الله ﷺ !! .

والحديث رواه البخاريُّ [1] في كتاب سجود القرآن ، وترجم لهذا الباب بقوله : « باب سجود المسلمين مع المشركين » رواه مختصرًا من حديث ابن عباس أن النبيَّ ﷺ سجد بالنجم ، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس .

وهكذا ينسجم البناء القرآني ، ويتسق بدءًا وتوسطًا واختتامًا . . لقد امتاز القرآن الكريم عن غيره بالبراعة الخارقة عند الافتتاح وعند الختام ؛ فما من سورة من سور القرآن إلا وقد افتتحت بأجزل الألفاظ ، وأبلغها وأرقها ، وأسلسها ، مما يدل على تعظيم الله سبحانه وتعالى، وثبوت الحمد له كالفاتحة والأنعام ، أو كتنزيه الله سبحانه وتعالى عما لا يليق به من صفات النقصان ؛ كما في أول سورة الإسراء : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ ﴾ [الإسراء : ١] ؛ أو سورة الأعلى : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى : ١] .

أو بالقسم على إثبات البعث والنشور ووقوع الحساب والعقاب،

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب سجود القرآن ، باب سجدة النجم (١٠٧١) ، وفي كتاب التفسير ، باب : ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ (٤٨٦٢) .

كالذاريات ، والطور، والشمس ، والضحى ، والليل ، أو نحو ذلك من المعاني البليغة، والأمور الجليلة ، وقد ضمَّن الله فاتحةَ كلِّ سورة ما اشتملت عليه تلك السورة من المقاصد النافعة للبشر في الدين والدنيا، وأبرز ذلك في عبارة هي الغاية فيما عرف من براعة الاستهلال ، ثم صرف المعاني من غرض إلى غرض ، ونوَّعها من باب إلى باب ، مع توفية كل غرض حقه ، ومع حسن انتقالٍ من كلِّ فن إلى الذي يليه ، ولو كان بُعد ما بينهما شاسعًا ؛ فالقرآن يجعل المختلف كالمؤتلف والمتباين كالمتناسب ، والمتنافر في الأفراد كأنه متفق الآحاد ، فإذا اختتم السورة أشعر السامع أنه قد انتهى الغرض ، وانقضى الكلام ، بحيث لا يبقى للنفس تشوق لسماع كلام بعد هذا الختام .

إي وربي ! أنا أسألك كم مرةً قرأت الفاتحة ؟ هل فكَّرت في هذا السؤال ؟ منذ متى وأنت تقرأ كلَّ يوم الفاتحة ؟ ! .

لو قرأ أحدنا كتابًا لبليغٍ من البلغاء أكثر من ثلاث مرات إلَّا واستشعر بعد المرة الثالثة بالملل !! لكن منذ متى ونحن نقرأ الفاتحة ؟

وعلى قدر خشوعك وقربك من الله تشعر في كل مرة بلذة تخالفُ الأخرى ، فإذا كان القلبُ حاضرًا ، والذهنُ صافيًا ، والإقبالُ على الله عاليًا ، شعرتَ بجلالِ الفاتحة ، ولذَّة المناجاة ، واستشعرت حديث النبيّ ﷺ: « إِذَا قَالَ العَبْدُ : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، يَردُّ عَلَيْه الملِكُ ويَقُولُ : حَمَدَنِي عَبْدِي ... » الحديث [1] .

---

(١) تقدم .

وبهذا أقول : وهكذا ـ أيها الأحبة ـ كان للترتيب النزولي حِكَمٌ بالغة ، واتساق مع الأحداث والوقائع ، وتصحيح للأخطاء ، وإجابةٌ عن ما يدور في صدور الناس من الأسئلة والفتاوى ، وهتكٌ لما في صدور وقلوب المنافقين . وفي كلِّ ذلك اتساق أيما اتساق . فإذا كان الترتيب النزوليُّ بهذا الانسجام ؛ فإن ترتيب القرآن المصحفي ، وترتيب الآيات والسور على هذا الوضع اتساقٌ جديد ، وتنسيقٌ مبدع ، أقرَّ ببلاغته ، وتفوقه ، وإغداق أسفله ، وإثمار أعلاه أسبقُ المعاندين في مضمار البلاغة والفصاحة ، وأغلبهم في التحدي بنظم الكلام ونثره ، فكان ذلك دليلًا جديدًا وحجة ناطقة على أن القرآن هو كلام الله ـ جلَّ وعلا .

إن ترتيب القرآن في التلاوة على هذا الوجه بينةٌ على الإعجاز ، وبرهانٌ قاطعٌ على أنه ليس في متناول البشر ، ودليلٌ ساطعٌ على أنه قدر في البلاغة إلى أسمى درجاته حتى ولَّى أعداؤه عن تحديه مدبرين !!وذلك أن هذا الترتيب التوقيفيَّ قد جعل الآيات والسورَ متماسكةَ الأطراف ، جيدةَ السبك ، اتصل بعضها ببعض اتصالًا مُحكم العرى ، لا انفصام فيها حتى صارت الآيات والسورُ آخذةً ببعضها ، تُبين المعنى القرآني البليغَ بدقة ؛ فكانت كلُّ آيةٍ أو سورةٍ بمنزلة الجزءِ الذي لا قوام لكلِّه إلا به ، وكان القرآنُ العظيم جميعه بعد التوقيف جملة واحدة ، وصارت كلُّ سورةٍ لا غنى لها عن ما قبلها ، ولا يستغني عنها ما بعدها ، وكلُّ آيةٍ لا يقع موقعها إلا سواها ؛ ودونكم بعض الأمثلة .

ذكر الإمام السيوطيُّ كلامًا جميلًا جدًّا في كتابه « الإتقان » [1] يبين فيه

---

(١) «الإتقان» (٤٥٢ ، ٤٦٢) بتصرف ، و«البرهان» للزركشي (١ / ١٨٢، ١٨٦) .

مدى الاتساق بين أوائل السورة وأواخرها ، وآخر السورة وأول السورة التي تليها بأنه ورد في سورة هود قوْلُ الله ـ جَلَّ وَعَلا : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾ [هود : ١٣].

وسورة هود : مكية ؛ والمعنى : فأتوا بعشر سورٍ من مثله ، من الفاتحة إلى هود ؛ فمن الفاتحة إلى هود عشر سور ، مع أن البقرة ، وآل عمران والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة مدنيات نَزَلْنَ بعدها ؛ يقول : فآية هود مستقيمة المعنى على ترتيب النزول ، باعتبار أن التحدي وقع على عشر سور من القرآن بصفة عامة ، ولم يحدد الله هذه السور ، وكذلك مستقيمة المعنى على ترتيب المصحف الذي حدَّد العشر سور الأول من الفاتحة إلى هود ، وقال تعالى : ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الأنفال:٣٩] .

جاء هذا النسق على ترتيب القتال داخل وخارج أرض الجزيرة العربية ، فالذي في سورة البقرة يراد به كفار الجزيرة العربية ، لتكوين القاعدة الأولى للإسلام التي يناط بها نشر الدعوة خارج الجزيرة ؛ فلما تكوَّنت هذه القاعدة ، وجاء الأمر بعد ذلك في سورة الأنفال ، أمر الله هذه القاعدة أن تحارب كلَّ من تصدى لدين الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ سواء كان هذا العدو داخل الجزيرة أو خارجها ، فجاء قوله : ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا

تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ ، وكذلك في معرض التحدي في القرآن جاء في سورة البقرة : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[البقرة:٢٣] .

فالتحدي هنا بسورة ؛ فناسب السورة أن يكون التحدي قليلًا ليس بالقوة التي تكون بعشر سور أو بالقرآن كلِّه ؛ فقال : ﴿ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم ﴾ أي : من تُشهدونهم ، ومَنْ يشهدون بأن هذا القرآن من عند غير الله ادعوهم وأْتُوا بسورةٍ واحدةٍ من مثل هذا القرآن الذي يتلوه محمد بن عبد الله ﷺ ، فلما زاد التحدي ، وبلغ مبلغًا كبيرًا تحدَّاهم الله تعالى أن يأتوا بعشر سور . قال تعالى : ﴿ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[هود : ١٣] ؛ فلما عجزوا زاد حجمُ التحدِّي ؛ فقال ـ جَلَّ وَعَلا: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾[1][الإسراء : ٨٨].

وأيضا في ترتيب كلمة التسبيح ؛ قِفْ أيها الفاضل مع هذا المبحث القليل الرائع في كلمة «سبح»[2] ، فلقد استوعب القرآن الكريم هذه الكلمة استيعابًا رائعًا من جميع جهاتها اللغوية على ترتيب يتفق مع المعاني تمام الاتفاق ، فلم يتقدَّم معنىً يستحق التأخير ، ولم يتأخر معنىً يستحق

(١) انظر : « الإتقان» (٢/ ٣١٢) .

(٢) انظره وما بعده في المصدر السابق .

التقديم ؛ فقد استُعملت الكلمة أولًا في سورة الإسراء على هيئة المصدر : « سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ » ؛ فالمصدر هو الأصل اللغوي لجميع المشتقات ، فبُدأت كلمة التسبيح بالمصدر ، ثم استعملت بعد المصدر بصيغة الماضي ، وهو أسبق الزمنين ؛ لأنه مضى ، فاستخدم الله كلمة التسبيح بعد المصدر بصيغة الفعل الماضي في سورة الحديد والحشر ؛ فقال تعالى : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [الحديد:١] ، ثم جاءت الكلمة للمرة الثالثة بصيغة المضارع ؛ كما في سورتي الجمعة والتغابن : ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [الجمعة : ١] ، وختم كلمة التسبيح في القرآن بصيغة الأمر : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى:١] .

ومن عظم جلال القرآن : التناسب ؛ فالتناسب علمٌ مستقلٌّ في القرآن ، وهو أنواع : منها مناسبة فواتح السور للخواتيم كأول آية في سورة البقرة ، وآخر آية في سورة البقرة .

وكذلك سورة المؤمنون أولها : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون : ١] ، وآخرها : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٧] ، وكما في فاتحة سورة ص : ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾ [ص :١] ، وآخرها : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [ص : ٨٧] .

ومنها : مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها من السور ؛ كالفاتحة مع مطلع سورة البقرة ؛ فقال تعالى : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦،٧] ، وبعدها ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:١، ٢]

أي : الصراط الذي تدعون الله ﷻ أن يهديكم ، وأن يوفقكم إليه هو في كلمةٍ واحدةٍ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ ﴾هذا هو الصراط ـ صراط النجاة ـ أن تسيروا على الدرب ، وأن تتمسكوا بكتاب الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ إنه تناسب رائع جدًّا .

وكذلك افتتاح سورة الحديد بالتسبيح مع آخر آية في سابقتها في سورة الواقعة : ﴿ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[الواقعة : ٧٤] ، وفي الحديد : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾[الحديد : ١] ؛ فهذا تناسب رائع بين سورة الواقعة وسورة الحديد .

وكذلك أواخر سورة النساء : ﴿ يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾[النساء:١٧٦] ، فالآية أمرٌ من الله ﷻ بالعدل في الحقوق ، والامتثال لأمر الله تعالى في تقسيمه لأحكام الميراث .

وأول آية في سورة المائدة بعد سورة النساء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾[المائدة : ١] .

والأمثلة على ذلك كثيرة .

ومن بديع ما نقله الإمام السيوطيُّ رحمه الله في « الإتقان » [1]: عن الشيخ

---

(١) « الإتقان » للسيوطي (٢/ ٢٨٩) .

وليّ الدين الملوي ﷺ قال : « وفصل الخطاب : أن الآيات الكريمة على حسب الوقائع تنزيلا ، وعلى حسب الحكمة ترتيبًا وتأصيلًا .

فالمصحف على وفق ما في اللوح المحفوظ مرتبةٌ سورهُ كلُّها وآياته بالتوقيف كما أنزل جملة إلى بيت العزة ... » ا.هـ.

نعم ـ وربي ـ إن له لحلاوه ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق ، وإن فضل القرآن على كلِّ كلام كفضل الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ على كلِّ خَلْقِهِ !!!.

*****

الاتساق في نظم القرآن بين الكلمة والمعنى

لقد جمع القرآنُ الكريمُ بين النظم الرائع الدقيق للكلمات، وبين المعاني الواضحة الجليلة؛ فلو فتشت في كلمات اللغة لا يمكن أن تأتي بمرادفٍ لكلمة استخدامها اللفظ القرآني في موضعها.

فنحن نرى في كلِّ كلمات القرآن اتساقًا بديعًا في نظمه ومعانيه، فاللفظ القرآنيُّ مختار بدقةٍ متناهيةٍ بالغة، تعبِّر هذه الألفاظ عن المعاني تعبيرًا واضحًا جليًّا؛ فقد يشترك لفظٌ أو لفظان في معنىً واحد؛ لكن أحدهما أدق من الآخر في الدلالة عليه، ولنظم القرآن براعته في تنزيل اللفظ في الموضع الذي أريد له، ويمتاز بروْعته في الاختيار ومراعاة الفروق بين الألفاظ، فلا يأتي بالألفاظ المترادفة دالًّا على معنًى واحد دائمًا؛ بل، للدلالة على معاني مختلفة.

يقول الدكتور بكرى شيخ أمين: «وبقدر الدقة في إصابة المعنى يكون الفرق بين ألفاظ الناس في كلامهم وألفاظ القرآن».

فقد يتكلم النبيُّ ﷺ بألفاظ هي من البلاغة في الذُّروة؛ فإن الله قد أعطى النبيَّ جوامع الكلم؛ كما في الحديث الصحيح: «بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ»[1].

فقد يتكلَّم بألفاظٍ دقيقةٍ موجزةٍ إلا أنها تعبر عن المعنى بأبلغ وأدق تعبير؛ ومع ذلك لاحِظ الحديث النبوي في ألفاظه ومعانيه، وقفْ مع

---

(١) أخرجه البخاريُّ، كتاب الجهاد والسير، باب قول النبيِّ ﷺ: «نصرت بالرعب مسيرة شهر» (٢٩٧٧)، وانظر أطرافه هناك، ومسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٣).

عظمة النصِّ القرآني في ألفاظه ومعاينه، مع أن المتكلِّم هو أبلغ أهل الأرض قاطبةً، وهو المصطفى ﷺ المؤيد بمدد السماء؛ لكنك تقف على حجم الفارق الكبير بين النص القرآني والنص النبوي في دقة اللفظ، وفيما يحمله اللفظ من معنىً، لنعلم يقينا أن القرآن من عند العليم الخبير - جَلَّ جلاله.

فكلمات القرآن الكريم لها من المعاني والمدلولات والإيحاءات ما يجعل الحسَّ البصريَّ يلحظُها؛ بل كأنه يراها رأي العين أثناء قراءتها، وكأنها بما تحمله من أحداث تجري أمام عينيه وبين يديه !! .

اقرأ معي بتدبر قول الله - جَلَّ وَعَلاَ : ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ [الأعراف:١٧٥].

وكرِّر كلمة: ﴿ فَٱنسَلَخَ ﴾ تستشعر فعلًا حركة حسية قوية تفضح صورة هذا التملص والتفلت والإعراض، بحيث لا يمكن أبدًا أن تقف على مرادف لغويٍّ آخر يؤدي الغرض كما في هذه الكلمة !!!

وتدبر معي أيضًا قول الله تعالي : ﴿ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ﴾ [القصص : ١٨] ؛ فانظر إلى كلمة : ﴿ يَتَرَقَّبُ ﴾ كأنك ترى بالفعل نبيَّ الله موسى، وهو في حالة خوف وحذر !!!.

وتدبر معي قول الله - جَلَّ وَعَلا - في قصة موسى عليه السلام مع الخضر : ﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴾ [الكهف : ٧٧] . ﴿ يَنقَضَّ ﴾ تستشعر فعلًا أن الجدار يكاد يهمُّ

بالانقضاض .

وتدبر معي قولَ الهدهد لسليمان : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل:٢٢] . ﴿ بِنَبَإٍ ﴾ فتش في كلمات اللغة عن مرادفٍ لهذه الكلمة يؤدي نفس الوقع والغرض !! .

نعم ؛ إن من أجلِّ وأبدع وسائل القرآن في التعبير عن المعاني أن القرآن الكريم يضع اللفظة القرآنية في مكانها بدقة ؛ حيث لا يمكن أبدًا أن تحل كلمةٌ مكان كلمةٍ أخرى ، بل إن للفظ الواحد في القرآن الكريم اتساقًا مع وجود الآيات قد يرسم صورة شاخصة تارة بِجَرْسِهِ الذي يلقيه في الآذان ، وتارة بمعناه الذي يلقيه في الخيال ،وتارة بالجرس والمعنى معًا ، فعلى قدر إصغاء السمع ، وانفتاح القلب تعي كلَّ كلمات القرآن ؛ لأن الإنسان كلَّما قرأ آيات القرآن ، وأصغى السمع ، وفتح القلب لسماعها أو لتدبرها ، استشعر حلاوتها ، وجلالها !!.

وتدبَّر قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾[التوبة : ٣٨] .

تدبر المعني في كلمة : ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ ﴾ إنه تثاقل الأجسام ، وكأنَّ هذا الصنف الذي يتثاقل عن التلبية لأمر الله ﷻ كأنه يحمل فوق رأسه أطنانًا من الأرطال ، فهي تقعده في الأرض ، لا يستطيع أن يتحرك أو أن يقوم ، كأنه يحمل أثقالًا .

ضع ـ مثلًا ـ كلمة: (تثاقلتم) بدلًا من ﴿ ٱثَّاقَلْتُمْ ﴾ نفس المعنى ؛ بل

نفس الحروف تقريبًا ، لكنْ مستحيلٌ أن تعبر هذه الكلمة عن المعنى الذي يريده الحق ـ تبارك وتعالى ـ مِنْ تكاسلِ وتقاعسِ صنفٍ من الناس عن التحرك لدين الله ، وللجهاد في سبيل الله إن دعاهم الداعي للبذل لله ولرسوله.

وقف ـ مثلًا ـ مع قول الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ [النساء:٧٢].

انظر إلى كلمة : ﴿ لَّيُبَطِّئَنَّ ﴾ في الآية ، وهي تبين صورة التباطؤ الشديد ، فجرس الكلمة يبين المعنى بجلاء ووضوح .

وبهذا ؛ فإن المتأمل لاتساق اللفظ القرآني مع المعنى يرى أنها تمتاز بميزات أربعةٍ رئيسة في الغالب :

أولًا : دلالة وقعها في السمع الذي يسميه علماء اللغة : الجرس اللغوي ، أي جرس الكلمات في الأُذُن .

ثانيًا : اتساق اللفظة الكامل مع المعنى :

ثالثًا : اتساع دلالات الألفاظ لما لا تتسع له ـ عادةً ـ دلالاتُ الكلمات الأخرى من المعاني والمدلولات .

رابعًا : دقتها في أداء المعنى المطلوب إيصاله للناس ، والمراد من كلام الله سبحانه وتعالى .

انظر قول الله ﷻ : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴾ [التكوير:١٧، ١٨] ، وانظر إلى الجرس بين الكلمتين ﴿ عَسْعَسَ ﴾ وَ ﴿ تَنَفَّس ﴾.

ففيهما وصفٌ للّيل بكلمة في غاية الدقة والبلاغة ، ووصفٌ للصبح بكلمة في غاية الدقة والبلاغة ، ألا تشم رائحة المعنى واضحة من هاتين

الكلمتين ؟! ألا تشعر أن الكلمات تبعث في خيالك صورة المعنى محسوسًا ، دون حاجة للرجوع إلى قواميس اللغة ؟!

وهل في مقدورك أن تصور إقبال الليل وتمدده في الآفاق المترامية بكلمة هي أدق وأبلغ من: ﴿ عَسْعَسَ ﴾.

وهل تستطيع أن تصور انفلات الصبح من مخبأ الليل وسجنه وسواده بكلمة هي أدق وأروع وأبلغ من كلمة: ﴿ تَنَفَّسَ ﴾؟

واقرأ قول الله تعالى في وصف خمر الجنة ؛ فيقول : ﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾[الواقعة : ١٩] .

وتأمل كيف طهَّرَ الله ﷻ خمر الجنة من كلِّ رذائل وعيوب خمر الدنيا بهاتين الكلمتين . خمرٌ لا يضيع العقل ، ولا يذهب المال ، ولا ينتهي بالشرب ، لكن انظر إلى مصائب خمر الدنيا ؛ فإنها تُذهب العقل ؛ فيقع الإنسان من بعدها في الكبائر ، وتُذهب المال ، وكذلك يزداد ألمه إذا ما انتهى الشراب بين يديه وهو عاجز عن أن يستزيد ـ أسأل الله ﷻ أن يسقينا وإياكم من خمر الجنة ، ويجعلنا وإياكم من أهلها .

تدبر هذه الكلمات الرقراقة لأستاذ الأدب في العصر الحاضر مصطفى صادق الرافعي رحمه الله يقول [(١)] : « وفي القرآن لفظة غريبة ، هي من أغرب ما فيه من ألفاظ ، وما حَسُنَتْ هذه اللفظة في كلامٍ قط إلا في موقعها من القرآن ، وهي كلمة : ﴿ ضِيزَىٰٓ ﴾[النجم:٢٢] .

---

(١) « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية » (ص ١٨٠) مكتبة فياض .

ومع ذلك ؛ فإن حسنها في نظم الكلام من أغرب الحسن وأعجبه ، ولو أردت اللغة عليها ما صلح لهذا الموضع غيرها ؛ فإن السورة التي هي منها وهي سورة النجم ، مفصلة كلها على الياء ، فجاءت الكلمة فاصلة من الفواصل ، ثم هي في معرض الإنكار على العرب ، إذ وردت في ذكر الأصنام ، وزعمهم في قسمة الأولاد ؛ فإنهم جعلوا الملائكة والأصنام بنات لله مع وأدهم للبنات ؛ فقال تعالى : ﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ [النجم : ٢١ ، ٢٢] .

فكانت غرابة اللفظة أشدَّ الأشياء مُلَائَمَةً لغرابة هذه القسْمة المنكرة ، وكانت الجملة كلُّها كأنها تصور في هيئة النطق بها ، الإنكار في الأولى ، والتهكم في الأخرى ، وكان هذا التصوير أبلغ ما في البلاغة ، وخاصة في اللفظة الغريبة التي تمكنت في موضعها من الفصل » . اهـ .

وخذ هذا المثال البديع ـ أيضًا ـ في سورة النمل ، يقول الله ﷻ عن سليمان ﵇ : ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [النمل:١٧، ١٨]

فلو قالت هذه النملة : « يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم ليقتلنكم سليمان وجنوده وهم لا يبصرون » ، انظر إلى حجم الخلل في اللفظ والمعنى ،﴿ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ ﴾ : ليس قتلًا وفقط ؛ بل تحطيم ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ، فهي تحمل عدم الرؤيا ، وعدم الاهتمام ، وعدم الاكتراث ، ثم قال تعالى : ﴿ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ

عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾[النمل: ١٩، ٢٢].

فانظر إلى كلمة: ﴿أَحَطتُ﴾علمت ما لم تعلمه، وعرفت ما لم تعرفه. ثم قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾انظر إلى الدقة في القرآن في اللفظ: ﴿بِنَبَإٍ﴾فلو بُدلت (بخبر) لا يمكن أن يؤدي نفس الجرس للَّفظ القرآني الكريم ﴿بِنَبَإٍ﴾!!!

أشهد أن القرآن كلام الله !!!

قِفْ مع قول الله تعالى في سورة الإنسان: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾[الإنسان:٥، ٧]

فلو أزلت أيَّ كلمةٍ من أواخر الآيات، وأتيت بمرادف! مُحالٌ أن يكون هذا الجرس بهذه القوة، وأن يكون المعنى بهذا الجلاء.

انظر إلى باقي السورة بأكملها؛ فسترى العجب العجاب، وستعلم أن هذا القرآن كلام الله، وأن كلَّ حرف من عند الله، فانظر إلى كلمة: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾[الملك:١٦] أي: يُؤتون بالشراب في قوارير على قدر حاجة أهل الجنة بلا زيادة أو نقصان، لتكتمل لذتهم، وتزداد متعتهم؛ ولا

يشعرون بظمأ أو ملل !!.

بالله عليك هات كلمتين من كلِّ قواميس اللغة تعبِّران عن المعنى بهذه البلاغة والجمال ! فهيَّا ـ أيُّها الفاضل اللبيب ـ تدبر القرآن ؛ قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد : ٢٤] .

أسأل الله ﷻ أن يزيل أقفال قلوبنا ، وأن يرزقنا تدبر كتابه ، وفهم كتابه ، إنه على كل شيء قدير .

وتدبَّر قول الله ﷻ : ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ [مريم : ١٦] . انظر إلى كلمة : ﴿ ٱنتَبَذَتْ ﴾ كلمة عجيبة جدًّا : ﴿ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا ﴾ [مريم : ١٧] .

اقرأ قوله : ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ ﴾ [مريم : ٢٣] .

ضع كلمة : « ففاجأها » بدلًا من : ﴿ فَأَجَآءَهَا ﴾ فنزل بها المخاض بغتة ، ﴿ فَأَجَآءَهَا ﴾ : تحمل معنى المجيء والفجاءة !!! .

وتدَّبر قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

انظر إلى كلمة : ﴿ فَبُهِتَ ﴾ ضع مرادفًا لها ، لا يمكن أبدًا أن تأتي بمرادف يصور الحالة النفسية ، بل والجسدية لهذا المكابر المعاند الملحد ، كأنك تشعر بحركة أمامك ، كأنك تستشعر وجه الرجل ، وقد تغيرت

ملامحه واسود .

وتدَبَّر قول الله ـ تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾[المسد] .

انظر إلى الجرس في كلمات القرآن ، وما يعبر عنه كلُّ لفظ من المعاني ! محالٌ أن يأتي بليغٌ من أهل الأرض ليبين المعنى بألفاظ ، كما نرى في ألفاظ القرآن ، لنعلم يقينًا أن هذا الكلام هو كلام الله ؛ وأكتفي بهذا القدر ، وإلَّا فإنَّ القرآن كلَّه يحتاج إلى بيانٍ ووقفات .

وأكرر . . . أشهدِ أن القرآن كلام الله تعالى .

فمصدريتهُ دليلُ إعجازه !! .

أسأل الله ﷻ أن يفهِّمنا القرآن ، وأن يرزقنا تدبره وتعلمه ؛إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

*****

الاتساق الذاتي للقرآن الكريم

إن ا تساق الأسلوب القرآني لَوجهٌ آخر من أوجه الإعجاز القرآني ؛ يتضح ذلك جليًّا عند دراسة الجمل القرآنية ومفرداتها ؛ وذلك من عدة وجوه :

أولًا : التلائم والاتساق التام بين كلمات القرآن الكريم وحركاتها وسكناتها ؛ فالجملة في القرآن مؤلفةٌ من كلماتٍ وحروفٍ يستريحُ لتألفها السمع والصوت والنطق ، ويتكون من تضامها نسقٌ جميلٌ ينطوي على معانٍ رائعةٍ دقيقةٍ مُحكمةٍ مُجملةٍ .

فالجملة القرآنية تتكون من حروف وكلمات . وهذه الكلمات في الجملة الواحدة تتسق مع بعضها اتساقًا رائعًا يبرز لنا جمال المعنى في أبلغ الكلمات ، وأوجز العبارات ؛ خذ لذلك مثلًا ـ فبالمثال يتضح المقال ـ قِفْ مع قول الله تعالى استجابة لدعاء نبي الله نوح : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ [القمر : ١٠] .

هذه دعوة نوح عليه السلام ، فاستجاب الله عز وجل فقال : ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ [القمر: ١١ - ١٤] ، تأمل تناسق الكلمات في كل جملة ، وفي كل آية من هذه الآيات ، ثم دقِّق النظر ، وتأمل في تألف الحروف في كل كلمة ، الحرف الرخو مع الشديد مع المهموس مع المجهور ، ترى أن كلَّ حرفٍ في

تلاصقه مع الحرف الذي يليه قد وُضِعَ بدقةٍ متناهيةٍ لتتلاقي الكلماتُ بعد ذلك في جملة ، ولتتلاقي الجملُ بعد ذلك في أسلوب قرآني يوضح المعنى بأوجز الألفاظ ، وأبلغ الكلمات ، وأعظم وأجل المعاني .

قف مع كلمة : ﴿ مُّنْهَمِرٍ ﴾ ، وكلمة : ﴿ ٱلْأَرْضَ ﴾ ولم يقل : من الأرض ؛ بل قال : ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ ﴾ ، ماء السماء الذي نزل بانهمار وانغمار ، فالتقى مع ماء الأرض الذي فَجَّر الله ﷻ ليخرج منها ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ أي : قد قَدَّرَه الله ﷻ وأحكمه .

عِشْ مع الآياتِ لتتصور الموقف ؛ فقد ذكرت أن المتدبر في آيات القرآن قد لا يحتاج في الجملة إلى أن يقف مع معنى كلِّ كلمة ؛ لأنها توضح له المعنى الكلي بجلاء ووضوح ؛ بل وتنقله نقلةً كبيرةً ، وكأنه يعايشُ الحدَثَ ؛ بل وكأنه يراه ، وكأنه يسمع صوتَ الماء ، وهو يتنزل من السماء بانهمار ، وكأنه يرى الأرض تتشقق ، وعيون الماء تتفجر ، وكأنه يشهد نبيَّ الله نوحًا عليه السلام ، ومن آمن معه ، ويحمله الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ على ألواحٍ خشبيةٍ ، قد صنَّعها نبيُّ الله نوح ، ومرَّ المشركون عليه وهم يهزؤون ويسخرون به ! كيف تمشي هذه السفينة على هذه الرمال ، وهم لا يعلمون أن الكبير المتعال قد قدَّر أمرًا آخر ، وها هو تقدير الله : ﴿ فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ .

توضيحٌ للمعنى بأقلِّ الكلمات ، وأبلغ العبارات ؛ لتعلم أن هذا النظم القرآني من تقدير العليم اللطيف الخبير ، وهيهات هيهات

لمقاييس البشر ، مهما أوتوا من البلاغة والبيان أن يضبطوا الكلمات بهذه القوالب الدقيقة حتى لو كان المتحدث نبيًّا مرسلًا مُؤيدًا بوحي السماء من عند الله ﷻ .

وقلتُ لك : لاحِظِ الفرق الكبير بين كلمات القرآن وكلمات النبيِّ ﷺ ، لتعلم أن القرآن هو كلام العليم الخبير ﷻ .

الوجه الثاني : دلالة الجملة القرآنية على أوسع المعاني بأقصر العبارات ، وأقل الكلمات ، النبيُّ ﷺ قد آتاه الله جوامع الكلم ، يعبِّر عن المعنى بأقل الكلمات مع أنه يحمل أوسع المعاني ، وهذا من تفضيل الله ﷻ لنبيه المصطفى على سائر الأنبياء ؛ فقد قال ﷺ : « فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ ـ ومنها: أُوتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ »[(١)] .

يعبر النبيُّ ﷺ عن المعاني العظيمة الكثيرة الجليلة الكبيرة بأوجز الألفاظ ، وأقل الكلمات .

خذ لذلك مثالًا واحدًا ؛ كما في الحديث الذي رواه مسلم من حديث أبي عمرة [(٢)] سفيان بن عبد الله ﷺ ؛ قال : قلتُ : يا رسول الله ! قلْ لِي فِي الإِسْلامِ قَوْلًا لَا أَسأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ ، وفي لفظِ أحمدَ : لا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ ؛ فقال ﷺ : « قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ »[(٣)] .

يسأل رسول الله ﷺ أن يقول له قولًا موجزًا مختصرًا مجملًا ، فلخَّص

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، برقم (٥٢٣) .

(٢) وقيل: هو أبو عمرو(«رياض الصالحين» باب الاستقامة) ، وأورد الحافظ في «الاستقامة» من أولاده : «عمرو» .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب جامع أوصاف الإسلام ، برقم (٣٨) ، وأحمد (٣/ ٤١٣) ، (٤ / ٣٨٤) .

له النبيُّ ﷺ في كلمتين اثنتين لا ثالث لهما طريقَ النجاة وطريق الفوز، وطريق السعادة، فقال المصطفى ﷺ: «قُلْ آمَنْتُ بِالله ثُمَّ اسْتَقِمْ».

كلمتان فقط: إيمان واستقامة.

وأقول: إذا جلس عالمٌ ليشرح هذا الحديث؛ فقد يحتاج إلى محاضرات! ففيه حديثُ عن حقيقة الإيمان، ومفهومهِ عند أهل السنة والجماعة، وما الذي خالف به أهل السنة والجماعة فِرَق الضلال، والإيمان يزيد وينقص، والفرق بين الإيمان والإسلام، ولو ذكر الإيمان وحده ما معناه؟ ولو ذكر الإسلام وحده ما معناه؟ ولو ذكر الإيمان والإسلام مع بعضهما البعض، فما معنى الإيمان وما معنى الإسلام؟ وفيه كذلك حديثٌ عن أركان الإيمان، ثم حديثٌ عن الاستقامة، وما هي شروط الاستقامة؟ وما هي مقتضيات الاستقامة؟ ومَنْ هم المستقيمون؟ وما جزاؤهم في الدنيا والآخرة؟

معانٍ كثيرة جدًّا وعظيمة وواسعة لخَّصها النبيُّ ﷺ في كلمتين اثنتين، بيَّنَ بهما طريق النجاة لهذا السائل الكريم الذي جاء يتحسَّس الدَّرب المنير.

فكلُّ كلامِ النبيِّ ﷺ بهذا الجمال وبهذه البلاغة؛ فانظر إلى قوله ﷺ لمعاذ: «ألَا أُخبِرُكَ بِرَأْسِ الأمْرِ كُلِّهِ، وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟»، قُلْتُ: بَلَى، يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الجِهَادُ»، ثُمَّ قَالَ: «ألَا أُخبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّه؟»، قُلْتُ: بَلَى يَا نَبِيَّ الله، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، قَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا»، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ الله! وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ قَالَ: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ، وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي

النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ». أَوْ : « عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلاَّ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ »[(١)].

كلماتٌ عجيبةٌ قليلةٌ؛لكنها تُجسِّدُ عظيم وجليل المعاني ، هذا كلام المصطفى ﷺ ؛ فما ظنُّك بكلام الحقِّ ـ جَلَّ جَلاله ـ الذي أرسل المصطفى ﷺ وأيَّده ؟!.

اقرأ معي قوله ـ تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] ، وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾ [النحل: ٩٠] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ ﴾
[الحجرات: ١١-١٣]

تدبر هذه الآيات الكريمة وما تحمله من المعاني الجليلة ، التي لو وعتها الأمة ، وحوَّلتها إلى واقعٍ عمليٍّ ، ومنهج حياة ؛ لصار المجتمع الإسلاميُّ فريدًا بكلِّ ما تحمله الكلمة من معنى . نعم ! سيصبح مجتمعًا

---

(١) أخرجه الترمذيُّ ، في كتاب الإيمان ، باب ما جاء في حرمة الصلاة ، رقم (٢٦١٦) ، وقال : « حديث حسن صحيح » ، وابن ماجه في كتاب الفتن ، باب كف اللسان في الفتنة ، برقم (٣٩٧٣) ، وحسنه الألباني في « إرواء الغليل » (٤١٣) .

له أدبٌ مع الله ﷻ له أدب مع رسول الله .. له أدب مع بعضه البعض .. تُصان فيه الحرمات ، ولا تُتبَعُ فيه العورات ، وتُظَلِّلُ سماءَهُ روحُ المحبة والأخوة ، ويصبح فيه المسلمون كأنما حَلَّت أرواحهم في جسدٍ واحدٍ أو حلت روحُهم الواحدة في أجسامٍ متشابكةٍ متضامنةٍ ، إذا تألم عضوٌ من أعضاء هذا الجسم الكبير الواحد تداعت له سائر الأعضاء بالحمَّى والسهر !!.

نعم .. كأنهم أغصان متشابكة تنبثق كلُّها من دَوْحَةٍ واحدةٍ .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] ، وتدبر قول الله تعالى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [يوسف : ٤٠] .

لتقف على المعاني الجليلة ، والحاسمة في هذه الكلمات القليلة ، التي أكدت بشكل حاسمٍ قاطعٍ أنه ليس من حقِّ أحدٍ على الإطلاق أن يُشرِّع للبشر ؛ لأنه حقٌّ كاملٌ لخالق البشر ، قال سبحانه: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ [الطلاق : ١] .

آيات كثيرة جدًّا ؛ بل لو وقفت مع أيِّ آية في القرآن الكريم لقرأت تفسيرها في أسطر كثيرة ، وهذا المفسِّر الذي يفسر هذه الآية يفسِّر على قدْرِ علمه وجهده ، وعلى قَدْرِ فهمه ؛ فإذا ما اتسع العلم ، ومنَّ الله عليه بالفهم زادت المعاني ، واتسعت الكلمات ، فمِنْ أوجه إعجاز الأسلوب القرآني أنه يعبر عن المعنى بأقل الكلمات ، وبأقصر العبارات .

تدبر معي قول الله ـ تعالى ـ لأم موسى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ

أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] .

هذه الآيةُ اشتملت على أمْرَيْنِ ونَهْيَيْنِ وبشَارَتَيْنِ وخَبَرَيْنِ !!!

آية واحدة ، ولذلك لما سمع الأصمعيُّ [١] ـ وهو إمام معروف من أئمة اللغة ـ جاريةً في الصحراءِ تنشد أبياتَ شعر بليغة ؛ فقال : قاتلكِ الله ، ما أبلغكِ ، وما أفصحك ؟ فقالت : يا هذا ، وما هذا إلى جوار قول الله تعالى لأم موسى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص:٧] ، قال لها : يا جارية ! وما وجه البلاغة في الآية ؟ قالت : يا هذا ! ألم تعلم أن هذه الآية اشتملت على أمْرَيْنِ ، ونَهْيَيْنِ ، وبشَارَتَيْنِ ، وخَبَرَيْنِ .. جارية ! لكنهم كانوا يتذوقون اللغة ويعرفونها ، وكانوا أربابَ بيان وفصاحة !!.

تأمَّل ؛ أمَّا الأمران : فهما : ﴿ أَرْضِعِيهِ ﴾ و﴿ فَأَلْقِيهِ ﴾.

وأمَّا النَّهيان : ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ ﴾ .

وأمَّا الخبران : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ خبر ، ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ ﴾ خبر ثانٍ .

أما البشارتان : ﴿ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أمران ، ونهيان ، وخبران ، وبشارتان ، كُلُّ ذلك في آيةٍ واحدةٍ ، لتعلم أن هذا

(١) سبق تخريجه .

اللفظ إنما هو من وضع العليم الخبير - جَلَّ جلاله .

وتأمل قولَ الله - تعالى - لآدم عليه السلام وهو في الجنة : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾[طه : ١١٨، ١١٩] .

تدبر معي هذه الكلمات تجد أن الله - تبارك وتعالى - قد جمع في هاتين الآيتين أصول المعيشة المتكاملة على ظهر الأرض من طعام وشراب ومأوى وملبس .. كلُّ هذا في آية واحدة ؛ فهي كلمات قليلة جدًّا تعبر عن معانٍ كثيرة جدًّا .

الوجه الثالث : صورة نَظْمِه العجيب الذي يخالف أساليب اللغة العربية قاطبة ؛ فأسلوب اللغة العربية معلومٌ ، لكنك إذا كتبت أسلوبًا عربيًّا فصيحًا ، ووضعت بجواره آيات للقرآن ؛ فمستحيل أن يكون هناك وجهٌ للمقارنة أبدًا ؛ اقرأ مثلًا : ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة : ١] .

فإذا نظرت إلى الرسم ستجد الألف مع اللام مع الميم كلمة واحدة ، ومع ذلك تقرأ مقطعة أ ل م .. نفس الرسم ، ونفس الحروف في سورة الشرح : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾[الشرح : ١] .

ومع ذلك لم نقل أ ل م ، ولكن تُقْرأ : ﴿ الٓمٓ ﴾ مع أن الرسم في الكلمتين واحدٌ ؛ لكن أسلوب القرآن حتى في الكتابة والكلمات حتى في الجمل ، حتى في الآيات يختلف تمامًا عن أسلوب العربية ، مهما كان بليغًا فصيحًا ؛ لقد كان القرآن معجزًا لما فيه من دقة النظم ، وجمال الأسلوب ، وعذوبة الألفاظ ، وبهاء الرونق ، وكمال البيان ؛ فأنت تقرأ

القرآن ، أو تسمع القرآن ، فتحس لألفاظه وقعًا ليس لسواها ، وتشهد لنَظْمِه إحكامًا وإتقانًا ومتانة ليست فيما عداه ، وأمامك المصحف الشريف ، قد تستطيع الآن أن تتناوله ، وأن تقرأ ما شئت ، لترى مصداق ما نقول .. لتسر قلبك هذه الدقة العجيبة الفريدة في اختيار الألفاظ ،وتناسق الأسلوب ؛ لأنه كلام الله سبحانه وتعالى علام الغيوب .

إذن أسلوب القرآن له وقعٌ يختلف تمامًا عن وقْع أي بليغٍ على وجه الأرض ؛ فهذا عبد الله بن المقفع [(١)] وهو عالمٌ من علماء اللغة ـ ظنَّ أنه لو جلس وعكف يومًا ـ وهو البليغ الأديب ـ لاستطاع أن يأتي بأسلوب كأسلوب القرآن ، فعكف شهرًا كاملًا ـ كما تروي لنا كتب التاريخ ـ فملأ الحجرة من حوله أوراقًا ، وبري أقلامٍ ، ثم خرج يصرخ ؛ ليعلن هذه الشهادة ! بأنه قد عجز عن أن يقدم أسلوبًا يشاكل أسلوب أقصر سورة في كتاب الله ـ جلَّ وعلا [(٢)] .

وها هو لبيد بن ربيعة ـ وكان من فحول اللغة والشعر ، وكان من القلة القليلة من الشعراء الكبار الذين نالوا امتياز تعليق المعلقات على جدار الكعبة ، وهذا امتياز لم تنله إلا فئة قليلة من فحول الشعر الجاهلي والعربي ، وكان من بينهم لبيد ـ فكتب لبيد أبياتًا يهجو فيها النبيَّ ﷺ ويرد بها على الإسلام ، وعلَّق لبيد هذه الأبيات على جدار الكعبة ، فجاء مسلم فقرأ هذه الأبيات ، فلم يفعل أكثر من أن وضع بعض آيات

---

(١) وكان ملحدًا ؛ «اتُّهم بالزندقة» ؛ («إيثار الحق على الخلق» لابن المرتضى ٢٠٧) ط دار الكتب ، وانظر : « لسان الميزان » (٢ / ٣٢١) ، (٣ / ١٧٣) ، (٣ / ٣٦٦) لابن حجر ، و« البداية والنهاية » (١٠ / ٩٦) .

(٢) « روح المعاني » للألوسي (١٢ / ٦٣) ، و« البرهان » للزركشي (٢ / ٩٥) .

القرآن إلى جوار أبيات لبيد فقط ؛ فدخل لبيد ـ وهو ربيب اللغة وأستاذ البيان ، وفحل من فحول الشعر ـ وما أن وقف أمام آيات القرآن ، وقرأها إلا وقد صرخ صرخة في الكعبة جمعت عليه من كان في البيت ؛ قالوا : ما الذي دَهَاك يا لبيد ؟ قال : ما هذا ؟! قالوا : إنها بعض الآيات التي يتلوها محمد بن عبد الله ؛ فصرخ لبيد بن ربيعة ؛ وقال : أشهد أن هذا الكلام ليس من كلام بشر على وجه الأرض ، إنما هو من كلام الله ، دلُّوني على محمد بن عبد الله ، وترك لبيد البيت ، وذهب إلى رسول الله ﷺ ؛ فقال : اتل عليَّ بعض آيات القرآن ، فتلا عليه بعض آيات القرآن ، فأسلم في التوِّ واللحظة ، وحَسُن إسلامه ؛ فقال له يومًا عمر بن الخطاب : أسمعنا شيئًا من شعرك يا لبيد ، فاستهل لبيد بن ربيعة بقراءة سورة البقرة ؛ فقال له عمر : ما أمرتُكَ أن تقرأ شيئًا مَن القرآن ؛ بل أمرتك أن تقرأ علينا شيئًا من شعرك ؛ فقال لبيد : والله يا أمير المؤمنين ، ما كان لي أن أتلوا شيئًا بعدما تعلمتُ القرآن !!!.ذاق الحلاوةَ ، وهو فحل من فحول اللغة والبيان ، فعرف أنه الحق !!! فوالذي نفسي بيده ؛ لو تدبرت شيئًا من آيات القرآنِ لصرخت من أعماقك أن القرآن كلام الله ؛ لذا كان المشركون ـ وهم أرباب لغة ـ يخشَوْن من القرآن !!قال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾[فصلت:٢٦] ؛ لأن للقرآن أسلوبَه الخاص الذي يصل إلى أعماق الوجدان ؛ لأنه كلامُ من فطرَ النفوسَ ، ويعلمُ مداخلَها ودروبَها ومفاتحَها : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾[الملك: ١٤] .

وقصةُ سجود المشركين خلفَ النبيِّ ﷺ لسماعهم منه سورة النجم ،

ففي « صحيح البخاري » ، من حديث ابن عباس [(١)] ؛ يقول : « سجد النبيُّ بسورة النجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس » .

قال تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ [النجم : ١ ـ ١٥] .

ولك أن تتخيل أن الذي يقرأ هو النبيُّ ﷺ ، وفي آخر السورة قرأ آيات جليلة تصدع عناد الكبر في قلوبهم : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝٥٩ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝٦٠ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ۝٦١ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ [النجم: ٥٩ ـ ٦٢] ، فيخرُّ النبيُّ ﷺ ساجدًا ؛ فيخرُّ المشركون جميعًا سجَّدًا لله ﷻ خلف رسول الله ﷺ !!!

ما الذي جعلهم يسجدون ؟

وما الذي جاء بأعناقهم إلى الأرض ؟

إنه جلال القرآن الذي إن وصل إلى القلوب وأعماقها ، جاء بها مذعنة إلى الله تبارك وتعالى .

ومنْ جميلِ ما قرأتُ أن الشيخ عبد الباسط بن عبد الصمد ؒ قال في

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب سجود القرآن ، باب سجدة النجم ، برقم (١٠٧١) ، وفي كتاب التفسير ، باب : ﴿ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ﴾ برقم (٤٨٦٢) .

حوارٍ صحفي بأنه كان يقرأ في بلد أوربي ـ ومعلوم أن الله قد حباهُ صوتًا جميلًا ، وهذا من فضل الله ، والنبيُّ ﷺ أمرنا أن نزيِّنَ القرآن بأصواتنا ؛ كما في الحديث الذي رواه البخاريُّ ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرةَ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « مَا أَذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ حَسَنِ الصوْتِ ، يَتَغَنَّى بالقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ »[1].

وها هو أبو موسى الأشعري رضي الله عنه تستوقف قراءتُه الجميلة رسولَ الله ﷺ حين مرَّ عليه ليلة ، وظلَّ يسمع القرآن من أبي موسى . وفي الصباح قال : « لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ البَارِحةَ ! لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ »[2]

فالقرآن له جلالُه وسلطانه وتأثيره على القلوب !! حتى على قلوب من لا يعرفون لغته !!!.

نعم .. يقول الشيخ عبد الباسط : جذب القرآن الكريم قلوب وأسماع الكثيرين ، ودخلوا يستمعون القرآن !

يقول : وفي هذه الليلة أسلم منهم سبعة لمجرد سماع القرآن فقط !!.

وأذكر ـ وأنا العبد الفقير ـ في عام من الأعوام ، وأنا أُصلِّي في رمضان بإخوانكم في أمريكا ، دخل عليَّ شابٌّ أمريكيٌّ صغيرٌ من أصلٍ يهوديٍّ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل القرآن ، باب من لم يتغن بالقرآن ، برقم (٥٠٢٣ ، ٥٠٢٤) ، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها ـ باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن ، برقم (٧٩٢) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب فضائل القرآن ، باب حسن الصوت بالقراءة ، برقم (٥٠٤٨) ، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها - باب استحباب الصوت بالقرآن ، برقم (٧٩٣).

بعدما شرح الله صدره للإسلام، لا يعرف معاني اللغة العربية، ولا معاني القرآن، ومع ذلك - سبحان الله! - كان وهو في الصلاة يسمع القرآن، لا يكفُّ عن البكاء! فقيل له: لماذا تبكي؟ هل تعرف ما يقرأ هنا؟ قال: لا!، قيل: إذن لماذا تبكي؟ يقول: لا أعرف! أنا أحسُّ، وأنا أسمعُ القرآن أنَّ قلبي يرتعد، وهو الذي دخل في الإسلام منذ أيام قليلة.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ[1]: «اطلب قلبك في ثلاث مواطن: عند سماع القرآن، وفي مجالس الذكر، وفي أوقات الخلوة؛ فإن لم تجد قلبك في هذه المواطن، فَسَلِ الله أن يمنَّ عليك بقلب؛ فإنه لا قَلْبَ لك»!!

نعم .. فإن لم يتأثر القلب بالقرآن وبكلام المصطفى ﷺ، فبكلام مَنْ بعد ذلك يتأثر؟!، فالقرآن له أسلوبه الذي لا يمكن على الإطلاق أن يعبر عن جماله وجلاله أيُّ بليغٍ على وجه الأرض.

الوجه الرابع: الاتساق الموضوعي.

اتساق الموضوع في القرآن الكريم وَجْهٌ آخَرَ مِنْ أَوْجُهِ الإعجاز القرآني؛ فمن المعلوم أن أبحاث القرآن كلَّها تتجه إلى غاية واحدة، وهي دعوة الناس إلى الإيمان بالله - جَلَّ وَعَلَا - واتباع هَدْيِهِ، والتصديق برسالة كلِّ نبيٍّ يرسله الله؛ لاسيما التصديق برسالة النبيِّ الخاتم محمد ﷺ.

فالإيمان بالله يقتضي أن توحِّد الله ﷻ ابتداءً، وأن تعلم أنه لا شريك

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (١٥٦) ط الإيمان.

له في الخلق والرزق والأمر والتصريف والتدبير . ثم يقتضي منك هذا الإيمان بالله أن تؤمن بملائكة الله ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره ، هذه أركان الإيمان ، والأبحاث القرآنية كلُّها تتجه إلى هذه الغاية .

وكون أبحاث القرآن على اختلاف موضوعاتها من أمر ونهيٍ ، ووعد ووعيد ، وترغيب وترهيب ، وقصة ومَثَلٍ . . إلى آخره ، تتجه في آخر الأمر إلى غايةٍ واحدة ؛ فهذا من أعظم الأدلة على الاتساق الموضوعي في كتاب الله - جَلَّ وَعَلا - فلو قرأت آيات تتحدثُ عن موضوعٍ ما ، تستشعر بوضوح أن هذا الموضوع قد نزل جملة واحدة بحيث لو حذفت منه حرفًا أو كلمة لاخْتَلَّ المعنى !!! .

وقضية العقيدة هي قضية القرآن الأولى .

وللقرآن الكريم منهجٌ فريد في عرض قضية العقيدة ، وتأصيلها في القلوب . . تارة بالخبر ، وثانية بالحوار ، وثالثة بالقصص ، ورابعة بالمثل ، وخامسة بالترغيب ، وسادسة بالترهيب . . . وهكذا ، ويستنطق الفِطَرَ السليمة ، والوجدان الحي بتوحد الله تعالى !!

تدبر مثلًا هذه الآيات الكريمة من سورة النمل ؛ قال الله ﷻ : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾[النمل : ٦٠ - ٦٦] ؛ وتدبر قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[البقرة : ١٦٤] ، وتدبَّر قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[آل عمران : ١٩٠ - ١٩٤] .

وتدبَّر قول الله تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَـٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَـٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴾

[يس : ٣٣ - ٤٣]

وغير ذلك من الآيات الكريمة التي تخاطب الفِطَر السوية ، والعقول النقية ، والقلوب التقية بتوحيد رب البرية ـ جَلَّ وَعَلاَ !! .

والكون كلُّه من عرشه إلى فرشه شاهدٌ على أن الذي يستحق أن يعبد وحده هو الله ـ جَلَّ وَعَلاَ.

ففي كلِّ شيء له آية تدلُّ على أنه الواحد

ألم تنظر يوما إلى حديقةٍ غنَّاء فيحاء تحوي أنواع الزهور والورد والرياحين على اختلاف ألوانها وأشكالها وروائحها . وكلُّها تنبت في أرض واحدة ، وتُسقى بماء واحد !!

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج:٤٦] .

ومن بديع ما استدل به الإمام الشافعيُّ ﷺ قوله [(١)] : « ورقة التوت تأكلها الغزالة فتعطينا مسكًا ، وتأكلها دودة القز فتعطينا حريرًا ، وتأكلها الشاة فتعطينا لبنا ولحمًا ، لو كانت الأمور تسير بالصدفة ، لكان ينبغي أن تكون عصارة الطعام واحدة ، ولكن العصارة كانت في الشاة لبنًا ولحمًا ، وكانت في الغزالة مسكًا ، وكانت في الدودة حريرًا »

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[الحج:٤٦] .

آيات كثيرة في هذا الكون الفسيح ؛ لكنها تحتاج إلى تفكُّرٍ وتدبر .

انظر لتلك الشجرة ذات الغصون النضرة

كيف نَمَت من حبَّةٍ وكيف صارت شجرة

ابحث وقُلْ مَنْ ذا الذي يخرج منها الثمرة

ذاك هو الله الذي أنعمه منهمرة

ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدره

وانظر لتلك الشمس التي جذوتها مستعرة

فيها ضياء وبها حرارة منتشرة

ابحث وقُلْ مَنْ ذا الذي يخرج منها الشررة

ذاك هو الله الذي أنعمه منهمرة

ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدرة

*****

(١) سبق ؛ وراجع « تفسير ابن كثير » (لسورة البقرة / ٢٢) .

سَلِ الواحةَ الخضراءَ والماءَ جاريا وهذي الصحاري والجبالَ الرواسيا

سَلِ الروضَ مُزدانًا سل الزهرَ والندى سَلِ اللَّيلَ والإصباحَ والطيْرَ شاديًا

سَلْ هذه الأنسامَ والأرضَ والسما سل كلَّ شيءٍ تسمعُ التوحيدَ لله ساريًا

ولو جَنَّ هذا الليلُ وامتدَّ سرمدًا فمَنْ غيرُ ربي يُرجع الصبحَ ثانيًا

« أَإِلهٌ مَّعَ الله » ؟ !!

فما أروع وأجمل هذا الأسلوب والمنهج في عرض العقيدة !!!

ويا حبذا لو حرص إخواننا من الدعاة وطلاب العلم على عرض العقيدة بمنهج القرآن الكريم .

يقول الدكتور : عبدُ الله الشاذلي : « فهناك الوحدة الموضوعية التي تجعل من المنهج القرآني طريق هداية وبرنامج أمة ، وخطة علمية واحدة المصدر والمسائل والغايات ، ونظرًا لمراعاة تلك الوحدة ؛ فقد أَمَرَ النبيُّ ﷺ أن توضع الآيات في سياقها الموضوعي ، وفي نسقها الوحدوي بغض النظر عن الزمن الذي نزلت فيه ، والمناسبة التي ألقيت من أجلها ، وكانت النتيجة بعد انتهاء المراحل ، وترتيب الآيات طبقًا لمتطلبات الوحدة الموضوعية ، كانت النتيجة أن نقف أمام موضوعات متكاملة تقشعر لها الأبدان وتوجل لها القلوب »

الوجه الخامس : الاتساق في المعاني والمقاصد .

يقول الله ﷻ : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر : ٢٣] .

اللهم اجعلنا منهم بمنِّك وكَرَمِك .

فوصف الله القرآن بأنه كتابٌ متشابه ، وجعل هذه صفة مدح للقرآن ؛ وذلك لأن القرآن يشتمل على أنواع من الأوامر والنواهي ، والوعد والوعيد ، والقصص والمواعظ ، وما إلى ذلك من الأنواع ، تتكرر كلُّ هذه في سورة واحدة من السور ، وكلُّها أنواع متشابهة في المقاصد ومتقاربة في الأغراض ،لا تخرج عن الوظيفة الدينية في القرآن ، ولا تحيد عن الغاية التي من أجلها نزل القرآن ؛ لأنه نزل لتشريع وتثبيت العقائد والأحكام، فواجبٌ أن تقف مع الآيات والمعاني عند هذه الغاية والحدود التي من أجلها نزل ، وأن يكون كلُّ ما فيه من أمر ونهي ، ووعد ووعيد ، وموعظة وقصص ، متصلًا بهذه الغاية التي لأجلها أنزل الله ﷻ القرآن ؛ فما كان القرآن أبدًا كتاب طب ، أو كتاب تاريخ ، أو كتاب قصص ؛ بل ينبغي أن نعلم أن القرآن كتاب تشريع ؛ فلا تنتظر أن تبحث في القرآن عن سرد تاريخي لقوم من الأقوام ؛ بل إن الله تبارك وتعالى قد أنزل القرآن كتاب تشريع ، وكتاب حكم ، وكتاب هداية يضمن به السعادة في الدنيا والآخرة لمن التزم به ، ولمن امتثل أمره ونهيه .

قال ابن عباس ﷺ[1] : «القرآن يشبه بعضه بعضًا ، ويرد بعضه على بعض» .

وسياقات القرآن تارة تكون في معنى واحد ، هذا التشابه ، وخاصة في المقاصد والأغراض ، وهذا دليلٌ آخر على اتساق القرآن وانسجامه ،

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ؛ كما في «الدر المنثور / الزمر : ٢٣» ، وانظر : «تفسير القرآن العظيم» [سورة الزمر ، آية رقم (٢٣)] (١٢ / ١٢٣)بتصرفٍ في المعني .

مع الوظيفة القرآنية التي أنزل الله ﷻ من أجلها القرآن .

فلقد بين الله سبحانه وتعالى هذه الغاية في أول سور القرآن في قوله :
﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٥] .

ولا شك أن هذه الآية تشمل الغاية التي من أجلها أنزل الله القرآن ليهتدي الناس إلى صراط الله المستقيم ؛ فإذا اهتدى الناس إلى صراط الله المستقيم سعدوا في الدنيا والآخرة ؛ فقد بينت هذه الآية الغاية التي من أجلها نزل القرآن ، ثم توالت سور القرآن كلها بعد سور الفاتحة ، فسارت في هذا الغرض الذي حدده القرآن في أول سورة ، ولَمْ تجِدْ سورةٌ من سور القرآن عن هذا الغرض ، وبهذا تشابهت سور القرآن في أغراضها ومقاصدها ، ولم تُغْنِ سورة من سور القرآن عن الأخرى ؛ بل كلُّها جاءت بهذا الغرض وبهذا الهدف ، وما رأينا أن سورة من سور القرآن قد اعتنت بسرد تاريخ لقوم من الأقوام ، أو لأمةٍ من الأمم ، وإنما إنْ ذَكَرَ الله ﷻ تاريخَ قومٍ ؛ فإنما يأتي بنتفٍ من هذا التاريخ للعظة والعبرة ، وليلفت القلوب والأنظار إلى الغاية التي من أجلها أنزل الله ﷻ القرآن .

وهكذا ؛ فالكتاب المنزَّل متسقٌ في معانيه، ومتسقٌ في مقاصده ؛ فقد تتكرر المعاني في سور القرآن ، أو في جُلِّ سور القرآن ، ومع ذلك ترى أن كلَّ سياق يأتي بجديد ، لو تتبعت قصه موسى في جُلِّ سُور القرآن لوقفت مع جميل المعاني في كل سورة ، قد لا تقف معها في السورة الأخرى.

قِفْ مع سورة يوسف عليه السلام ترى أنها السورة الوحيدة في القرآن كلِّه التي اشتملت على القصة بسورةٍ متكاملةٍ من البداية إلى النهاية ، ولو وقفت مع قصة أيِّ نبيٍّ آخر من الأنبياء لوجدتها مثبوتةً في سُوَرٍ كثيرةٍ ؛ومع ذلك أقول : ستقف مع معاني فريدةٍ جديدةٍ لهذه القصة في كل سورة من سُوَرِ القرآن الكريم ، ليتأكد لنا أن المعنى متسقٌ ومتفقٌ ، ، وأن المقصد واحدٌ من كل هذه المعاني ، ومن كلِّ هذه الآيات.

*****

خصائص القرآن المكي والمدني

وسنركز الحديث عن هذا المبحث في الخصائص التالية :

أولًا : الخصائص المتعلقة ببناء العقيدة .

ثانيا : الخصائص المتعلقة بأسلوب الدعوة .

ثالثًا : الخصائص المتعلقة بالجانب الأخلاقي .

رابعًا : الخصائص المتعلقة بالجانب التشريعي .

واعلم أن للناس في المكي والمدني اصطلاحات ثلاثة أشهرها [(١)] :

(١) زماني . (٢) مكاني (٣) خطابي .

فمن ناحية الزمان ؛ المكي : وهو ما نزل قبل الهجرة .

والمدني : ما نزل بعد الهجرة ؛ فهذا ارتباط زماني .

ومن ناحية المكان :

فالقرآن المكي هو : ما نزل بمكة ، ولو نزل بعد الهجرة .

والقرآن المدني هو : ما نزل بالمدينة . . هذا ارتباط مكاني .

أما المصطلح الثالث فمتعلق بالمخاطبين ؛ بمن يخاطبهم القرآن سواء كان مكيًا أو مدنيًا ، فالقرآن المكيُّ هو : ما وقع خطابًا لأهل مكة ، والقرآن المدني هو : ما وقع خطابًا لأهل المدينة .

أما أهم الخصائص التي تميز القرآن المكي والقرآن المدني ما يلي :

---

(١) « الإتقان » (١١ ، ١٢) ، و« البرهان » (١٨٧) وما بعدها .

أولًا : الخصائصُ المتعلقة ببناء العقيدة .

فمن أبرز خصائص القرآن المكي : الاهتمام ببناء العقيدة الصحيحة ، وترسيخها في النفوس ، وذلك ؛ لأن العقيدة هي الأساس والأصل ، وهي اللبنة الأولى لأيِّ بناء ، وهي الخطوة الأولى على الطريق لله ﷻ ولم يبدأ نبيٌّ من الأنبياء ، أو رسولٌ من الرسل إلا بتأصيل وتأسيس العقيدة في نفوس المدعوين ؛ فما من نبيٍّ أرسل إلى قومه إلا ودعاهم أول ما دعا إلى التوحيد ، وإلى الإيمان بالله ﷻ والإيمان بالبعث ، والإيمان باليوم الآخر .

هذه أصولُ الاعتقاد التي لم تتأخر في أيِّ رسالةٍ من الرسالات ، ولم يتخل عنها نبيٌّ من الأنبياء .

ويمكن أن نلحظ اهتمام القرآن المكي ببناء العقيدة من خلال الخصائص الفرعية التالية :

أولًا : مواجهة القرآن المكي للعقائد والتصورات الباطلة في مكة ، والعمل بكلِّ سبيل على تقويضها لإقامة العقيدة الصحيحة على أنقاض هذه العقائد الزائفة الباطلة .

فقد تكلَّمنا آنفًا عن معنى : (لا إله إلا الله) وقلنا : أن لا إله إلا الله نفيٌ وإثبات .

يقول ابن القيم ـ رحمه الله تعالى[1] : « النفي المحض ليس توحيدًا ، وكذلك الإثبات بدون النفي ؛ بل لابد أن يكون التوحيد متضمنًا للنفي

---

(١) « بدائع الفوائد » (١ / ١٤١) (ط مكتبة نزار) .

والإثبات معًا » .

لذا ؛ فإن المعنى الدقيق لكلمة التوحيد ـ لا إله إلا الله ـ أي : لا معبود بحقٍّ سوى الله ؛ فلا يمكن أبدًا أن يلتقي الإيمان بالطاغوت والإيمان بالله في قلبٍ واحدٍ ؛ بل لابد وحتمًا أن يُزيل أحدهما الآخر ، تدبَّر قول الله ـ تعالى ـ في سورة البقرة : ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

لاحِظْ أن الله ﷻ قد قدمَّ الكفرَ بالطاغوت على الإيمان بالله ؛ إذ لا يمكن أبدًا أن يجتمع الإيمان بالله مع الإيمان بالطاغوت ؛ بل لابد أن تكفر بالطاغوت ابتداءً ليخلو قلبك للإيمان بالإله الواحد الحق الذي لا شريك له ، فالنفس الإنسانية كيان واحد ومتداخل ، لا يجوز أن نفصل في النفس البشرية جانبًا عن بقية الجوانب الأخرى ؛ لذا : فإن القرآن الكريم الذي هو كلام خالق النفس البشرية ، والذي يعلم دروبها ومداخلها ، تجاوبَ مع طبيعة هذه النفس تجاوبًا مُعجزًا بليغًا ؛ حين قام القرآن الكريم بالأمرين معًا بأمر الهدم للعقائد الزائفة في نفس الوقت الذي يبني فيه العقيدة الخالصة .

تدَّبر قول الله ﷻ : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ١ : ٢] .

فهذا تأصيلٌ لعقيدة التوحيد . . بناءٌ للعقيدة الصحيحة ، وبعد هذا التثبيت البديع لعقيدة التوحيد يأتي على عقيدة الشرك لينقضها وليهدمها ؛

فيقول - جَلَّ وَعَلا - في نفس السورة : ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴾ [الفرقان : ٣] .

وتدبر معي قول الله ﷻ : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ۝٨٠ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس ٧٨ - ٨٣] .

فالآيات تركز على الجانبين معًا في آنٍ واحد .

وتدبَّر - مثلًا - قول الله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ [النجم : ١٩ : ٢٣] .

إذًا المسلك الأول في ترسيخ العقيدة هو : العمل على القضاء على العقيدة الزائفة ، والتصورات الباطلة لإقامة المعتقد الصحيح على أنقاض هذه العقيدة الزائفة ، والتصورات الباطلة ؛ فسلك القرآن هذا المحور في آنٍ واحدٍ ، ألا وهو : محور الهدم مع البناء .

ثانيًا : إيضاح الأركان الأساسية للعقيدة : فبعدما يهدم القرآن الكريم

العقيدة الفاسدة ، ويزيح التصورات الباطلة في أمر الاعتقاد ؛ فالخطوة التالية الحتمية هي توضيح أركان المعتقد الصحيح ، وهي : الإيمان بالله واليوم الآخر ، والملائكة ، والكتب ، والرسل، والقدر . هذه أركان الإيمان .

فالقرآن الكريم المكيُّ في جُلِّ سُوَرِهِ يركز على هذه الأركان ، ويوضحها توضيحًا جليًّا ؛ فقلَّما تجدُ سورةً من سور القرآن المكي إلا وهي تجيب على الأسئلة الأساسية التي تشغل كلَّ إنسان ، من أين جاء ؟ ولماذا جاء ؟ وإلى أين المصير ؟ هذه هي الأسئلة الثلاثة التي توضح أركان الإيمان .

من أين جاء ؟

والجواب على السؤال تحقيقٌ لقضية الإيمان بالله ﷻ .

والسؤال الثاني : ولماذا جاء ؟ وما هي وظيفته في هذا الكون ؟ !

والجواب : تحقيقٌ لقضية العبادة .

والسؤال الثالث : إلى أين المصير ؟

والجواب : تحقيق للإيمان باليوم الآخر .

فقلما تجدُ سورةً من سور القرآن المكي إلا وهي تجيب كُلَّ إنسان على هذه الأسئلة : من أين جاء ؟ !

قال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥] . وتحدَّاهم الله ﷻ أن يخلُقوا حيوانًا منويًّا واحدًا ؛ فقال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴾ [الواقعة : ٥٨ ، ٥٩] .

فقضية الخلق لم يتجرأ مخلوقٌ على ظهر الأرض أن يدَّعِيها ، ولما ادَّعى النمروذ [1] أنه يشارك الله في بعض صفات توحيد الربوبية ، حاجَّة نبيُّ الله إبراهيم ؛ فقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] .

فأين يدور هذا الغِرُّ الجاهل أمامَ نور النبوة الباهر ؟! إذ لم يجرؤ أحدٌ على ادِّعاء صفات الربوبية ؛ كالرزق ، والخلقِ ، والأمرِ ، والتصرفِ ، والتدبير ، والإحياء ، والإماتة ، إلا فرعونُ على سبيلِ العنادِ والمكابرِة ؛ فقال : ﴿ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] .

وكذلك الدهريون الذين قال الله عنهم : ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾ [الجاثية : ٢٤] .

وكذلك الثنويةُ ، وهي : فرقة من فرق المجوس ادَّعت أن للكون إلهين : الإله الأول : خاص بالظلام ، والإله الثاني : خاص بالنور فيما عدا ذلك ، أقَرَّ الخلقُ جميعًا بأن الخالق هو الله ، ولم يزعم أحدٌ أنه خَلَقَ !! قال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور :٣٥] .

والسؤال الثاني : لماذا أتى الله بك ؟

---

(١) لم يثبت في تسميته حديث صحيح عن رسول الله ﷺ ؛ لكن ثبت هذا عن بعض التابعين كقتادة وغيره ؛ كما في «تفسير الطبري» (لسورة البقرة / ٢٥٨) ، وقال الطبري في «تاريخه» (١ / ١٤٢) : «قال عامة السلف من أهل العلم : كان مولد إبراهيم ﷺ في عهد نمروذ بن كوش » .

والجواب ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦]

هذه غايتك ووظيفتك .

والسؤال الثالث : وإلى أين المصير ؟

والجواب ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى : ٧]

وسأل سليمان بن عبد الملك يومًا أبا حازم فقال له : يا أبا حازم ، لماذا نكره الموت ونحب الدنيا ؟ فقال أبو حازم : لأنكم عمرتم دنياكم ، وخربتم أخراكم ، فأنتم تكرهون أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب ! فقال سليمان بن عبد الملك : فما لنا عند الله ؟ فقال أبو حازم : اعرض نفسك على كتاب الله لتعلم مالك عنده ، قال : وأين أجدُ ذلك ؟ ـ وهذا هو محلُّ الشاهد ـ فقال أبو حازم : تجد ذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار :١٣: ١٤] ؛ فقال سليمان : فأين رحمةُ الله يا أبا حازم ؟ فقال : ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف :٥٦] ، فما أقلَّ حياء من طمع في رحمة الله ولم يعمل بطاعة الله ، ولم يتب إلى الله من بعد معصيته ، قال : فكيف القدوم على الله ؟ فقال أبو حازم :أما المحسن ؛ فكالعبد الغائب يرجع إلى أهله ، وأما المسيء ؛ فكالعبد الآبق يرجع إلى مولاه [1] !!!

---

(١) أخرجه الخطيب في « تاريخه » (٦ / ٦٩) ، وابن عساكر (٢٢ / ٢٩) ، وانظر : « صفة الصفوة» (٢ / ١٥٨) لابن الجوزي ، و«فيض القدير» (٤ / ٤٧٤) ، و«إحياء علوم الدين » (٢ / ١٤٧) .

فهذه هي المحاور الأساسية التي يركز عليها القرآن المكيُّ ليوضح الأركانَ الأساسية لعقيدة التوحيد بعد هدمه للتصورات الزائفة لعقيدة الشرك التي كان يعتنقها أهل الجزيرة العربية .

ثالثًا : التركيز الشديد على قضية توحيد العبادة « توحيد الألوهية » :

فجادلت السور المكية كثيرًا أهل الشرك في هذه القضية ، ووجهت القلوب والعقول والأنظار إلى الآيات العظيمة في كون الله ﷻ ليتعرف الناس على عظمة وجلال الخالق ـ جَلَّ وَعلَا ـ فيفرِدُوه وحده بالعبادة .

قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف : ٨٧] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت :٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف : ٩] ، وقال تعالى : ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ

قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النمل : ٦٠ - ٦٥] .

إذًا ؛ فالمحور الثالث الذي ركَّز عليه القرآن المكيُّ لتأسيس وتأصيل عقيدة التوحيد الصافية على أنقاض عقيدة الشرك هو : قضية توحيد العبادة ، قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

الخاصية الثانية : المتعلقة بأسلوب الدعوة ، وهي عديدة وجميلة ، فلاشك أن أسلوب الدعوة يتحدد في كلِّ زمان ومكان ، بحسب طبيعة الزمان والمكان ؛ فلقد كان المشركون في أرض الجزيرة في المرحلة المكية يمثلون العقبة الوحيدة في طريق الدعوة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بما يعتنقونه من عقائد باطلة زائفة ، فنزل القرآن الكريم بالأسلوب الذي يتفق مع خصائص أو طبيعة هذه المرحلة ، وليعالج هذه القضية معالجة بليغة دقيقة ، يجب أن يقف أمامها الدعاة إلى الله طويلًا طويلًا !! للتعرف على هذا المنهج الرباني ومراحله :

أولًا : التوجيه الواضح للرسول ﷺ ولأصحابه بسلوكِ سبيل الصبر والإعراض عن المشركين .

فهذه خاصيةٌ واضحةٌ للقرآن المكيِّ في أول الأمر ؛ حيث نزل القرآن المكي ليوجه النبيَّ ﷺ وأصحابَه بالصبر والإعراض عن المشركين ، حتى لا يستفز أهلُ التوحيد المشركين في مرحلةٍ لا زالوا هم فيها من الضعف بمكان ؛ فربما يتسبب الدخول في مهاترات ، ومعارك مع أهل

الشرك ـ وهم أهل قوة ، ولا زال أهل الإسلام أهل ضعف ـ ربما يتسبب ذلك في القضاء على تيار الدعوة نهائيًا ؛ فنزل القرآن الكريم ليُحَدِّدَ أسلوب الدعوة في هذه المرحلة ؛ فأمر القرآن بالصبر والإعراض عن المهاترات الشركية ، وعن استفزاز أهل الكفر ؛ فنزل قول الله تعالى لنبيه : ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [يونس : ١٠٩] .

فكلُّ مراحل الاستضعاف لأهل الإسلام تتطلب منهم في مواجهة أهل الشرك بعتادهم وعددهم الصبر والإعراض عن سفه المشركين ، والمنافقين ، وعن سفه أهل الباطل حتى تكون للإسلام شوكة وقوة .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [الأنعام : ٣٤] .

ولا ينبغي أن يفهم أحدٌ من المسلمين أن القرآن قد طلب من النبيِّ ﷺ وأصحابِه الخضوعَ والاستسلام والمهادنة التي تتطلب التفريط في المعتقد ، أو في أساسيات هذا الدين وثوابته !! لا ؛ بل إن الإعراضَ عن المشركين ،وعدمَ الدخولَ معهم في مهاترات واستفزازات لا يُفهم منه البتة أن يتنازل المؤمن عن ثوابت دينه ! ! ولم يفعل ذلك رسول الله ﷺ ولا أحدٌ من أصحابه ممن آمن بالله معه ،إنما يعني فقط أن يتحاشى النبيُّ ﷺ وأصحابه أن يدخلوا في مهاترات مع المشركين حتى لا يدخلوا معهم في صدام في مرحلةٍ من مراحل الضعف إلى أن تقوى الدعوة ، ويقوى أتباعها وأنصارها ، ثم نزلت بعد ذلك الآيات التي تأمر النبيَّ ﷺ بجهاد المنافقين والمشركين ؛ قال تعالى : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ

عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[الحجر : ٩٤] .

فالإعراض لا يتطلب منك أبدًا ألا تصدع بدعوة الحق ، ولا يفهم منه أبدًا أن تتهاون في ثوابتك ، ولا يفهم منه أبدًا أن تتنازل عن أصول هذا الدين !

بل لقد جمع الله بين الإعراض عن المشركين ، وبين الصدع بالحق في آية واحدة ؛ كما في الآية السابقة :« فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ » .

ثانيًا : الاهتمام بسوق الحجج التي توضح صدقَ صاحب الدعوة ﷺ ؛ لأنه لاشك أن صاحب الدعوة إِن اتُّهِمَ ضاعت دعوته ، وإن شُوِّهَت صورةُ حاملِ الدعوةَ في الوقت ذاته ، وهذا هو سبيل أهل الكفر والنفاق في كل زمان ومكان ؛ فلو شُوِّهت صورة الداعية هل تسمع له ؟ أو تثق بمنهجه وتطمئن لدعوته ؟! فهذا ديدن أهل الباطل في كل زمان ومكان ، أن يحرصوا على تشويه صورة الدعاة إلى الله ، وعلى رأس هؤلاء الدعاة : سيد الدعاة محمد بن عبد الله ﷺ ، لم يدخر المشركون وسعًا في تشويه صورته ، وتلطيخ سمعته ، وهو الصادق المزكَّى من الله ، ومَنْ زكَّاه الله لا يحتاج إلى تزكية الخلق بعد ذلك ، ومع ذلك اتُّهم المصطفى ﷺ في عِرضه ، وأنا أظن أن هذا هو أخطر بلاءٍ ابتلي به رسولُ الله ﷺ .. اتهم في عرضه ، وفي شرفه ، وفي طهارته ، وفي صيانة حرمته ، وهو الطاهر الشريف العفيف الذي ما بُعِثَ إلا ليورث أمته الطهارة بمفهومها الشامل ، وهو القائم على صيانة الحرمات كلِّها في أمته ؛ فرد الله ﷻ

عليهم وبين صفات النبيِّ ﷺ وأكد صدقه وأمانته في كثير من آيات القرآن الكريم ، وبَيَّنَ صدق منهجه وعظمة الكتاب الذي نُزِّل عليه ؛ فقال تعالى : ﴿ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾ [النجم : ٣ - ٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤ : ٤٧] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣] .

ثم بَيَّنَ الله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ عظمةَ منهجه ، وفضْلَ القرآن الذي نُزِّل عليه؛ فقال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان:١] ، وقال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝ قَيِّمًا ﴾ [الكهف : ١] ، وقال تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء:٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ [الزمر : ٢٣] .

آيات كثيرة ، وضَّح فيها القرآنُ المكيُّ صفاتَ النبيِّ ﷺ ، وصفاتَ المنهج الذي جاء به من عند ربه ، وصفاتَ كِتابه الذي جاء به من عند الله ألا وهو القرآن الكريم .

ثالثًا : مواجهةُ جميع أنواع العقبات النفسية التي تصد الناس عن طريق الهداية ؛ كالكبر ، والغرور ، والحقد ، والحسد ، واتباع الأهواء ، والشهوات ، ومكائد الشيطان ، ومفاتن الدنيا وزينتها .

نزل القرآن الكريم ليعالج كلَّ هذه العقبات بضرب الأمثلة الحية التي تدلُّ على ضَعْف الإنسان ، وعلى غروره الكاذب ، والتي تُذَكِّر الإنسان دائما بحقيقة دنياه ، وبحقيقة أخراه ، وبحقيقة عداوة الشيطان له ، وتذكِّره بخطر الهوى ، وبخطر اتباع الشهوات للقضاء على هذه الأمراض التي تمثل أخطر العقبات في صدِّ الناس عن دعوة الله ، وعن منهج الله - جَلَّ وَعَلا .

نزل القرآن في هذه المرحلة المكية ليطهر القلوب والنفوس ، حتى إذا ما طهرت القلوب تلقَّتْ عن الله بعد ذلك ؛ كما سنرى في المرحلة المدنية كلَّ تشريعاته بالسمع والطاعة ، والانقياد ، والإذعان ؛ فمحال أن ينقاد إنسانٌ وقلبه مملوءٌ بكلِّ هذه الآفات ، والشهوات ، والأمراض ؛ فعمل القرآن ابتداءً على طهارة القلوب من كلِّ هذه الأمراض ، وتطهيرها من كلِّ هذه العقبات ؛ فلما طهرت القلوب بعد ذلك ، وتلقت أوامر الله لتحقيق النظام الإسلامي في كل جوانبه .

كان الجوابُ مع كلِّ أمر ونهي وحَدٍّ : سمعنا وأطعنا !! قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ [النور : ٥١ ، ٥٢] .

رابعًا : الربط المتتابع بين الدعوة الخاتمة ، وبين ما سبقها من دعوات .

فتلاحظ في القرآن المكي دائما الحديث عن سير الأنبياء السابقين ليربط الله ﷻ بين دعوة محمد ﷺ وبين الدعوات الأخرى التي جاء بها جميع إخوانه ، وذلك لأمرين :

الأول : ليتضح للمكذبين المعاندين أن محمدًا ﷺ يتلقى من نفس المصدر الذي تلقَّى منه جميع إخوانه من النبيين والمرسلين الذين سبقوه ؛ كما قال النجاشيُّ ؓ : « إنَّ هَذَا وَالذِي جَاءَ بِهِ عِيسَى لَيَخْرُجَ مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ »[1] .

وقال تعالى ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

فالكلُّ يتلقى التشريع عن الله الواحد الحق لا إله إلا هو .

الثاني : عرض أحوال المكذبين والمعاندين الذين كذبوا الرسل وكيف كانت نهاياتهم لتكون في هذه النهاية عظةً وعبرةً لهؤلاء المشركين المعاندين لدعوة النبيِّ في مكة ؛ فالله ـ تبارك وتعالى ـ حينما يعرض دعوة نوح ـ مثلًا ـ يبين حال قومه معه ، ويذكر أقوال قومه له ، ثم يذكر الله ﷻ النتيجة الحتمية لهؤلاء المعاندين المكذِّبين .

قال تعالى : ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ

---

(١) أخرجه ابن إسحاق ؛ كما في « السيرة » لابن هشام (١ / ٢٠٨ – ٢١٠) ، وأحمد (١ / ٢٠٢) ، (٥ / ٢٩٠) ، والبيهقي في « الدلائل » (٢ / ٣٠١) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١ / ١١٥ ، ١١٦) من حديث أم سلمة ؓ في حديث الهجرة الطويل .

عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١١ - ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧].

فهذه الصورة النهائية لهؤلاء الأقوام الذين كذبوا وعاندوا الرسل إنما هي عظة وعبرة لهؤلاء المعاندين لسيد المرسلين محمد ﷺ.

خامسًا: العرض المتتابع الكثير لمشاهد الجنة والنار، ولمشاهد القيامة.

فمن المعلوم أن أسلوب الترغيب والترهيب من الأساليب التربوية الناجحة التي استخدمها القرآن الكريم، ولا ينبغي لأحد - بعد ذلك - يدَّعي العلم، ويدَّعي العقلنة، ويدَّعي رجاحة الذهن، وفهم الواقع، لا يجوز له البتة أن تأتي في مثل هذه الأيام ليتهم بعض الدعاة الذين يسلكون مسلك الترغيب والترهيب بأنهم لا يفقهون الواقع، وبأنهم دعاة حيض ونفاس، وبأنهم . . . وبأنهم . . . ؛ هذا مسلكٌ خطيرٌ ينبغي أن يتورَّع عنه كلُّ مسلم يحبُّ الله ورسوله ويقرأ القرآن؛ لأنه لو تدبر القرآن من أوله إلى آخره، لرأى أن الأسلوب الأول للقرآن لإصلاح النفوس، ولتربية الناس، هو: أسلوب الترغيب والترهيب؛ فلا ينبغي لأحدٍ أن ينتقص هذا الأسلوب التربوي الفريد؛ فإنما هو أسلوب القرآن، والقرآن كلام الله، والله الذي خلق النفس، وهو وحده الذي يعلم المنهج الذي يصلحها.

قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

ثالثا : الخصائص المتعلقة بالجانب الأخلاقي :

فالقرآن المكيُّ ركَّز تركيزًا شديدًا جدًّا على التربية الأخلاقية ؛ بل هذه هي غاية الدين ؛ فغايته حسن الخلق ، ولا ينبغي أن نحصر حسن الخلق في نطاقٍ ضيقٍ ؛ فخلقٌ مع الله ، وخلق مع النبيِّ ﷺ ، وخلقٌ مع النفس ، وخلقٌ مع الناس ،وخلقٌ مع الجار ، وخلقٌ مع الأعداء ؛ فغاية الدين : حُسْنِ الخُلُقِ ، والقرآن نزل في مرحلة ركَّز فيها ابتداءً على التربية ؛ فمحالٌ أن ينقاد إنسان لأمر الله ونهيه ، وأن يقف عند حدوده قبل أن يتربَّى ابتداءً على أخلاق هذا الدين ، وعلى حقيقة الإيمان برب العالمين وسيد المرسلين ﷺ .

ونحن نرى الفارق الكبير بين الأمة الآن في جلِّ أفرادها وبين أصحاب النبيِّ ﷺ في مبدأ السمع والطاعة ، ولا زال القرآن الذي ربَّى الصحابة بين أيدينا لم تحذف منه آية ، ولم تتبدَّل منه كلمة ، ولم يتغير فيه حرف ، ولازالت سُنَّة النبيِّ ﷺ بيننا ، ولكنَّ الفارق بيننا وبينهم كبير !! ، لماذا ؟!

لأن هؤلاء ـ ابتداءً ـ تربَّوا على أخلاق هذا الدين .

فلقد ظلَّ النبيُّ ﷺ في مكة يربِّي الصحابة ثلاثة عشر عامًا على حقيقة الإيمان بالله ـ جَلَّ وَعَلاَ ـ فلمَّا تخلَّقوا بأخلاقِ هذا الدين نَزَلَت الأوامر والنواهي بعد ذلك .

وكان الجواب في كل مرة : سمعنا وأطعنا !! .

وحادث تحريم الخمر من أنصع الأ ـة على ذلك :

ففي « الصَّحيحَيْن » عن أنس رضي الله عنه قال : « كُنْتُ سَاقِيَ القَوْمِ ، يَوْمَ حُرِّمَتْ الخَمْرُ ، فِي بَيْتِ أَبِي طَلْحَةَ، وَمَا شَرَابُهُمْ إِلاَّ الفَضِيْخُ : البُسْرُ والتَّمْرُ ، فَإِذَا مُنَادٍ يُنَادي : أَلاَ إِنَّ الخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ ، قَالَ : فَجَرَتْ فِي سِكَكِ المَدِينَةِ ؛ فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ : اخْرُجْ فَاهْرِقْها ،فَهَرَقْتُهَا » .[1]

وفي لفظ : « فَمَا رَاجَعُوهَا وَلاسَأَلُوا عَنْهَا بَعْدَ خَبَرِ الرَّجُلِ » .

وهذا ماعز بن مالك رضي الله عنه ما جاءت به الشرطة أبدًا ! وما أمسك به بوليس الآداب !! زَلَّ في الزِّنا ، وسقط ؛ فجاء على قدميه للنبيِّ ﷺ ؛ ليقول : « طهِّرني يا رسولَ الله ؟» لماذا يا ماعز ؟ لم يرك أحدٌ ! ولم تَرَكَ عينُ القانون الوضعي !! لماذا أتيت أنت بنفسك ليقام عليك الحد ؟!

إنها التربية على أخلاق هذا الدين ، ويأتي في اليوم الثاني والثالث ؛ ليقول : «طهِّرني يا رسول الله !! » لا يطيق ، وهو يعلم يقينًا أنه قد وقع في كبيرة الزنا ، والرسولُ ﷺ يقول له : « وَيْحَكَ ! ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ »[2] .

والله لو رجع ماعز بن مالك رضي الله عنه في المرة الأولى ، واستغفر الله ، وتاب إلى الله لتاب الله عليه ، وفعل ما أُمر به من رسول الله ﷺ ، ولكنه الإيمان والتربية على أخلاق هذا الدين !! .

---

(١) انظر هذه القصة في « صحيح البخاري » ، كتاب المظالم ، باب صب الخمر في المدينة برقم (٢٤٦٤) ، وانظر أطرافه هناك ، وفي «صحيح مسلم » ، كتاب الأشربة ، باب تحريم الخمر ، برقم (١٩٨٠) .

(٢) انظر : قصة ماعز في « صحيح البخاري » في كتاب الطلاق ، باب الطلاق في الإغلاق والكره (٥٢٧٠ ، ٥٢٧١) ، وانظر أطرافها هناك . ومسلم ، كتاب الحدود ، باب من اعترف على نفسه بالزنا برقم (١٦٩٥ / ٢٢ وما بعده) .

والقرآن المكيُّ ما حُذِفَ وما نُسِخَ ؛ بل لازال موجودًا بيننا يُتلى علينا في الليل والنهار !! .

ولا يمكن أبدًا أن يكون الإيمانُ حقيقيًّا إلا إذا اقترن بالعمل والممارسة ؛ فلا قيمة لإيمانٍ مفرَّغ من العمل ، ولا لإقرارٍ يظلُّ شعارًا يطنطن به صاحبه دون أن يحوله إلى واقع .

ومن هنا ترى أن القرآن المكيَّ يَقْرِن في جلِّ آياته بين الإيمان والعمل الصالح ، قال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾[الرعد:٢٩] .

وهذا هو حسن الخلق .

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية ـ طيب الله ثراه [(١)] : « والصحابة قد ثبت عنهم أن الإيمان يزيد وينقص ، وهو قول أئمة السنة والقرآن قد نطق بالزيادة في غير موضع ، ودلَّت النصوص على نقصه في غير موضع ؛ كما ثبت أيضًا في السنة في قوله ﷺ : « لاَ يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ » .اهـ [(٢)] .

وكذلك يقول المصطفى ﷺ :« أَكْمَلُ المؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا » [(٣)] .

وهو يدلُّ على تفاوت قدْرِ الإيمان بتفاوت قدر الخُلُق ، ولقد حرص

---

(١) « مجموع الفتاوى » (١٣ / ٥٠ ، ٥١) .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الأشربة (٥٥٧٨) ، ومسلم ، كتاب الإيمان ، باب : بيان نقصان الإيمان بالمعاصي (٥٧) .

(٣) أخرجه أحمد (٢ / ٢٥٠) ، وأبو داود ، كتاب السنة ، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه (٤٦٨٢) ، والترمذي ، كتاب الرضاع ، باب : ما جاء في حق المرأة على زوجها (١١٦٢) . وصحَّحه الشيخ العلامة الألبانيُّ في « صحيح الجامع » (٢١١٠) (٢١١٢) ، و« السلسلة الصحيحة » (٢٨٤) .

القرآن في مرحلته المكية على إبراز كل مبادئه وغاياتـه واضـحةً ناصـعة ، وكان منها هذه الغاية العظمى . إيجاد الفـرد الصـالح ، وإيجاد المجتمع الصالح اللذان لا ينفك الإيمان فيها أبدًا عن حسـن الخُلُق ؛ فلـو فتشت في كلِّ سور القرآن المكي ، وهي متعددة : منها ما هو مفصَّل ، ومنهـا مـا هو مُجْمَلٌ ؛ لوجدت التركيز البين على قضية الأخلاق .

تدبَّر معي قول الله تعالى في سورة لقمان : ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] .

هذا أسوأ خُلُق ، وأخطر خُلُق ؛ ألا وهو : خُلُق الشركِ ، وأعظم خُلُق هو : خُلُق الإيمان ، ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان : ١٤ ، ١٥] .

وكلُّها آيات في حُسن الخلق .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴾ [الهمزة : ١ - ٣] .

فهذا تحذيرٌ من سوء الخُلُق . . وهكذا ؛ فالقرآن المكيُّ ركَّز تمامًا على الجانب الأخلاقي ، فالتوجيه إلى تجنب الشرك ، والأمر بالإحسان ، والأمر بالتقوى ، والأمر ببر الوالدين ، والأمر بالصلاة ، والأمر بغض الصوت ، والأمر بعدم التكبر ، وعدم التبختر في المشية ، والتحذير من الهمز واللمز ، كلُّ هذا إنما هو في رحابِ حسن الخُلُق ؛ إما بالدعوة إلى حُسْنِ الخُلُق ، وإما بالتحذير من الوقوع في سوء الخُلُق .

أسأل الله ﷻ أن يرزقنا وإياكم حُسْنَ الأخلاق .

نعم . . إن المنهج النظريَّ لا يساوي قيمة الحبر الذي كُتِبَ به ما لم يتحول إلى منهج عمليٍّ ، ما لم يتحول في حياتنا إلى أخلاق تتحرك ؛ فوالله ما نجح المصطفي ﷺ في أن يقيم للإسلام دولة وسط صحراء تموج بالكفر موجًا إلا يوم أن نجح في طبع عشرات الآلاف من النسخ من المنهج التربوي الإسلامي ، لكن لم يطبعها بالحبر على صحائف الورق ، وإنما طبعها على صحائف القلوب بمدادٍ من النور ؛ فانطلق أصحابُ النبيِّ ﷺ ليحولوا هذا المنهج إلى واقع عمليٍّ يتألق سموًا وروعة وعظمة وجلالًا .

ترى الأعرابي الجلف الغليظ القاسي الذي كان لا يُحسن الكلمة ؛ انظر إليه بعد أن ربَّاه القرآن ، على يد مَنْ ربَّاه اللهُ على عينه ليربي به الدنيا ﷺ ؛ لقد تحوَّل الرجل وأصبح رجلًا رهيف الحس ، رقيق القلب ، دامع العين

وهذا : أبو بكر الصديق ، ماذا كنت تعرف عنه قبل الإسلام ؟ وما

الذي وصل إليه بعد الإسلام ؟ !

لقد ارتقى الصِّدِّيق مُرتقًا عجيبًا ؛ فأرجو ألا تنسى أنه قد صَلَّى إِمَامًا برسول الله ﷺ !!! والذي أوْصَله إلى هذه المكانة تحويله لهذا الدين العظيم إلى منهج عمليٍّ واقعيٍّ ؛ حتى قال له النبيُّ ﷺ يومًا من الأيام ؛ كما في «صحيح البخاري» : « مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الأَشْيَاءِ فِي سَبِيلِ الله ، دُعِي يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ : يَا عَبْدَ الله ، هَذَا خَيْرٌ . . . » الحديث [(١)] وقد سبق بنا .

رجلٌ تنُادي عليه أبواب الجنان كلُّها ليدخلها .

الشاهد: أنه لا عزَّة لنا ، ولا كرامة إلا إذا عدنا إلى أخلاق هذا الدين .

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فالعودة إلى أخلاق هذا الدين ليست نافلةً ، ولا تطوعًا ، ولا اختيارًا ؛ بل هي شرطُ الإسلام ، وحدُّ الإيمان .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾

[النساء : ٦٥]

رابعًا : **الخصائص المتعلقة بالجانب التشريعي :**

إنَّ القرآن المكيَّ ركَّز أيضًا على الجانب التشريعيِّ ، وبكل أسفٍ يظنُّ

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب الصوم ، باب الرَّيان للصائمين برقم (١٨٩٦) ، ومسلم في كتاب الزكاة ، باب ما أنفق العبد من جمع الصدقة وأعمال البر برقم (١٠٢٧) ، وابن حبان في « صحيحه » ؛ كما في « الإحسان » برقم (٦٨٦٧) .

بعضهم أن الجانب التشريعي كان في المدينة فقط ؛ فهذا وهم وخطأ !!
لدرجة أن هناك من أهل العلم من استثنى بعض الآيات التي نزلت بالتشريع في مكة ، فسمَّاها آياتٍ مدنية على اعتبار أن التشريع لا ينبغي أن يكون إلا بعد تأسيس الدولة في المدينة !!

وهذا أيضًا خطأ ! لأن التشريع لا يمكن على الإطلاق أن يتأخر في أي مرحلةٍ من مراحل البناء .

صحيحٌ أن كلَّ مرحلةٍ لها تشريع يناسبها ؛ لكن لابد مع تأصيل وتأسيس العقيدة من جانب تشريعيٍّ .

مستحيلٌ أن يعيشَ الإنسان في أي مرحلة بدون تشريع ، وإذا تجرأ الإنسان على الله ، ونسي نفسه ، ونحَّى شرع الله ﷻ ، وراح يشرِّع لنفسه ضَلَّ وأضَلَّ ، وعاش في ضنك وذلٍّ وهوان ؛ لأن الإنسان محكوم من ناحية الزمان والمكان !! بمعنى أن الإنسان تتحكم فيه الأهواء والشهوات والنزوات والرغبات ، ولو عاش في زمانٍ لا يعيش في غيره ، ولو عاش في مكان لا يعيش في غيره !! . ومن ثمَّ لو وضع الإنسان لنفسه ، وَلِبَنِي جنسه تشريعًا ؛ لابد وحتمًا أن يأتي هذا التشريع متسمًا بسماتِ واضعهِ ، وسمات الواضع ـ ألا وهو الإنسان ـ سمات نقص ؛ فحتمًا يأتي التشريع ناقصًا !!

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴾ [الحجرات : ١]

قال ابن عباس : « أي : لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة »[١] .

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في « التفسير » (٣١٦٥٧) .

وقال القرطبيُّ رحمه الله : « أي لا تقدِّموا قولًا ولا فعلًا على قول الله ، وعلى قول وفعل رسول الله ﷺ »[1] .

وقال الشنقيطيُّ رحمه الله : « ويدخل في معنى الآية دخولًا أوليًّا تشريع ما لم يأذن به الله ؛ فلا حرام إلا ما حَرَّمه الله ورسوله ، ولا حلال إلا ما أحَلَّه الله ورسوله ، ولا دين إلا ما شرَّعه الله ورسوله » .فالتشريع لله وللرسول ؛ قال تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[2] [الحشر:٧] ، وقال تعالى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [يوسف : ٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : ٩] .

والنبيُّ ﷺ يقول : « قَدْ تَرَكْتُكُمْ علَى المحَجَّةِ البَيْضَاءِ ، لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا ، لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إلاَّ هَالِكٌ »[3] .

فالقرآن المكيُّ لم يُغفل هذا الجانب التشريعي ؛ كأنه يريد أن يبرز حقيقة هامة جدًّا ألا وهي : عدم استغناء البشر في أيِّ وقت من الأوقات ، وفي أي ظرف من الظروف عن تشريعٍ إلهي ينظم حياتهم ، بصرف النظر عن طبيعة هذا التشريع التي لا بد أن تحمل سمات

---

(١) « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي (١٦ / ٣٠٠) طبعة الهيئة المصرية للكتاب .

(٢) « أضواء البيان » للشنقيطي (٧ / ٦١٤) طبعة مكتبة ابن تيمية .

(٣) هذا بعض حديث العرباض بن سارية الشهير ، وأوله : « وعظنا رسولُ الله ﷺ مَوْعظَةً ذَرَفَت منها العيون .. » أخرجه ابن ماجة في المقدمة ، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (٤٣) ، وأحمد (٤ / ١٢٦) ، والحاكم (١ / ١٧٥) ، والطبراني في « الكبير » (١٨ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧) ، و« مسند الشاميين » (٣ / ١٧٢) (٢٠١٧) ، وصحَّحه الشيخ الألباني في « الصحيحة » (٩٣٧) ، و« صحيح الجامع » (٤٣٦٩) .

مخصوصة ؛ حسب طبيعة الواقع الذي تتعلق به ، والذي نزلت لتعالجه ، ولقد تطرق القرآنُ المكيُّ في تلك المِرحلة إلى هذه الأحكام بأسلوب جميلٍ ومختصرٍ ومجمل ؛ ليوازن بين أحوال المسلمين من ناحية ، وبين أهمية هذه الأحكام التشريعية من ناحية أخرى ، ومن أهم سمات هذا الأسلوب القرآني التركيز على أصول الأحكام دون الخوض في التفاصيل إلا نادرًا ، ويقدمها في الغالب في سورة فضائل خُلُقية يدعو إليها ؛ أو يحذر من عدم فعلها ؛ أو من الوقوع في أضدادها .

على سبيل المثال : اقرأ معي قول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] .

والسؤال : هل هذه الآيات يوجد فيها أحكام تشريعية أم لا ؟

والجواب : كلُّها أحكامٌ تشريعية ؛ لكن بصورةٍ مُجْمَلَةٍ : « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ » كالزنا ، والخمر ، وعمل قوم لوط ، والغيبة ، والنميمة ، والإثم ، والبغي : أي : الظلم بغير الحق.

كذلك اقرأ معي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٧٣] .

فهذه أحكام تشريعية جاءت بصورة مُجْمَلَة .

اقرأ معي قول الله ﷻ : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ

هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴾ [الفرقان : ٦٣ ـ ٧١]

فالآياتُ تنهى بطريقِ الفحوى عن جريمة قتل النفس ، وعن جريمة الزنا ، وعن شهادة الزور ، والتي تَضِيعُ بها الحقوقُ ، وتَقَعُ بها المظالم ، وتنهى الآياتُ عن الإسراف الذي يقود إلى السفه والإتلاف ، وتنهى عن التقتير الذي قد يؤدي إلى التفريط في حقٍّ من حقوق الله ؛ كمنع الزكاة . . وهكذا ، لكنَّ هذه التشريعات قد جاءت في الجملة على صورة فضائل خلقية ؛ لكنها تشريع لا يستغني الإنسان أبدًا عنه في أي مرحلة من مراحل حياته .

تدبَّر معي قول الله ﷻ : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [النحل : ٦٦ ، ٦٧] .

ففي الآيتين تقبيح تعاطي الخمر بطريق المفهوم لا بطريق المنطوق ؛ لأن الآية ذكرت ما يستخرج من ثمرات النخيل والأعناب ليكون سكرًا ورزقًا حسنًا ؛ فكان وضع السُكْر مقابلَ الرزق الحسن بمثابةِ إشارةٍ واضحةٍ إلى خبث السكر ؛ لأنه ما ليس برزقٍ حسنٍ لا يكون إلا سيئًا وخبيثًا ، ففرّق بين السُكْر وبين الرزق الحسن ؛ ليدلَّ بطريق المفهوم على خبث السَّكَر ، وعلى تحريم الخمر ، فالقرآن المكيُّ لا ينبغي أبدًا أن يقال: إنه أغفل الجانب التشريعي !! كلاً ، وإنما جاءت آيات التشريع في آيات القرآن المكي ، بالطبع ليست كآيات التشريع في القرآن المدني ، ولكنها جاءت بصورةٍ مجملَةٍ ، وجاءت بصورة فضائل خُلُقية ، يدعو الناس إليها .

*****

خصائص القرآن المدني

أولًا : فيما يتعلق ابتداءً بجانب العقيدة ؛ فالسمة الأولى أو الغالبة في سور القرآن المدني :

١ ـ العرضُ المجمل لقضايا العقيدة :

على اعتبار أن العرض التفصيليَّ لعقيدة التوحيد كان في مكة ؛ لكن أودُّ أن أُلفِت الأنظار إلى قضيةٍ هامة جدًّا ، ونحن بصدد الحديث عن خصائص القرآن المدني ؛ فيما يتعلق بأمرِ العقيدة ألا وهي : أن بعض الكُتَّاب قد ظنَّ أن القرآن المدنيَّ لم يتعرض لأمرِ العقيدة قط ، على اعتبار أن القرآن المكيَّ قد أصَّل العقيدة تأصيلًا في المرحلة المكية ، وهذا وهمٌ كبيرٌ ؛ لأن قضية التوحيد لا ينتقل منها إلى غيرها ؛ بل ينتقل معها إلى غيرها !! لأن العقيدة هي أصل الأصول ، وهي اللبنة الأولى ، بل والأخيرة في بنيان الإيمان كلِّه .

ولذلك نلحظ كثيرًا أن آيات القرآن المدني تؤصل العقيدة كذلك ، ولكن بصورة مجملة ، إذ لا تكاد توجد سورةٌ مدنيةٌ تخلو عن صلة بالعقيدة ، أو عن جانبٍ من جوانب الاعتقاد ، أو عن ركن من أركان الإيمان بالله ـ جَلَّ وَعَلا .

والواضح حينما تدرس آيات القرآن المدني الذي أنزل في المدينة أو بعد الهجرة ـ كما فصَّلنا قبل ذلك ـ نلاحظ أن الآيات في مجملها قد ركَّزت على أركان ثلاثة من أركان الإيمان بالله ﷻ ألا وهي الإيمان بالله ،

والإيمان بالرسل، والإيمان باليوم الآخر.

تدبَّر معي بعض الشواهد من القرآن المدني، يقول الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[البقرة: ٢٨٥].

آيةٌ من آيات القرآن المدني تتكلَّم عن العقيدة وأركان الإيمان.

قال تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾[آل عمران: ١٨].

فهذا توحيدٌ واعتقاد؛ فإن أول من شهد بالوحدانية لله هو الله، وثنَّى بملائكته وثَلَّث بأهل العلم.

أسأل الله ﷻ أن يبارك في علمائنا.

قال تعالى في سورة النساء: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[النساء: ٤٨].

فهذه أيضًا آية في صُلْبِ الاعتقاد.

وهكذا نرى أن السور والآيات المدنية تتعرض للاعتقاد؛ ولكن بصورةٍ مجملةٍ على اعتبار أن التفصيل قد أُصِّلَ وأُسِّسَ في المرحلة المكية.

٢ـ السمة الثانية:

أن القرآن المدني يوظِّف العقيدة بهذا العرض المجمل توظيفًا جديدًا،

ليستثمر العقيدة في خدمة الحياة الجديدة في المجتمع المدنيّ .

والحقُّ أن العقيدة لا تُغرَسُ في النفوس لتُحْبسَ في الصدور ؛ ولذلك حينما نادي بالاعتقاد أولًا قد يعترض علينا بعض الناس على اعتبار أن فهمه للعقيدة مجردُ فهمٍ نظريٍّ ؛ فيقولون: إلى متى تَظَلُّون تدعون الناس إلى التوحيد ؟! وإلى متى و. . و . . إلى آخره ؛ لأن الفهم القاصر لقضية التوحيد هو الذي نشأ عنه هذا الفهم المغلوط ؛ فقضية العقيدة ما كانت أبدًا مجرد عقيدةٍ نظريةٍ إطلاقًا ، وما ربَّى النبي ﷺ أصحابه على العقيدة هذه المدة الطويلة ليخرج الصحابي الجليل ، وقد حفظ عقيدة التوحيد عن ظهر قلب ؛ مجرد حفظ نظريٍّ فقط ؛ كما هو حال كثير منا الآن !! .

فوالله ! ما أنزل الله عقيدة ، وما ربَّى النبيُّ ﷺ أصحابه على العقيدة لتكون العقيدة حبيسة الصدور وفقط ! كلَّا ، وإنما لتحرك هذه العقيدة النفوس والقلوب ، ولتُسَخِّرَ هذه العقيدة الجوارح كلَّها إلى علَّام الغيوب .

ما فائدة أن الإنسان المسلم يتربَّى على الاعتقاد ، ومع ذلك تجد بَوْنًا شاسعًا في حياته بين المعتقد المنير وبين واقعه المؤلم المرير ؟! .

فدروس العقيدة ليس الهدف منها الحشو النظريَّ والثقافيَّ الذهنيَّ البارد الباهت الذي لا يتعامل إلا مع الأذهان ، فهذه مصيبةٌ كبرى ؛ لأن القول إذا خالف العمل في الجملة بذر بذور النفاق في القلوب ؛ كما قال الله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ

مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾[الصف : ٢ ، ٣] .

أسأل الله ﷻ أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل .

ولقد زُرِعَتْ في الفترة المكية بذورُ العقيدة ، واختُبِرَت في عالم الواقع ؛ لنرى هل تحولت هذه العقيدة في قلوب الصحابة إلى واقع عملي أم لا ؟ أم ظلَّت العقيدة مجرَّدَ منهج نظريٍّ حفظوه عن ظهر قلب عن الحبيب النبيِّ ﷺ ؛ فلما تعرَّض الواحد منهم عند أول محكٍّ عمليٍّ لاختبار عقيدة التوحيد انزلق وانحرف ! لا ؛ بل ظهرت العقيدة في الواقع جبلًا راسخًا ثابتًا لا يتزعزع ، مهما كانت قوة الأعاصير ، ومهما كانت حجم العقبات والضربات ؛ فلقد كان الواحد منهم يُشْوَى شَيًّا على رمال مكة الملتهبة التي انعكست عليها أشعة الشمس المحرقة ، تكاد أشعتها فقط أن تخطف الأبصار إذا انعكست على الرِّمال ، فكان الصحابيُّ ينام على هذه الرمال الملتهبة ، ويُضَحِّي ببدنه ؛ بل وبحياته كلِّها من أجل عقيدة التوحيد ؛ بل منهم من ترك بيته وماله ووطنه من أجل عقيدة التوحيد . . هاجر لا من أجل دنيا ، ولا من أجل امرأة ينكحها ، وإنما من أجل عقيدته ؛ من أجل أن يظل متمسكًا بعقيدة التوحيد التي خالطت دماءَه وخالطت كيانه .

لكن انظر الآن إلى واقع كثير ممن ينتسبون إلى الإسلام ! والله الذي لا إله غيره قد يضحِّي الإنسان الذي ينتسب إلى الإسلام بعقيدته من أجل كُرسيٍّ حقيرٍ زائلٍ أو منصبٍ تافهٍ ، يريد أن يتبوأه ، وأن يجلس فيه ، ويبيع دينه بعَرَضٍ من الدنيا حقير ! وقد قال ذلك الصادق الذي لا

ينطق عن الهوى وأخبر به .

فاختبر عقيدتك أيها المسلم عند أول محكٍّ ، وعند أول فتنة من فتن الابتلاء .

فانظر إلى الفارق بيننا وبين أصحاب النبيِّ ﷺ ، فلقد جاء خَبَّابُ بن الأرت رضي الله عنه إلى النبيِّ ﷺ ـ والحديث في « صحيح البخاري » ـ قال : شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ ؛ قُلْنَا لَهُ : أَلَا تَسْتَنْصِرُ لَنَا ، أَلَا تَدْعُو اللهَ لَنَا ؟ قَالَ : « كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهِ ، فَيُجَاءُ بِالمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَادُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ ، وَمَا يَصُدُّهُ ذلِكَ عَنْ دِينِهِ، واللهِ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضَرَ مَوْتٍ لايَخَافُ إِلاَّ اللهَ ، أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ »[١] .

وفي هذه الظروف الصعبة يبشِّر النبيُّ ﷺ بنصرة الإسلام ؛ ولذا أنا أرجو من إخواني الدعاة وطلاَّب العلم في ظلِّ هذه المحنة التي تحياها الأمة أن يبشِّروا الأمة بنصرة الإسلام ؛ حتى لا يزيدوا الأمة يأسًا وخُذلانًا ، وحتى لا يزيدوا من يعمل لدين الله تكاسلًا وانحرافًا ، بل يجب أن نُبَشِّر وسط هذه المحن ، ولنا في ذلك سلف ؛ فقد بشَّر رسولُ الله ﷺ في أحلك أوقات المحن ، والمشركون يحيطون بالمدينة من كل

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب المناقب ، باب علامات النبوة ، برقم (٣٦١٢)، وانظر طرفيه هناك.

ناحية في غزوة الأحزاب واليهود من بني قريظة ـ عليهم لعائن الله ـ نقضوا العهد مع النبيِّ ﷺ في وقتٍ حرجٍ ، ومع ذلك نزل النبيُّ ﷺ بنفسه ؛ ليحفر الخندق مع أصحابه ، وفي ظِلِّ هذه المحنة القاسية يقول ﷺ : «أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ ، أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ اليَمَنِ ، أُوتِيتُ مَفَاتِيحَ كِسْرَى»(١) .

فالنبيُّ ﷺ يبشِّر هذه الأمة وأصحابه بأن النصرة لدين الله ، رغم هذه المحن الحالكة التي تمر بها أمته ؛ فلا ينبغي أبدًا أن نَكْسَلَ أو نتخاذل أو نيأس أو نقنط ؛ بحجة أنه قد انتهت الأمة ! وضاع الدين ! وتَسَلَّط المنافقون ، وتحكَّم في الأمة المجرمون الخائنون ! إلى آخر هذه الأمور التي نعْلَمها جميعًا ، لكنني أقول: ينبغي أن نعلم يقينًا أنه كلَّما اشتدت الضربات ، وكلَّما انتشر الفساد ، فإن هذا إن شاء الله تعالى إذْنٌ من الله تعالى بالفتح .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ

(١) كما في «مسند أحمد» (٤/ ٣٠٣) ، وابن أبي شيبة (٧/ ٣٧٨) ، والنسائيُّ في «الكبرى» (٨٨٥٨) ، وأبي يعلى (١٦٨٥) ، وقد صحَّحه عبد الحق الإشبيلي ؛ كما في «تفسير القرطبي» لسورة الأحزاب : ٩) ، وانظر «البداية والنهاية» (٤/ ١٠١) لابن كثير . وحسَّنَ إسناده الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٧/ ٥٠٥) ، وتابعه الشيخ الألباني في «فقه السيرة» (٢٩٧) ، وقال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٨٩) : «رواه أحمد ، وفيه ميمون أبو عبد الله ، وثَّقه ابن حبان ، وضعَّفه جماعة ، وبقية رجاله ثقات»

عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر : ٦-١٣] .

إنها فاء الترتيب والتعقيب ، وتعقيب كل شيء بحسبه - كما هو معلوم - لقد كنت أقرأ في « الصارم المسلول » لابن تيمية - طَيَّب الله ثراه - لعلَّني أجد شيئًا ؛ فوجت كلامًا عجيبًا جدًّا .

يقول شيخ الإسلام [1] : « كان الحصن من حصون الأعداء يصعب علينا أن نفتحه ، ويطول الحصار حتى يقع أعداؤنا في عِرْضِ رسول الله ﷺ ، فنستبشر بذلك خيرًا ، مع ما تمتلئ قلوبنا غيظًا مما قالوه في حق رسول الله ﷺ » .

كانوا يعدُّون ذلك فتحًا ؛ لأن الذي سينتقم لنبيه هو الله ﷻ ؛ كما قال ربُّنا - جلَّ جَلَالُه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾
[الأنفال : ٦٢]

فلقد زُرِعت العقيدةُ في الفترة المكية ؛ واخْتُبِرت في عالم الواقع فأثمرت ثباتًا وإصرارًا على الإسلام .

ثم جاءت المرحلة المدنية بتكاليفها العظيمة لإقامة صرح الإسلام الشامخ بتشريعاته ونظمه الاجتماعية . . جاءت هذه الفترة المدنية ؛ لتختبر العقيدة مَرَّة أخرى ، فوجدت سمعًا وطاعة ، ليس لهما في عالم البشرية نظير . . وهنا العقيدة .

---

(١) (« الصارم المسلول » ١/ ١٢٣) ط ابن حزم ، وهو كذلك في « الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح » (٦ / ٢٩٦) ط العاصمة .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٥١] .

وتدبر معي قول الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٨] .

هذه آية مدنية تبين أن حقيقة الإيمان : السمع والطاعة .

فالإيمان ليس قولا فحسب ؛ بل قولٌ وتصديقٌ وعمل .

وانظر إلى قول الله تعالى : ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

انظر كيف ربط العقيدة بمنهج السمع والطاعة والإذعان لأمر الله ؟!

فالمطَلَّقَة إن كانت تؤمن بالله واليوم الآخر ؛ فإنها تلتزمُ بهذه الحدود ، وبهذا التشريع . . استثمار لقضية الإيمان بالله ، ولقضية الإيمان باليوم الآخر في الإذعان لشرع الله ﷻ في المرحلة المدنية .

ويقول الله ﷻ : ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ۝ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة ٤٤ ، ٤٥] .

انظر إلى هذا الربط الجميل ، وإلى توظيف قضية الإيمان بالله واليوم

الآخر ، في تأصيل منهج السمع والطاعة لله ولرسوله ؛ فالمؤمنون لا يستأذنون النبيَّ ﷺ في الجهاد بالنفس والمال ، أمَّا المنافقون فهم الذين يقدِّمون الحجج الباهتة الباردة الواهية ، وأنتم تعلمون أن الشك ينافي اليقين ؛ وكما قال ابن مسعود : « اليقين هو الإيمان كلُّه » [1].

فلا يخالط الشكُّ قلبًا ثبتَ فيه الإيمان ، ولا تهبُّ أعاصير الشكوك والارتياب على قَلْبٍ ثبتت فيه قضية الإيمان .

وقال تعالى : ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَـٰهَا وَفَرَضْنَـٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾[النور:١ ، ٢].

انظر إلى ربط عقيدة التوحيد بالامتثال لحدٍّ من حدودِ الله .

وهذا هو المؤمن دومًا ؛ فلو كنت تؤمن بالله ورسوله حقًّا ، وترى شيئًا أمامك بعينك ، لو أخبر رسول الله ﷺ عن هذا الشيء بصورة تخالف الصورة التي أراها أنا بعيني ، فواجب عليَّ أن أُصَدِّق رسولَ الله ﷺ ، وأن أكذِّب عيني ؛ لأن بصري قد يزيغ ، وقد يطغى ، أما بصرُ رسولِ الله ﷺ لا يزيغ ولا يطغى : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[النجم:١٧] .

وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ

---

(١) أخرجه البخاريُّ تعليقًا بصيغة الجزم ، كتاب الإيمان (١ : ٦٣) ، والبيهقيُّ في « الزهد » (٣٦١) مرفوعًا ، ثم أورد الموقوف ، وقال : « هذا هو الصواب موقوف » ، وأخرجه الخطيب في « التاريخ » مرفوعًا (١٣ / ٢٢٦) ، وأعلَّه أبو نعيم في « الحلية » (٥ / ٣٤) ، ورجَّح الحافظ وقفه في « تغليق التعليق » (٢ / ٢١ ، ٢٢) .

ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب : ٢٨، ٢٩] .

وهكذا آيات كثيرة تبين لنا كيف يكون الاستثمار لعقيدة التوحيد في المرحلة المدنية .

ثانيًا : الخصائص المتعلقة بأسلوب الدعوة :

ذكرنا أن أسلوب الدعوة يتحدَّد بحسب نوع العقبات والعراقيل ، وبحسب الزمان والمكان للدعوة ، ولاشك أن الدعوة في المرحلة المدنية كانت تُواجَه من قِبَل اليهود والنصارى والمنافقين ، بالإضافة إلى أهل الشرك في مكة .

ومن ثمَّ ؛ فأهمُّ الخصائص الموضوعية للقرآن المدني تتمثل فيما يلي :

أولًا : الاهتمام بمواجهة كفار مكة بالجهاد المسلح بعدما أصبح للإسلام دولة .

فالقرآنُ في هذه المرحلة يدعو الرسولَ ﷺ والمؤمنين معه إلى الجهاد المسلح ضد الكفار والمشركين في مكة .

فالنبيُّ ﷺ قد شرَّع لأمته إيجاب إنكار المنكر ليحصل من المعروف ما يحبه الله ورسوله ؛ فإن كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر ، فهو أمر بمنكر ، وسعيٌ في معصية الله ورسوله ، ولقد كان النبيُّ ﷺ بمكة يرى أكبر المنكرات ، ولا يستطيع تغييرها ، بل لما فتح الله عليه مكة ، وصارت

مكة دار إسلام ، وعزم النبيُّ ﷺ على هدم البيت ، وردِّه على قواعد إبراهيم لم يفعل ذلك ، مع قدرته على فعل ذلك ؛ لأن قريشًا كانت حديثة عهد بكفر وقريبة عهد بإسلام[(١)] .

فقهٌ جليل ؛ خلاصته أننا إن كنا في مرحلة الاستضعاف نصبر ، وفي مرحلة القوة والغلبة واجبٌ علينا أن نتحرك لنصرة دين الله ﷻ .

قال الله ـ تبارك وتعالى : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

[البقرة : ١٩٠ - ١٩٣]

آيات كثيرة جدًّا تحضُّ على الجهاد في مرحلة القوة ، وأودُّ أن أبين لكم أن الجهاد المسلح ؛ وإن كان القرآن المدني قد أمر به النبيَّ ﷺ وأصحابه ؛ فليس معنى ذلك أن القرآن قد أمر النبيَّ ﷺ وأصحابه بالتخلي في المرحلة المدنية عن الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة ؛ فالجهاد

---

(١) وهذه الكلمات النيِّرة من كلمات العلامة ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في « إعلام الموقعين » (٣/ ٥، ٦) بتصرف .

وراجع كلامًا قيِّمًا مشابهًا لهذا للإمام النووي ـ رحمه الله تعالى ـ في شرحه « لصحيح مسلم » (٩/ ٨٩) .

في حدِّ ذاته ليس هو الدعوة؛ بل شُرع الجهاد من أجْلِ الدعوة، ومن أجل نُشرِ دعوة الله ﷻ فإن تحرك النبيُّ ﷺ لدعوة الله، ووجد صدًا من الكفار والمنافقين واليهود والنصارى، وجب عليه حينئذٍ أن يجاهد هؤلاء جهادًا مسلحًا من أجل أن يتحرك ليدعو الناس لدين الله ﷻ فنحن لا نتحرك بالجهاد إلا لمن صدَّ عن سبيل الله، وحرَّض الناس على الإعراض عن دين الله؛ فحينئذٍ يتحرك المسلمون ليبلِّغوا دين الله ﷻ؛ فالجهاد غير الدعوة، وإنما أمر النبيُّ ﷺ بالجهاد ليقلِّم أظفار من يحُولُون بين الناس وبين دين الله وبين دعوة الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ فمقام الدعوة يستلزم الرفق واللين، ومقام الجهاد يستلزم الغلظة والشدة؛ كما قال تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾

[طه: ٤٣: ٤٤]

وهذا الأمر بالرفق لفرعون الذي قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾

[النازعات: ٢٤]

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾

[القصص: ٣٨]

فالله تعالى يأمر نبيين كريمين من أنبيائه أن يقولا لفرعون﴿قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ .

سبحانك ما أحلمك، إن كان هذا حلمك بفرعون الذي قال: أنا ربكم الأعلى؛ فكيف يكون حلمك بعبدٍ قال: سبحان ربي الأعلى»؟!.

كان الفضل بن عيسى الرقاشي إذا تلا هذه الآية قال: «يا مَنْ

يَتَحَبَّبُ إِلَى مَنْ يُعَادِيهِ ؛ فَكَيْفَ بِمَنْ يَتَوَلَّاهُ وَيُنَادِيهِ » [١] .

وقال يحيى بن معاذ : « إِلَهي وسَيِّدي ، هذا رِفْقُكَ بِمَنْ يزعم أنه إله ، فكَيْف رفقُك بمَنْ يقولُ : أنت الإله ؟! » [٢] .

والأثر رواه البيهقي في « الشُّعب » .

قال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

فهذا مقام دعوة ، ومقام خفض الجناح واللين والرحمة ، وبكل تواضع ؛ فالتواضع هو انكسار القلب لله ، وخفض جناح الذل لخلق الله .

وإليك هذا الدليل الآخر لسيد الدعاة ، ولمن زكَّاه ربه بقوله : ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

لمن زكَّاه ربه بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

ومع ذلك يحدد الله ﷻ منهج الدعوة لرسوله ؛ فيقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩]

---

(١) «روح المعاني» للألوسي (١٦ / ١٩٥) و« تفسير البغوي » (١ : ٢٧٤) ، و« تفسير القرطبي » (١١ / ١٨١) ، و« زاد المسير » (٥ : ٢٨٨) . وفي « تفسير ابن كثير » (لسورة طه : ٤٤) ذكره عن يزيد الرقاشي .

(٢) « شعب الإيمان » (٤٥١١) .

فبالله ، يُقال لرسول الله ﷺ هذا ؛ فكيف يثبت أناسٌ حَوْل رجلٍ غليظِ القلب ، وقد قيل هذا لرسول الله ﷺ الذي هو رحمة مهداة ؛ فهذا منهج دعوة ؛ فالجهاد وسيلة للدفاع عن الدعوة أمام الباطل الذي يتربص بها في كل زمان ومكان لإزالة العقبات التي تعترض طريقها حتى يسمع الناس كلام الله ، وحتى يعرفوا دعوة رسول الله ﷺ .

ثم بعد ذلك لا نُكره أحدًا على الإسلام ، ولا على أن يدخل في دين الله .

قال تعالى : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] .

وقال تعالى : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّـٰغُوتِ وَيُؤْمِن بِٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

وهذه الآيات كلُّها لابد أن نعي تمامًا أن مناطها لا يكون إلا بعد دعوة الناس إلى الله ﷻ ؛ فإن أقيمت الحجة على العباد وعلى خلق الله ، وسمعوا كلام الله وكلام رسول الله ﷺ ؛ فلهم بعد ذلك أن يختاروا ما يشاءون ، لا يستطيع أحدٌ بعد ذلك أن يكرههم على الدخول في دين الله .

ثانيًا : مواجهة المنافقين :

فلقد واجه القرآن المدنيُّ هذه الفئة الجديدة في المدينة بوضوحٍ لكشف حقيقتهم ، وفضح مؤامراتهم وتصرفاتهم تجاه الدعوة إلى الله . فهؤلاء من أخبث الأعداء ؛ بل هم أخطر عدو حقيقيٍّ على الدعوة في كل زمان

ومكان ؛ لأنهم يندسُّون في الصفِّ المسلم ، ويتكلَّمون بلسان المسلمين ، ويلبسون أزياء المسلمين ، وربما يُصَلُّون الجماعات ، وربما يشاركون النبيَّ ﷺ في الغزوات ؛ بل واقتسموا مع النبيِّ ﷺ الغنائم ؛ بل وتزوَّجوا بإعلانهم الإسلام الظاهر الحرائر من المسلمات الصالحات ؛ وهم في الوقت ذاته يحملون قلوبًا كقلوب الذئاب . . يحملون قلوبًا خبيثة تحمل الغلَّ والكفر والحقد لهذا الدِّين العظيم ، ولحامل لواء هذا الدِّين ﷺ؛ فهم يعلنون الإيمان ويبطنون الكفر ، وهذا هو النفاق الأكبر ؛ ومن ثمَّ : فإن أصل موقف المنافقين في كلِّ زمان ومكان مبنيٌّ على الكذب ، والخداع ، والتلاعب ، والتلون ، وهذا هو أصل النفاق ؛ فهم يحسنون الظاهر ، وباطنهم أسود مظلم خبيث !!

فالنفاق لغة : قال علماء اللغة [(١)]: إنما سُمِّي المنافق منافقًا ؛ لإظهاره شيئًا غير ما يضمره ، تشبيهًا له باليربوع .

تقول: نفق اليربوع أي : أظهر شيئًا ، وأخفى شيئًا ؛ فظاهر جحر اليربوع التراب ، وباطنه حفر ؛ وكذلك النفاق ظاهره إيمان وباطنه كفر ؛ هذا هو النفاق .

فالنفاق من جنس الخداع والمكر ، وهو إظهار الخير وإبطان الشر ؛ ولذا؛ فلقد جعل الله المنافقين أخبث وأشر من الكافرين الظاهرين ، والشرع فرَّق بين نوعين من أنواع النفاق : الأكبر والأصغر .

---

(١) « لسان العرب » (١٤ / ٢٤٣) بمعناه .

فالنفاق الأكبر هو : إظهار الإيمان وإبطان الكفر ـ والعياذ بالله ـ وهؤلاء مخلَّدون في النار ، بل في الدَّرك الأسفل من النار ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [النساء : ١٤٥] .

أما النفاق الأصغر : فلقد جمع النبيُّ ﷺ أصوله في خمسِ خصالٍ ؛ كما في روايتي عبد الله بن عمرو وأبي هريرةَ ﷺ وهما في « الصحيح » أنه ﷺ قال : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلاَثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ »[1] .

وفي رواية عبد الله بن عمرو : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا ، إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ »[2] .

هذه هي أصولُ النفاق العمليِّ . . فمن كانت فيه خصلة من هذه الخصال ، ففيه خصلةٌ من خصال النفاق ـ والعياذ بالله ـ ولا يظن أحدٌ أنه مبرأ من النفاق ! أو أنه بعيدٌ كلَّ البعد عن النفاق ! أو أن هذا الكلام ليس لنا ! لا ؛ فلقد خاف النفاق على نفسه فاروق الأمة عمر ﷺ ؛ وهو الذي أجرى الله الحق على لسانه وقلبه ؛ بل وذهب إلى أمين سرِّ النبيِّ ﷺ حذيفة بن اليمان ﷺ الذي أطلعه النبيُّ ﷺ بأسماء المنافقين ، ليقول له :

---

(١) أخرجه البخاريُّ في كتاب الإيمان ، باب علامة النفاق (٣٣) ، وانظر طرفيه هناك ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان خصال المنافق (٥٩) .

(٢) أخرجه البخاريُّ في كتاب الإيمان ، باب علامة النفاق (٣٤) ، وانظر طرفاه هناك ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان خصال المنافق (٥٨) .

«أَنْشُدُكَ اللهُ يَا حُذَيْفَةَ ، هَلْ سَمَّانِي لَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي الْمُنَافِقِينَ »[(١)] .

فلا يظنُّ أحدنا أنه قد برئ ، وأنه قد ابتعد ، فقد يمتلئ الرجل بالنفاق ، وهو لا يدرى !!

وروى البخاري ـ تعليقًا بصيغة الجزم ـ عن ابن أبي مليكة قال : « أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ ، كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ »[(٢)] .

أسأل الله أن يحفظني وإياكم من النفاق كَبيره وصَغيره .

ولخطورة هذا الصنف الخبيث من المنافقين على الإسلام وأهله كاد القرآن كلُّه أن يكون في صفاتهم ؛ فلقد هتك القرآن المدني أستارهم ، حتى إنك إذا ما قرأت الآيات تشعر بالمنافقين قد تحوَّلوا إلى أجساد ملموسة حية تحرَّكوا بين الناس في مجتمع المدينة ؛ من كثرة ما هتك القرآن أستارهم ، وكشف أسرارهم ، وبيَّن خبايا نيَّاتهم .

أقول : فلقد كاد القرآن كلُّه أن يكون في تعداد صفات هؤلاء المنافقين ؛ فلقد ذكر الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ في سورة البقرة طوائف العالم الثلاثة : المؤمنين والكفَّار والمنافقين ؛ فذكر في المؤمنين أربع آيات ، وذكر في الكفار آيتين اثنتين ، وذكر في المنافقين ثلاث عشرة آية ! ، لماذا

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاريُّ تعليقًا بصيغة الجزم في كتاب الإيمان ، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر ، ووصله البخاريُّ في « تاريخه الكبير » (٥ / ١٣٧) ، وانظر : «تغليق التعليق» للحافظ ابن حجر (٢ / ٥٢) .

هـذا العـدد الهائـل في المنـافقين ؟ لخطـرهـم ولشـدة فتنـتهم عـلى الإسـلام وأهله .

ولله درُّ ابـن القـيم إذ يقـول[1] : « فللـه كـم مـن معقـلٍ للإسـلام قـد هدموه !

وكم من حصنٍ للإسلام قد قلعوا أساسه وخرَّبوه .

وكم من علمٍ للإسلام قد طمسوه !

وكم من لواءٍ للإسلام قد وضعوه .

وكم ضربوا بمعاول الشبه في أصول غراسه ليقلعوها ! ، وكـم عمـوا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها ويقطعوها !

هؤلاء هم المنافقون ؛ فلا يزال الإسـلام وأهله مـنهم في محنة وبليـة ، ولا يزال يطرقـه مـن شـبههم سَرِيـة بعـد سَرِيـة ، ويزعمـون بـذلك أنهـم مصلحون ؛ وصدق الله إذ يقول :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ ا.هـ [البقرة : ١١ ، ١٢] .

فالمنافقون لبسوا ثياب أهل الإيمان على قلوب أهل الزيغ والخسران ، فالظواهر ظواهر الأنصار ، والبواطن بواطن الكفار ؛ فألسنتهم ألسنة المسالمين ، وقلوبهم قلوب المحاربين ؛ ومع ذلك يقولون : ﴿ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا

(١) «مدارج السالكين» (١ / ٣٤٨-٣٥٦) بتصرف .

يُخَادِعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾[البقرة : ٨، ٩] .

فلكلّ واحدٍ منهم وجهان : وجهٌ ينقلب به إلى إخوانه من الشياطين ، ووجهٌ يلقى به المسلمين ، ولكلّ واحدٍ منهم لسانان ، : لسان يُعبر به عن حقده الدفين إذا خلا بإخوانه من الشياطين ، ولسان يقطر عسلًا وسُكَّرًا إن كان مع المسلمين المسالمين ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾[البقرة : ١٤ - ١٦] .

فهم من ألطف الناس بيانًا ، ومن أعظم الناس أجسامًا ، ومن أخبث الناس جنانًا ؛ قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾

[البقرة : ٢٠٤، ٢٠٥]

وقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾[المنافقون : ٤] .

حتى قال ابن القيم [1] رحمه الله عن قول الله تعالى : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾[محمد : ٣٠] .

---

(١) « مدارج السالكين » (١/ ٣٥٦) .

أسروا سرائر النفاق ، فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم ، فلتات اللسان ، ووسمهم لأجلها بسيما لا يخفون بها على أهل البصائر والإيمان ، وظنوا أنهم إذ كتموا كفرهم ، وأظهروا إيمانهم راجوا على الصيارف والنقاد ! كيف ، والناقد البصير قد كشفها لكم . . إلخ كلامه رحمه الله ». اهـ .

يأبى الله إلا أن يظهر المنافقين في زلات ألسنتهم ، وعلى صفحات وجوههم !!

فمحال أن تعيش من أجل أن تناصر قضيةً معينةً وتدافع عنها ، وتؤصل وتؤسس لهذا المنهج دون أن يزلَّ لسانُك بحقيقة ما تعتقده وما تعيش من أجله ؛ فلا يمكن أن تكذب على الله ، وعلى الناس وقتًا طويلًا، فلابد أن يفتضح أمرك في الدنيا قبل الآخرة إن لم تتب إلى الله !!

وفي الحديث الصحيح : « مَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ به » [1]

بمعنى : إن أجاد الإنسان الرياء والنفاق ، وتكلَّم ولعب على هذا الحبل ، حتمًا قبل أن يلقى الله ﷻ لابد أن يهتك الله ستره ، وأن يفضح الله أمره ، وأن يرائي الله به بين الناس ، فسترى الألسنة تنطق بالحكم على هذا الرجل الذي راآى الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ بأنه مراءٍ ، وبأنه منافق ، لا تظن إن أغلقت على نفسك الأبواب ، وأرخيت على نفسك الستور، وغلَّقت على نفسك النوافذ ، وبارزت الله بالمعصية بعيدًا عن أعين

(١) تقدم

الناس ، إياك أن تظن أن الله ـ جَلَّ وَعَلا ـ لن يهتك سترك ، ولن يكشف أمرك بين الناس إن كنت مصرًّا على هذه المعصية ، أما إن زلَّ الإنسان في معصية بينه وبين ربه ، وقد غلَّق على نفسه في حياء ، وهو خَجِلٌ من الله تعالى ؛ بل ويخشى أن يهتك الله ستره ، ويفضح الله أمره ، وأحدث لله توبةً بعد الذنب ؛ فشتان بين هذا العبد وبين ذاك المجرم الذي يبارز الله بتلك المعصية ؛ بل وإن أصبح عليه الصباح هتك ستر الله ؛ وجهر بمعصية الله ـ جلَّ وعلا.

قال المصطفى ﷺ : « كُلُّ أُمَّتِي مُعَافى إِلاَّ المجَاهِرِينَ ، وَإِنَّ مِنَ المُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحُ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ ، فَيَقُولُ : يَا فُلاَنُ ! عَمِلْتُ البَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا ، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ »[1].

اللهم استر علينا في الدنيا والآخرة ، برحمتك يا أرحم الراحمين .

فالقرآن المدنيُّ يبين لنا صفات المنافقين ، حتى كأنك تراهم أشخاصًا حَيَّةً تتحرك بين يدك وأمام عينيك ؛ قال تعالى : ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾[التوبة : ٦٧] .

وقال تعالى في صفة المنافقين : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الآداب ، باب ستر المؤمن على نفسه (٦٠٦٩) ، ومسلم ، كتاب الزهد والرقائق ، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه (٢٩٩٠) .

ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠، ٦١].

فأهل النفاق يصدُّون عن دين الله، ويُعْرِضُون عن التحاكم إلى دين الله؛ أما المؤمنون فشعارهم: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

[النور: ٥١]

فمن أخبثِ صفاتِ المنافقين؛ أنهم يَصدُّون عن شرع الله، ويعرضون عن التحاكم لرسول الله ﷺ؛ فلتنظر كلُّ نفسٍ أين هي من الإيمان، وأين هي من النفاق ؟!

فربما امتلأت القلوبُ بالنفاق وأصحابها لا يشعرون !!.

فالنفاق جرثومةٌ خبيثةٌ خطيرةٌ كانت من أخطر العقبات التي صادفت الدعوة إلى الله ﷻ في المدينة؛ فنزل القرآن المدنيُّ ليبين أهم صفات وسمات المنافقين حتى لكأنك ترى المنافقين قد تحوَّلوا إلى شخوص حية تتحرك أمام عينيك وبين يديك، من كثرة مبالغة القرآن في وصف المنافقين؛ نسأل الله أن يطهر الصف المسلم منهم، بمنه وكرمه، إنه على كلِّ شيء قدير.

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا

ﭐللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴾ [الأحزاب : ١٢] .

فقلوبهم تمتلئ غيظًا في كل زمان ومكان على الدعوة وعلى حاملي ألوية الدعوة إلى الله ، كيف لا ؟ وقد امتلأت قلوبهم حقدًا على صاحب الدعوة ، وحامل لوائها ، وحامل تيار نورها ؛ بأبي هو وأمي ﷺ ، وشكَّل هؤلاء المنافقون الخبثاء خطًّا رهيبًا من خطوط العداء مع اليهود على الإسلام وأهله .

والله ﷻ يبين حال النبيِّ ﷺ والمؤمنين معه في غزوة الأحزاب ؛ فيقول : ﴿ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴾

[الأحزاب : ١٠ - ١٢]

وقد قال تعالى في حق هؤلاء الخبثاء محذِّرًا المؤمنين منهم : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةٗ مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٨] .

إنها آياتٌ واضحةٌ لمن يعقل كلام الله ﷻ .

وقال تعالى : ﴿ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٣٨] .

انظر التبكيت لهم في قوله : ﴿ بَشِّرِ ﴾ .

ويقول تعالى في حقهم : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

[المنافقون : ١ : ٣]

أي: لا يفقهون عن الله ولا عن رسول الله ﷺ .

ويصف الله - عَزَّ وَجَلَّ - هيئتهم بدقة ؛ فيقول : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾

[المنافقون : ٤]

وقال تعالى : ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة : ٦٤] .

وصل الأمر إلى هذا الحد ، لما توالت آيات القرآن المدني ؛ لتبين صفات المنافقين الخبيثة ؛ فلقد كان المنافقون بعد ذلك يحذرون أن يتكلَّموا أو أن يُظهروا شيئًا ؛ لأنهم رأوا القرآن قد فضح كلَّ أسرارهم ؛ فهم يخشون أن تتنزل على رسول الله ﷺ سورة تنبئه بما في قلوبهم ، فيما لم يظهر بعد على ألسنتهم وعلى صفحات وجوههم .

نسأل الله ﷻ أن يقينا من شر النفاق ، وأن يطهر قلوبنا منه بفضله ومنِّه وكرمه - جَلَّ وَعَلا .

ثالثا : التصدِّي لموقفِ أهل الكتاب من الرسالة الخاتمة :

وأهل الكتاب في المدينة يتمثلون في اليهود والنصارى ؛ فنزل القرآن المدنيُّ ليرد على اليهود والنصارى ، ويقيم عليهم الحجة ويجادلهم ، ويبين لهم أن هذا النبيَّ هو النبيُّ الذي بشَّرت به كتبهم ، وهم يعرفونه تمام المعرفة ، ويعلمون يقينًا أنه خاتم النبيين والمرسلين ، وهو الذي كان اليهود يمتنون به على الأوس والخزرج ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين .

والآيات في ذلك كثيرة جدًّا .

قال الله ﷻ : ﴿ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ﴾ [آل عمران : ١٨١] .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : ٦٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٦٥، ٦٦] .

إلى آخر الآيات الكثيرة التي شنَّ الله ﷻ فيها حملةً ضاريةً على هؤلاء الخبثاء المجرمين ممن مسخهم الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ قردة وخنازير .

أما النصارى ؛ فكانت نكبتهم ومصيبتهم الكبرى في انحرافهم عن عقيدة التوحيد الخالصة ؛ فطوائف النصارى كلُّها : الملكية واليعقوبية

والنسطورية ؛ كلُّهم زلُّوا في هذا المعتقد ؛ فنسبوا عيسى ابنًا لله ، ومنهم من جعل عيسى إلهًا من دون الله ، ومنهم من قال: عيسى إله ، وابن للإله في آن واحد !! كيف ذلك ؟ قالوا : هو ناسوت ولاهوت ؛ ناسوت من جنس أمه ، ولاهوت من جنس أبيه! كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبًا ؛ فالله ﷻ إلهٌ واحدٌ ، لا والد له ، ولا ولد له ، ولا زوج له ، ولا شريك له ، ولا ابن له ؛ قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾ [الإخلاص] .

فنزل القرآن المدنيُّ ليدحضِ هذه العقيدة الفاسدة الباطلة ؛ كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] .

ومثل قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة : ١٧]

ومثل قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣٠] ، ومثل قوله تعالى : ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ۝ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء : ١٥٧، ١٥٨] .

إلى آخر هذه الآيات التي نزلت لتحذِّر كذلك المسلمين من اتخاذ

اليهود والنصارى أولياء من دون الله ؛ كقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة: ٥١] ، ومثل قوله تعالى : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾

[البقرة : ١٢٠]

ومثل قوله تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة:١٠٩].

وأختم بآخر خصيصة من خصائص القرآن المدني ؛ ألا وهي :

رابعًا : ما يتعلق بالواقع العملي :

تعلمون أن الواقع في المدينة قد اختلف كثيرًا عن الواقع في مكة ؛ فلقد كان الأمر في مكة لأهل الشرك ولصناديد الكفر ، أما في المدينة ؛ فلقد كان الأمر بيد رسول الله ﷺ وبأيدي المؤمنين بها ، وجابه المسلمون المشركين في غزوات طويلة ؛ بل وهزم المسلمون المشركين في غزوة بدر ، وفي غيرها من الغزوات ، لذا نزلت آيات القرآن المدنيّ تركزُ تركيزًا جليًّا واضحًا من ناحية الواقع العملي على تحويل النظام الشرعي وخصائص الإسلام في حياة هذا المجتمع إلى واقع عمليٍّ ، وإلى منهج حياة ؛ بخلاف الآيات المكية التي نزلت لتجابه واقعًا مريرًا فيه الظلم ، وفيه العداء من قِبل المشركين في مكة الذين يحُولون بين رسول الله ﷺ وبين دعوته إلى دين الله ﷻ .

الناسخ والمنسوخ

لقد ذكر الإمام القرطبيُّ [(١)] ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه القيم « الجامع لأحكام القرآن » تلخيصًا بديعًا لهذه المسألة عند قول الله تعالى في سورة البقرة : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة :١٠٦] .

فذكر ـ رحمه الله تعالى ـ عند هذه الآية خمس عشرة مسألة ، سأقتصر على بعضها ، وأرجو الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أن تتضح هذه القضية :

المسألة الأولى : قول الله ﷻ: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

سبب نزول هذه الآية : اليهود ـ عليهم لعائن الله ـ فاليهود قد ناصبوا رسول الله ﷺ العداء منذ اللحظات الأولى للهجرة ، مع أنهم كانوا يفخرون ببعثة هذا النبي المنتظر على المشركين وعلى الأوس والخزرج خاصة في المدينة ، وهم الذين ملؤوا الدنيا ببعثة هذا النبي ، كما قررت التوراة ذلك ، ويقولون للأوس والخزرج : سوف يخرج هذا النبي ، وسوف نقتل به المشركين قتل عاد وإرم ، فلما بُعِثَ النبيُّ ﷺ من العرب ، من غير اليهود ، ومن غير جنس اليهود ، حقدوا عليه وحسدوه ، ونقموا عليه ، وناصبوه العداء منذ هذه اللحظات الأولى .

---

(١) « الجامع لأحكام القرآن » (٢ / ٤٣) وما بعدها بتصرف في المعنى ، وانظر : « الإتقان » (٣٢٦) وما بعدها .

ففي أول يوم وصل فيه النبيُّ ﷺ إلى المدينة ذهب إليه حييُّ بن أخطب مع أخيه أبي ياسر بن أخطب ؛ فلما نظرا في وجه النبي ﷺ عرفه حيي بن أخطب ؛ فقال له أبو ياسر : أهو ؟ قال حيي : إي والله ، إنه لهو ؛ فقال أبو ياسر : أهو النبي الذي كنا ننتظر؟ قال حيي : إي والله . إنه لَهُوَ ، قال : أتعرفه بصفته ؟ قال : نعم ، أعرفه بصفته ، قال : فما الذي في نفسك عليه ؟ قال : عداوته ما بقيت أبدًا [(١)] مع أنه هو الذي أقرَّ لأخيه بأنه هو النبي المنتظر ـ اتبعه لتسعد في دنياك وأخراك ـ ولكنه الحقد !!! .

وقد سبق حديث عبد الله بن سلام وإسلامه بعد أن سأل رسول الله ﷺ ؛ فهُم يعرفون محمدًا ﷺ ، وما أجملَ ما قاله عبد الله بن سلام : « والله إنِّي لأقرُّ لمحمد ﷺ بالنبوة أكثرَ مما أقر لابْنِي بالبنوَّة »[(٢)]

وصدق الله إذ يقول : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة :١٤٦] .

فاليهود تفنَّنوا في إيذاء النبي ﷺ ، وأرادوا أن يشكِّكوا الناس في المدينة والعرب من حولهم أنه ليس نبيًّا من عند الله ، ومن بين هذه القضايا التي استغلوها استغلالًا سيِّئًا للتشكيك والطعن في نبوة النبيِّ ﷺ : هذه الحادثة الكبيرة ؛ ألا وهي: حادثة :تحويل القبلة ؛ تعلمون أن

---

(١) انظر : « سبل الهدى والرشاد » (٣/ ٣٧٧ ، ٣٧٨) .

(٢) انظر « أسباب النزول » للواحدي (رقم : ٧٥) ، ولفظه : « لأنا كنتُ أشدُّ معرفةً برسول الله ﷺ مِنِّي بِابْنِي » ، وعزاه في « الدر المنثور » (لسورة البقرة: ١٤٦) للثعلبي في « تفسيره » من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن ابن عباس ، وراجع : «العجاب في بيان الأسباب» لابن حجر (١ / ٣٩٩) ط ابن الجوزي .

النبيِّ ﷺ كان يصلِّي إلى بيت المقدس ـ أسأل الله أن يطهِّره وأن يردَّه إلى الأمة ردًّا جميلًا ـ وكما قيض له من قبل صلاح الدين ؛ فأسأله أن يرزق الأمة الصلاح ، لتكون مؤهلةً لصلاح الدين ، إنه وليُّ ذلك ومولاه .

فكان ﷺ يتَّجِهُ في الصلاة إلى بيت المقدس ، ثم تمنَّى على الله ﷻ دون أن يتلفظ ، أن يحوِّل الله القبلة إلى بيت الله الحرام ، وكان يقلِّب وجهه في السماء ، يرجو الله ﷻ أن يحوِّل قبلته من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام ، فأوحى الله ﷻ إليه أن يتحول في صلاته من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام ؛ فاستدار النبيُّ ﷺ وهو راكعٌ في الصلاة ؛ فتوجه الصحابة جميعًا معه ﷺ إلى الكعبة [1] .

إنه السمع والطاعة الذي لم ولن نجد له مثيلًا في تاريخ البشرية كما فعله أصحاب سيد البشرية ﷺ ، ونزل قول الله ﷻ : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة:١٤٤] .

فلما استدار النبيُّ ﷺ إلى بيت الله الحرام ، تلقف اليهود هذه الحادثة ، وشنَّعوا تشنيعًا لا مثيل له ؛ قالوا : لو كانت القبلة الأولى حقًّا ثم تحوَّل عنها محمد ﷺ ؛ فلقد ترك الحق وتحوَّل إلى الباطل ، ولو كانت القبلة الأولى باطلة ثم تحوَّل عنها إلى غيرها ؛ فإن عبادتكم طيلة الأيام الماضية

---

(١) أخرجه البخاريُّ ، كتاب التفسير (٤٤٨٦) ، ومسلم ، كتاب المساجد ، باب تحويل القبلة من القدس إلى الكعبة (٥٢٥) عن البراء .

باطلة، ولو كان محمد نبياً من عند الله حقًّا ما ترك قِبْلَة الأنبياء من قبله؛ لأن الأنبياء من قبله صلُّوا جميعاً إلى بيت المقدس، وما فعل اليوم شيئًا تحوّل عنه غدًا؛ فنزل قول الله ﷻ: ﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٢، ١٤٣].

فهذا هو الحكم الناسخ لما كان عليه فعل النبيِّ ﷺ مع أصحابه، فالمنسوخ صلاته إلى بيت المقدس، والحكم الناسخ أن يصلي إلى المسجد الحرام.

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ

ﵟٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَﵞ[البقرة:١٤٥- ١٥٠].

إذن لما نزلت هذه الآيات حَسَدَ اليهود المسلمين في التوجه إلى الكعبة ، وطعنوا في الإسلام ، وشكَّكوا في نبوة النبيِّ ﷺ ؛ وقالوا : إن محمدًا يأمر أصحابه اليوم بشيء ثم يخالفه غدًا ؛ فأراد الله ﷻ أن يبين الحكم ، فنسخ ـ بنص القرآن ـ الأول ؛ ألا وهو : التوجه إلى بيت المقدس بحكم جديد ، ألا وهو التوجه إلى بيت الله الحرام ، ونزل قوله تعالى : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة : ١٠٦] .

ثانيًا : معرفة الناسخ والمنسوخ من العلوم المهمة جدًّا لمن أراد أن يتكلَّم في كتاب الله ﷻ ولا ينكر فضل علم الناسخ والمنسوخ إلا جاهل .

دخل عليٌّ ﷺ المسجد يومًا ؛ فوجد قاصًّا يقص ، ويخوف الناس ؛ فقال عليٌّ : ما هذا ؟ فقالوا : رجل يذكر الناس ؛ فقال علي : ليس برجل يذكر الناس ، ولكنه يقول : أنا فلان ابن فلان فاعرفوني ، فأرسل إليه علي ، وقال له : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا ، قال : فاخرج من مسجدنا ،ولا تذكر فيه مرة أخرى [١] .

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٥ / ٢٩٠) ، وعبد الرزاق (٣ / ٢٢٠) ، وأبو خيثمة في « العلم » (١٣٠) ، والنحاس في « الناسخ والمنسوخ » (٤٩ ، ٥٠) ط الفلاح ، وابن الجوزي في «نواسخ القرآن» (٢٩ ، ٣٠) ط الكتب ، والبيهقي في «الكبرى» (١٠ / ١١٧) ، والحربي في=

وفي رواية أخرى قال له : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : لا ! قال : هلكت وأهلكت [1] .

فمن أراد أن يتكلم في القرآن ، فلا بد أن يكون ملمًّا بناسخه ومنسوخه ؛ حتى لا يستدل بمنسوخ ، ويشوش به على الناس ، وهو لا يعلم أن هذا قد نسخ .

= « غريب الحديث » (٣/ ١٠٤٤) (ط جامعة أم القرى) عن علي رضي الله عنه . وقال الألباني : إسناده صحيح على شرط الشيخين . في تحقيقه كتاب العلم ، وأخرجه الطبراني في « الكبير » عن ابن عباس ، وانظر : « مجمع الزوائد » (١/ ٣٨٥) .

(١) وكان القصاص قبل ذلك قد انتشروا انتشارًا واسعًا يرهبون الناس بالضعيف والموضوع والباطل ، وما زالت الأمة تعاني من هؤلاء وأمثالهم إلى اليوم ؛ فإننا نسمع اليوم على المنابر ، وفي المحاضرات كلامًا يكاد يخلع القلب ـ وإنا لله وإنا إليه راجعون ـ فهذا لا ينبغي ؛ فلا يجوز لك أن تتكلَّم عن الله وعن رسول الله ﷺ إلا بعلم ؛ وإلا فأنت أحد الكذابين ـ أسأل الله لي ولكم العافية . ونوح بن أبي مريم ألف في كل سورة من سور القرآن مجموعة أحاديث في فضل هذه السور ؛ فقيل له : ألم تقرأ حديث رسول الله ﷺ « مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » (*). فقال أنا لم أكذب عليه ؛ وإنما كذبت له ، رأيت الناس قد انشغلوا بكتاب المغازي لمحمد بن إسحاق وبفقه أبي حنيفة ، فأردت أن ينشغل الناس بالقرآن !! وألَّف في فضل السور أحاديث ونسبها للنبي ﷺ (*)(*).

فلا ينبغي أن يتكلَّم أحد عن الله وعن رسول الله إلا بعلم ويكفي أن تعلم أنك إن تكلمت عن الله وعن رسول الله بغير علم ؛ فأنت كما قال ابن القيم مُوَقِّع ؛ كما سمَّى كتابه : « إعلام الموقعين عن رب العالمين » ، ولا تتكاسل ؛ ابحث وسل ونقِّب واعرف الحق ؛ فإن كنت لا تستطيع ولا تعلم فلا تتكلَّم ، ولا تنسب الكلام لله ولا لرسول الله ﷺ ، وإن سئلت ؛ فمن السنة أن تقول : لا أدري ! إن كنت لا تدري .

========

(*) أخرجه البخاريُّ ، كتاب العلم ، باب إثم من كذب على النبي ﷺ (١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٠) عن علي والزبير وأنس وأبي هريرة رضي الله عنهم ، ومسلم في المقدمة ، باب تغليظ الكذب على رسول الله ﷺ (٢ ، ٣ ، ٤) .

(*)(*) انظر : « التقييد والإيضاح » للعراقي (١١٠) ط الكتب العلمية ، بتصرف .

المسألة الثالثة : أن النسخ في لغة العرب يكون على وجهين .

الأول :النسخ بمعنى النقل ، أقول : نسخ فلان هذا الكتاب ، أي من كتابٍ آخر ، فتكون بمعنى النقل ، وعلى هذا يكون القرآن كلُّه منسوخًا من اللوح المحفوظ إلى القرآن .

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٩] أي: نأمر بنسخه وإثباته .

الثاني : الإبطال والإزالة ، وهو المراد في هذه المسائلة ، وهو منقسمٌ في اللغة على قسمين :

الأول : إبطال الشيء وزواله وإقامة آخر مقامه ، ومنه أن تقول :

نَسَخَتِ الشمسُ الظلَّ ، أي : أذهبت الشمسُ الظلَّ ؛ فالنسخ هنا بمعنى : الإزالة وهو معنى قول الله ﷻ : ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة : ١٠٦] .

وفي «صحيح مسلم» : « لَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ قَطُّ إِلَّا تَنَاسَخَتْ »[1] .

فالنسخ في هذه الآية بمعنى الإزالة ، والتحول من حال إلى حال ، وجاء هذا النبي للأمة بحكم بعد حكم ؛ فقد ينسخ النبيُّ ﷺ حكمًا ويأتي بجديد ، بحسب حال المدعوين ؛ بشرط أن يكون الناسخ لهذه الأمة هو نبيها بوحيٍّ من الله الذي بعثه وأرسله .

الثاني : بمعنى إزالة الشيء دون أن يقوم شيء آخر مقامه ؛ كأن تقول :

---

(١) أخرجه مسلم ، كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦٧) .

نسخت الريح الأثر ؛ أي أزالت الريح أثر الأقدام ، ومن هذا المعنى قول الله تعالى : ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [الحج : ٥٢] .

أي : يزيله فلا يتلى ، ولا يثبته الله في المصحف ، أي : يزيل الله ﷻ ما يلقيه الشيطان ، ولا يبقيه تلاوةً ولا حُكمًا .

المسألة الرابعة : هناك من المسلمين من أنكر قضية النسخ ، فلم يفهم النسخ ، ولم يعِ المراد (يقول القرطبي) : وهو محجوجٌ بإجماع سلف الأمة على وقوع النسخ في الشريعة ، وهو من باب نقل العباد من عبادة إلى عبادة ، ومن حكم إلى حكم ؛ لضرب من المصلحة إظهارًا لحكمة الله ، وكمال مملكته ، ولا خلاف بين العقلاء أن شرائع الأنبياء قصد بها مصالح الخلق الدنيوية والدينية ، وهؤلاء الذين ينكرون النسخ من اليهود لا يفرقون بين النسخ والبداء ، ويقولون : هما شيءٌ واحدٌ ! والبداء معناه : أن الله ﷻ يبدو له شيءٌ ما ، ثم يبدو له بعد ذلك أنه لا يصلح فعل هذا الشيء ؛ فينسخه الله ـ تبارك وتعالى !! فهذا لا يصلح أن يكون مع الله ، ولكن يصلح أن يكون مع الخلق لنقصهم ؛ كأن تقول مثلًا : لقد عقدت النية أن أزرع السنة هذه القطعة من الأرض قطنًا ، ثم تجلس بعد ذلك فيبدو لك أن تزرعها خضارًا ؛ فهذا يصلح للخلق ، ولا يصلح لله ﷻ .

فالبداء هنا بمعنى يختلف .

يقول الإمام القرطبيُّ رحمه الله : وإنما كان يلزم البداء لو لم يكن الله عالمًا بمآل الأمور ! فالله ﷻ يعلم ما كان ، وما هو كائن ، وما سيكون ؛ فلا

ينبغي أبدًا لأحد أن يقول بأن الله أراد أن يفعل شيئًا ثم بدا له أنه لا ينبغي أن يفعل هذا الشيء فنسخه !! لا ، فهذا لا يكون مع الله تعالى ، وكان يلزم البداء لو لم يكن عالمًا بمآل الأمور ، أما العالم بذلك ، فإنما تتبدل خطاباته بحسب تبدل المصالح ؛ كالطبيب الذي يراعي أحوال العليل ، فراعى الله ﷻ ذلك في خليقته بمشيئته وإرادته لا إله إلا هو ؛ فخطابه يتبدل ، وعلمه وإراداته لا تتغير ؛ فإن ذلك محال في حق الله تعالى .

المسألة الخامسة : اختلف علماؤنا في الأخبار ، هل يدخلها النسخ ؟

والجمهور على أن النسخ لا يكون في الأخبار ، وإنما يكون في الأوامر والنواهي ؛ لأنه يحال الكذب على الله سبحانه وتعالى ، فما أخبر الله ﷻ عن شيء إلا وقع كما هو ؛ لأن الذي يخبر هو العليم الذي يعلم ما سيكون إلى أن يرث الله الأرض ومَنْ عليها .

فجمهورُ أهلِ العلم على أن النسخَ لا يكون إلا في الأوامر والنواهي ، والخبر لا يدخله النسخ لاستحالة الكذب على الله .

وهناك مسألةٌ لطيفةٌ جميلةٌ جدًّا ، وقف عندها علماء الأصول ، وقالوا : ما قولكم لو كان الخبر متضمنًا لحكمٍ شرعيٍّ (يتضمن أمرًا أو نهيًا) ؟.

فرد علماؤنا وقالوا : قد يقع النسخ في هذا الجزء المتضمن للحكم الشرعيِّ في الخبر ؛ كما في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [النحل : ٦٧] .

فالآية خبر ؛ لكن فيها حكمٌ شرعيٌّ ؛ فقد ينسخ هذا الحُكْم بدليل

ناسخ؛ لأن الآية ليست خبرًا فحسب ، ولكنها خبرٌ متضمنٌ لحكمٍ شرعيٍّ .

المسألة السادسة : التخصيص من العموم قد يوهم بعض أهل العلم أنه نسخ وليس كذلك ؛ فقد يأتي حكم عام ، ثم يأتي مخصص لهذا الحكم العام ، أو يأتي حكم مطلق ، ثم يأتي حكم مقيد لهذا الحكم المطلق ، فقد يفهم بعض أهل العلم من الحكم الذي قُيِّدَ أو الذي خُصِّصَ بأنه نسخ ! وليس كذلك ، وهذا لاشك يحتاج إلى معرفة جادة وتامة بالمطلق والمقيد ، والعام والخاص ، والناسخ والمنسوخ .

المسألة السابعة : وهي اختلاف العلماء في نسخ القرآن بالنسبة باعتبارها وَحْيًا من عند الله تعالى ؛ كما قال في قوله تعالى : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ١ - ٤] .

ولقوله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الحشر : ٧] .

ويقول النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيح [١] الذي رواه الترمذيُّ وأبو داود وغيرهما عن المقدام بن معد يكرب : « أَلاَ إِنِّي أُوتِيْتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ... » .

ففريق قال : بأن السنة قد تنسخ آيةً من الآيات أو حكمًا من الأحكام .

---

(١) سبق تخريجه .

واستدلوا على ذلك ببعض آيات المواريث التي بينها القرآن بقول النبيِّ ﷺ: « لا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ »[1].

وهذا قول مالك رحمه الله.

وخالفه غيره من الأئمة كالشافعي وأبو الفرج المالكي، وقالوا: لا يصح أن تنسخَ السنةُ حكمًا من أحكام القرآن؛ فلا يُنسخ القرآن إلا بقرآن، قال: والأول أصح.

أمَّا نسخُ السُّنَّة بالقرآن؛ فهذه مسألة لا إشكال فيها؛ كمثال تحويل القبلة - كما ذكرت آنفًا - وهكذا، وهذا كلُّه في مدة النبيِّ ﷺ وفي حياته ﷺ؛ أما بعد موته واستقرار الشريعة؛ فلقد أجمعت الأمة أنه لا نسخ لا في كتاب الله ولا في سنة رسوله، ولا ينبغي أبدًا أن يأتي إجماع بعد ذلك لينسخ آية من القرآن أو دليلًا من السنة، وإنما ذلك كلُّه في حياة المصطفى ﷺ.

يقول القرطبيُّ - فتأمَّلْ هذا فإنه نفيس: وقد يكون من باب النسخ، نسخ الحكم دون التلاوة، وضرب على ذلك مثالًا بقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗ﴾

[المجادلة: ١٢]

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الوصايا، باب ما جاء في الوصية للوارث (٢٨٧٠)، وفي كتاب الإجارة، باب في تضمين العارية (٣٥٦٥) والترمذي، كتاب الوصايا، باب ما جاء: لا وصية لوارث (٢١٢٠)، وقال: « حديث حسن صحيح »، وابن ماجه، كتاب الوصايا، باب ما جاء في «لا وصية لوارث» (١٧١٣)، وأحمد (٥/ ٢٦٧)، والبيهقي (٦/ ٢٦٤)، والطيالسي (١١٢٧)، وصححه الألباني في « الإرواء» (١٦٥٥).

فقد نسخ الحكم وبقيت الآية كما هي ، وقد يبقى الحكم وتنسخ التلاوة ؛ مثل : « والشَّيْخُ والشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا البَتَّة » [1] .

وقد ينسخ الحكم والتلاوة معًا كما في الحديث : « كُنَّا نَقْرَأُ عَلَى عَهْدِ النبيِّ ﷺ لَا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ فَهُوَ كُفْرٌ » [2] .

ويتضح لنا أن القضية ليست من الشُّبهِ التي ينبغي أن يتشدق بها من يريدون أن يطعنوا في كتاب الله سبحانه وتعالى ؛ فالشرع شَرْع الله ﷻ والدين دين الله ﷻ ولا يكون إلا ما شرعه الله ورسوله ﷺ .

المسألة الثامنة : والنسخ له طرق يُعْرَفُ بها ، منها : أن يكون في اللفظ ما يدل على النسخ ؛ كقوله ﷺ : « كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ فَزُورُوهَا » [3] .

ومنها : أن يذكر الراوي التاريخ ؛ مثل : أن يقول سمعت عام الخندق ، وكان المنسوخ معلومًا قبله . . وهكذا ، ومنها : نسخ حكم كذا بكذا ، ومنها أن تجمع الأمة على حكم أنه منسوخ ، وأن ناسخه متقدم . وهذا لا يعرفه إلا أهل العلم .

*****

---

(١) انظر : « تفسير ابن كثير » (١٠ / ١٦١) ، والنسائي في « الكبرى » (٧١٤٥) ، و « الموطأ » باب الرجم (٦٩١) . .

(٢) أخرجه البخاريُّ ، كتاب الحدود ، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت (٦٨٣٠) .

(٣) أخرجه مسلم ، كتاب الجنائز باب استئذان النبي ﷺ ربه ﷻ في زيارة قبر أمه (٩٧٧) .

فضل القرآن

أشرع بهذه الكلمات التي يجب أن تسطر بالنور لا بمداد من الذهب للإمام ابن القيم ﷺ في مقدمة كتابه المدهش « مدارج السالكين » [(١)].

يبين في مقدمة الكتاب المختصرة ببلاغة نادرة فضل القرآن الكريم ومكانة القرآن الكريم ؛ فيقول : « الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وأشهد ألا إلا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، رب العالمين ، وإله المرسلين ، وقيوم السماوات والأرضين ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، المبعوث بالكتاب المبين ، الفارق بين الهدى والضلال ، والغي والرشاد ، والشك واليقين ، أنزله الله لنقرأه تدبرًا ، ونتأمله تبصرًا ، ونسعد به تذكرًا ، ولنحمله على أحسن وجوهه ومعانيه ، ونصدق به ونجتهد على إقامة أوامره ونواهيه ، ونجتني ثمار علومه النافعة الموصلة إليه سبحانه من أشجاره ورياحين الحكَمِ من بين رياضه وأزهاره ، فهو كتابه الدال عليه لمن أراد معرفته ، وطريقه الموصلة لسالكها إليه ، ونوره المبين الذي أشرقت له الظلمات ، ورحمته المهداة التي بها صلاح جميع المخلوقات ، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب ، وبابه الأعظم الذي منه الدخول ؛ فلا يغلق إذا غُلِّقَتِ الأبواب ، وهو الصراط المستقيم الذي لا تميل به الآراء ، والذكر الحكيم الذي لا تزيغ به الأهواء ، والنُّزُلُ الكريم الذي لا يشبع منه العلماء ، لا

(١) « مدارج السالكين » (ص ٩ ، ١٠ ، ١١) ط دار الحديث .

تفنى عجائبه ، ولا تُقلع سحائبه ، ولا تنقضي آياته ، ولا تختلف دلالته ، كلَّما ازدادت البصائر فيه تأملًا وتذكيرًا زادها هداية وتبصيرًا ، وكلما بَجَسَت معينهُ فجَّر لها ينابيع الحكمة تفجيرًا ؛ فهو نور البصائر مِنْ عماها ، وشفاء الصدور من أدوائها وجواها ، وهو حياة القلوب ، ولذة النفوس ، ورياض القلوب ، وهو حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ، والمنادى بالمساء والصباح ، يا أهل الفلاح ، حي على الفلاح ، نادى منادى الإيمان على رأس الصراط المستقيم ؛ فقال : ﴿ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف : ٣١] .

أسمَعَ - والله - لو صادف آذانًا واعية ، وبصَّر لو صادف قلوبًا من الفساد خالية ، لكن عصفت على القلوب هذه الأهواء فأطفأت مصابيحها ، وتمكنت منها آراء الرجال فأغلقت أبوابها ، وأضاعت مفاتيحها ، وران عليها كسبها فلم تجد حقائق القرآن إليها منفذًا ، وتحكمت فيها أسقام الجهل فلم تنفع معها بصالح العمل ، واعجبًا لها ! كيف جعلت غذاءها في هذه الآراء التي لا تسمن ولا تغني من جوع ، ولم تقبل الاغتذاء بكلام رب العالمين ، ونصوص حديث نبيه ﷺ ، أم كيف اهتدت في ظلم الآراء إلى التمييز بين الخطأ والصواب ، وخفي عليها ذلك في مطالع الأنوار من السنة والكتاب ، وا عجبًا ! كيف ميَّزت بين صحيح الآراء وسقيمها ، ومقبولها ومردودها ، وراجحها ومرجوحها ، وأقرت على نفسها بالعجز عن تلقي الهدى والعلم مِنْ كلامِ مَنْ كلامه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الكفيل

بإيضاح الحق مع غاية البيان ، وكلام من أوتي جوامع الكلم ، واستولى كلامه على الأقصى من البيان ، كلا ؛ بل هي والله فتنة أعمت القلوب عن مواقع رشدها ، وحيَّرت العقول عن طرائق قصدها ، يُربِّي فيها الصغير ، ويهرم فيها الكبير ، وظنت خفافيش البصائر أنها الغاية التي يتسابق لها المتسابقون ، والنهاية التي تنافس فيها المتنافسون ، وتزاحموا عليها وهيهات !!

أين نور السُّهَى من شمس الضحى ؟

وأين الثرى من كواكب الجوزاء ؟

وأين الكلام الذي لم تُضمن لنا عصمة قائله بدليل معلوم ، من النقل المصدق عن القائل المعصوم ؟

وأين الأقوال التي أعلا درجاتها : أن تكون سائغة الاتباع من النصوص الواجب على كل مسلم تقديمها وتحكيمها والتحاكم إليها في محل النزاع ؟

وأين الآراء التي نهى قائلها عن تقليده فيها وحذَّر، من النصوص التي فرض على كل عبد أن يهتدي بها ويتبصر ؟

وأين المذاهب التي إذا مات أربابها فهي من جملة الأموات من النصوص التي لا تزول إذا زالت الأرض والسماوات ؟

سبحان الله ! ماذا حرم المعرضون عن نصوص الوحي واقتباس العلم من مشكاته من كنوز الذخائر ؟

وماذا فاتهم من حياة القلوب واستنارة البصائر ؟

قنعوا بأقوال استنبطتها معاول الآراء فكرًا ، وتقطعوا أمرهم بينهم لأجلها زبرًا ، وأوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورًا ، فاتخذوا لأجل ذلك القرآن مهجورًا » .اهـ .

ما أروع كلامه ! وما أجمل بيانه ! وما أحلى كلماته ! تحتاج كلُّ فقرة من هذه الفقرات إلى وقفةٍ ؛ أسال الله أن يرحم الإمام ابن القيم رحمةً واسعةً .

فالقرآن يكفي أن نعلم في فضله وشرفه على سائر الكلام ؛ أنه كلامُ الله ﷻ وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على كل الخلق ؛ فالقرآن كلام الله غير مخلوق ، ولك أن تتصور هذه المكانة وهذا الفضل

وقد قال النبيُّ ﷺ : « خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ » (١)

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في تعليقه على حديث عثمان : « ولا شك أن الجامع بين تَعَلُّم القرآن وتعليمه مكمل لنفسه ولغيره ، جامع بين النفع القاصر ، وبين النفع المتعدي » .

أي : نفع نفسه ، ونفع غيره .

يا من تظنُّون أن العمل للإسلام مسئولية الدعاة والشيوخ ؛ فمن طلابنا من حفظ القرآن كلَّه . ومنهم من حفظ نصف القرآن ، ومنهم من حفظ ربع القرآن ؛ لكن مَنْ مِنْ هؤلاء سمع هذا الحديث عن رسول

---

(١) سبق تخريجه .

الله ﷺ فشرع على الفور في مسجده الذي يصلِّي فيه إلى جوار بيته وجمع إخوانه من الكبار والصغار، وعقد لهم حلقة ليعلِّمهم فيها ما علَّمه الله من القرآن؛ ابتغاء مرضات الرحيم الرحمن - جلَّ وعلا.

كيف يكون الحال لو أن كلَّ واحدٍ منا علَّم ما عَلِم وحَفِظَ من كتاب الله جلَّ وعلا إلى غيره؟ والله لتغيَّر حالنا، واستقام أمْرُنا!

مَنْ الذي فكَّر في حديث رسول الله ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَة»[1]

فمن الذي تحرَّك قلبه امتثالًا لأمر نبيه المصطفى ﷺ - الذي يتغنى بحبه - فجاء على مجموعة من الكبار أو من الصغار، وقال: لابد أن أتخلَّص من هذا الحمل الثقيل، ومن هذه الأمانة العظيمة؛ فعقد جلسةً بعد الفجر أو بعد العصر، أو بعد المغرب، بحسب ما يتيسر لإخوانه الذين سيجلسون إليه ليؤدي هذه الأمانة الثقيلة التي حمَّلها إياه رسول الله ﷺ؛ فلا شك أن مَنْ يتعلَّم القرآن ويعلمه من جملة من عناهم الله تبارك وتعالى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وقال ﷺ كما في «صحيح مسلم»[2] من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ يقول النبيُّ ﷺ: «مَثَلُ المؤْمِنِ الذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الأُتْرُجَّةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ، وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ المؤْمِنِ الذِي لاَ يَقْرَأُ القرآنَ

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

كَمَثَلِ التَّمْرَةِ : لاَ رِيحَ لَهَا ، وَطَعْمُهَا حُلْوٌ ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ ، رِيحُهَا طَيِّبٌ ، وَطَعْمُهَا مُرٌّ ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الذِي لاَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ لا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا مُرٌّ » (*).

(*) وهذا النبيُّ ﷺ شبه المؤمن الذي يقرأ كتاب الله بالتفاحة ريحها طيب وطعمها طيب ، ثم شبه المؤمن الذي لا يقرأ بالتمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، رجلٌ آتاه الله القرآن فهجره :

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ [الفرقان : ٣٠] .

وقال ابن القيم (*): «الهجر للقرآن أنواع : هجر التلاوة ، وهجر السماع ، وهجر التدبر ، وهجر العمل به ، وهجر التحاكم إليه ، وهجر التداوي به » ؛ فلقد اتخذت الأمة القرآن مهجوراً ؛ بل سبحان الله تدخل كثيراً من البيوت فترى المصحف في علبة القطيفة الفخمة الضخمة الفضية أو اللذهبية وقد وضع على منضدة جميلة مزخرفة في غرفة الصالون ، كقطعه من قطع الأساس ، لا يقرأ فيه ، ويهْدى بهذه الشاكلة إلى سادة القوم ، وعِلْية الناس في المناسبات الرسمية ، وترى الواحد منهم يأخذ القرآن كهدية فينحني عليه ، كأنه عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو الذي هَجَرَ هذا الكتاب في الليل والنهار ، والأمة الآن قد اتخذت هذا الكتاب ليكتب على جدران المساجد ، أو ليحلِّي به النساءُ صدورهن في المصاحف الذهبية التي صنعت من الذهب ، أو ليقرأ هذا الكتاب على الأموات ، سبحان الله !! إن الله تعالى قال: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس : ٧٠] .

فالله ما أنزل هذا الكتاب ليكون مجرد كتاب للتلاوة فحسب ! أو ليكون مجرد كتاب تاريخ أو كتاب فلك أو طب ! كلا ، كلا ؛ بل ما أنزل الله هذا الكتاب إلا ليكون منهج حياة . . إلا ليقيم النبيُّ ﷺ به أمة . . إلا ليربي النبيُّ ﷺ به العقول والقلوب والضمائر والأخلاق ؛ قال تعالى :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد : ٢٤] .

لقد غلقت القلوب ووضعت عليها الأقفال تلو الأقفال ؛ فالأمة ـ إلا من رحم الله ـ تسمع القرآن الكريم منذ مئات السنين ! فالقرآن هو هو بآياته وكلماته وحروفه الذي حَوَّل رعاة الغنم إلى سادة وقادة لجميع الأمم ، هذا القرآن الذي أقام به النبيُّ ﷺ للإسلام دولة وسط صحراء تموج بالكفر . . القرآن الذي حول الحفاة العراة الغلاظ إلى قمم شماء ، لا زال بين أيدينا ، ولكن الأمة ـ إلا من رحم الله ـ يوم انحرفت عنه زلت ، وهانت ، وأصبحت قصعة مستباحة لعُبَّادِ البقر في الهند الذين يصبون الآن جام غضبهم على المسلمين في كشمير ، وأصبحت الأمة قصعة مستباحة لأنجس أمم الأرض من اليهود ، وتحكَّم في الأمة =

=======

(*) الفوائد (٨٤) بتصرف .

فكلام الله تعالى له تأثير في باطن العبد وظاهره ، وإن العباد متفاوتون في ذلك ، فمنهم من له النصيب الأوفر في ذلك التأثير الباطني والظاهري ، وهو المؤمن القارئ للقرآن ، العامل به فهذا صاحب النصيب الأوفر من التأثر بالقرآن ظاهرًا وباطنًا ، ومنهم من لا نصيب له البتة وهو المنافق الحقيقي ، ومنهم من تأثر ظاهره دون باطنه وهو المرائي؛ فالمرائي يعاقبه الله بضد قصده ونيته في الدنيا قبل الآخرة .

نسأل الله أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل ، اللهم لا تجعل

الضعيف قبل القوي، مع أن الأمة ليست ضعيفة ؛ فالأمة تملك كلَّ مقومات القوة بلا نزاع حتى السيولة المادية ، الأمة تملكها ، فضلاً عن المناخ ، فضلاً عن الموارد ، فضلاً عن الأعداد ، فضلاً عن الطاقة البشرية الهائلة ، فضلاً عن الوسطية لهذه الأمة ، الأمة تُسمى بمنطقة الشرق الأوسط ؛ فالأمة ليست ضعيفة ، ولكنها هُزمت يوم أن نحَّت كتاب الله، وأعداؤنا يعلمون تمام العلم أن الأمة لا كرامة لها إن نحَّت كتاب الله وإن هجرت كتاب الله جلَّ وعلا قالها جميع المستشرقين ؛ قالوا :لا يمكن أبداً لأوروبا أن تسيطر على الشرق الأوسط إلا إذا قضت على القرآن ، ويوم أن قام رجلٌ أرعن أحمق في مجلس العموم البريطاني ، وأمسك كتاب الله في يده ومزَّقه ، ثم داسه بالقدم ، وقف رئيس وزراء بريطانيا ليقول له : يا أرعن ! يا أحمق ! أنا ما قصدت أن يمزق القرآن كأوراق ، وإنما قصدت أن يمزق القرآن في قلوب الأمة ، ولا يتحول القرآن في واقع الأمة إلى منهج حياة ، وها نحن نقرأ القرآن . لكن الذي لا يقرأ القرآن من المنافقين كالريحانة طعمها مر ، وإن كان ريحها طيب ؛ فهذا هو واقع الأمة وحالها ، تسمع كلام ربها ليل نهار ، ولكن لا تمثل لأمره ، ولا تجتنب نهيه ، لا تقف عند حده ، فقد استبدلت الأمة بالعبير بعرًا ، وبالثريا ثرى ، وبالرحيق المختوم حريقًا محرقًا مدمرًا ، فأحرقها وأهانها ودمرها ؛ فمثل الأمة حين نحت القرآن كمثل الجُعل يتأذى من رائحة المسك الفواح ويسعد برائحة القذر والنتن في المُستراح ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

فوالله ثم والله لن ترى الأمة عزًّا ، ولن ترى الأمة كرامة ، ولن ترى الأمة سيادة ؛ إلا إذا فاءت من جديد إلى كتاب ربها ـ جلَّ وعلا ـ لتردد ما ردده الجيل القرآني الفريد أول مرة : ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة : ٢٨٥] .

أسأل الله أن يرد الأمة بزعمائها وأبنائها إلى القرآن رداً جميلاً ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

حظَّنا من ديننا قراءتنا وقولنا وأحسن نيتنا وأعمالنا يا رب العالمين .

فيعاقبه الله ﷻ في الدنيا بإظهار قصده ونيته ، فالمعاقبة بضدِّ القصد أمرٌ ثابتٌ شرعًا وقدرًا . أسأل الله ﷻ أن يعلِّمنا القرآن ، وأن يجعله نورًا لنا ، وأن يجعلنا من أهله ، وأن يرزقنا الإخلاص في قراءته ، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه .

فهذا شيءٌ يسيرٌ من فضل القرآن الذي قال الله فيه : ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء : ٩] .

كتاب الله سبحانه الذي جعله الله مصدر سعادةٍ للناس في الدنيا ، ومصدر نجاة وفلاح وفوز في الآخرة ، فمن اتبع هذا القرآن سَعِدَ ، ومن أعرض عنه شقي شقاوة لا يسعد بعدها أبدًا ؛ لا في دنيا ولا في آخرة ؛ وقال الله ﷻ : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٣ ـ ١٢٤] .

وهَدي الله هو القرآن ، وذكر الله هو القرآن ؛ كما قال سبحانه وتعالى .

وقد سردتُ فضائل القرآن من الكتاب والسنة في الصيام لمن أراد الرجوع إليه .

أسأل الله أن يردَّ الأمة إلى القرآن ردًّا جميلًا ، وأن يقر أعيننا وإياكم بتحكيم القرآن برحمته ، إنه أرحم الراحمين .

*****

منزلة القرآن الكريم بين كتب الله تعالى

إنَّ مما لاشك فيه ـ لدى العقلاء والفصحاء ـ أن للقرآن الكريم منزلة بين سائر الكتب الإلهية التي تقدمته في النزول ، وقد تتجلَّى هذه المنزلة العالمية للقرآن العظيم بإمعان النظر في النقاط التالية :

أولًا : كون القرآن ناسخًا لها لفظًا وحُكمًا ؛ فلا تُقرأ للتعبد ، ولا يُعمل بما فيها من شرائع وأحكام ، وذلك لِمَا داخلها من تحريف ، وما أصابها من تضييع ونسيان ، ولأنها كانت شرائع خاصة ببني إسرائيل ، أو موقوتة بزمن معين ، في الوقت الذي أنزل القرآن الكريم ليكون كتابًا للعالمين : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

ثانيًا : كونه مهيمنًا عليها رقيبًا شهيدًا ؛ فما صححه منها وأقره فيها صحَّ وقرَّ ، وما أبطله منها ونفاه لكونه دخيلًا عليه ليس منها بطل وانتفي ؛ كما جاء في قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة : ٤٨] .

ثالثًا : لتعهد الله ﷻ بحفظه إلى أن يرفعه إليه ، وليس ذلك لغير القرآن ؛ فقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر:٩] .

كما قال : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت :٤١، ٤٢] .

في حين أن الله ﷻ استحفظ الأمم السابقة على كُتُبِها : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا

ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ [المائدة:٤٤]

ولكنهم لم يحافظوا عليها ولم يحفظوها ؛ بل ضيَّعوها وحرَّفوها كما سبق .

أما القرآن فعلى مدى الزمان لم تستطع يد العدوان أن تحرف فيه شيئًا لا بزيادة أو نقصان .

رابعًا :اشتماله على كلِّ خير ، وإرشاده لكل كمال ، وهدايته إلى سعادة الدَّارين ؛ كما أن فيه الرحمة بأتم معانيها ، تلك التي تشمل الإنسان ، والجان ، والحيوان ، والكافر والمؤمن ، والحي والميت ، وفيه الشفاء التام العام لجميع الأمراض العقلية ، والنفسية ، والقلبية ، فيه الشفاء من الكفر ، والشرك ، والقلق، والاضطراب ، والحيرة ، والخوف ، والكبر ، والحسد ، والكسل ، والعجز، والبخل ، والشح ، والظلم ، والخوف ، كما قال تعالي :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الإسراء : ٨٢] .

خامسًا :فيه التبيان لكلِّ شيء مما يحتاج إليه الإنسان وتتوقف عليه سعادةُ الدنيا والآخرة ، وكذا الهداية الكاملة ، والرحمة التامة ، والبشرى بخيري الدنيا والآخرة ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[النحل :٨٩] .

سادسًا : فيه النور الكاشف لجميع الظلمات القلبية ، والمبدد لسائر

الجهالات النفسية ، والمبيِّن لسائر الحقائق والأسرار الكونية ؛ كما قال تعالى :﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء : ١٧٤]

وفيه الحق الإلهي الثابت في نفسه ، المحقق المثبت لغيره من كلِّ ما هو حق .

قال تعالى :﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء :١٠٥] .

قال تعالى :﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة :٤٨] .

أي : متلبسًا به ، مشتملًا عليه ، مؤيدًا له ومقررًا .

سابعًا : فيه الذكر الإلهيُّ الذي تحيا عليه القلوب ، وتطيب بتلاوته الأرواح ، وتزكو بالعمل به النفوس ؛ قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف :٤٤] .

وكذا الموعظة الداعية إلى اكتساب كل فضيلة ، والزاجرة عن كل رذيلة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٥٧] .

نعم .. رحمة وهداية للمؤمنين[١] .

ثامنًا : شموله لأصول الهداية البشرية وفروعها ، واحتواؤه على أعظم منهج ربانيٍّ يحقق السعادة في الدنيا والآخرة : « فالإيمان به يقتضي

(١) « عقيدة المؤمن » لأبي بكر الجزائري (ص ٢٤٠ – ٢٤٥) بتصرف .

امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وتحليل حلاله ، وتحريم حرامه ، والاعتبار بأمثاله ، والاتعاظ بقصصه ،، والعمل بمحكمه ، والتسليم لمتشابهه ، والوقوف عند حدوده ، وتلاوته آناء الليل والنهار ، والذب عنه لتحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، وتأويل الجاهلين ، والنصيحة له ظاهرًا وباطنًا بجميع معانيها »[1] .

ولِمَ لا ؟ وإن مَنْ يبتغي الحق ، ويريد الوصول إلى التعاليم الإلهية الصحيحة لا يجد أمامه غير القرآن الكريم ؛ فهو الكتاب الذي حفظت أصوله ، وسلمت تعاليمه ، وتلقته الأمة عن محمد ﷺ ، عن جبريل ، عن الله ، الأمر الذي لم يتوفر لكتاب مثله ، وأنه الجامع لأسمى المبادئ ؛ وأقوم المناهج ، وخير النظم ، والحافل بكلِّ ما يحتاج إليه البشر من حيث العقائد والعبادات والآداب والمعاملات ، والنظم ، وأنه الكفيل بخلق الفرد الكامل ، والأسرة الفاضلة ، والمجتمع الصالح ، والحكومة العادلة ، والكيان القوي الذي يقيم الحق والعدل ، ويرفع الظلم ، ويدفع العدوان ، وأنه الوسيلة الوحيدة لتحقيق الخلافة ، ووراثة الأرض[2] .

قال الله تعالى : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : ١٥ ، ١٦] .

---

(١) « معارج القبول » (٢ / ٧٨) بتصرف .

(٢) « العقائد الإسلامية » (ص ١٤٧ – ١٤٨) بتصرف .

تاسعًا : هذا القرآن هو الروح التي تتوقف عليه حياة الإنسان الفاضلة الكريمة ، وأن الناس بدونِ أن تسري فيهم الروح القرآنية أموات حقًّا لا ينتفعون بوجودهم ولا بحياتهم المادية ؛ قال تعالى في هذا : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢] .

ولكن من الذي ينتفع بالقرآن بما فيه من خير وهدى ونور وبيان ؟ إنهم مَنْ اتصفوا بهذه الصفات الأربع :

١ ـ الإسلام :

بأن يسلم المرء لله تعالى قلبه ووجهه ، طالبًا رضاه ، منفذًا لأوامره ، متجنبًا نواهيه ، وما يسخطه الله من اعتقاد وقول وعمل ؛ قال سبحانه :

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] .

٢ ـ الإيمان :

بأن يؤمن المرء إيمانًا عامًا بكل ما جاء به الرسول ﷺ ، ويؤمن إيمانًا خاصًّا بما في القرآن من الهدى والخير ، يحمله على تعرفه عليه ومدارسته والعمل بما فيه ؛ قال تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٥٧] .

٣ـ الإحسان:

بأن يحسن المرء في إيمانه وإسلامه ؛ فيعيش يراقب الله تعالى في كل ما يأتي ويذر ، وما يقدم وما يؤخر ، يراقبه في طاعته كما يراقبه في معصيته ويراقبه في محابه فيأتيها ، ومساخطه فيتجنبها ؛ قال تعالى :

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾

[لقمان : ٢ ، ٣]

٤ـ التقوى :

بأن يتقي الله تعالى في أن يشرك به أو أن يعصيه ، بترك ما أوجب عليه ، أو انتدبه إليه ، أو بفعل ما حرمه عليه ، أو كرهه له : ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة : ٢] .

وكلمة أخيرة :

إن من استكمل هذه الصفات ، وحققها فقد استوجب كلَّ ما في القرآن من خير وهدى ، وتحقق له ذلك كاملًا ، فحصل له الشفاء في صدره وبدنه ، والرحمة في قلبه ، والنور في بصيرته ، والذكر والموعظة في قلبه ، والبيان في لسانه ، والحق في حكمه ، والبشرى في حياته وآخرته .

وأما من لم يستكمل تلك الصفات ؛ فإنه لم ينتفع بما في القرآن من الهدى والخير، وليس ذلك عائدًا إلى أن القرآن نفد منه هداه وخيره اللذان كانا فيه ، وإنما هو عائد إلى عدم أهلية المرء للاستفادة منه ، وإن لذلك مثلًا نضربه : هو وجود مريض يوصف له دواء نافع ، ويقدم له ،

ولم يكلِّف نفسه مشقة تناوله ، فيبقى الدواء في خزانته ، ويبقى هو يعاني من آلام مرضه إلى أن يكره على استعمال الدواء فيشربه ، فيشفي من مرضه ، أو لا يُكْرهه أحدٌ على شربه واستعماله ، فيبقى يعانى من أسقامه وأوجاعه حتى يهلك بها ويموت .

فهل الذنب ذنب الدواء ؟ والجواب : لا ؛ إن الذنب ذنب المريض نفسه الذي لم يستعمل الدواء ، وهو بين يديه ؛ فكان حاله كحال من قال :

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول [1].ا هـ.

*****

(١) « عقيدة المؤمن » (ص ٢٤٦ - ٢٤٧) بتصرف ، و « حقيقة الإيمان » (٢ / ٨٢).

القرآن كلام الله غير مخلوق

مذهب أهل السنة ـ وهم السلف الصالح ـ أن القرآن كلام الله ، منه بدأ وإليه يعود بلا كيفية قولًا ، وأنزله على رسوله وحيًا ، وصدقه المؤمنون على ذلك حقًّا ، وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ، ليس بمخلوق ، ككلام البرية ؛ فمن سمعه فزعم أنه كلام البشر ، فقد كفر ، وقد ذمه الله وعابه وأوعده بسقر ؛ حيث قال تعالى : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر :٢٦]

فلما أوعد الله بسقر لمن قال : ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴾ [المدثر :٢٥] .

علمنا وأيقنا أنه قول خالق البشر ، ولا يشبه كلام البشر .

هذا كلام الطحاوي في « عقيدته »[1] ، وعلَّق عليه ابنُ أبي العز ، فقال : « هذه قاعدةٌ شريفةٌ ، وأصلٌ كبيرٌ من أصول الدين ، ضلَّ فيه طوائف كثيرة من الناس » .

وهذا الذي حكاه الطحاويُّ رحمه الله هو الحق الذي دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة لمن تدبرهما ، وشهدت به الفطرة السليمة التي لم تغير بالشبهات والشكوك والآراء الباطلة .

قال شيخ الإسلام[2] : « ومذهب سلف الأمة ، وأئمتها من الصحابة ،

---

(١) « شرح العقيدة الطحاوية » (١٢٨) .

(٢) « مجموع الفتاوى » (١٢ / ٣٧ ، ٣٨) .

والتابعين لهم بإحسان ، وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم ما دلَّ عليه الكتاب والسنة ، وهو الذي يوافق الأدلة العقلية الصريحة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ؛ فهو المتكلِّم بالقرآن والتوراة والإنجيل ، وغير ذلك من كلامه ، ليس ذلك مخلوقًا منفصلًا عنه ، وهو سبحانه يتكلَّم بمشيئته وقدرته ؛ فكلامه قائمٌ بذاته ، ليس مخلوقًا بائنًا عنه ، وهو يتكلَّم بمشيئته وقدرته ، لم يقل أحدٌ من سلف الأمة : إن كلام الله مخلوق بائن عنه !! ، ولا قال أحدٌ منهم : إن القرآن أو التوراة أو الإنجيل لازمة لذاته أزلًا وأبدًا !! وهو لا يقدر أن يتكلَّم بمشيئته وقدرته ، ولا قالوا : إن نفس ندائه لموسى ، أو نفس الكلمة المعينة قديمة أزلية !! بل قالوا : لم يزل الله متكلمًا إذا شاء ، فكلامُهُ قديمٌ بمعنى أنه لم يزل متكلمًا إذا شاء ،وكلمات الله لا نهاية لها ؛ كما قال تعالى :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف : ١٠٩] .

وقال شيخ الإسلام[(١)] :

«**فصل**» : ومن الإيمان بالله وكتبه : الإيمان بأن القرآن كلام الله منزل ، غير مخلوق ، منه بدأ ، وإليه يعود ، وأن الله تكلَّم به حقيقة ، وأن هذا القرآن الذي أُنزل على محمد ﷺ هو كلام الله حقيقة ، لا كلام غيره ، ولا

---

(١) انظر : « شرح العقيدة الواسطية » لابن عثيمين رحمه الله (٣٥٥ : ٣٥٩) .

يجوز إطلاقُ القولِ بأنه حكايةٌ عن كلام الله ، أو عبارة ، بل إذا قرأه الناس ، أو كتبوه في المصاحف ؛ لم يخرج بذلك عن أن يكون كلام الله تعالى حقيقة ؛ فإن الكلام إنما يضاف حقيقة إلى مَنْ قاله مبتدئًا ، لا إلى مَنْ قاله مبلغًا مؤديًا ، وهو كلام الله ؛ حروفه ومعانيه ، وليس كلام الله الحروف دون المعاني ، ولا المعاني دون الحروف » .

وقال الآجرى [1] : « اعلموا - رحمنا الله وإياكم - أن قول المسلمين الذين لم يزغ قلوبهم عن الحق ، ووَفِقُوا للرشاد قديمًا وحديثًا : أن القرآن كلام الله تعالى ليس بمخلوق ، لأن القرآن مِنْ علمِ الله ، وعِلْم الله لا يكون مخلوقًا ، تعالى الله عن ذلك . دلَّ على ذلك القرآن والسنة ، وقول الصحابة رضي الله عنهم وقول أئمة المسلمين لا ينكر هذا إلا جهميٌّ خبيث ، والجهميُّ عند العلماء كافر » .

وقال أبو عثمان الصابونيُّ [2] : « ويشهد أصحاب الحديث ، ويعتقدون أن القرآن كلام الله، وكتابه ، وخطابه، ووحيه ، وتنزيله ، غير مخلوق ، ومَنْ قال بخلقه ، واعتقده فهو كافر عندهم ، والقرآن الذي هو كلام الله ووحيه ، هو الذي ينزل به جبريل على الرسول ﷺ قرآنًا عربيًّا لقوم يعلمون ، بشيرًا ونذيرًا ، وهو الذي تحفظه الصدور وتتلوه الألسنة ، ويكتب في المصاحف ، كيفما تُصُرِّفَ بقراءةِ قارئ ، ولفظِ لافظ ، وحفظِ

---

(١) « الشريعة » (١ / ٢١٤) .

(٢) « عقيدة السلف الصالح أصحاب الحديث » (ص ٢٤ - ٢٥) .

حافظ ، وحيثُ تُلِي ، وفي أي موضع قُرئ ، أو كتب في مصاحف أهل الإسلام ، وألواح صبيانهم وغيرها ، كلُّه كلام الله ـ جَلَّ جلاله ـ وهو القرآن بعينه الذي نقول : إنه غير مخلوق ، فمَنْ زَعَم أنه مخلوق فهو كافر بالله العظيم » .

قال الحافظ أحمد الحكمي[1] :

والقَــوْلُ في كتابــهِ المفصَّـــل	بأنَّـــه كلامـــه المنـــزل
على الرَّسُولِ المصطفى خيرِ الورى	لَـيْسَ بمخلـوقٍ ولا بمفـترى
يحفـــظ بالقلـــب واللســـان	يُـتْلى كـما يُسـمع بـالآذان
كـــذا بالأبصـــار إليـــه ينظـــرُ	وبالأيـــدي خطـــه يُسَـطَّر
وكـــلُّ ذي مخلوقـــة حقيقـــة	دون كـلام بـارئ الخليقـة
جلَّــت صــفاتُ ربنــا الــرحمن	عـن وصـفها بـالخلق والحـدثان
فالصـوت والألحـان صـوت القـاري	لكـنـما المتلـو قـول البـاري
مـــا قالـــه لا يقبـــل التبـــديلا	كـلَّا ولا أصـدق منـه قـيلا

(والقول) الذي نعتقده وندين الله به (في) شأن (كتابه المفصل) (بسكون اللام) للورى ، وهو القرآن وصفه الله تعالى بذلك ؛ فقال : ﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود : ١] .

---

(١) « معارج القبول » (١ / ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٦) .

وقال تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ [فصلت : ٣] .

وقال تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ﴾ [الأنعام : ١١٤] .

وغير ذلك من الآيات (بأنه كلامه) حقيقة حروفه ومعانيه ، ليس كلامه الحروف دون المعاني ، ولا المعاني دون الحروف ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ﴾

[التوبة : ٦]

وقال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ [الفتح : ١٥] .

ثم سرد الأدلة وأقوال الصحابة والتابعين على ذلك .

إلى أن قال : « فهذه النصوص من الكتاب والسنة وإجماع الأمة على أن القرآن كلام الله تكلَّم به حقيقة ، وأنه هو الذي قال تبارك وتعالى : « آلم ، آلمص ، آلر ، آلمر ، كهيعص ، طه ، طس ، طسم ، حم ، عسق » وليس كلام الله المعاني دون الحروف ، ولا الحروف دون المعاني ؛ بل حروفه ومعانيه عين كلام الله ... إلى أن قال :

« ونحن وجميع أهل السنة والجماعة نُشهد الله الذي أنزله بعلمه وشَهِدَ به ، ونُشهد ملائكته الذين شهدوا بذلك ، ونُشهد رسول الله الذي أنزل عليه وبلَّغه إلى الأمة ، ونُشهد جميع المؤمنين الذين صدقوه

وآمنوا به أنا مؤمنون مصدقون شاهدون بأنه كلام الله ـ عز وجل ـ وتنزيله ، وأنه تكلَّم به قولًا ، وأنزله على رسوله ﷺ وحيًا . ولا نقول : إنه حكاية عن كلام الله ﷻ أو عبارة ؛ بل هو عين كلام الله حروفه ومعانيه ، نزل به من عنده الروح الأمين ، على محمد ﷺ خاتم المرسلين ، وكل منهما مبلِّغ عن الله ﷻ » انتهى .

*****

انتهى المجلد الثاني

ويتلوه ـ إن شاء الله ـ المجلد الثالث

وأوله : « الإيمان بالرسل »



فهرس
المجلد الثاني

فهرس المجلد الثاني

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | **الصفحة**

*****


www.ibtesama.com
مجلة
الابتسامة
www.ibtesama.com


Exclusive
For
www.ibtesama.com
حصريات مارس 2013